جامعة أم درمـان الإسلاميـة

كليـة الدراسات العليـا

كلية الآداب

قسم التاريخ والحضارة الإسلامية

أثر الدولة المملوكية الثانية

في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في بلاد الشام

(784هـ -923هـ / 1382م -1517م)

بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي

مقدم من الطالب

عبدالله موسى محمد النوافعه

إشراف

الأستاذ الدكتور السر سيد أحمد العراقي

للعام الدراسي

1437/1438هـ -2016/2017م

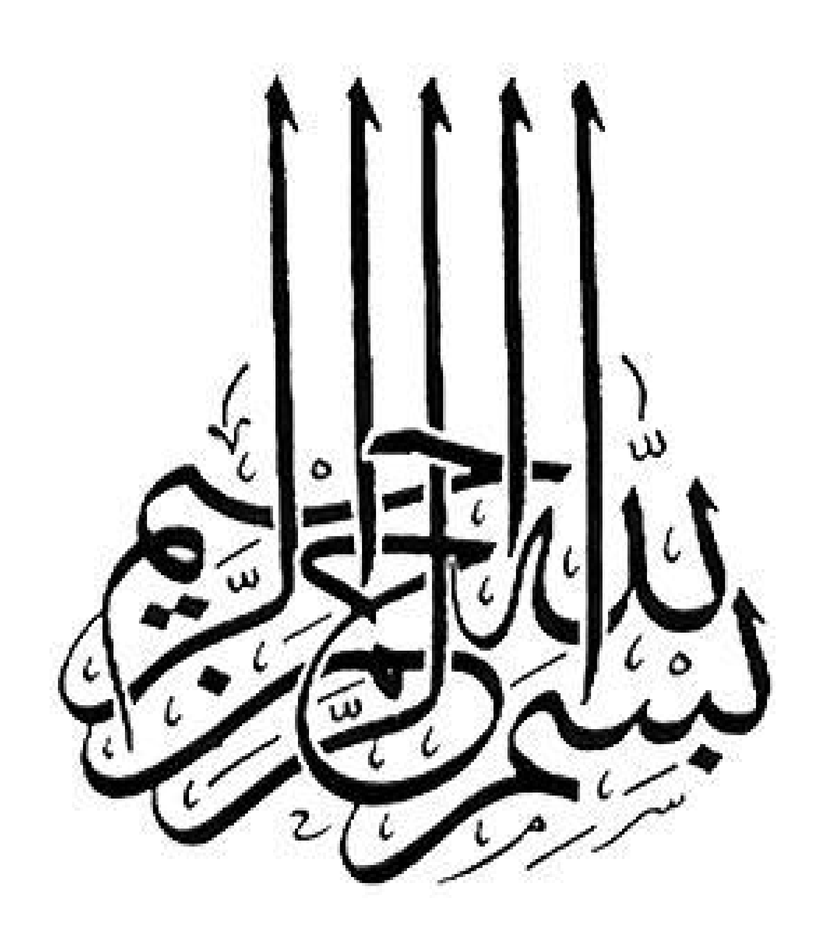
بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى روح والدي الطاهرة أسأل الله له الرحمة والمغفرة

إلى والدتي الحنونة أطال الله في عمرها مع وافر الصحة والعافية

إلى روح أخي غازي، في ذمة الله، الذي قضى فتياً في رحاب طلب العلم والمعرفة

إلى إبني لين والمعتصم

إلى عائلتي الكريمة

إلى أهلي الأعزاء

إلى إخواني وأحبتي الأوفياء

إلى كل أولئك الساهرين شوقاً إلى استجلاء الحقيقة

الباحث

الشكر والتقدير

لايسعني أولاً وبعد الانتهاء من كتابة هذه الرسالة إلا أن أتقدم بجزيل الشكر والتقدير، ووافر الامتنان والعرفان إلى الأستاذ الدكتور السر سيد أحمد العراقي، الذي أكرمني بقبول الإشراف على رسالتي، ومتابعته لي طوال فترة إعداد هذه الرسالة، كما كان لملاحظاته القيمة فضلٌ كبير في إثراء هذا البحث وإخراجه في هذه الصورة. وإلى الأساتذة لجنة المناقشة والحكم، الأستاذ الدكتور عبد الفتاح الكباش، والأستاذ الدكتور محمد سعد محمد سالم.

كما لايفوتني أن أتوجه بالشكر الجزيل إلى الأستاذ الدكتور عصام هزايمة أستاذ التاريخ الإسلامي في الجامعة الأردنية على الملاحظات القيمة التي أبداها أثناء إعداد خطة هذا البحث، وزميله في القسم الدكتور عبد الهادي أبو قاعود.

كما أقدم شكري وامتناني إلى الدكتور حسن شبانه على قراءته هذه الرسالة، وإخراجها بلغة نحوية سليمة.

وأقدم شكري إلى كل من زوجتي لبنى وأولادي المعتصم ولين وأشقائي أبو عماد وأبو زيد وأبو رامز وعلي وزوجاتهم، وكل من شقيقتي أم فايز وأم فرات على مشاركتهم إياي عنائي.

ولا يفوتني أن أشكر جميع الزملاء الذين ساهموا في استكمال هذه الرسالة، وبروزها بشكلها النهائي، وأخص بالذكر الأستاذ صالح الشحي مدير مدرسة درويش ابن كرم ، والأستاذ حمدتو يوسف حمدتو، والأستاذ حمدي شحاته، والأستاذ عبدالرحمن حسني، والأستاذ محمد اليماني.

فلكم مني جميعاً كل الحب والتقدير.

الباحث: عبدالله موسى النوافعه

المختصرات والرموز	
ص	صفحة
ج	جزء
م	مجلد
ق	قسم
ع	عدد
ط	طبعة
ت	توفي
ب.ت	بدون تاريخ نشر
ب.د	بدون دار نشر
ب.ط	بدون طبعة
هـ	هجري
م	ميلادي
*	إشارة بمثابة توثيق

فهرس المحتويات

المستخلص

باللغة العربية

تناول هذا البحث " أثر الدولة المملوكية الثانية في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في بلاد الشام (784-923هـ/ 1382-1517م)"، ومدى التغيرات التي طرأت عليها.

ويأتي أهمية هذا البحث في تكوين صورة كاملة عن الأوضاع السياسية، ومظاهر الحضارة في بلاد الشام في تلك الفترة التاريخية المهمة من تاريخ الأمة الإسلامية. وقد جاءت الدراسات السابقة لهذه الفترة بالتخصص في مجال واحد من مظاهر الحضارة. ومن هذه الدراسات: النظام العسكري في دولة المماليك، وأعراب بلاد الشام في عهد المماليك، والزراعة في بلاد الشام في العصر المملوكي، والقرية في بلاد الشام في العصر المملوكي، والتجارة الداخلية في دولة المماليك الثانية. بالإضافة إلى دراسات تخصصت في مدن الشام في تلك الفترة.

ويأتي أهمية هذا البحث أيضاً ، في إبراز تاريخ منطقة بلاد الشام، ومدى الأهمية السياسية والحضارية له في دولة المماليك الثانية، وهي المركز الثاني من حيث الأهمية بعد مصر.

وقد جاء البحث في خمسة فصول يسبقها تمهيد تناول الفترة التي سبقت قيام الدولة المملوكية الثانية.

فقد جاء الفصل الأول عن العصر المملوكي الثاني، حيث تم البحث فيه عن أصل المماليك وتربيتهم، وظهور المماليك الجراكسة، وإزدياد نفوذهم إلى قيام دولتهم. وفي الجزء الثاني من هذا الفصل تم البحث في علاقات المماليك الخارجية مع جزيرتي قبرص ورودس، وصدامهم بكل من التتار والبرتغاليين والعثمانيين.

وتناول الباحث في الفصل الثاني الحياة السياسية في بلاد الشام، من حيث جغرافية البلاد وموقعها، وشكل الحكم والإدارة، والوظائف السياسية والعسكرية والقضائية. وجاء الجزء الثاني من هذا الفصل عن الثورات والحركات ضد السلطة الحاكمة في مصر.

أما الفصل الثالث من هذا البحث فقد خصص للحياة الاجتماعية، فتم البحث فيه عن فئات السكان العرقية والمذهبية والاجتماعية، وعن مظاهر الحياة الاجتماعية كالإحتفالات والمناسبات الرسمية. وأفرد في هذا الفصل عناوين مثل: المرأة الشامية ودورها في مجالات الحياة، وعن الحمامات الشامية وأثرها الاجتماعي، وأخيراً عن قافلة الحج الشامي.

وجاء الفصل الرابع عن الحياة الاقتصادية. حيث تم البحث فيه عن الزراعة والمحاصيل الزراعية، وعن الصناعات بجميع أنواعها من منسوجات وتعدين وأوراق. وجاء البحث أيضاً عن النشاط التجاري من أسواق وحوانيت وعملة.

وتناول الفصل الخامس الحياة الثقافية والعلمية، مجالات في غاية الأهمية كالمؤسسات الثقافية والعلمية في تلك الفترة مثل: الكتّاب والمساجد والزوايا. وأثر هذه المؤسسات في تنوير مجتمع بلاد الشام. وفي نهاية هذا الفصل تم الترجمة لمؤرخي هذا العصر ممن كان لهم الفضل في تدوين الأحداث بصورة يومية كمشاركين فيها، أو شاهدين عليها أمثال: ابن خلدون، والمقريزي، وابن تغري بردي، وابن إياس وغيرهم.

وقد خلص هذا البحث إلى مجموعة من النتائج والتوصيات منها:

- تأثر الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في بلاد الشام بالأحداث السياسية والعسكرية سواء في مصر أو الشام.
- احتكار جميع الوظائف القيادية سواء سياسية أو عسكرية من قبل المماليك الجراكسة.

- نهضت الحياة الثقافية والعلمية في بلاد الشام في هذه الفترة، بسبب اهتمام السلاطين بهذا الجانب.
- تردي الحالة السياسية والاقتصادية في بلاد الشام، سرعت في سقوط الدولة ونهايتها.

أما التوصيات التي يجب أن تذكر في نهاية هذا البحث فهي:

- زيادة الإهتمام من قبل أصحاب الإختصاص في هذه الفترة، وأثرائها بالدراسات والبحوث.
- توجيه وإرشاد الطلاب في أقسام التاريخ للتخصص في هذه الفترة المهمة.
- إبراز الأهمية السياسية والجغرافية التي تربط مصر ببلاد الشام.
- عقد مقارنة عن الإيجابيات والسلبيات للعنصر غير العربي في حكم هذه المنطقة لفترات طويله.

Abstract

This thesis discussed the impact of the Mamalik state on the political, social, economical and cultural life in AlSham region (784-923A.H/ 1382-1517 AD) and how it changed and developed.

This study is important because it developed a complete picture about political situation and aspects of civilization in AlSham region during the important historical period of Islamic nation. The previous studies discussed each aspect independently .Examples on these studies include the military system in Mamalik state ,Arabs in AlSham region during Almamalik state ,Agriculture in AlSham region during Almamalik state, the village in AlSham region during Almamalik state ,commerce in Almamalik state ,in addition to studies about cities in AlSham region in that era. This study is also important because it sheds light on AlSham region history and its political and cultural role during the second Mamalik state.

This thesis contains five chapters preceded by an introduction about the era before the second Mamlouki state.

The first chapter is about the second Memlouki period. It stated the origin of the Mamalik and how they raised up and the appearance of Jarakesa Mamalik state and their influence. Then I discussed the relationship between the Mamalik and the two islands of Cyprus and Rhodes, as well as, their encounter with Portuguese and Ottomens.

The second chapter discussed the political life in AlSham region. First, it discussed its geography, location, boundaries, administration and the

military and political jobs. The second part of this chapter is about revolutions against the ruling authority in Egypt.

Chapter three has been dedicated for the social life focusing on the different categories of people in Shami society, races, sects and community.

Other subtitles have been dedicated to talk about Shami women and their role as well as the Shami public baths and the Hajj convoy.

In chapter four I researched the economical life. This chapter illustrates agriculture, crops and all kinds of industry. After that I explored markets, shops and Shami currency used in that era.

The fifth chapter “cultural and scientific life” studies very essential areas such as the cultural and scientific institutions along with their entire branches starting with “kuttabs” and mosques ,and ending up with “alzawaia”. After that I introduced the biographies of contemporary historians of that era who had significant role in registering events on daily basis as participants or eye witness such as Bin Khaldoun, AlMakreezi, Bin Tgree Badriand Bin Eyas.

The results of this thesis are as follows:

- The influence of the political and military events on the social and economical situation in Egypt as well as in AlSham.
- AlJarakesa Mamalik taking over all political and military jobs.
- The flourish of the cultural and scientific life in AlSham region in this era.

- The bad economical and political life in AlSham state led to its quick fall and end.

The recommendations that must be mentioned at the end of this thesis:

- More research and studies should be carried on this era.
- Directing history students to specialize in this important era.
- Stressing the importance of the political and geographical bounds between Egypt and AlSham.
- Comparing the advantages and disadvantages of the non Arabs who ruled in this region for a long period.

المقدمة

تتميز بلاد الشام بمكانة خاصة بالنسبة للسلطة الحاكمة في مصر سواء في الفترة المملوكية الثانية، أو الفترات التاريخية التي سبقتها، فتأتي أهميتها لمصر من جميع النواحي، سواء السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية.

لذلك قسمت السلطة الحاكمة في مصر في العصر المملوكي الثاني بلاد الشام إلى عدد من النيابات الإدارية، وتعاملت مع كل نيابة بشكل مستقل عن النيابة الأخرى خاصة في الأمور السياسية على وجه التحديد، فوالي الشام مثلاً والمعين من قبل السلطة في مصر كان له من الصلاحيات والمكانة ما يفوق مكانة الولاة الآخرين.

وجاء **سبب اختياري** لهذا الموضوع بعد الاطلاع على الدراسات السابقة، والتي ركزت بمجملها على دراسة موضوع واحد بعينه، إما سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي وفي فترات زمنية مختلفة، مما جعل الباحث في هذه الفترة يتنقل بين أكثر من دراسة وبحث، من أجل أن تكتمل لديه الصورة التاريخية عن بلاد الشام في العصر المملوكي الثاني. فجاءت دراستنا " أثر الدولة المملوكية الثانية في بلاد الشام في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية" لتسد هذه الثغرة التي نعتقد بوجودها في الدراسات السابقة، ومن أجل تحقيق هذا خصصت هذه الدراسة لتتناول كل النواحي مجتمعة في بلاد الشام.

ويأتي **أهمية البحث** في إبراز بلاد الشام في جميع الجوانب السياسية والحضارية، وتقديم صورة واضحة عن أثر الدولة المملوكية الثانية في ذلك. بالإضافة إلى ربط نيابات بلاد الشام في كثير من مظاهرها الحضارية مع بعضها البعض خاصة الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، مما يوضح لنا وحدة الشام الجغرافية والتاريخية.

أما **أهداف البحث** التي نتوقع أن تحقق من هذه الدراسة فهي تغير النظرة التي أوردها بعض الباحثين بأن الفترة المملوكية الثانية في بلاد الشام قد سادها شيء من الانحطاط في مظاهرها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، مع أن الشام الحوض الذي

تصب فيه روافد ديار الإسلام سياسياً وحضارياً، ومحاولة إبراز التاريخ الإسلامي ومراحل تطور حضارته في كافة المجالات، وأن يكون هذا البحث متمم للدراسات السابقة، وشامل للفترات التاريخية المهمة في بلاد الشام في عهد الدولة المملوكية الثانية. والبحث في الأهداف التي جعلت من العنصر العربي في تلك الفترة التاريخية بعيداً عن مراكز صنع القرار السياسي والعسكري، واقتصار دوره على الجوانب الدينية.ومدى تفاعل السلطة المملوكية مع مطالب القبائل العربية، ومكانتة هذه القبائل لدى السلطة في أوقات الحروب والأزمات التي تمر فيها الدولة.وأخيراً بيان أثر الخلافات السياسية الداخلية في إضعاف الدولة وسقوطها على يد الدولة العثمانية.

وتم اعتماد **المنهج التحليلي** القائم على جمع المعلومات والروايات التاريخية من خلال الرجوع إلى المصادر والمراجع وتحليلها بشكل موضوعي بما يخدم موضوع الدراسة. ونهجنا في بحثنا أحياناً أسلوب السرد التاريخي فيما يخص بعض الوقائع والأحداث، وأحياناً المنهج التقريري في حديثنا عن بعض الأماكن الجغرافية. وكان هدفنا من ذلك كله تقديم رؤية واضحة للحقائق التاريخية المتوافرة، ومن ثم ربطها وجمعها مع بعضها بعضاً، وبالتالي تكوين صورة متكاملة وحية عن الماضي.

أما **حدود البحث** فشمل تاريخ بلاد الشام في عصر الدولة المملوكية الثانية من 784-923هـ /1382-1517م، وأثر هذه الدولة في الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية حيث كانت الأحداث في هذه الفترة الزمنية زاخرة بالتحولات، والتي أثرت بمجموعها تأثيراً كبيراً وجذرياً على مجتمع الدولة المملوكية الثانية بشكل عام، وعلى مجتمع بلاد الشام بشكل خاص.

وبناءاً على ما سبق فقد تم تقسيم هذا البحث إلى خمسة فصول رئيسة، يسبقها **تمهيد** كانت البداية فيه منذُ تأسيس الدولة الزنكية على يد عماد الدين زنكي، ومن بعده ولده نور الدين محمود ودورهم الهام في مقارعة الصليبيين لصدهم عن بلاد الشام،

وتطلع نور الدين محمود إلى مصر بعد أن طلب شاور منه المساعده، فتحقق لنور الدين ما كان يطمح له في مصر، على يد قائده أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين، سنة 564هـ/1168م ليتم من بعد ذلك قيام الدولة الأيوبية في مصر.

واصل صلاح الدين جهاده إلى أن تمكن من تحرير بيت المقدس بعد معركة حطين* سنة 583هـ/1187م، وبعد وفاة صلاح الدين تفسخت دولته، بسبب تقسيمها بين أبنائه وإخوته، إلى أن انتهت بمقتل توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب على يد الأمراء البحرية سنة 648هـ/ 1250م، ليكون هذا التاريخ بداية لتأسيس دولة المماليك البحرية. والذي كان لقادتها من أمثال قطز وبيبرس دورٌ في هزيمة التتار وصدهم عن بلاد الشام سنة 658هـ/1259م، وبوفاة الملك المنصور بن السلطان الأشرف شعبان بن قلاوون تنتهي دولة المماليك البحرية لتبدأ دولة المماليك البرجية على يد الأمير برقوق بن آنص الجركسي سنة 784هـ/1382م.

وجاء الفصل الأول من هذه الرسالة عن"العصر المملوكي الثاني" فقد تم البحث في هذا الفصل في عدة عناوين منها: أصل المماليك وتربيتهم وتدريبهم، ومن ثم ظهور المماليك الجراكسة، وازدياد نفوذهم في السلطة إلى قيام دولتهم. وناقشت في هذا الفصل إلى العلاقات الخارجية والأحداث التاريخية لدولة المماليك الثانية كصدامهم بالتتار والمغول، وحملاتهم المتتالية ضد قبرص ورودس، وأخيراً علاقتهم بالدولة العثمانية إلى أن انتهت دولتهم على يد العثمانيين في معركة الريدانية*[1] سنة 923هـ/ 1517م.

---

*.هي قرية تقع في بلاد فلسطين على تل يقال له حطين وعندها قبر شعيب عليه السلام، وقعت في هذا المكان معركة حطين المشهورة سنة 583هـ/1187م. بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن تميم بن شداد المتوفى 632هـ/1239م: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين، تحقيق جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص126.

*1. تقع الريدانية شمال القاهرة، وهي الواقعة التي أصبحت بعدها السلطنة المملوكية الثانية في حكم المنتهية سنة 923هـ/1517م.الشيخ أحمد بن أبي الحسن علي بن زنبل الرمال المتوفى960هـ/1553م: آخرة المماليك أو واقعة السطان الغوري مع سليم العثماني، تحقيق، عبدالمنعم عامر، ط2، الهيئة المصرية العامة، 1998م، ص25.

أما الفصل الثاني من هذه الرسالة فقد خصص **للحياة السياسية في بلاد الشام في العصر المملوكي الثاني"**تم فيه البحث في جغرافية بلاد الشام من حيث التسمية والموقع والحدود، ثم في نظم الحكم والإدارة في بلاد الشام وجعل في ثلاثة عناوين رئيسة الأول: كان للنيابات الإدارية في بلاد الشام، كنيابة دمشق، وحلب، وطرابلس، وحماة، وصفد، والكرك والقدس. والثاني جعلته لوظائف أرباب السيوف" القيادة السياسة والعسكرية" ومن هذه الوظائف: نائب السلطنة في الشام ونائب القلعة والحاجب وشد المهمات ووالي المدينة، وغيره من الوظائف التي يطول ذكرها. وحمل العنوان الأخير: وظائف أرباب السيوف الأخرى أمثال: نقابة القلعة والجيش، وشد الدواوين والأوقاف. وختمت هذا الفصل بالبحث عن الثورات والتجريدات العسكرية في نيابات بلاد الشام كثورة الطنبغا السلطاني، وحركة يلبغا الناصري، وثورة تَنَم نائب الشام، وانتفاظة شيخ المحمودي، وحركة الأمير نوروز الحافظي، وحركة الأمير قاني باي المحمدي وأينال الصصلاني، وحركة الطنبغا القرمشي والأمير جقمق، وتمرد تغري برمش. وأخيراً تمرد العربان وثوراتهم.

وجاء الفصل الثالث من هذا البحث في**"أثر الدولة المملوكية الثانية في الحياة الاجتماعية في بلاد الشام"** من حيث التركيب السكاني، كالفئات العرقية للمجتمع من عرب وأكراد وتركمان ومماليك، ومن ثم الفئات المذهبية من مسلمين(سنة وشيعة) وأهل ذمة، وفي ثالث هذه العناوين الفئات الاجتماعية كالطبقة العليا وطبقة الأعيان وطبقة التجار وعامة الشعب، ومن ثم عن دور المرأة الشامية في كل القطاعات خاصة الاقتصادية والاجتماعية.

وتم البحث في هذا الفصل كذلك عن مظاهر الحياة الإجتماعية من احتفالات ومواكب رسمية ومناسبات، ومن عنوانين هذا الفصل كذلك مجتمع الحارات الشامي بكل تفاصيله، وآخر للحمامات الشامية، وختم هذا الفصل بالبحث في قافلة الحج الشامي بكل أبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

أما الفصل الرابع فحمل عنوان" **أثر الدولة المملوكية الثانية في الحياة الإقتصادية في بلاد الشام**" موضوعات اقتصادية كثيره منها: نظام الإقطاع بفروعه الثلاثة التمليك، والاستغلال، والإرفاق. ومن ثم القطاعات الرئيسة للحياة الاقتصادية بدءاً بالزراعة والحاصلات الزراعية، والآثار السياسية والطبيعية المؤثرة بالناتج الزراعي، من ثورات وحروب وطواعين وزلازل ورياح وأمطار وثلوج وآفات زراعية وغيرها.

وخصص الجزء الثاني من هذا الفصل للصناعات الشامية الزراعية كصناعة السكر، وزيت الزيتون، والصابون، والخمور وغيرها من الصناعات كصناعة المنسوجات، والصناعات المعدنية، وصناعة الزجاج والورق. وختمت هذا الفصل بالنشاط التجاري والأسواق والسلع والحوانيت والعملة.

وجاء الفصل الأخير من هذا البحث " **للحياة الثقافية والعلمية في بلاد الشام في العصر المملوكي الثاني**" فخصص فيه عنواناً للمؤسسات الثقافية والعلمية في هذا العصر، أمثال المكاتب أو الكتّاب، والمساجد، والمدارس، وخزائن الكتب أو المكتبات، ومن ثم الخوانق والزوايا والرُّبط والتُّرب. حيث وضحتُ دور هذه المؤسسات في الحياة الثقافية والعلمية في بلاد الشام في العصر المملوكي الثاني، وبيان أيضاً الأهمية الإجتماعية لها في ذلك الوقت خاصة في تقديم العون والمساعدة للفقراء والمساكين من طلبة العلم وغيرهم.

أما العنوان الثاني الذي تم تناوله في هذا الفصل فحمل عنوان"مؤرخو العصر المملوكي الثاني" حيث خصص لكل واحدٍ منهم ترجمة بسيطة في هذا البحث تاركاً لمن أراد من الباحثين الزيادة عليها أو التخصص فيها. ومن هؤلاء: محمد بن الفرات، وعبدالرحمن بن خلدون، وأحمد بن علي القلقشندي، وتقي الدين المقريزي، وتقي الدين ابن شهبة، وابن حجر العسقلاني، وبدر الدين العيني،وأبي المحاسن يوسف بن تغري بردي، وابن داود الصيرفي،والحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن

السخاوي،ومجير الدين عبد الرحمن بن محمد العليمي، ومحمد بن أحمد بن إياس الحنفي.

وأخيراً لا بد من ذكر **المشاكل والصعوبات** التي واجهت الباحث في كتابة هذا البحث وهي:

أولاً: طغيان المعلومات السياسية والعسكرية على غيرها من الموضوعات الحضارية في المصادر التاريخية لتلك الفترة.

ثانياً: تكرار الحوادث التاريخية عند معظم المؤرخين، وتداخل الأسباب والنتائج مع بعضها البعض مع صعوبة الفصل فيما بينها.

ثالثاً:معظم الأبحاث التي تناولت تاريخ بلاد الشام كانت مركزة على الجوانب السياسية والعسكرية والشخصية، والبعد عن الجوانب الحضارية لندرة المعلومات وتناثرها، مما يتطلب الصبر والجهد لإنجاز العمل.

رابعاً: اهتمام المصادر في تدوين المعلومات على مقر ومركز السلطة وأعني القاهرة، وندرة المعلومة عن أطراف المركز وأعني الشام.

خامساً: عدم استقرار منطقة بلاد الشام في تلك الفترة، ويعود ذلك إلى الصراع العسكري مع الأعداء من الخارج، أو الصراع السياسي الداخلي بين المركز والأطراف، مما انعكس سلباً على الجوانب الحضارية فيها.

أما **مصادر البحث الأولية** فقد كانت شاملة ومتنوعة، وجاءت على النحو التالي: كتب التاريخ العام: مثل كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، لتقي الدين أبي العباس المقريزي المتوفى(845هـ/1441م)، وكتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، لأبي العباس أحمد بن علي القلقشندي المتوفى (821هـ/1418م)، وكتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لجمال الدين أبي المحاسن ابن تغري بري المتوفى

التمهيد

أحوال بلاد الشام السياسية قبل قيام الدولة المملوكية الثانية

تعرضت بلاد الشام بشكل خاص والبلاد العربية بشكل عام في نهاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، لخطر داهم تمثل في الحملات الصليبية التي اندلعت بدايتها سنة 478هـ/1085م. باحتلال مدينة طليطلة* من قبل الفرنج، وغيرها من بلاد الأندلس، ثم قصدوا صقلية*1 سنة 484هـ/1091م، فملكوها، ومنها إلى شمال أفريقيا، فسيطروا على شيئٍ منها. وفي سنة 491هـ/1097م، توجهوا إلى الشام قاصدين أنطاكيا*2 أولاً.(1)

في الوقت الذي يجد فيه الباحث أن البلاد العربية والإسلامية كانت ممزقة الأوضاع متردية الأحوال، فالدولة العباسية في بغداد قد ضعفت، ولم يعد للخليفة سلطة على أغلب أجزاء الدولة، والفاطميون يحكمون مصر، وليس عندهم أي حماس للدفاع عن الإسلام، والشام يحكمه عدد من الأمراء الضعفاء، والحرب قائمة بينهم.(2)

---

*.قاعدة القوط ودار مملكتهم، ومنها كانوا يغزون عدوهم وإليها كان يجتمع جودهم.أبي عبيد عبدالله بن عبد العزيز بن محمد البكري المسالك والممالك، تحقيق، جمال طلبة، 2ج، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت،2003هـ/1424م. ج2، ص394.

*1.جزيرة في البحر المتوسط، سميت باسم شيقلوا أخي إيطال الذي به سميت إطالية، وهي جزيرة كثيرة الزرع والضرع والفواكة. المصدر نفسه، ج2، ص52.

*2.مدينة عظيمة بالشام على ساحل البحر المتوسط، وهي مدينة حسنة الموضع، بناها بطليموس من ملوك اليونان. محمد بن عبدالمنعم الصنهاجي المتوفى 900هـ/1494م: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق، إحسان عباس، طبعة 1975، مكتبة لبنان، ص38.

(1) عزالدين أبو الحسن علي بن محمد ابن الأثير، المتوفى 630هـ/1232م :الكامل في التاريخ، 12ج، (ب ط)، نسخة تامة أعتنى بنصها أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الأردن، السعودية، المؤتمن للتوزيع.ج10، ص273. شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان (748 هـ/ 1374م). تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق، بشار عواد معروف،17ج، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1424هـ / 2003م.ج10،ص665.

(2) عبدالعزيز بن عبدالله الحميدي: التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، ط1، م8، دار الأندلس الخضراء، جدة، 1998م.ص295.

ولاشك في أن حالة التدهور والانقسام التي صاحبت السلاجقة أيضاً في ذلك الحين أدت إلى عدم مقدرتهم في التصدي لجيوش الحملة الصليبية، مما مكن الصليبيين من الانتصارات السريعة والاستيلاء على الأراضي الإسلامية ببلاد الشام.(1) لقد اتسعت مملكة السلطان ملكشاه اتساعاً عظيماً،وخطب له من حدود الصين إلى الشام".وبعد موته تنازع ابناؤه: بكيارق ومحمد، وفي أثناء نزاعهم ظهرت الفرنج بالساحل(الشامي) فاحتلوا إنطاكية.(2) بعد حصار شديد بمواطأة من بعض المستحفظين على الأبراج وهروب صاحبها باغيسيان. وبعد سقوط إنطاكية كتب الفرنج إلى صاحب حلب ودمشق، بأنهم لايريدون سواها مكراً منهم وخديعة. (3) ونتيجة لسقوط أنطاكية توالى سقوط مدن الشام بيد الصلبيين، فحاصروا معَّرة النعمان* ودخلوها وقتلوا من حاميتها نحواً من مائة ألف، وظل حاكم حلب قابعاً دون حراك، وكأن الأمر لا يعنيه في الوقت الذي أضحى الصلبييون على أبواب حلب.(4)

---

(1) ابن الأثير: المصدر السابق، ج10، ص231. حامد زيان غانم :الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية، دار الثقافة للنشر، القاهرة، 1983م.ص51.

(2) شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل أبو شامة المتوفى(665هـ/1266م). كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، علق عليه إبراهيم شمس الدين، 5ج، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت،1422هـ/ 2002م.ج1، ص144. كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة ابن العديم المتوفى (660هـ/1261م). زبدة الحلب من تاريخ حلب، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1417هـ/1996م. ص220.

(3) عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الشافعي المتوفى 774هـ/1372م. البداية والنهاية، 2ج، طبعة مظبوطة أعتنى بها حسان عبدالمنان، بيت الأفكار الدولية، الأردن، السعودية، المؤتمن للتوزيع، 1425هـ/ 2004م.ج2، ص1862. محمد سهيل طقوش، تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، ط3، دار النفاس، بيروت. ص197.

*.بلدة بين حلب وحماه ، كثيرة التين والزيتون. ينسب إليها أبو العلاء المعري الضرير المشهور بالذكاء. زكريا بن محمد بن محمود القزويني، المتوفى(682هـ/1283م). آثار البلاد وأخبار العباد، (ب ط) دار صادر، بيروت، ص272.

(4) أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي المتوفى (597هـ/1200م). المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق، محمد عبد القادر عطا و مصطفى عبدالقادر عطا، مراجعة نعيم زرزور، 19ج ، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت ،1412هـ/1992م. ج10، ص277. محمد طقوش: المرجع السابق، ص197.

إن الهدف الأسمى بالنسبة للصليبيين كان احتلال بيت المقدس، فنزلوا أولاً على الرّملة* فملكوها، ثم انتقلوا إلى بيت المقدس فقاتلوا أهله وضيقوا عليهم. وقد اتضح حقد الصلبيين على الإسلام والمسلميين من خلال ما ارتكبوا من قتل ونهب لبيت المقدس. فقد ذكر ابن الأثير:" أن عدد القتلى من المسلمين يزيد على سبعين ألفاً، منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين ، وعلمائهم، وعبّادهم وزّهادهم".(1)

واصل الصليبيون زحفهم إلى مدن الشام فسيطرواعلى عكا، وأرسوف بالأمان، واحتلوا قيسارية*1 بالسيف، وطال مقامهم في حصار طرابلس*2.(2) وما أن انتهى القرن الخامس من الهجرة/الحادي عشر ميلادي حتى ملأ الفرنج نواحي الشام، بعد احتلالهم كلاً من طرابلس وبيروت وصيدا*3.(3)

استغل الصليبيون الخلافات الإسلامية ما بين أمراء الشام، من أجل السيطرة على دمشق، فقد حاول ملك الفرنج بلدوين السيطرة عليها ولكنه فشل بعد اجتماع المسلمين، ثم اجتمعت الفرنج وملوكها مرة ثانية سنة 521هـ/1127م، وساروا إلى نواحي دمشق،

---

*. كانت عاصمة فلسطين إلى أن احتلها الفرنجة سنة 1099م، وقيل سميت الرملة لكثرة الرمل بها.البكري: المصدر السابق، ص3

(1) عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المتوفى 808هـ/1405م.تاريخ ابن خلدون المسمى "العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر" ضبط المتن ووضع الحواشي،خليل شحادة، مراجعة، سهيل زكار، 8 أجزاء، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 1431هـ/2001م. ج4، 86، ج5، ص25. سامي بن عبدالله بن أحمد المغلوث أطلس الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ط1، العبيكان للأبحاث، 2009م.ص56. إبراهيم بيضون، تاريخ بلاد الشام(إشكالية الموقع والدور في العصور الإسلامية)، دار المنتخب العربي. ص277.

*1.من بلاد الأرمن ضمت لحلب زمن المماليك. أكرم حسن العلبي، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، ط1، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، دمشق، 1982م. ص31، ص32.

*2.مدينة على شاطيء بحر الروم، عامرة كثيرة الخيرات والثمرات، لها سور منحوت من الصخر. القزويني: المصدر السابق، ص408.

(2) الذهبي: دول الإسلام، تحقيق، حسن إسماعيل مروة، 2ج، ط1، دار صادر، بيروت، 1999م. ج1، ص430، ص434. ابن كثير :المصدر السابق، ج2، ص1866.

(3) ابن الأثير: المصدر السابق،ج10، ص476-480. الذهبي: دول الإسلام، ج1،ص436. ابن خلدون: المصدر السابق،ج4،ص88.

*3.بيروت وصيدا من مدن الشام الواقعة على البحر المتوسط، وكلاهما كثير الفواكه. شمس الدين أبي عبدالله محمد اللواتي المتوفى 779هـ/1377م، رحلة ابن بطوطة المسماه"تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" ج1،تحقيق، عبدالهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، 1997،نسخة ثانية، تحقيق، محمد العريان،2ج، دار إحياء العلوم، بيروت،1987م. ج1، ص80.

فعظم الأمر على المسلمين واشتد خوفهم، واقتتلوا مع الفرنج، فكان للمسلمين نصرٌ من الله.(1) لقد سخّر الله لبلاد الشام من القادة العظماء من كان له الفضل في مواجهة الصليبيين في هذه الفترة من الزمن، نذكر منهم عماد الدين زنكي بن آق سنقر مؤسس الدولة الزنكية.(2) وقد وُصِفَ بأنه أشجع خلق الله، حكم مدينة حلب 522هـ/1128م، بعد موت طغتكين، فأصلح أمورها وعمرها بعدما خرب من بلدها بتوالي غارات الفرنج عليها.(3) وفي السنة التالية ضمّ عماد الدين زنكي مدينة حماة*، بعد أن أرسل إلى تاج الملوك، صاحب دمشق يريد منه مساعدة من أجل قتال الفرنج، فأجابه إلى المراد، وأرسل له ابنه سونج.(4) وفي هذه الأثناء اتفق صاحب آمد مع صاحب حصن كيفا وغيرهما من ملوك الفرنج، وجمعوا من الجند نحو عشرين ألفا وقصدوا عماد الدين زنكي، فهزمهم وأخذ منهم سرجة ودارا، ثم صمم على مواصلة الجهاد، فنازل حصن الأتارب، فجمع الفرنج جمعا عظيما، فهزمهم وقتلهم مقتلة عظيمة، ثم رجع إلى الحصن فحرره منهم عنوة، فأخربه ومحا أثره، وأزال من تلك الأرض ضرره، ثم رحل إلى حصن حارم*1 فحاصره، فعرض الفرنج على عماد الدين زنكي الصلح، مقابل

---

(1) ابن الأثير: المصدر السابق، ج10، ص377، ص400، ص630. ابن كثير: المصدر السابق، ج2، ص1881.

(2) ابن الجوزي: المصدر السابق، ص51. أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان المتوفى 681هـ/1282م، وفيات الأعيان وأنباءُ أبناءِ الزمان، تحقيق إحسان عباس، 8ج، دار صادر، بيروت، 1398هـ/1978م.ج2، ص327، ص329.

(3)عزالدين أبو الحسن علي بن محمد ابن الأثير، المتوفى 630هـ/1232م: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق، عبدالقادر أحمد طليمات، ملتزم الطبع والنشر دار الكتب الحديثة بالقاهرة ومكتبة المثنى ببغداد، 1382هـ/1963م. ص37، ص38.

*.مدينة شامية على ضفة نهر العاصي، مبنية من الحجارة، لها قلعة ملونة الأحجار يستدير بها سور، وفيها الدور والمساجد والمدارس والربط والزوايا والأسواق. ، شهاب الدين أحمد بن يحي ابن فضل الله العمري المتوفى 749هـ/1349م.مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق، كامل سلمان الجبوري،ج3، دار الكتب العلمية، بيروت. ج3، ص366.

(4) جمال الدين محمد بن سالم بن واصل المتوفى 697هـ/1298م. مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق، ج1، ج2،ج3 جمال الدين الشياك، ج4،ج5 حسنين محمد. ج1، ص41، ص42. أبو محمد عبدالله بن أسعد بن علي بن سلمان اليافعي المتوفى 768 هـ/1370م، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، 4ج، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1417هـ/1997م. ج3، ص174. ابن خلدون: المصدر السابق، ج5، ص265.

*1.عبارة عن قلعة تقع غربي حلب، وتتبع ولاية حارم. أبو شامة: المصدر السابق، ج1، ص157. العلبي: المرجع السابق، ص31.

مناصفته على ولاية حارم.(1) وهذا دليل على تراجع قوة الفرنج، وبداية شعور المسلمون بالأمن والنصر في بلاد الشام. استغل الفرنج ذهاب عماد الدين زنكي إلى العراق، بعد أن كاتبه السلـطان سنجر، يطلب منه الاستيلاء على العراق.(2) فسار صاحب بيت المقدس، ملك الفرنج في خيالته ورجاله إلى أطراف أعمال حلب، فتوجه إليه الأمير أسوار، النائب بحلب عن عماد الدين زنكي فيمن عنده من العسكر، وكثير من التركمان، فاقتتلواعند قنسرين، فَقُتِل من الطائفتين جماعة كثيرة، وانهزم المسلمون إلى حلب، وتردد ملك الفرنج في أعمال حلب، فعاد أسوار وخرج إليه فيمن معه من العسكر، فوقع على طائفة منهم، فأوقع بهم وأكثر القتل فيهم والأسر. ثم قدمت طائفة من فرنج الرها* قاصدين أعمال حلب فكان مصيرهم مصير من سبقهم من فرنج بيت المقدس.(3)

شجعت أحداث حلب، وانشغال عماد الدين زنكي في العراق، شمسَ الملوك صاحب دمشق ضم مدينة حماة، وكانت بيد عماد الدين زنكي إلى جانب حلب. ثم قصد طبريا*[1] والناصرة وعكا وما يجاورهما من البلاد، وكانت بيد الفرنج، فنهب، وخرب، وأحرق، وأهلك أكثر البلاد وسبى النساء والذرية، وامتلأت أيدي من معه من الغنائم. (4)

وبعد أن تصالح عماد الدين زنكي مع الخليفة العباسي سنة 528هـ/1133م، عاد لجهاد الصليبيين في بلاد الشام، فحرر المعرّة بعد سبع وثلاثين سنة في يد الفرنج، ثم

---

(1) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص39. أبو شامة : المصدر السابق، ج1، ص157. الذهبي: العبر في خبر من غبر، تحقيق، أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، 4ج، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1405هـ/1985م. ج2، ص419.

(2) ابن الجوزي: المصدر السابق، ج17، ص270. ابن الأثير: الكامل ،ج10، ص679. الباهر، ص44، ص45.
الذهبي : دول الاسلام،ج2، ص29. ابن كثير: المصدر السابق، ج2، ص1885.

*.مدينة رومية عليها سور حجارة، متصلة بحران، وإليها ينسب الورق الجيد من ورق المصاحف. الجميري: المصدر السابق، ص273.

(3) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج11، ص351. ابن خلدون: المصدر السابق، ج5، ص268.

*1.كانت فيما مضى مدينة كبيرة ضخمة ولم يبقى منها إلا رسوم تنبىء عن ضخامتها. ابن بطوطة: المصدر السابق، ج1، ص260.

(4) ابن كثير: المصدر السابق، ج2، ص1885. الذهبي: تاريخ الإسلام، ح11، ص352.ابن خلدون: المصدر السابق، ج5، ص286.

سار إلى دمشق بعد أن راسله صاحبها شمس الملوك، يحثه على سرعة الوصول إليه، أو يُسَلم دمشق إلى الفرنج، فلما علم أصحاب أبيه وجده بهذا، أخبروا والدته بذلك فأغوت غلمانها بقتله فَقُتل.(1) خوفاً من أن يسلم دمشق إلى عماد الدين زنكي الأمير القوي في بلاد الشام. ونظراً لأهمية دمشق لعماد الدين زنكي، زحف إليها وقاتل أهلها وحاصرهم، فلما رأى قوة ظاهرة وشجاعة عظيمة، واتفاقاً تاما على محاربته، فكّ حصاره عنها بعد أن طلبه الخليفة بالقدوم إليه.(2)

أما عساكر عماد الدين زنكي في حلب وحماه فقد اجتمعت مع الأمير أسوار، وقصدوا بلاد الفرنج على الساحل الشامي، على حين غفلة منهم، فقصدوا أعمال اللاذقية* بغتة ولم يتمكن أهلها من الانتقال عنها والاحتراز، فنهبوا منها ما يزيد عن الوصف، وقتلوا وأسروا، وفعلوا في بلاد الفرنج مالم يفعله بهم غيرهم. وبلغ عدد الأسرى سبعة الآف، ومائة ألف رأس من الدواب، ومن الأقمشة والحلي مايزيد عن الوصف، فامتلأت الشام بالأسرى والدواب، وفرح المسلمون بذلك فرحا عظيماً.(3)

أما أبرز مواجهة لعماد الدين زنكي مع الصليبيين فكانت حول حمص سنة531هـ/1136م، وكان الصليبيون قد شعروا بتزايد قوته مع اتساع إمارته فانسحب منها، قاصداً حصن بعرين فحرره .(4) وهو من أمنع معاقل الفرنج واحصنها، مما دفع

(1) ابن الجوزي: المصدر السابق،ج17، ص282. ابن الأثير: الكامل في التاريخ،ج11، ص18، ص21. ابن العديم: المصدر السابق، ص311. الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج2، ص435. ابن كثير: المصدر السابق، ج2، ض1886..

(2) ابن العديم: المصدر السابق،ص311. الذهبي: المصدر السابق:ج2، ص433. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط14، دار الجيل،بيروت، 1996م. ج4، ص73.

*.بلدة ذات صهاريج وهي أجل مدينة على ساحل البحر المتوسط، وبها مينا حسنة مفضلة على غيرها وبها دير مسكون. المؤيد عماد الدين ابن عمر بن شاهنشاه اسماعيل بن علي بن محمود بن محمد المعروف بأبي الفدا المتوفى 732هـ/1331م. تقويم البلدان، طبعه رينود و البارون ماك كوكين، باريس، دار صادر، بيروت،1830م. ص257.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج11، ص41.

(4) أبي يعلي حمزة ابن القلانسي، المتوفى 550هـ/1155م.ذيل تاريخ دمشق، مكتبة المتنبي، القاهرة. ص258. الحميدي: المرجع السابق، ص303.

القساوسة والرهبان إلى استنفار بلاد الروم وبلاد الفرنج على المسلمين، وأعلموهم أن عماد الدين زنكي إن أخذ قلعة بعرين، سيطرعلى جميع بلادهم، وأن المسلمين ليس لهم هدف إلا قصد بيت المقدس.(1) في الوقت الذي عاد فيه عماد الدين زنكي إلى حمص مرة ثانية ليمتلكها، ولكن ليس بالقتال وإنما بالزواج السياسي من زُمُّرد خاتون أم شهاب الدين صاحب دمشق، ولكن لم يحصل على مُبتغاه.(2)

إن التنافس بين أمراء الشام دفع بعضهم إلى التحالف مع الفرنج، وطلب المساعدة منهم ضد عماد الدين زنكي. ففي سنة 534هـ/1139م، حاصر عماد زنكي دمشق، فقام صاحبها مجير الدين أنر بمراسلة الفرنج، واستدعائهم إلى نصرته، واتفق معهم على منع عماد الدين زنكي عن دمشق،مقابل منحهم بانياس*.(3)

ولكن أعظم ما سجله عماد الدين زنكي من جهاد هو فتحه لمدينة الرها سنة 539هـ/1144م، وانتزاعها من الفرنج، وكانت لجوسلين صاحب أعمال حلب عاتيهم وشيطانهم، والمقدم على رجالتهم وفرسانهم، وكلهم قد شهد له في الشجاعة.(4) وكانت الرها من أشرف المدن عند النصارى، وهي إحدى الكراسي عندهم، فأشرفها بيت المقدس، ثم أنطاكية، ويليها رومية*1 وقسطنطينة والرها.(5) وكان على المسلمين في الشام من الفرنج الذين بالرها شر عظيم، فانتزعها عماد الدين زنكي منهم بالقتال، فاستباحها، ونكَس صلبانها، وأباد قساوستها ورهبانها، وقتل شجعانها وفرسانها، وملأ

---

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ،ج11،ص52. ابن العديم: المصدر السابق، 314.

(2) ابن القلانسي: المصدرالسابق، ص266. ابن خلدون: المصدر السابق، ج5، ص273. علي محمد الصلابي: الدولة الزنكية، ط1، دار المعرفة، بيروت، 2007م. ص109.

*. بلدة صغيرة ذات أشجار محمضات وانهاروهي على مرحلة ونصف من دمشق من جهة الغرب. أبو الفدا: المصدر السابق، ص239.

(3) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص272. ابن كثير: المصدر السابق، ج2، ص1891. ابن خلدون: المصدر السابق، ج5،ص183.

(4) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص66. الكامل، ج11،ص99. ابن العديم: المصدر السابق ص324-325.

*1. مدينة عظيمة للنصارى، ولها سوران من البحر، وعرض السور اثناعشر شبراً .الحميري: المصدر السابق، ص272.

(5) أبو شامة: المصدر السابق، ج1، ص171.

الناس أيديهم من النهب والسبي، وبعد دخوله بلاد الرها أُعجب به، فأنف لمثله الخراب والدمار، فأمر بإعادة ما أُخذ منه.(1)

استمر عماد الدين زنكي في أعماله الجهادية إلى سنة 541هـ/1146م، حيث قتل أثناء حصاره لقلعة جعبر وهو نائم من قبل جماعة من مماليكه بتحريض من أعدائه.(2) وترك عماد الدين زنكي عدة أبناء أكبرهم (سيف الدين غازي، ونور الدين محمود) فأقتسم الأخوان المملكة بينهما: القسم الشرقي لسيف الدين،وعاصمته الموصل، والقسم الغربي لنور الدين وعاصمته حلب، وهي المملكة المتاخمة للممالك الصليبية مما جعل نور الدين محمود يقع معهم في صراع عنيف دام طوال حياته .(3) وبعد قتل عماد الدين زنكي توجه صاحب دمشق الأمير مجير الدين حصن بعلبك وحاصره وكان به نجم الدين أيوب بن شادي مستحفظاً لها، فخاف أن أولاد زنكي لا يمكنهم إنجاده بالعاجل، فصالحه وسلم القلعة إليه، وأخذ منه إقطاعاً ومالاً، وملكه عدة قرى في دمشق.(4)

وفي الجانب الآخر أغار ابن جوسلين صاحب أعمال حلب على الرها واستولى عليها، فتقدم إليه نور الدين محمود ومعه التركمان وغيرهم وعددهم زهاء عشرة آلاف فارس، فهرب ابن جوسلين، ودخل نور الدين مدينة الرها، وبقيت في يده.(5)

تابع نور الدين فتوحاته في بلاد الفرنج، ففي سن 542هـ/1147م، فتح مدينة ارتاح وحصن مابوله ويُصرفون وكفر لاثا بالقتال. وكانت الفرنج بعد مقتل والده قد طمعوا،

---

(1) أبو شامة: المصدر السابق، ج1، ص171. ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم المتوفى (697هـ/1298م). مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق، ج1، ج2،ج3 جمال الدين الشياك، ج4،ج5 حسنين محمد. ج1، ص94.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ،ج11،ص111. ابن العديم: المصدر السابق، ص326. أبو شامة: المصدر السابق، ج1، ص181، ص182.ابن واصل : المصدر السابق، ج1، ص99. الذهبي : دول الإسلام، ح2، ص42.

(3) ابن واصل: المصدر السابق، ج1، ص109. محمد العروسي المطوي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ط2، دار الغرب الإسلامي، 1982م. ص68,

(4) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج11،ص119. أبو شامة : المصدر السابق، ج1، ص195.

(5) المصدر نفسه،ج11،ص115. ابن العديم: المصدر السابق، ص335.ابن واصل: المصدر السابق، ج1، ص111.

وظنوا أنهم بعده سيستردون ما أخذه، فلما رأوا من نور الدين محمود هذا الجهد في أول مرة علموا أن ما أمّلوه بعيد المنال. ونظراً لأهمية دمشق السياسية، قام الفرنج سنة 543هـ/1148م بمهاجمة دمشق، وقاتلوا أهلها قتالاً شديداً، ثم نزلوا على الميدان الأخضر، وضاق الأمر على أهله، وأيقنوا أن العدو سيحتله، فأرسل الأمير معين الدين أنر إلى صاحب الموصل سيف الدين غازي يدعوه إلى نصرة المسلمين، فجمع عساكرهوسار إلى الشام، واستصحب أخاه نور الدين محمود ، فرحل الفرنج عن دمشق خوفا أن يسيطر أبناء زنكي عليها، بعد أن حذرهم الأميرمعين الدين أنر برسالة يقول فيها"إن ملك الشرق قد حضر، فإن رحلتم وإلا سلمت البلد إليه".(1)

أما نور الدين محمود فقد قرر مهاجمة حصون الفرنج في الشام، فنزل حصن العريمة فحرره، ثم توجه إلى حصن حارم فحاصره ونهب سواده، ثم رحل إلى حصن إنب فحاصره أيضا. فاجتمعت الفرنج وساروا إلى نور الدين محمود ليُرَحلوه عن إنب، فلقيهم واقتتلوا قتالاً عظيماً، فانهزم الفرنج أشر هزيمة، وقُتل منهم جمع كثير، وأُسر مثلهم.(2)

واصل نور الدين محمود جهاده في الشام ضد الفرنج ففي سنة 546هـ/1151م، سيطر على حصن فاميا، وهو من أحصن القلاع في منطقة حماة، ولم يستطع الفرنج مقاتلته بل سعوا إلى مهادنته، كما أنه حرر أعمال حلب بعد أسر صاحبها جوسلين.(3)

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج11، ص122، 130، 131. أبو شامة: المصدر السابق ،ج1، ص202، ص203. ابن خلدون: المصدر السابق،ج5، ص184.

(2) أبو شامة: المصدر السابق، ج1، ص209. ابن واصل: المصدر السابق، ج1، ص114. ابن كثير: المصدر السابق، ج2 ص1895.

(3) المصدر نفسه ،ج1،ص224. ابن واصل: المصدر نفسه،ج1،ص122. الذهبي: دول الاسلام، ج2، ص45.

ونتيجة انتصارات نور الدين محمود العظيمة في الشام ضد الفرنج، تجمع الفرنج وحشدوا ضده الفارس والراجل وساروا نحوه، وهو ببلاد جوسلين، فاقتتل الطرفان أشد قتال رآه الناس، فانهزمت الفرنج، وقتل وأسر منهم الكثير.(1)

في الجانب الآخر من الشام سيطر الفرنج على مدينة عسقلان، نتيجة اختلاف الأهواء في مصر، وهذا مادفع نور الدين محمود إلى انتزاع دمشق بالقوة من صاحبها الأمير مجير الدين أنر، الذي راسل الفرنج وبذل لهم الأموال وسلم قلعة بعلبك إليهم لينجدوه.(2) وفي سنة 557هـ/1161م، جمع نور الدين محمود العساكر بحلب، وسار إلى قلعة حارم وَجَدَّ في قتالها، فلما علم الفرنج ذلك، جمعوا فارسهم وراجلهم من سائر البلاد. فلما رأى نور الدين أنه لايمكنه أخذ الحصن عاد إلى بلاده.(3) استجدت الأحداث السياسية في الشام عندما أرسل نور الدين عسكرا من الشام إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه لمساعدة شاور ضد ضرغام الذي استنجد بنور الدين محمود، مقابل ثلث أموال مصر إن أعاده إلى الوزارة، وبعد أن تم له ذلك،غدر، ولم يفِ له بشيء مما شَرَطَ.(4)

لم تُشغل مصر نور الدين محمود عن متابعة جهاده في الشام ضد الصليبيين، فقد عاد واستولى على قلعة حارم.(5) ثم جمع عساكره وسار إلى بانياس سنة 560هـ/1164م، فنازلها وضيق عليها حتى حررها ولم يكتفِ بذلك بل شاطر

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج11، ص154. أبو شامة : المصدر السابق ،ج1،ص251.

(2) المصدر نفسه ،ج11، ص189، ص198، ص199. ابن العديم: المصدر السابق س377.
ابن خلدون: المصدر السابق، ج5، ص283-284.

(3) ابن الأثير : التاريخ الباهر : ص116. أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، 4ج، ط1، المطبعة الحسينية المصرية،ج3، ص39.ابن خلدون: المصدر السابق، ج5، ص185، ص284.

(4) أبن العديم: المصدر السابق، ص344. أبو الفدا: المصدر السابق، ج3، ص41. تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبدالقادر المقريزي، المتوفى845هـ/1441م، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق، محمد عبدالقادر عطا، 8ج، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ/1997م. ج1 ،ص149.

(5) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج11، ص302. ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص122. ابن واصل : المصدر السابق،ج1، ص143. الذهبي : تاريخ الاسلام، ج12، ص23.

الصليبيين على أعمال طبريا، مما دفع بملك بيت المقدس إلى عقد الصلح مع شيركوه في مصر بقصد العودة إلى الشام، لمنع نور الدين محمود من الاستيلاء على بانياس، ولكن الصليبيين لم يصلوا إلى الشام إلا وقد أصبحت بانياس بيد الأمير نور الدين محمود.(1) وفي عام 562هـ/1166م، أعاد نورُ الدين محمود محمود أسدَ الدين شيركوه إلى مصر مرة ثانية ومعه ألفا فارس، فما كان من شاور الإ أن طلب المساعدة من الفرنج، فأتوه طمعاً في الحصول على مصر، فتجمع الفرنج والمصريون ضد أسدَ الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين، وكان النصر من نصيب أسد الدين شيركوه، ثم ساربعد ذلك إلى الاسكندرية وملكها وأناب بها عنه صلاح الدين.(2)

عاد أسد الدين شيركوه إلى مصر مرة ثالثة، تمكن خلالها من انتزاع حكم مصر وقتل شاور سنة 564هـ/1168م" وكان الخليفة العاضد قد طلب من الأمير نور الدين محمود المساعدة ضد الفرنج، مقابل ثلث بلاد مصر.(3) وصار أسدَ الدين شيركوه آمراً ناهيا، والسلطان المباشر للأمور، مقرراً لها، وبعد وفاته تولى الوزارة الأمير صلاح الدين الأيوبي، وفي هذا الوقت تأسست الدولة الأيوبية، وأخذت الدولة الفاطمية في الوهن والضعف إلى أن انقرضت سنة 566هـ/1170م، بعد موت الخليفة العاضد.(4)

---

(1) الذهبي: تاريخ الاسلام، ج12، ص23. مسفر بن سالم عريج الغامدي، الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، ط1، دار المطبوعات الحديثه، الطائف، 1986. ص271. محمد الشافعي، الناصر صلاح الدين الاتحاد قبل الجهاد، دار الجمهورية للصحافة، 2010م. ص60.

(2) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص132 ومابعدها. ابن شداد: المصدر السابق، ص76، ص77.

(3) أبو شامة: المصدر السابق،ج2، ص32.ابن واصل: المصدر السابق، ص155. ابن خلدون: المصدر السابق، ج4، ص101. المقريزي: المصدرالسابق، ج1، ص149.

(4) ابن شداد: المصدر السابق، ص80. الذهبي: دول الاسلام، ج2، ص68. جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي المتوفى 874هـ/1469م: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدم له وعلق عليه، محمد حسين شمس الدين، 16ج، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1413هـ/ 1992م. ج5، ص367. كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة، نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي، ط5، دار العلم للملايين، بيروت، 1968م. ص352.

استمر نور الدين محمود في جهاده ضد الصلبيين في بلاد الشام، ولكن هذه المرة في جنوب الأردن فحاصر الكرك* والتي كانت من أمنع معاقل الفرنج على طرف بر الشام، فقصدها فرنج الساحل، فرحل عنها. ونظراً لأهمية الكرك والشوبك*[1] خرج صلاح الدين سنة 568هـ/1172م يريدهما، وعاد، ولم يظفر منهما بشيء. (1) وفي السنة التالية توفي الأمير نور الدين تاركا وراءه في الحكم طفلا في الحادية عشرة من عمره هو الملك الصالح اسماعيل، ومات في نفس السنة عمّوري ملك بيت المقدس تاركا وراءه ابناً عاجزاً، وهذا من حسن الطالع لصلاح الدين الأيوبي. فبعث برسالة إلى الخليفة العباسي ببغداد، فحواها أنه لايستطيع فتح بيت المقدس ومنازلة الصليبيين، وهو بمصر لبعد المسافة، وأنه قادم إلى الشام لإصلاح الأمور وحفظ الثغور. (2)

وهذا مادفع أمراء الشام للصلح مع الفرنج أثناء حصار بانياس، خوفاً من صاحب الموصل شرقاً،وصلاح الدين غرباً، وهم مشغولون عن ردهم.(3) لكن صلاح الدين استطاع دخول دمشق سنة 570هـ/1174م، دون أدنى صعوبة، نتيجة الخلاف بين أمراء الشام، ثم تابع مسيره إلى حمص فسيطر عليها أولاً، ثم إلى حماة فملكها، فتفرغ لحلب، وكان فيها الصالح اسماعيل ابن نور الدين، ثم رحل عنها ولم يدخلها بعد توسط

---

*. مدينة محدثة كانت ديراً يتديره الرهبان، ثم كثروا فكبروا بناءه وكثؤوا ابناءه، وأوى إليهم أناس من مجاوريهم من النصارى فقامت لهم به أسواق ودارت لهم به معايش، واوت إليه الفرنج فادارت أسواره فصار مدينة مشهورة، ثم بنوا حصنه فكانت قلعة مذكورة فاستولى عليها الفرنج حتى فتح في زمان السلطلن الملك صلاح الدين ابن فضل الله العُمري: المصدر السابق، ج3، ص377.

*1. بلد صغير كثير البساتين وغالب ساكنيه النصارى وهوشرقي الغوور وهوعلى طرف الشام من جهة الحجاز، فواكهها من المشمش وغيره، مفضله وتنقل إلى ديار مصر. أبو الفدا: تقويم البلدان، ص247.

(1).ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج11، ص353. ابن شداد: المصدر السابق ، ص83،ص87. شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي 748 هـ/ 1374م. العبر في خبر من غبر، تحقيق، أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، 4ج، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1405هـ/1985م. ج3، ص49. ابن خلدون: المصدر السابق،ج5، ص292. المقريزي: المصدر السابق،ج1، ص157.

(2) أبو شامة: المصدر السابق، ج2، ص208. ابن خلدون: المصدر السابق،ج5، ص297. أحمد مختار العبادي:في تاريخ الأيوبيين والمماليك، (ب ط)، دار النهضة العربية، بيروت، 1995م. ص45. السيد الباز العريني: الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ط1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت، 1989م. ص60.

(3) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج11، 409. أبو شامة : المصدرالسابق، ج2، ص211، ص212.

ابنة نور الدين عنده، وعندما علم أن القمص ريمند سار إلى حمص بطلب من أهل حلب المحاصرة، لكن صلاح الدين وصل حمص فسيطر على قلعتها الحصينة وقلعة بعلبك، فصار أكثر الشام بيده.(1) ثم أمر بقطع خطبة الملك الصالح إسماعيل صاحب حلب ، وأزال اسمه عن السكّة، بعد أن طلب الملك الصالح من عمه سيف الدين النجدة ليأخذوا الشام من صلاح الدين الأيوبي، وبعد قتال الطرفين في الشام هُزم سيف الدين فعاد إلى حلب فنازلهم صلاح الدين بها محاصراً ومقاتلاً حتى طلبوا الصلح، فرحل عن حلب.(2) وفي هذه السنة، أي 570هـ/1174م،حرر صلاح الدين قلعة بقرين، ثم سار إلى بزاغة* فتسلمها بعد حصارها، وواصل الزحف إلى منبج فسيطر عليها وعلى قلعتها، ثم تسلم قلعة إعزاز*1 بعد حصار دام ثمانية وثلاثين يوماً.(3) استغل الفرنج اقتتال أمراء الشام ، فهاجموا البقاع، وطائفة أخرى منهم هاجموا أعمال دمشق، في الوقت الذي غادر فيه صلاح الدين إلى مصر، لأنه كان قد طال غيابه عنها، ولم يكن غيابه عنها إلا خوفاً على الشام.(4)

واصل صلاح الدين انتصاراته على الفرنج، وعلى بعض الأمراء في السنوات اللاحقة ، بعد هزيمته في الرملة سنة 573هـ/1177م. فقد نزل على بانياس هزم الفرنج، ثم أخذ حلب من عز الدين الذي أوصى له الملك اسماعيل بعد وفاته.(5)

---

(1) ابن شداد: المصدر السابق، ص92، ص97. أبو شامة: المصدر السابق،ج2، ص222 وما بعدها.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ،ج11، ص421' ص422. ابن واصل: المصدر السابق ،ج2، ص23، ص33.

*. من أعمال مدينة الباب ذات بساتين كثيرة، وتقع شمال مدينة حلب. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص247.

*1. بلدة تقع في الشمال الشرقي من مدينة حلب. الشيخ أبي العباس أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي، المتوفى 821هـ/1418م. صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، طبعة المطبعة الأميرية،القاهرة 1332هـ/1914م. ص127.

(3) أبو شامة: المصدر السابق، ج2، ص252، ص266. ابن واصل:المصدر السابق ، ج2، ص42، ص46. فايد حماد محمد عاشور الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي، ط1، دار الإعتصام للطباعة والنشر، القاهرة، ص67.

(4) أبو شامة :المصدر السابق،ج2، ص277، ص278. ابن واصل :المصدر السابق،ج2، ص52، ص59.

(5) المصدر نفسه ،ج2، ص304، ج3، ص19، ص51 الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج3، ص67، ص73، ص74.

لقد تنقل السلطان صلاح الدين بين مصر والشام عدة مرات، ففي سنة 580هـ/1184م، نزل الكرك ونصب عليها المجانيق، فجاءتها نجدات الفرنج، فسار عنها(1) وهاجم نابلس*.

أما قمة انتصارته في الشام فكانت سنة 583هـ/1187م، فقد فتح بالشام فتحا مبينا ورُزق نَصراً مُبينا، وَهَزَم الفرنج وأسر ملوكهم، وتمتد هذه المرحلة إلى سنة 589هـ/1193م. وتعتبر معركة حِطّين بداية لها، فقد استنفر الناس للجهاد في العراق والشام ومصر، فبلغت عدتهم أثنى عشر ألف فارس، سوى المتطوعة.(2) ثم سار إلى طبريا وأخذها من الفرنج بالقتال، فما كان من الفرنج إلا الاستعداد لمنازلة صلاح الدين، فالتقى الجمعان في حطين، واشتد القتال، وصبر الفريقان، إلا أن الفرنج اشتد بهم العطش وانخذلوا، وكان بعض المسلمين من المتطوعة قد ألقى في تلك الأرض ناراً، فكان الحشيش كثيراً فاحترق، وكانت الريح على الفرنج فحملت حر النار والدخان، وحر القتال، فأحاط بهم المسلمون، فكان من يرى القتلى لايظن أنهم أسروا واحداً، ومن يرى الأسرى لايظن أنهم قتلوا أحداً.(3) تابع صلاح الدين بهذا النصر مسيره إلى طبريا فسيطر على قلعتها، ثم إتجه إلى عكا فدخلها بعد رحيل أهلها، وأثناء مقام صلاح الدين في عكا تفرق عسكره إلى الناصرة، وقيسارية*1 وحيفا، وصفورية، ومعليا، والشقيف، والغولة. ثم واصل زحفه إلى تبنين، وصيدا، وبيروت. فتسلمها جميعاً.(4)

---

(1) الذهبي : العبرفي خبر من غبر، ج3، ص79. ابن كثير : المصدر السابق ،ج2، ص1936.

*.مدينة مشهورة بأرض فلسطين بين جبلين مستطيلة ،وبها اجتماع السامرة، وهم طائفة من اليهود. القزويني: المصدر السابق،ص277.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج11، ص530. ابن شداد: المصدر السابق، ص126. الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج3،ص85.

(3) المصدر نفسه، ج11، ص536، ص537.ابن شداد: المصدر نفسه، ص127.الذهبي : دول الاسلام، ج2، ص90. ابن كثير : المصدر السابق، ج2، ص1939.ابن خلدون: المصدر السابق، ج5، ص358.

*1.مدينة بساحل بحر الشام من أعمال فلسطين، وكانت من أمهات المدن العظام وهي اليوم خراب. أبو الفدا: تقويم البلدان، ص241.

(4) ابن شداد: المصدر نفسه، ص131،ص132. ابن واصل: المصدر السابق، ج2، ص209، ص211.

وقد عزم صلاح الدين على فتح بيت المقدس لما لها من أهمية في القلوب.(1) فبدأ بحصار عسقلان* فتسلمها من الفرنج بعد قتال وحصاراستمر أربعة عشر يوماً، ولما فرغ منها تقدم إلى بيت المقدس، وقد دافع عنها الفرنج بأشد القتال، فلما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين، وأنهم أشرفوا على الهلاك، طلبوا الأمن، وتسليم بيت المقدس لصلاح الدين سنة 583هـ/1187م.(2)

أكمل صلاح الدين فتوحاته في بلاد الشام، بفتح جبلة*1 واللاذقية*2 وسرمينية، وبرزية، وقلعة صفد، والكرك ومايجاورها، وكوكب، وشقيف، وقد أمضى بقية حياته في قتال الصليبيين إلى أن توفي في دمشق عام 589هـ/1193م.(3) وكان قد قسم دولته بين أبنائه وإخوته، وبني عمومته، وأبنائهم. فتولى ابنه الأفضل حكم دمشق والساحل وبيت المقدس وبعلبك*3 وصرخد وبصرى*4 وبانياس. وتولى مصر ابنه العزيز عثمان، وحلب ابنه غياث، واليمن أخوه سيف الاسلام، والكرك والشوبك أخوه العادل. وكان حجم الوجود الصليبي في كل بلاد الشام قد انكمش بعد حرب السنين السبع التي شنها صلاح الدين ضد الصليبيين. (4)

---

(1) ابن شداد: المصدر السابق، ص133 ومابعدها.

*. من جملة ثغور الإسلام الشامية، وهي على ضفة البحر، وهي من أجل مدن الساحل. أبو الفدا: تقويم البلدان، ص241.

(2) ابن واصل: المصدر السابق، ج2، ص209، ص211. ابن كثير: المصدر السابق، ج2، ص1939. ابن خلدون: المصدر السابق،ج5، ص360-361.

*1.بلدة صغيرة وبها مزار اشتهر أنه قبر إبراهيم بن آدم. أبو الفدا: تقويم البلدان، ص255.

*2.بلدة كبيرة ذات قلعة بأسوار على جبل وبها بساتين ونهر صغير. المصدر نفسه، ص257.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج12،ص10،8، 14، 15، 21، 22، 23، 28، 96.ابن كثير : المصدر السابق، ج2، ص1943. ابن خلدون: المصدر السابق، ج5، ص364- 367.

*3.بلدة قديمة ذات أسوار ولها قلعة حصينة عظيمة البناء وهي ذات أشجار وأنهار، أبو الفدا: تقويم البلدان، ص255.

*4. مدينة كورة حوران وهي مدينة أزلية مبنية بالحجارة السود. المصدر نفسه، ص253.

(4) ابن واصل: المصدر السابق، ج2، ص3، ص4. ابن كثير: المصدرالسابق، ج2، ص1955. قاسم عبده قاسم الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري، عين للدراسات والبحوث، ص83، ص84. جاسم محمد جاسم محمد:الأهمية السياسية والعسكرية لقيام دولة المماليك البحرية في مصر وبلاد الشام(648-784هـ/1250-1382م)،مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، المجلد6، العدد 1، السنة السادسة.ص1.

ولكن رافق ذلك الإنكماش الصليبي وقوع الخلافات الأيوبية، فقد قدم العزيز من مصرليأخذ دمشق من أخية الأفضل، فمانعه أخوه ودافع عنها، فتدخل عمهما العادل وأصلح بينهما.(1) ثم عاد العزيز مرة ثانية، وثالثة، وفي هذه المرة اصطحب عمه العادل، ودخلا دمشق قهراً وأخرجا منها الأفضل. وعلةُ هذه الحملات على دمشق كان بسبب سوء أخلاق الأفضل، وقد تولى حكمها العادل، ثم سار إلى يافا فحررها من الفرنج.(2) فجمعت الفرنج جموعها، فحاصروا تبنين، فاستدعى العادل ابن أخيه العزيز من مصر والأفضل من صرخد لنجدتة فتراجعت الفرنج عن ذلك.(3)

توالت الأحداث بعد وفاة العزيز سنة 596هـ/1199م، فتوجه الأفضل من صرخد إلى مصر واصطحب ولد العزيز وخرجا إلى الشام بالعساكر فحاصر دمشق وأحرق ما فيها.(4) وفي هذه السنة سيطر العادل على مصر بعد قتال وهزيمة الأفضل، وقطع خطبة الملك المنصور ابن العزيز، وخطب لنفسه. وفي هذا الأثناء تقدم الفرنج عام 600هـ/1203م، في البحر إلى الشام، ورسوا بعكا وعزموا على قصد بيت المقدس، لاستنقاذه من المسلمين، فأرسل الملك العادل العساكر من الشام ، ومصر فنزل عند الطور بالقرب من عكا لمنع الفرنج من قصد بلاد الشام.(5)

لم يفقد الفرنج الأمل بعودتهم إلى القدس مرة ثانية، ففي عام 614هـ/1217م، أقبلت الفرنج من البحر إلى عين جالوت ليأخذوا القدس، فخاف العادل وعجز وتأخر، وتهيأ أهل دمشق للحصار، وتحصنوا، فما كان من العادل الإ أن أمر بتخريب الطور، فسار

---

(1) ابن كثير: المصدر السابق، ج2، ص1956. ابن خلدون: المصدر السابق،ج5، ص384-385.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج12، ص121، ص122. شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل أبو شامة المتوفى665هـ/1266م تراجم رجال القرنين السادس والسابع" المعروف بالذيل على الروضتين"، عني بنشره، عزت العطار الحسيني، ط1، ط2، دار الجيل، بيروت، 1947م، 1974م. ص7، ص15.ابن واصل:المصدر السابق، ج3، ص46، ص61، ص75.

(3) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج4، ص258. الذهبي: دول الاسلام، ج3، ص103.

(4) أبو شامة: تراجم رجال القرنين، ص16. ابن واصل: المصدر السابق، ج3، ص91.

(5) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج12، ص156، ص195. ابن واصل: المصدر نفسه، ج3، ص115، ص159.

الفرنج ليأخذوا جزين فأخلاها أهلها، ثم كسروا الفرنج، وقتلوا وأسروا أكثرهم.(1) وبعد وفاة الملك العادل سنة 615هـ/1218م، وكان قد قسم البلاد في حياته بين أولاده، الملك الكامل، والملك المعظم عيسى، والملك الأشرف موسى. فاجتمعت كلمتهم على دفع الفرنج عن الديار الإسلامية.(2)

طمع الصليبيون في بلاد الشام، بعد وفاة صاحب دمشق الملك المعظم عيسى سنة 624هـ/1226م، فخرجوا من بلادهم في الغرب إلى بلادهم التي بالشام،عكا وصور وغيرهما (3) وفي سنة 626هـ/1228م، أخذ الفرنج بيت المقدس بعد المراسلات بين الملك الكامل، وأخيه الملك الأشرف مع ملك الفرنج فجرى الاتفاق على أن يسلموا بيت المقدس للفرنج ومعه مواضع يسيرة من بلاده، وتظل باقي البلاد بيد المسلمين.(4)

وكان الملك الأشرف قد سيطر على دمشق من ابن أخيه عنوة بدعم من أخيه الكامل صاحب مصر، ثم زحف الملك الكامل إلى مدينة حماة فملكها، وعاد الكامل عام 635هـ/1237م وتملك دمشق بعد موت أخيه الملك الأشرف،الذي عهد بدمشق إلى أخيه الملك الصالح.(5)

اتسمت الفترة الأخيرة من عمر الدولة الأيوبية، بالخلافات بين الملوك، فبعد موت الملك الكامل صاحب مصر سنة 635هـ/1237م، تولى ابنه الملك العادل مصر، وطمع

---

(1) أبو شامة: تراجم رجال القرنيين، ص102، ص102، ص109. أبي واصل: المصدر السابق، ج3، ص254. الذهبي: تاريخ الاسلام، ج13، ص273، ص274.ا أبو محمد عبدالله بن أسعد بن علي بن سلمان اليافعي المتوفى 768هـ/1370م.مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، 4ج، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1417هـ/1997م. ج4، ص24.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج12، ص252، ص253، ص264. أبو شامة: تراجم رجال القرنيين، ص111. ابن واصل: المصدر السابق، ج3، ص254. اليافعي: المصدر السابق، ج4، ص25. ابن خلدون: المصدر السابق،ج5، ص400.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، ج12، ص473، ص478. أبو شامة: تراجم رجال القرنيين، ص152.

(4) المصدر نفسه، ج12، ص483، ص478. أبو شامة: الروضتين،ج5، ص233. ابن واصل: المصدر السابق، ج4، ص241. اليافعي: المصدر السابق، ج4، ص47.

(5) أبو شامة: تراجم رجال القرنيين، ص154، ص155، ص165. اليافعي: المصدر نفسه ، ج4، ص47، ص69.

الملك الجواد في ملك دمشق، وكان يذكر اسمه في الخطبة بعد ابن عمه الملك العادل، أما الملك الناصر داود فقد استولى على غزة والسواحل التي كانت بيد عمه الكامل، وقام صاحب حمص أسدَ الدين شيركوه بالإغارة على حماة وتدمير ضياعها عندما علم بموت الكامل، وكان صاحبها المظفر تقي الدين محمود ابن أخت الكامل.(1)

أما عسكر حلب التي تولى قيادتها الملك المعظم فخر الدين توران شاه بن صلاح الدين بأمر من الصاحبة جدة الملك العزيز، نزلت على المعّرة* واستولت عليها ، وحاصرت حماة ونهبت ضياعها، في الوقت الذي نجح فيه الملك الصالح نجم الدين ابن الملك الكامل من الوصول لدمشق والاستيلاء عليها، وتعويض الملك الجواد سنجار وغيرها، ونجح في انتزاع مصر من أخيه العادل سنة 637هـ/1239م، وتملك الصالح اسماعيل عم الملك الصالح نجم الدين دمشق، ثم عاد الملك الصالح نجم الدين وانتزع دمشق من عمه اسماعيل سنة 643هـ/1245م، ثم سار إلى بعلبك، وصرخد وبصرى، أما القدس فقد أمر بعمارة سورها. وبهذا تكون الشام قد خضعت لسيطرة الملك الصالح نجم الدين أيوب.(2)

وبوفاة الملك الصالح، قصد صاحب حلب الملك الناصر دمشق فسيطر عليها، ثم قصد مصر ليمتلكها، فالتقى بالمصريين وهزمهم، ودخل الشاميون مصر، ثم كانت الدائرة عليهم فانهزموا. أما ابن الملك الصالح توران شاه فقد قُتل على يد الأمراء

---

(1) ابن واصل: المصدر السابق ، ج5، ص171- 177. الذهبي: دول الاسلام، ج2، ص146. اليافعي: المصدر السابق، ج4، ص69، ص73. ابن كثير: المصدر السابق ، ج2، ص2020. سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، طبعة جديدة، دار النهضة العربية، القاهرة ،1996م. ص117.

*.بلدة بين حلب وحماة، كثيرة التين والزيتون، ينسب إليها أبو العلاء المعري، البكري: المصدر السابق، ص32.

(2) أبو شامة: تراجم رجال القرنيين، ص169. ابن واصل: المصدر السابق ، ج5، ص181، ض182، ص202، ص348. الذهبي: دول الاسلام، ج2، ص161. اليافعي: المصدر السابق، ج4، ص73،ص74.ابن خلدون: المصدر السابق،ج5، ص413. المقريزي: المصدر السابق، ج1، ص391،ص420. سعيد عاشور: المرجع السابق، ص117-ص119.

البحرية بعد شهرين من حكمه، وفي سنة 648هـ/1250م، تولى المعز عز الدين أيبك التركماني مصر، وبذلك يكون تأسيس دولة المماليك البحرية أو التركية.(1)

بقيت الشام ذات أهمية سياسية في فترة الدولة المملوكية البحرية، فبعد أن أزال المعز أيبك الملك الأشرف موسى من السلطنة، وقتل رأس الأمراء أقطاي، وتسلطن المعز،هربت البحرية إلى صاحب الشام الناصر يوسف، فقوّوا عزمه على النهوض ليأخذ مصر، فجهز جيشا يقوده الملك توران شاه ابن السلطان الكبير صلاح الدين فاتجهوا إلى غزة، وخرج من مصر الملك المعزعز الدين أيبك للقاءهم فلم يتم قتال.(2)

أما التطور السياسي الخطير الذي حدث في الشام سنة657هـ/1258م، فهو نزول التتار إلى حلب واحتلالها، وقد استمر القتل والسبي والحريق خمسة أيام فيها، وكان صاحبها أنذاك توران شاه، ويعود سبب هذا الانتصار إلى التحالف الذي تم بين القوات المغولية والأرمنية والتي بلغ عددها ستة عشر ألف مقاتل، وجاءت الأخبار إلى دمشق فهرب الناصر يوسف، وسلمت مفاتيح دمشق وحماة إلى هولاكو، وتسلم التتار قلعة بعلبك، ودخلوا نابلس وغيرها عنوة. فخرج المظفر قطز في جيش مصر والشام للقاء التتار في عين جالوت سنة 658هـ/1259م، فانهزمت التتار، وواصل الأمير بيبرس ملاحقة التتار إلى حلب وطمع أن تكون له.(3) وفي سنة 659هـ/1260م، اجتمع خلق من التتار ممن نجوا من يوم جالوت، فأغاروا على حلب، ثم ساروا إلى حمص، لما بلغهم مصرع قطز، ولكن النصر كان حليف المسلمين، وقد تمكن بيبرس سنة

---

(1) الذهبي: دول الاسلام، ج2، ص164، 166.ابن كثير: المصدر السابق،ج2، ص2033.
المقريزي: المصدرالمصدر السابق، ج1، ص441، ص462.

(2) الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج3، ص268.

(3) أبو شامة: تراجم رجال القرنين، ص203. الذهبي: دول الاسلام، ج2، ص176، ص . ابن خلدون:المصدر السابق، 177، ج7، ص694.صارم إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي الملقب بإبن دقماق المتوفى809هـ/1403م. نزهة الآنام في تاريخ الإسلام، تحقيق، سمير طباره، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 1420هـ/1999م. ص259، ص263. عباس عبد الستار عبدالقادر الزهاوي: التحالف الصليبي المغولي ضد العالم الإسلامي (651-722هـ/1253-1322م)، مجلة التراث العلمي العربي، العدد الأول، 2014م، ص154-155.

663هـ/1264م، من محاصرة قيسارية وافتتحها عنوة، ثم نازل أرسوف، وأخذها بالسيف. ثم أكمل بث جيوشه بالسواحل، فأغاروا على عكا،وصور، وطرابلس، وحصن الأكراد ، ثم نزل على صفد وأخذها بخديعة.(1) وتوج الأمير بيبرس انتصارته في الشام عام 666هـ/1267م، بفتح يافا بالقتال، وقلعتها بالأمان، واستولى على الشقيف* وأغار على أعمال طرابلس، وأخضع حصن الأكراد، ثم رحل إلى حماة وفامية، ثم سار إلى انطاكية وأخذها في أربعة أيام.(2)

كرر التتار هجومهم عدة مرات، ففي سنة671هـ/1272م، نزل التتار البيرة*1 وكان السلطان بيبرس في دمشق فأسرع السير إليهم ووقعوا على التتار فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، ثم عاد التتارسنة 679هـ/1280م، إلى حلب فقتلوا وأحرقوا، وفي السنة التالية أقبلت التتار كالسيل، وكان السلطان المنصور قلاوون بدمشق، فتهيأ لذلك فكانت وقعة حمص وانهزم التتار بعد ملحمة بين الطرفين.(3)

ومن الانتصارات التي تحققت في بلاد الشام على يد السلطان المنصور قلاوون تحريره لطرابلس بالقوة، بعد مائة وخمس وثمانين سنة وهي بيد الفرنج، ثم تابع الملك الأشرف سيرة والده المنصور بعد وفاته سنة 689هـ/1290م، في تحرير مدن بلاد الشام، فقد فتح مدينة عكا وصيدا، وبيروت، وصور، وقد مضى على صور وهي بيد الفرنج مائة وسبعون سنة. ثم سار إلى حلب فدخلها، ثم نازل قلعة الروم فيها ففتحها

---

(1) ابن شداد: المصدر السابق، ص33. أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج4، ص2. الذهبي: دول الاسلام، ج2، ص184، علي محمد الصلابي المغول(التتار) بين الانتشار والانكسار، ط1، الأندلس الجديدة، مصر، 2009م. ، ص368.

*.من أعمال صفد، وهو حصن بين دمشق والساحل، بعضه في الصخر وله صور. الأعشى: المصدر السابق،ج4، ص154.

(2) ابن شداد: المصدر السابق، ص36. أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر،ج4، ص4.الذهبي: دول الاسلام،ج2، ص188.

*1.قلعة حصينة مرتفغة على حافة الفرات،وهي بلدة ذات سوق وعمل، وهي ثغر الإسلام في وجوه التتر.أبو الفدا: تقويم البلدان،ص269.

(3) ابو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج4، ص14، ص15. الذهبي: دول الاسلام، ج2، ص191، ص202، ص203. ابن خلدون: المصدر السابق،ج7، ص694. المقريزي: المصدر السابق، ج2، ص136. عبادة بن عبدالرحمن رضا كحيلة: العقد الثمين في تاريخ المسلمين، ط1، دار الكتاب الحديث، الكويت ، 1996م. ص307.

عنوة.(1) وبعد وفاة الأشرف شهدت البلاد الشامية عدم استقرار سياسي تمثل في قصر مدة حكم السلاطين، فقد تولى السلطان الملك الناصر ناصر الدين لمدة عام، ثم السلطان الملك العادل كتبغا مدة عامين، ثم السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين مدة عامين أيضاً.(2) وتميز سلاطين هذه الفترة بالضعف في مواجهة العدو، فقد هرب السلطان الملك الناصر محمد سنة 699هـ/1299م، أمام التتار في الشام في طائفة من الجيش على ناحية بعلبك والبقاع، ونزل التتار إلى دمشق ونهبوا وأحرقوا. وفي السنة التالية قصدت التتار الشام، وهم عازمون على دخول مصر، فرجع السلطان إلى مصروكان قاصداً الشام، فذهب الشيخ ابن تيمية للسلطان ليستحثه على القتال، ولم يزل يحثه حتى جردت العساكر إلى الشام.(3)

وفي عام 702هـ/1302م، كرر التتار هجومهم على الشام، ووصلوا إلى حمص، وبعلبك، وعاثوا فسادا، وقد اجتمع أمراء الشام على كلمة سواء، وبدعم من الجيوش المصرية كُسِرالتتار. وفي عام 712هـ/1312م، وصل التتار إلى الرحبة وحاصروها، وقاتلهم نائبها الأمير بدر الدين ومنعهم منها.(4)

ونظراً لأهمية الشام السياسية في العصر المملوكي، كان السلاطين يصرون على أخذ البيعة لهم من الشام، فعندما تولى الملك المنصور بن الناصرمحمد الحكم سنة

(1) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج4، ص23-26. الذهبي: دول الاسلام، ج2، ص211-216. ابن كثير: المصدر السابق، ج2، ص2096-2098. المقريزي: المصدر السابق، ج2، ص211، ص224، ص233.

(2) ابن كثير: المصدر السابق، ج2، ص2110. المقريزي: المصدر السابق، ج2، ص249، 259، 272، 307، 310. يوسف الملواني الشهير بابن الوكيل المتوفى 1131هـ/1719م: تحفة الأحباب بمن ملك مصرمن الملوك والنواب، تحقيق، محمد الششتاوي، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة،1419هـ/1999م. ص66.

(3) الذهبي: تاريخ الاسلام، ج15،ص702، ص703، ص719. ابن كثير: المصدر السابق، ج2، ص2112، 2113، ص2116. زاهدة محمد طه المزوري: العلاقات المملوكية المغولية في عهد سلطنة الناصر محمد المملوكي في ضوء رواية بيبرس الدودار ضمن كتابه مختار الأخبار، آداب الرافدين، العدد 58، 2010م.ص14

(4) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج4، ص48، 49، 70. الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج4، ص5، ص32. ابن كثير: المصدر السابق، ج2، ص2139، ص2121. المقريزي: المصدر السابق، ج2، 482. أحمد معمور العسيري: موجز التاريخ الاسلامي، ط1، مكتبة الملك فهد، الدمام، 1996م. ص 268.

741هـ/1340م، قدم الفخري لأخذ البيعة له من الشاميين.(1) وكان لهم دور في خلع السلاطين من حكمهم، فعندما عين الملك الأشرف كجك سلطاناً، وخطب له بدمشق، كان أخوه الملك الناصر أحمد بالكرك، فلما علم ولاية أخيه الذي هو أصغر منه، تحركت همته، وسار من الكرك إلى القاهرة، فتوجه قضاة الشام فاجتمعوا كلهم وخلعوا الملك الأشرف كجك، وبايعوا الملك الناصر أحمد، ثم عاد إلى الكرك بأمواله وخيله ورجاله، ومعه كاتب السر، وناظر الجيش. وعندما طلب أمراء الدولة منه العودة إلى القاهرة ورفض، اتفقوا على خلعه، وعقدوا الملك لأخيه الملك المظفر عماد الدين.(2)

يعلق ابن كثير على أهمية الشام في هذا الجانب فيقول:"إن أمراء مصر لما بادروا إلى خلع السلطان، ترددوا خوفاً من الشاميين أن يخالفوهم فيه، ويتقدموا في صحبة السلطان لقتالهم، ولكن بلغهم أن عند الشاميين نفس الرأي فبادروا إلى ذلك".(3) كما أنهم رفضوا سياسة السلطان الملك الكامل بعد توليه الحكم عندما عمل على تشتيتهم عن نياباتهم وسفك دمائهم، فلما بلغ أهل مصر موقف أهل الشام انعزلوا عن السلطان الكامل، واتفقوا على خلعه، وتولية أخيه الملك المظفر حاجي.(4)

وكثير ما كان يتمرد أمراء الشام على السطان، ففي سنة 753هـ/1352م، خرج نائب حلب ومعه نائب طرابلس، وحماة، والرحبة* وصفد، وطوائف التركمان قاصدين دمشق وكان نائبها أرغون الكاملي، فلما دخلوا دمشق فتحت حواصل الغلال وأخذت، ونهبت أرض الغوطة، وقد دفع هذا التمرد الملك الصالح القدوم إلى دمشق ومعه الخليفة

---

(1) ابن كثير: المصدر السابق، ج2، ص2195.

(2) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج4، ص136، ص138. الذهبي: العبر، ج4، ص125، ص126، ص127، ص128. محمد عدنان البخيت: مملكة الكرك في العهد المملوكي،ط1، 1976م. ص80.

(3) ابن كثير: المصدر السابق، ج2، ص2200.

(4) المصدر نفسه، ج2، ص2200. السير وليم موير: تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995م. ص111.

*.مدينة شرق نهر الفرات، حصينة عامرة ، لها أسواق وعمارات وكثير من التمر، الحميري، المصدر السابق، ص268.

المعتضد وعسكر مصر والشام.(1) وفي عام 762هـ/1360م، من مصر السلطان الملك المنصور لإخماد تَنَمر نائب الشام الأمير سيف الدين الخوارزمي. وعندما استولى الفرنج سنة 767هـ/1365م، على الأسكندرية، وأحرقوا أبوابها وقتلوا رجالها، وأخذوا أموالها، وعاثوا فيها فساداً، جاء مرسوم من الملك الأشرف بن الحسين بمسك النصارى من الشام جملة واحدة، وأن يأخذ منهم ربع أموالهم لعمارة ما خرب بالأسكندرية، ولعمارة مراكب تغزو الفرنج.(2)

لقد تجددت حملات الفرنج على الشام في الفترة الأخيرة من عهد الدولة المملوكية البحرية، فقد أغارت الفرنج عام 769هـ/1367م، على طرابلس، واقتحموا المدينة، ونهبوا أسواقها، فحمل المسلمون عليهم واشتدوا في قتالهم حتى أخرجوهم.(3)

وفي نهاية الدولة المملوكية البحرية منح الأمير برقوق لقب أمير آخور* واستقر أميراً كبيراً "أتابك العساكر"*1 وتقاسم الأمر هو والأمير بركة، وبوفاة الملك المنصور 783هـ/1381م، تبدأ مرحلة الدولة المملوكية الثانية (البرجية).(4)

---

(1) الذهبي: العبر في خبر من غبر،ج4، ص159. ابن كثير: المصدر السابق، ج2، ص2218.

(2) المصدر نفسه، ج4، ص189. ابن كثير: المصدر نفسه، ج2، ص2250. المقريزي: المصدر السابق،ج4، ص256

(3) المقريزي: المصدر نفسه،ج4، ص311.

*. هو المشرف على اصطبل السلطان وخيوله ويسكن باصطبل السلطان، محمد أحمد دهمان: معجم اللفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، 1999م. ص20.

*1. الأتابك أو الأطابك معناه الوالد أو الأمير باللغة التركية. والمراد به أبو الأمراء، وهو أكبر الأمراء المتقدمين بعد النائب. محمد دهمان: المرجع نفسه، ص11.

(5) ابن خلدون: المصدر السابق،ج7، ص699. المقريزي: المصدر السابق،ج5، ص40 ومابعدها، ص103ومابعدها. ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج11، ص152.ص153.

الفصل الأول

العصر المملوكي الثاني

أولاً: أصل المماليك
ثانياً: تربية المماليك وتدريبهم
ثالثاً: ظهور المماليك الجراكسة
رابعاً: إزدياد نفوذ البرجية
خامساً: قيام دولة المماليك البرجية
سادساً: العلاقات الخارجية والأحداث التاريخية
1.الصدام التيموري المملوكي
2.العلاقة مع قبرص
3.العلاقة مع رودس
4. الصدام مع البرتغالين
5. العلاقات المملوكية العثمانية

العصر المملوكي الثاني

أولاً: أصل المماليك

ورد في القرآن الكريم آيات في هذا المعنى" مَا مَلَكَت أيمانكُم"و"مَامَلَكَت أيمانُهُم"و"مما مَلَكَت أيمانُكم"(1) وفي العربية المملوك: جمعه مماليك، اسم مفعول مشتق من الفعل " ملك "، ويقال عبد مملكة بفتح اللام وضمها إذا سُبي وُملك دون أبويه.(2)

وفي لسان العرب: " إن المملوك هو العبد، الذي مُلِكَ ولم يُملَكْ أبواه". وفي التهذيب: الذي سُبيء ولم يُملَكْ أبواه، ويختلف العبد المملوك عن العبد القن فالأول يُستعبد وهو حر، والثاني مُلكَ هو وأبواه، وهو مشترى. وفي المعجم الوسيط:" هو العبد الذي يباع ويشترى وجمعها مماليك". ويطلق عند أهل الشام على الأبيض من العبيد مماليك وكان أصلهم عبيد من الشركس.(3) ولفظ مملوك كان معناه في الأصل الرقيق الأبيض. الذي كان يجلبهم التجار غير العرب من أسواق النخاسة البيضاء، من شبه جزيرة القرم، وبلاد القوقاز والقفجاق وآسيا الصغرى وتركستان وبلاد ما وراء النهر، ففيهم عنصرالأتراك ومنهم الشراكسة والروم والأكراد وبعضهم من أوروبا أيضاً. (4)

---

(1) سورة النساء: آيات 3، 24، 25، 36. سورة النحل: آية 71. سورة النور: آيات 31، 33، 58. سورة الروم: آية 28.

(2) سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ط2، دار النهضة العربية، القاهرة، 1976م. ص1.
علي محمد الصلابي: السلطان سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت، ط1، مؤسسة اقرا للنشر، القاهرة، 1430هـ/2009م، ص21

(3) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظورالمتوفى711هـ/1311م،لسان العرب، 15ج، دار صادر، بيروت، 1968م.
ج10، ص493. المعلم بطرس البستاني: محيط المحيط، طبعة جديدة، مكتبة لبنان، بيروت، 1987م. ص863.مجموعة مؤلفين: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، 2004م. ج1، ص886. حسن الباشا: الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، 1989م. ص 507.

(4) ابن أم قاسم المرادي المتوفى 749هـ/1348م، توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، تحقيق، عبدالرحمن علي سليمان، 6ج، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة،1422هـ/2001م. ص11. محمد سهيل طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ط1، دار النفاس، بيروت، 1997م. ص15. أحمد عودات: تاريخ المغول والمماليك، دار الكندي، إربد، 1990م. ص61.

وبعضهم يؤسرون أثناء الحروب والمعارك، وكان أغلبهم قد انخرطوا كقادة وجنود ضمن تشكيلات الجيش، وكانت لا تمضي عليهم مدة من الزمن حتى يصلوا إلى مناصب رفيعة في الحكم.(1) وكان الخلفاء العباسيون هم أول من استخدم المماليك- الرقيق الأبيض- واعتمدوا عليهم في توطيد نفوذهم. والمعروف أن الدولة العباسية قامت على أكتاف الفرس في البداية، ولكن الخلفاء العباسيين أخذوا يخشون ازدياد نفوذ الفرس ويتشككون فيهم، فلجأوا إلى الإكثار من شراء مماليك من الترك ليعتمدوا عليهم في دعم نفوذهم وسلطانهم. وكان يعتقد أن هؤلاء المماليك مجردون من الطموح الذي اتصف به الفرس، والعصبية التي عرف بها العرب. (2)

وأول من قام باقتناء المماليك من العرب وجلبهم إلى الدولة الإسلامية هو الخليفة العباسي المعتصم بالله، حيث بعث إلى سمرقند* وفرغانة*1 والنواحي في شرائهم، وبذل فيهم الأموال وألبسهم أنواع الديباج ومناطق الذهب، وأمعن في شرائهم حتى بلغت عدتهم ثمانية آلاف مملوك، وقيل: ثمانية عشر ألفاً، ولأجلهم بنى مدينة سامراء*2.(3)

وأدى ضعف الدولة العباسية من جهة ورغبة حكام الولايات في الاستقلال من جهة أُخرى إلى اعتمادهم على مايشترونه من مماليك في تأليف جيوش يحققون بها مطامعهم، وفي جميع الحالات كان التطور يسير في نفس الطريق تقريباً، فالمماليك

---

(1) عبدالسلام جمعة محمد أمين: قادة المماليك الثلاث، قادة المماليك الثلاث(الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والأشرف خليل (658-693هـ/1260-1293م)، وتجديد دعوة الجهاد ضد الصلبيين وطردهم من أرض المسلمين، مجلة جامعة تكريت للعلوم، المجلد 20، العدد3، 2013م. ص204.

(2) سعيد عاشور: العصر المماليكي ، ص1. محمد سهيل طقوش: تاريخ المماليك، ص15. أحمد عودات: المرجع السابق، ص62.

*. مدينة من خرسان وهي مدينة حسنة كبيرة على جنوب وادي الصغد، لها مبان وقصور ساميه. الحميري: المصدر السابق، ص322.

*1. في خرسان على شط نهر الشاش على أرض مستوية ولها ربض كبير عليه سور، المصدر نفسه، ص440.

*2. هي سرّ من رأى وهي بالعراق بناها الخليفة العباسي المعتصم. المصدر نفسه، ص300.

(3) ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج2، ص285. جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى911هـ/1505م: تاريخ الخلفاء، ط1، دار ابن حزم، بيروت، 1424هـ/ 2003م. ص266.

الذين يجلبون صغاراً يحظون بعطف سادتهم وأساتذتهم فيتحررون ويزداد نفوذهم حتى يسيطروا على مقاليد الأمور في البلاد، وكانت مصر مثلاً بارزاً لنفوذ المماليك.(1) لكن الأمر الذي استحدثه الملك الصالح نجم الدين أيوب- وتبعه بعد ذلك سلاطين دولة المماليك- أنه كان لايأتي إلا بالمماليك الصغار في السن، أي في مرحلة الطفولة المبكرة، وكان غالبهم من بلاد غير مسلمة، وإن كان يحدث أحياناً أن يؤسر بعض الأطفال المسلمين غير الناطقين بالعربية، فلا يُعرفون، ولا يُعرف أصلهم أو دينهم، فيعاملون معاملة الرقيق.(2)

ويرى ابن خلدون أن الملك الصالح أراد الاستكثار من العصابة لحماية الدولة، وإقامة رسوم الملك، وأن ذلك يحصل باتخاذ المماليك، والإكثار منهم، كما كان آخراً في الدولة العباسية ببغداد، وأخذ التُجار في جلبهم إليه، فاشترى منهم أعداداً، وأقام لتربيتهم أساتيذ معلمين لحرفة الجندية، من الثقافة والرَّمي، بعد تعليم الآداب الدينية والخلَّقية إلى أن اجتمع له منهم عددٌ جمٌ يناهز الألف.(3)

ثانياً: تربية المماليك وتدريبهم

كانت تربية وتعليم وتدريب المماليك ذات أهمية كبرى بسبب المهمة المنوطة بهؤلاء المماليك وهي عبء الدفاع عن الدولة وحمايتها من أي إعتداء خارجي، ولابد للدولة أن تحسن تربية وتدريب هؤلاء المماليك ليكونوا على قدر المسؤولية ولذلك نجد الدولة الأيوبية قد ربطت التربية والتدريب بالدين لما له من أثر في تقوية النفوس، واستمرت الدولة المملوكية بعد ذلك على نفس الطريقة المتبعة في التربية والتدريب

---

(1) ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج6، ص294. سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص2-4. بروكلمان: المرجع السابق، ص365.

(2) راغب السرجاني: قصة التتار من البداية إلى عين جالوت، ط1، مؤسسة اقرأ للنشر، القاهرة، 2006. ص214، ص214. علي الصلابي: السطان قطز، ص24. علي شعيب: قراءة في نهاية الدولة المملوكية من خلال كتاب" بدائع الزهور في وقائع الدهور" لابن إياس، المؤتمر الدولي السادس لتاريخ بلاد الشام، جامعة دمشق، 2001م. 171. جاسم محمد جاسم، المرجع السابق، ص1.

(3) ابن خلدون:المصدر السابق، ج7، ص692-693.

لاعتبارات خاصة، تركز على دور الدين وكونه حافزاً حيوياً يخلق جندياً قادراً على خوض المعارك الفاصلة والثبات في المواجهة وغلق الخيارات أمامه في إحدى الحسنيين إما النصر أو الشهادة.(1) وبقدر ما يكون السلطان شديد البأس كثير المماليك، بقدر ما يفرض سيطرته على الأمراء، ويُلجم طوائف المماليك الأخرى، والعكس صحيح. ومن أجل ذلك، حرص السلاطين على الإكثار دائماً من شراء المماليك الصغار وتربيتهم ليصبحوا في المستقبل عدتهم، وأملهم في البقاء والاستمرار.(2)

وصفت تربية المماليك بالمتميزه، حيث يمتزج فيها تعليم الشرع بفنون الفروسية، والمحاسبة على السلوك والآداب. فقد أشار المقريزي إلى كيفية تربية المملوك الصغير فقال" إن أول المراحل في حياة المملوك هي أن يتعلم اللغة العربية قراءة وكتابة، ثم بعد ذلك يُدفع إلى من يعلمه القرآن الكريم، ثم يبدأ في تعلم مبادىء الفقه الإسلامي، وآداب الشريعة الإسلامية.. وُيهتم جداً بتدريبه على الصلاة، وكذلك على الأذكار النبوية ويُراقب المملوك مراقبة شديدة من مؤدبيه، فإذا ارتكب خطأ يمس الآداب الإسلامية نُبّه إلى ذلك، ثم عوقب"(3)

لهذه التربية المتميزة كان أطفال المماليك ينشأون عادة وهم يعظمون أمر الدين الإسلامي جداً، وتتكون لديهم خلفية واسعة عن الفقه الإسلامي، وتظل مكانة العلم والعلماء عالية عند المماليك طيلة حياتهم، وهذا مايفسر النهضة العلمية الراقية التي حدثت في زمان المماليك.(4) أما إذا وصل المملوك إلى سن البلوغ جاء معلمو الفروسية

---

(1) هاني فخري عطية الجزار: النظام العسكري في دولة المماليك (648-923هـ/ 1250-1517م)، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة، 2007م. ص27.

(2) ابن خلدون: المصدر السابق، ج7، ص693. المقريزي: المصدر السابق، ج2، ص218.ابن تغري بردي: المصدر السابق،ج6، ص294. سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص134. محمد طقوش: تاريخ المماليك، ص325. محمود شاكر: التاريخ الإسلامي (العهد المملوكي) ج7، ط5، المكتب الإسلامي، بيروت، 2000م.،ج7، ص22.

(3) المقريزي: المصدرالسابق، ج1، ص353-359. عبد السلام جمعة: المرجع السابق، ص204.

(4) علي الصلابي: السلطان قطز، ص27، ص30. راغب السرجاني: المرجع السابق، ص215.

ومدربو القتال فيعلموهم فنون الحرب والقتال وركوب الخيل والرمي بالسهام والضرب بالسيوف، حتى يصلوا إلى مستويات عالية جداً في المهارة القتالية، والقوة البدنية، والقدرة على تحمّل المشاق والصعاب.(1)

ويُذكر في هذا الصدد أن قلاوون أشرف بنفسه على تدريبهم على استخدام الرماح ورمي النشّاب، ودأب على الجلوس برحبة القلعة ليشهد تمرين كل طبقة بين يديه، كما نشأهم التنشئة الدينية المعروفة في الأوساط المملوكية في ذلك الوقت. ونتيجة لميله الواضح تجاهم، فقد خلق مجالاً من العنصرية بينهم، فزرع بذرة للتنافس العنصري بين المماليك.(2) ثم يتدربون بعد ذلك على أمور القيادة والإدارة ووضع الخطط الحربية، وحل المشكلات العسكرية، والتصرف في الأمور الصعبة، فينشأ المملوك وهو متفوق تماماً في المجال العسكري والإداري، وذلك بالإضافة إلى حمية دينية كبيرة. وفي كل هذه المراحل من التربية كان السيد الذي اشتراهم يتابع كل هذه الخطوات بدقة، بل أحياناً كان السلطان يطمئن بنفسه على طعامهم وشرابهم وراحتهم، وكان كثيراً ما يجلس للأكل معهم، ويكثر من التبسط إليهم، وكان المماليك يحبونه حباً كبيراً حقيقياً، ويدينون له بالولاء التام.(3)

وكان المماليك في الاسم أيضا ينتسبون إلى السيد الذي اشتراهم ورباهم، فمنهم الصالحية والعادلية والكاملية والأشرفية والمعظمية والناصرية والعزيزية.(4) وقد أحدث قلاوون في أيامه للمماليك وظيفة" نظر كتابة المماليك"، وموضوعها معرفة أسماء

---

(1) علي الصلابي: السلطان قطز، ص31. راغب السرجاني:المرجع السابق، ص215.

(2) بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى العيني المتوفى855هـ/1451م: عقد الجمان، 5ج(مملوكي) تحقيق، محمد محمد أمين، ط2، مطبعة دار الكتبوالوثائق، القاهرة،1431هـ/2010م. ج3، ص19. بن تغري بردي: المصدر السابق، ج7،ص278. حكيم أمين عبد السيد: قيام دولة المماليك الثانية،(ب ط)، الدار القومية للطباعة، القاهرة، 1966م. ص13.

(3) راغب السرجاني: المرجع السابق، ص215 ص216. سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص141.

(4) السيد الباز العريني: المماليك، ط1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1999م. ص41. راغب السرحاني: المرجع السابق، ص216، ص217.

الجند وأنسابهم، وقت العرض للأسفار(1) وعند تفرقة الجوامك* والنفقات، وما أشبه ذلك. ولما كانت هذه الفئة تنشأ نشأة حربية كان أسعدهم وأعظمهم مقدرة من تفك رقبته بأمر السلطان فيصبح أميراً على عشرة أو خمسين أو مائة، وقد يثب أحدهم وثبة واحدة تجعله أمير ألف. وكان الواحد منهم ينهض من درجة حاجب أو تابع تدريجياً حتى يصل إلى رتبة عالية في الحكم. فمملوك اليوم هو قائد الغد بل ليس بعزيز عليه أن يصبح سلطاناً.(2)

ثالثاً: ظهور المماليك الجراكسة

تسمية شركس كلمة أطلقها الأجانب في بداية الأمر على إحدى قبائل شعب الآديغة*1 ثم غدت مع الزمن تسمية عامة شملت كل الشعوب التي تستوطن شمال القفقاس*2 وقد اختلف في أصل هذه الكلمة، فمنهم من قال بالأصل اليوناني أو الروماني أو الفارسي. وعندما نقول شركسي لانخصص شعباً بعينه وإنما يقصد ما أريد بهذه الكلمة من تعميم يشمل كل شعوب شمال القفقاس الأصلية ويشمل أيضاً الشعوب المستوطنة قديماً وصارت شعوباً قفقاسية.(3) ويرى محمود شاكر أن "موطن الجراكسة هو الأرض المشرفة على البحر الأسود من جهة الشمال الشرقي، ولا تزال تعرف بهذا الاسم إلى هذا اليوم، ويقولون هم عن أرضهم أنها بلاد الأديغة، إذ أن الأديغة هو الاسم

---

(1) ابن إياس: بدائع الزهور، ج1، ص349.

*.كلمة فارسية وتعني الأجر أو الراتب أو المنحة. محمد دهمان: المرجع السابق، ص51.

(2) الذهبي : دول الاسلام،ج2، ص164. العيني: المصدر السابق، ج 2، ص229. ابن تغري بري: المصدر السابق، ج7، ص3. وليم موير: المرجع السابق، ص39. محمود شاكر: المرجع السابق، ج7، ص23.

*1. هم الشركس، وقد أجمع الشراكسة على أن هذا الاسم(إديغي) أو (أديغية) هو اسم قومي لهم. محمد بن ناصر العبودي: بلاد الشركس (الإديغي) ط1، مكتبة الملك فهد للنشر، 1420هـ/1999م. ص12.

*2.منطقة ساحل البحر الأسود حتى حوض نهر الترك مروراً بحوض الكوبان. برزج أمين سمكوغ: الشركس في فجر التاريخ، ط1، دار علاء الدين للنشر، دمشق، 1995، ص17، ص38.

(3) المرجع نفسه، ص38.

الذي يطلقونه على أنفسهم".(1) ونتيجة لانتشار هذه القبائل الجركسية في مناطقها الجبلية ووديانها، سهل غارات الخورازميين عليها إبان حركتهم التوسعية في بلاد القبجاق الجنوبية حيث مساكن الجراكسة، فأسروا كثيراً من رجالهم، وسبوا نساءهم وأولادهم. ثم خضعت هذه البلاد للمغول الذين اشتدت غارتهم عليها منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، وجلبتهم التجارة الخوارزمية ثم المغولية رقيقاً إلى الأقطار الإسلامية، فامتلأت بهم أسواق الرقيق، وتدنى ثمنهم بالمقارنة مع ثمن الرقيق من العناصر الأخرى.(2) وعندما أراد السلطان قلاوون(679-689هـ/1280-1290م) أن ينشأ فرقة جديدة من المماليك يعتمد عليها ضد منافسيه من كبار الأمراء، وتكون سنداً لأولاده وذريته في الاحتفاظ بالعرش.(3) ويعتقد أن اختيار قلاوون لهذا العنصر بالذات يعود إلى اشتهارهم بالشجاعة والقوة، ورواج تجارة الرقيق بينهم، فهم يبيعون أبناءهم وبناتهم لأسباب منها شظف العيش.(4) وبلغت عدة مماليكه اثني عشر ألف مملوك، وقيل سبعة آلاف وهو الصحيح. تأمّر منهم كثير، وتسلطن جماعة. وكان قد أفرد من مماليكه ثلاثة آلاف وسبعمائة من الآص والجركس، وجعلهم في أبرج القلعة وسماهم البرجية. وأقام نوابه في البلدان من مماليكه الذين أمرهم.(5)

وكانت حرمته عظيمة على مماليكه لا يستطيع الواحد منهم أن ينهر غلامه ولا خادمه خوفاً منه، ولا يجاهر أحد منهم بفاحشة، ولا يتزوج إلا إذا زوجه هو بعض

---

(1) محمود شاكر: المرجع السابق، ج7، ص70.

(2) المقريزي: المصدر السابق، ج2، 90. محمد طقوش: تاريخ المماليك، ص326.

(3) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص259.

(4) حكيم أمين عبد السيد: المرجع السابق، ص12.

(5) المقريزي: المصدر السابق، ج2، ص218. العيني: المصدر السابق، ج3، ص16. محمد بن أحمد بن إياس الحنفي المتوفى 930هـ/1525م: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق، محمد مصطفى، 5ج، ج1 وج2، ط1، فران شتاينر،فيسبادن،1395هـ/ 1975م، (طبع دار إحياء الكتب العربية، القاهرة)، ج3 وج4 وج5، الهيئة المصرية العامة، 1404هـ/1984م. ،ج1، ق1،361، ص362.

جواريه. ونتيجة لهذه العناية الشخصية بالمماليك الجدد، والميول نحوهم من قبل المنصور قلاوون، كان ذلك سبباً في خلق بداية للتنافس العنصري بين المماليك. (1)

يقول ابن تَغري بردي في هذا الصدد:" لو لم يكن من محاسنه إلا تربية مماليكه وكفّ شرهم عن الناس لكفاه ذلك عند الله تعالى، فإنه كان بهم منفعة للمسلمين، ومضرة للمشركين، وقيامهم في الغزوات معروف، وشرهم عن الرعية مكفوف".(2)

ويلخص عاشور ماسبق بالقول: "إذا كان السلطان المنصور قلاوون قد أعلنها في صراحة أنه كون فرقة المماليك البرجية لتكون حصناً مانعاً له ولأولاده، فإنه كان طبيعياً أن يهتم أولاد السلطان المنصور بتلك الطائفة التي أنشأها أبوهم لتكون حصناً لهم، وساعد على ذلك أن المنصور قلاوون لم ينجح فقط في تأسيس فرقة جديدة من المماليك، وإنما نجح في تأسيس بيت استمر يتوارث السلطنة نحو قرن من الزمن.(3)

رابعاً: ازدياد نفوذ البرجية

يقول العيني: أن قلاوون عندما احتُضِر استدعى ابنه الأشرف وأوصاه أن " يحفظ مماليكه ويحافظ عليهم، ويبالغ في الإحسان إليهم، ويستمر بهم على إقطاعاتهم ووظائفهم في مصر والشام، ويهتم بمصالحهم كل الاهتمام".(4) وكان مماليك والده لهم العمال والنواب بالأعمال، فأطاعوه جميعاً، فكانوا دعائم بنيانه، وقواعد أركانه.(5)

وهذا أكبر دليل على مدى أهمية المماليك للأسرة الحاكمة، ومدى الثقة التي منحتلهم.مما دفع السلطان خليل بن قلاوون(689-693هـ/1241-1293م) أن يسيرعلى

---

(1) ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج7، ص278. حكيم أمين عبد السيد: المرجع السابق، ص12.

(2) المصدر نفسه،ج7، ص278.

(3) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص142.

(4) العيني: المصدرالسابق،ج3، ص23.

(5) المصدرنفسه،ج3، ص23.

سنة أبيه في الإكثار من المماليك الجركس حتى إنه رغب في زيادة عددهم إلى عشرة آلاف مملوك، فاشترى في حكمه القصير حوالي ألفي مملوك من الجراكسة. وقضى مماليكه في دولة سلطانهم أيامهم بالهنا والسرور والخيرات فيما بينهم والهبات والتهادي، وشرط عليهم أن لا يبيت أحدٌ منهم في غير القلعة، وفي النهار يفعل ما يختاره. (1) لقد ترتب على هذا الإجراء نتيجتان: الأولى: انغماس المماليك البرجية في الحياة العامة ومشاكلها بعد أن خرجوا من عزلتهم واختلطوا بغيرهم من الطوائف العامة. والثانية: أن المماليك البرجية أو الجراكسة لم يلبثوا أن استثاروا حقد بقية طوائف المماليك الأتراك، بسبب ما تميز به المماليك البرجية من نعمة ومكانة.(2) ويتضح ذلك جلياً أن الأمير بيدرا نائب السلطنة- وهو من الترك- استغل فساد سمعة السلطان الأشرف خليل بين الناس، وتمكن بالاتفاق مع الأمير لاجين السلاحدار، وغيره من كبار الأمراء الترك على قتل السلطان وهو في إحدى رحلاته إلى الصيد أملاً في تنصيب نفسه في السلطنة.(3) لقد تسببت هذه الحادثة في إثارة المماليك الأشرافية لقتل أستاذهم، ولم تهدأ ثورتهم حتى قتلوا الأمير بيدرا شرَّ قتلة.(4) فقد روي أن الأشرفية أحاطوا بيدرا وقبضوا عليه وحزوا رأسه، وقيل: إنهم قطعوا يده قبل أن يحزوا رأسه، كما قُطعت يد أستاذهم الملك الأشرف بضربة السيف، ولما حزوا رأسه حملوه على رُمح وسيروه إلى القاهرة، فطافوا به ثم عادوا من القاهرة حتى وصلوا بر الجيزة.(5)

هيأت حادثة مقتل بيدرا وبعض الأمراء من الأتراك إلى صعود نفوذ المماليك البرجية وقد برز ذلك من خلال دورهم في تنصيب الناصر محمد بن قلاوون سلطاناً،

---

(1) العيني: المصدر السابق،ج3، ص208، ص211. ابن إياس: المصدرالسابق،ج1، ق1، ص378.

(2) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص143.

(3) شمس الدين أبي عبدالله محمد بن ابراهيم بن الجزري المتوفى(738هـ/1337م)، تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه (المعروف بتاريخ ابن الجزري)، تحقيق، عمر عبدالسلام تدمري، 3ج، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 1419هـ/1998م. ج1، ص191. ابن كثير: المصدر السابق،ج2،ص2101. المقريزي: المصدر السابق، ج2، ص24.

(4) حكيم أمين عبد السيد: المرجع السابق، ص14.

(5) ابن إياس: المصدر السابق، ج1، ق1، ص357.

وكان سنه وقتذاك ثماني سنوات على أن يكون كتبغا المغولي نائب السلطنة، وسنجر التركي في منصب الوزارة، وركن الدين الجشنكير أستاذ دار*(1) حقق المماليك البرجية نصراً آخرعلى الأمير كتبغا وأعوانه من الأتراك عندما حاصروا القلعة وقطعوا الماء، مما أضفى عليهم أهمية خاصة مهدت لازدياد تدخلهم في مشاكل السياسة الداخلية.(2) وهذا ما دفع كتبغا عندما تولى السلطنة(694-696هـ) بعد عزل السلطان محمد بن قلاوون لصغر سنة أن يعمل على كسر شوكة البرجية، فشتت عدداً كبيراً منهم، وخاصة المقيمين بالقلعة وأحل مكانهم من كان من جنسه، كما حرم عدداً من البرجية من إقطاعهم.(3) وكان كتبغا في وقت سابق يقول للسلطان" أنا مملوكك، ومملوك أبوك وأخوك، وأنت صاحب الملك. فلا تخف مني، فإنما أنا احفظه لك حتى تكبر وتدبر ملكك وتعرف أحوالك.(4)

لكن المماليك البرجية استطاعوا العودة مرة ثانية إلى النفوذ والقوة، ففي سنة 696هـ/1296م، استطاعوا تنصيب السلطان الناصر محمد مرة ثانية بعد قتلهم للملك المنصور لاجين، حيث قويت شوكتهم في مصر، وصارت لهم الحمايات الكبيرة، وأشرهوا جميعاً إلى أخذ الإقطاعات، وتردد الناس إليهم في الأشغال.(5)

ومن الأمور التي ساعدت على ازدياد نفوذ المماليك البرجية في هذه الفترة أيضاً، شجاعتهم في دفع خطر التتار عن بلاد الشام في واقعة شقحب(702هـ/1302م).(6) وأول من نجح من الجراكسة في الاستيلاء على السلطنة بيبرس الجاشنكير(708-

---

(1) ابن الجزري: المصدر السابق، ج1، ص196،195. العيني: المصدر السابق، ج3، ص222.

* أي المتحدث في أمر بيوت السلطان كلها من المطابخ، والشراب، والحاشية والغلمان. محمد دهمان: المرجع السابق، ص15.

(2) المقريزي: المصدر السابق، ج2، ص253. سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص144.

(3) العيني: المصدر السابق، ج3، ص269.

(4) أبي بكر بن عبدالله بن أيبك الدواداري المتوفى(743هـ/1322م). كنز الدرر وجامع الغرر، 9 أجزاء، ج8، تحقيق، أولرخ هارمان، القاهرة، 1391هـ/ 1971م، ج8، ص357.

(5) المقريزي: المصدر السابق، ج2، ص307.ص313.

(6) العيني: المصدر السابق، ج4، ص231.

709هـ) ويوضح ابن تغري بردي ذلك بالقول" أصله من مماليك الملك المنصور قلاوون البرجية، وكان جركسي الجنس، ولم نعلم أحداً ملك مصر من الجراكسة قبله، إن صح أنه كان جركسياً".(1) ويعتبره ابن إياس الثاني عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية، بُويع بالسلطنة بعد أن خلع الناصر محمد نَفْسَه من الحكم.(2) وقد اضطربت الأحوال في أوائل دولة المظفر بيبرس، وصار العسكر فريقين، فرقة مع الملك الناصر، وفرقة مع بيبرس الجاشنكير، والأكثر كان مع الملك الناصر.(3) لذلك لم يوفق بيبرس الجاشنكير في سلطنته لمعارضة الترك له من ناحية، وتآمر الناصر محمد ضده في الكرك من ناحية ثانية.(4) ونتج عن هذه المحاولة من جانب الجراكسة لاغتصاب السلطة تغير واضح في سياسة السلطان الناصر محمد في سلطنته الثالثة إزاء فرقة البرجية إذ زادت كراهيته للجراكسة وعمل على الانتقام منهم.(5)

فقد ذكر المقريزي في السلوك توصيفاً لسياسة الناصرالثالثة(709-741هـ) بالقول" لما قدم الناصر من الشام إلى مصر، فملك مرة ثالثة سنة تسع وسبعمائة واستبد الناصر حينئذ بالأمر من غير معارض مدة اثنتين وثلاثين سنة، كانت له فيها سير وأنباء، فإنه أول ما بدأ به بعد قدومه من الكرك القبض على الأمراء البرجية وغيرهم في يوم واحد وعدتهم ثلاثون أميراً".(6)

وإذا كان السلطان الناصر محمد قد حكم البلاد بيد من حديد في سلطنته الثالثة،فإن أبناءه وأحفاده كانوا في الغالب حفنة من الأطفال بحيث صار كبار الأمراء الجراكسة يحركونهم وفق هواهم، ومرة أخرى عادت قوة الجراكسة للظهور على مسرح الأحداث

---

(1) الدواداري: المصدر السابق،ج9، ص157-158.
(2) ابن إياس: المصدر السابق، ج1، ص423.
(3) ابن كثير: المصدر السابق، ج2، ص2134.
(4) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص148.
(5) حكيم أمين عبد السيد: المرجع السابق، ص30.
(6) المقريزي: المصدر السابق، ج3. ص302.

السياسية. وفي تلك المرة تكتلوا وازداد تعصبهم لجنسهم الجركسي، بعد أن تعرضوا لأخطار المقاومة والكبت والتشريد في عهد الناصر محمد.(1)

أما أولى محاولاتهم للظهور مجدداً على مسرح الأحداث والتأثير فيها، كانت في عهد السلطان الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد، إذ ثاروا عليه في عام(747هـ/1346م) بسبب التضييق عليهم في النفقات، ومسك الأمراء بغير سبب فنجحوا في عزله وتولية أخيه المظفر أمير حاجي بن الناصر..(2) ونتيجة هذه المحاولة الناجحة ازدياد نفوذ البرجية في الدولة بدليل أن الأمير غرلوا الجركسي أضحى نائب السلطنة، وهيمن على السلطان الصغير، فتعاظم نفوذه، وجلب أعداداً كثيرة من الجركس، ورفع شأنهم على حساب المماليك الأتراك. ثم أراد أن يقوم بالدور نفسه الذي قام به بيبرس الجاشنكير من قبل، وهو عزل السلطان والجلوس مكانه.(3)

لقد استمر الصراع والتنافس بين الأمراء الأتراك ومنافسيهم الأمراء الجراكسة عشرات السنيين، وقد اعتمد ذلك على قوة السلطان أو ضعفه إلى أن تمكن الأمير التركي يلبغا من السيطرة على كافة الأمور في السلطنة ، حتى بلغ عدد مماليكه أربعة آلاف، مما مكنه من قتل السلطان الناصر حسن سنة (762هـ/1360م) وأقام في السلطنة محمد بن المظفر.(4) ثم عزله يلبغا لسوء خلقه، وعين بدله الأشرف شعبان(765-778هـ/1363-1376م). وهكذا صار يلبغا الحاكم الفعلي لدولة المماليك حتى قتل سنة 768هـ/1366م. ثم لم يلبث أن عبر المماليك اليلبغاوية عن سخطهم

---

(1) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص148. قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي، ط1، عين للدراسات والبحوث، ص147.

(2) ابن كثير: المصدر السابق، ج2، ص2207. المقريزي: المصدر السابق، ج4، ص33. شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى 852هـ/1448م: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، مصحح هذه الكتاب سالم الكرنكوى، 4ج، دار إحياء التراث العربي، بيروت. ج2، ص191، ص192.ابن إياس:المصدر السابق، ج1، ق1، ص510-ص511. حكيم أمين عبد السيد: المرجع السابق، ص30.

(3) ابن إياس: المصدر نفسه، ج1، ق1، ص515. محمد طقوش:تاريخ المماليك، ص326.

(4) المقريزي: المصدر السابق، ج4، ص253.

بتدبير مؤامرة لقتل السلطان الأشرف، ومن وراء هذه المؤامرة كان الأمير برقوق،أحد كبار الأمراء اليلبغاوية، وأصله من الجركس.(1)

خامساً: قيام دولة المماليك البرجية

يقول وليم موير إن الإنسان يشعر بانشراح عندما ينتقل من ذكر أمراء وضيعي النشأة أتيح لهم النفوذ باسم سلاطين من الأطفال، إلى عقد من الملوك الذين صار إليهم الأمر حقاً فحكموا بأسمائهم وتولوا الأمر بأنفسهم.(2)

ويتمثل ذلك في برقوق الذي أُخِذَ من بلاد الجركس، فبيع ببلاد القرم، ثم جلبه الخواجا فخر الدين عثمان بن مسافر إلى مصر، فاشتراه الأمير يلبغا العمري الخاصكي وأعتقه، وجعله من جملة مماليكه الأجلاب، وكان اسمه الطنبغا فسماه الأمير يلبغا- برقوق- لنتوء في عينه(نوع من الحبيبات فوق جفن العين).(3) وقد تقدم في دولة المنصور القلاووني(علي شعبان) وارتفع شأنه فولي"أتابكية" العساكر-أكبر الأمراء المتقدمين بعد النائب-، وانتزع السلطنة من آخر بني قلاوون" الصالح" أمير حاج" سنة 784هـ /1382م.(4) وبرقوق هذا هو السلطان الخامس والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية والثاني من الجراكسة، وإذا كان الملك المظفر بيبرس الجشنكير جاركسياً، وإذا كان بيبرس تركي الجنس فبرقوق هذا هو الأول من ملوك الجراكسة.(5)

---

(1) ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج11، ص33. سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص151.

(2) وليم موير: المرجع السابق، ص121.

(3) المقريزي: المصدر السابق، ج5، ص141. شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي المتوفى 902هـ/1496م: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، 10ج، دار الجيل، بيروت. ج3، ص11. محمد دهمان: ولاة دمشق في عهد المماليك، ط2، دار الفكر، دمشق، 1981م. ص247.

(4) خير الدين الزركلي: الأعلام، ط5، دار العلم للملايين، بيروت، 1980م. ج2، ص48. محمد دهمان: معجم الألفاظ، ص11.

(5) ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج11، ص181. فليب حتى: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، دار الثقافة، بيروت، الجزء الأول، ترجمة جورج حداد، وعبدالكريم رافق، وأشرف عاى مراجعته جبرائيل جبور، الجزء الثاني، ترجمة كمال اليازجي، أشرف على مراجعته جبرائيل جبور، نيويورك،1951م. ج2، ص273.

وفي تاريخ قاضي ابن شهبة هوالثامن ممن ملك مصر ممن مسه الرق. وأشار الشيخ سراج الدين البلقيني أنه كان يلقب بالملك الظاهر وقال:" إن هذا وقت الظهر والظهر من الظهيرة والظهور، وقد ظهر هذا الأمر بعد أن كان مختفياً" فلقب بالملك الظاهر وكُنى بأبي سعيد كالظاهر بيبرس.(1) ويرى سعيد عاشور: "أن برقوق جركسي، ولكنه لم يكن من طائفة البرجية، ولذا فاننا نعتبر عهده بداية لتغلب الجانب العنصري، بمعنى سيادة العنصر الجركسي وذبول العنصر التركي، ومن ناحية أخرى فإن بداية عهده تجعلنا نغلب صفة العنصر على صفة المكان، فنفضل وصفها بدولة المماليك الجراكسة على وصفها بالدولة البرجية".(2)

وعندما تسلم السلطنة تفاءل الناس بذلك، وسبب هذا التفاؤل أن السماء في هذا اليوم أمطرت مطراً خفيفاً عند المبايعة. وكتب إلى عمال المملكة بذلك ، وأن يحلف النواب والأمراء للسلطان على المبايعة، فسارت البُرُد بذلك، ودقت البشائر بقلعة الجبل عند تمام البيعة.(3) وباعتلاء برقوق عرش السلطنة انتهى ملك بيت قلاوون كما انتهت دولة المماليك البحرية، التي حكمت زهاء مائة وثلاثين عاماً، لتبدأ دولة المماليك الثانية المعروفة بالبرجية(نسبة إلى أبراج القلعة) وبالجراكسة الشراكسة من باب التسمية العنصرية.(4)

امتازت دولة المماليك الثانية أو الجراكسة بأن سلاطينها جميعاً كانوا من أصل جركسي، ما عدا اثنين هما خشقدم وتمريغا كانا من أصل يوناني(رومي). هذا إلى أن مبدأ الحكم الوراثي الذي حاول بعض سلاطين المماليك في الدولة البحرية تطبيقه في

---

(1) ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبي بكر أحمد بن قاضي شهبة الأسدي الدمشقي المتوفى 851هـ/1448م:تاريخ ابن شهبة، تحقيق، عدنان درويش،4ج، طباعة المعهد العربي للدراسات العربية، دمشق، 1994م. ،ج3، ص86.

(2) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص266.

(3) المقريزي: المصدر السابق، ج5، ص142.ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج11، ص182.

(4) أحمد مختار العبادي: المرجع السابق، ص237. محمد طقوش:تاريخ المماليك، ص351.

سالم سليمان العيس: المعجم المختصر للوقائع،ط1، دار النمير للنشر، 1998م. ص399.

عناد وإصرار، والذي طبق فعلاً في عصر بيت قلاوون، هذا المبدأ لا نجد له نفس الأثر في دولة المماليك الجراكسة.(1)

والواقع إن سلاطين دولة المماليك الثانية كانوا زعماء أو أمراء كبار أكثر منهم سلاطين.وكان نجاح السلطان في الحكم يتوقف على مدى توفيقه في توجيه كبار الأمراء،وضرب طوائف المماليك بعضها ببعض. فإذا استطاع الاحتفاظ بمنصبه حتى الوفاة، فان ابنه كان يخلفه عادة، ولكن لبضعة أشهر فقط، حتى ينجلي الموقف بين كبار الأمراء، ويستطيع أحدهم أن ينفرد بالغنيمة.(2)

حرص برقوق(ت 800هـ/1397م) بعد تولي السلطة على ملء الوظائف بالجراكسة بعد إقصاء عناصر الترك بصفة مستمرة عن هذه الوظائف ، وأخذ يوجه سياسة الدولة في الداخل والخارج ، وقبض على نفوذ أكثر الأمراء الترك، ذلك النفوذ الذي أضعف السلطة المملوكية الأولى. فقد قبض على الأمير يلبغا الصغير الخازندار، وعلى سبعة من المماليك وُشيَ بهم أنهم قصدوا قتل السلطان فضربهم ونفاهم إلى الشام.(3)

لقد شهد حكم برقوق كساداً في الأسواق وقلة المكاسب، لشحة وقلة عطائه. وبالجملة فمساوئه أضعاف حسناته. مما دفع أمراء المماليك إلى التحالف ضده وخلعه عن الحكم ونفيه إلى الكرك. وتنصيب الملك الصالح أمير حاجي ابن الأشرف شعبان سلطاناً ولقب بالمنصورسنة 791هـ/1388م.(4) لكن الصراع لم يلبث أن دب بين يلبغا ومنطاش حول السلطة. وهنا حانت الفرصة لبرقوق لكي يسترد عرشه، فكون جيشاً من

---

(1) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص158.

(2) المرجع نفسه، ص158.

(3) ابن تغري بردي:المصدر السابق، ج11، ص196. حكيم أمين عبد السيد: المرجع السابق، ص64.

(4) ابن خلدون: المصدر السابق،ج7،ص700. المقريزي: المصدر السابق، ج5، ص231. ص234.

ابن إياس: المصدر السابق،ج1، ق2، ص403.

الجراكسة في الشام وزحف به إلى دمشق حيث استولى عليها. وبعد عدة تطورات تمكن من استرداد عرشه سنة 792هـ/1389م. ليستمر في سلطنته الثانية تسع سنوات قضاها في مطاردة المماليك الأتراك ومصادرة كل ممتلكاتهم وإقطاعاتهم وتوزيعها على الجراكسة.(1) وفي نهاية سلطنته طلب من الخليفة وقاضي القضاة وسائر الأمراء وجميع أرباب الدولة بالعهد لأولاده فرج وعبد العزيز وإبراهيم، وتولى تحليفهم كاتب السر.(2) لذلك رأى كبار الأمراء فرصتهم سانحة في قيام فرج سنة 801هـ/1898م، في السلطنة وسنه عشر سنوات فبدأت المنافسات والمنازعات بينهم، الأمر الذي جعل السلطان فرج يزهد في العرش.(3) ومما يثبت قوة وتمكن الجراكسة من الحكم في تنصيب السلطان أن الأمراء لما بلغهم هروب الملك الناصر فرج، اجتمعوا في باب السلسلة، ثم تشاوروا فيمن يولوه السلطنة، فوقع الاتفاق على سلطنة أخيه الأصغر عبد العزيز سنة 808هـ/1405م،وخلع الملك الناصر فرج.(4)

وفي فترة سلطنة الناصر فرج تعرضت بلاد الشام للغزو من قبل تيمور لنك الذي استولى على حلب ثم دمشق، واضطر الناصر أن يعلن تبعيته لتيمور ، وكان من حسن حظه أن مات تيمور سنة 807هـ/1404م، قبل أن يشرع في غزو مصر.(5)

عاشت البلاد للفترة من (808هـ- 815هـ) في فوضى سياسية وصراع دموي على السلطة، ذهب ضحية ذلك وريثا عرش السلطنة المنصور عبدالعزيز وإبراهيم الذين قتلهما أخوهما السلطان فرج بن برقوق بعد مؤامرة دبرت لعزله.(6) كثرت الفتن

(1) ابن خلدون: المصدر السابق،ج5، ص554، ج7، ص701-702. ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج12، ص59-ص60. قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك ص150.

(2) ابن خلدون: المصدر السابق،ج7، ص715. ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج12، ص82.

(3) ابن إياس: المصدر السابق،ج1، ق2، ص734. سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص174.

(4) المصدر نفسه، ج1، ق2، ص734.

(5) ابن خلدون: المصدر السابق، ج7، ص717، ص735. عبادة كحيلة: المرجع السابق، ص261.

(6) ابن تغري بردي: المصدر السابق ، ج13،ص4. علاء محمود قداوي: العلاقات التيمورية المملوكية بعد تيمورلنك، (807-856هـ/1405- 1452م)، آداب الرافدين،العدد 50، 2008م. ص4.

في سلطنة فرج الثانية، وخرج عليه الأمراء في مصر والشام، وحاول التصدي لها لكنه هُزم قرب دمشق وقتل سنة 815هـ/1412م.(1) وبعد شهور تقلد السلطنة المؤيد شيخ بن المحمودي(815هـ-824هـ/1412-1421م) ويكتب له من الانجازات أنه أخمد ثورة الأمير نوروز في الشام بعد أن قتله، وبذلك تخلص من منافس عنيد، وأعاد وحدة البلاد. وأخضع الإمارات التركمانية التي حاولت الخروج عن تبعيتها للسلطنة المملوكية.(2) وبعد وفاته بويع لابنه أبو السعادات أحمد بعهد منه وكان عمره أقل من سنتين.(3) ولكن المماليك الجراكسة لم يؤمنوا بمبدأ الوراثة، بل كان عندهم الحكم للأقوى، فتنافسوا على السلطة إلى أن آلت في النهاية إلى الأشرف برسباي(825-841هـ/1421-1437م). الذي حكم مدة طويلة مقارنة بمن حكم غيره، وقد اتصف عهده بالاستقرار وقلة الاضطرابات مما جعله يقوم بغزو قبرص.(4)

ذكر الشوكاني أن الأشرف برسباي ساس المُلك ونالته السعادة ودانت له البلاد وأهلها. وفتحت في أيامه بلاد كثيرة من غير قتال.(5) وتسلطن من بعهده ولده العزيز يوسف بعهد منه، ثم خُلِع من قبل الوصي جقمق وكان له في السلطنة ثلاثة أشهر. ثم حكم من بعده الملك الظاهر أبو سعيد جقمق(842-857هـ/1438-1453م).(6) وتميزت الدنيا في أيامه بالهودء من الفتن والتجاريد، وقد خلع نفسه من الحكم بعدما شعر بثقل المرض وعهد إلى ولده عثمان في حال حياته.(7) وكانت مدة ملكه خمسة وأربعين يوماً

---

(1) المقريزي: المصدر السابق،ج6، ص325. شيخ الإسلام محمد بن علي الشوكاني المتوفى 1250هـ/1834م. البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، 2ج، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة. ج2،ص2.

(2) ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج13، ص 271. سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص169.

(3) ابن إياس: المصدر السابق، ج2، ص63.

(4) أحمد عودات: المرجع السابق، ص120.علاء قداوي: المرجع السابق، ص18.

(5) الشوكاني: المصدر السابق، ج1، ص161-162.

(6) شهاب الدين أبي الفلاح بن العماد الدمشقي المتوفى 1089هـ/1638م. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق، محمود الأرناؤوط، 10ج، ط1، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، 1413هـ/1993م. ، ج9، ص349، ص352. الزركلي: المرجع السابق،ج2، 132.

(7) ابن إياس: المصدر السابق، ج2، ص299-300.

ثم خلع، وتولى الملك الأشرف أبو النصر أينال(857-865هـ/1453-1460م)، وفي ذلك التاريخ فتح السلطان محمد بن مراد (محمد الفاتح) مدينة القسطنطينية سنة 857هـ/1453م، وجاءت رسله إلى القاهرة بتهنئة أهل الإسلام بهذا الفتح.(1)

وفي عهد السلطان أبو النصر بدأت بوادر الضعف تظهر في دولة المماليك، وكان أهمها قلة الأموال الورادة وكثرة الاضطرابات الداخلية، وتمرد المماليك (الجلبان)* وهم الذين كان السلطان يجلبهم كباراً، ويجعلهم في خدمته، خلافاً للقاعدة التي سار عليها المماليك في صدرهم الأول بشراء المماليك الصغار، وقد ثار هؤلاء الجلبان على السلطان أينال سبع مرات أثناء فترة حكمه التي امتدت حوالي ثماني سنوات.ولعل هذا السر فيما نلحظه في ذلك الدور بالذات من سهولة عزل السلاطين وإقامة غيرهم.(2)

كما دخل في قلوب الناس من المماليك الأجلاب من الرجيف والرعب، لعلمهم أنه مهما فعلوا فهو جائز لهم، وأن السلطان لا يقوم بمناصرة من قُهر منهم.(3) بسبب قوة ونفوذ المماليك الجلبان في هذه الفترة من عمر دولة الجراكسة.

ودليل ذلك أن الملك المؤيد أحمد تسلطن ووالده على قيد الحياة ، ورغم كفاءته وحسن سيرته،إلا أن المماليك الأجلاب خلعوه بعد أربعة أشهر.(4) ثم تولى خشقدم عرش السلطنة المملوكية وتلقب " بالملك الظاهر"(865هـ- 872هـ/1460-1467م) وهو أول ملوك الروم بمصر والشام والحجاز. (5) كان كفئاً للسلطنة، عارفاً بتدبير أحوال المملكة، ولم يقع في مصر في أيامه الطاعون ولا الغلاء، ولا أخرج من مصر

---

(1) ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج16، ص49. يوسف بن الوكيل الملواني المتوفى 1131هـ/1719م. تحفة الأحباب بمن ملك مصرمن الملوك والنواب، تحقيق، محمد الششتاوي، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة،1419هـ/1999م. ص72.

*فرقة من المماليك يشترى السلطان جنودها لنفسه،وهي قسم من فرقة المشتريات. محمد دهمان:معجم الألفاظ التاريخية،ص12.

(2) ابن تغري بردي: المصدر السابق،ج16، ص61، ص65،64. سعيد عاشور : العصر المماليكي، ص189.

(3) المصدر نفسه،ج16، ص73.

(4) ابن إياس : المصدر السابق، ج2، ص369.

(5) المصدر نفسه،ج2، ص378. الزركلي: المرجع السابق، ج2، ص306.

تجريدة إلى بلاد الشام، وكانت عدة مماليكه إلى أن مات زيادة على ثلاثة آلاف مملوك من مشترياته.(1) اختار أمراء المماليك بزعامة خيري بك الأمير يلباي ليخلف السلطان خشقدم بعد وفاته. وقد دفعه المماليك الأجلاب للواجهة السياسية بفعل كونه أتابكاً-والد أو أمير-.(2) ثم تولى تمر بغا في العام نفسه، ولم يستطيع إرضاء المماليك الخشقدمية* وزعيمهم خيري بك فعزله بعد شهرين وتولى السلطنة بدلاً منه ولقب نفسه بالسلطان الظاهر، ولكن الأتابك الأشرف قايتباي أسرع إلى القلعة وسيطر على الموقف وتولى السلطنة (872- 901هـ/ 1467-1495م)(3) وهو جركسي الجنس، اشتراه الملك الأشرف برسباي، ولم يُجْرِ عليه عتقاً، وجعله بطبقة الطازية*1 من أطباق قلعة الجبل إلى أن ملكه الملك الظاهر جقمق، وأعتقه وجعله خاصكياً*2 ولم يكن له نظير في ملوك الجراكسة ولا فيمن قبلهم من ملوك الأتراك.(4)

أثنى عليه السخاوي في ترجمته في الضوء اللآمع لأهل القرن التاسع فقال:" لما استقر في المملكة أخذ في الإبقاء والعزل والأخذ والبذل والتحري لما يراه العدل والتقريب والترحيب، والتثبت برأيه وتدبيره والخضوع لمن يعتقد فيه العلم والإصلاح.(5) وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية تسعة وعشرين سنة، تحرك عليه في أيام سلطنته شاه سوار، وحسن الطويل، وابن عثمان، وغير ذلك من ملوك الشرق وغيرها، وجرد إليهم نحو ست عشرة تجريدة، وهوثابت على سرير ملكه

---

(1) ابن إياس: المصدر السابق، ج2، ص456-457. الشوكاني: المصدر السابق،ج1، ص241.

(2) سهيل طقوش : تاريخ المماليك، ص467. محمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص11.

*. هم المماليك من مشتريات السلطان خشقدم. محمد دهمان: المرجع نفسه، ص65.

(3) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص182.

*1.جمعها طباق، وهي ثكنات المماليك بقلعة الجبل، وكانت كل طبقة تضم المماليك المجلوبين من ولد واحد. المرجع نفسه، ص453.

*2. هم نوع من المماليك السلطانية يختارهم السلطان من المماليك الأجلاب الذين دخلوا في خدمته صغاراً ويجعلهم في حرسه الخاص. محمد دهمان، المرجع السابق، ص66.

(4) ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج16، ص355. الشوكاني: المصدر السابق، ج2. ص56.

(5) السخاوي: المصدر السابق، ج6، ص203.

لم يتزحزح.(1) لم تقتصر المتاعب التي واجهت دولة المماليك زمن قايتباي على الثورات، بل تدخل قوة جديدة هي قوة العثمانيين الذين أخذ نفوذهم يزداد ويتضخم بعد استيلائهم على القسطنطينية*(2) وتعاقب على السلطنة بعد وفاة الأشرف أبو النصر قايتباي سنة 901هـ/1495م، خمسة سلاطين، حكموا فترات قصيرة تتراوح بين ثلاثة أيام وأقل من عامين، فقد وقع الاتفاق أولاً على سلطنة الملك الناصر أبو السعادات ناصر الدين محمد ابن السلطان الأشرف قايتباي ولقب بالمنصور(901-902هـ/1495-1496م)، وتولى السلطنة من غير عهد له من أبيه المريض أنذاك. جرى هذا كله والأشرف قايتباي في النزع، لم يشعر بما وقع من هذه الأمور، ولو كان واعياً لما مكن الأمراء بأن يسلطنوا ولده، ولا كان ذلك قصده.(3) ساءت سيرة الملك الناصر أبو السعادات ، فكانت أيامه كلها فتناً وشروراً. وصفه ابن إياس المؤرخ المعاصر له بقوله: " كان يوصف بالكرم الزائد والشجاعة، ولكنه كان جاهلاً عسوفاً، جريء اليد، سفاكاً للدماء، سيء التدبير ، كثير العشرة للأوباش من أطراف الناس، ووقع منه أمور شنيعة في مدة سلطنته".(4) مما دفع بالأمراء الجراكسة إلى خلعه من السلطنة وتولية قانصوة خمسمائة، وتلقب بالأشرف أبي النصر(902-903هـ/1496-1497م)، ولكنه اصطدم بمعارضة المماليك السلطانية الذين رفضوا الاعتراف به، ومنعوه من دخول القلعة وبعد قتال بين الطرفين فر إلى فلسطين.(5)

ونتيجة هذه التطورات تم تجديد البيعة مرة ثانية للناصر أبو السعادات ناصر الدين محمد ابن السلطان الأشرف قايتباي ولقب بالملك الأشرف(903-904هـ/1497-

---

(1) ابن إياس: المصدر السابق، ج3، ص325.

*.كان اسمها طوانة ثم نسبت إلى قسطنطين، فبنى عليها سوراً وسماها القسطنطينية، فتحها محمد الثاني سنة 1453م، وسماها اسطنبول. الحميري: المصدر السابق، ص481.

(2) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص183.

(3) ابن إياس: المصدر السابق، ج3، ص333.

(4) المصدر نفسه، ج3، ص403. الزركلي : المرجع السابق، ج7، ص9.

(5) المصدر نفسه، ج3، ص436.

1498م) بناءً على نصيحة من المماليك الجلبان.(1) وكانت نهاية السلطان على يد مماليك أبيه. فلما قتل الناصر أبو السعادات وقع الاضطراب بين الأمراء فيمن يلي بعد الناصر أبو السعادات، فاجتمع الأمراء على خاله قانصوه الأشرفي(904-905هـ/1498-1499م).(2) وتلقب "بالملك الظاهر" أبي سعيد، فكان من أسعد المماليك حظاً في سرعة تقدمه، عمَّ مصرَ الرخاء في أيامه. وكانت مدة حكمه أقلَّ من سنتين، وكان مسلوب الاختيار مع الأمراء، ورغم ذلك كفّ المماليك عن ما كانوا يصنعون من الأذى في أيام الملك الناصر، وساس الظاهر في أيامه أحسن سياسة، وخُلعَ والناس عنه راضية.(3)

كان طومان باي الشخصية البارزة في الحركة التي أطاحت بالظاهر قانصوه الأشرفي إلا أنه لم يجرؤ على الإفصاح عن رغبته في اعتلاء منصب السلطنة الشاغر نظراً لوجود أمراء أقوى مكانة منه مثل جانبلاط وتاني بك، كما صادف معارضة من الجند لذلك رشح الأول وتمت مبايعته، وتلقب بالملك الأشرف(905- 906هـ/1499-1500م).(4) كانت مدة سلطنته بالديار المصرية ستة أشهر وثمانية عشر يوماً، وكانت هذه المدة في غاية الضنك مع الأمير طومان باي، وآخر الأمر وثب عليه وخلعه من السلطنة. ثم تولى السلطنة سنة 906هـ/1500م، وتلقب " بالملك العادل"، وكانت مدة سلطنته ثلاثة شهور ثم قتل ، وتولى بعده الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري (906-922هـ/1500-1516م).(5) وقد رفض السلطنة خوفاً من القتل، لذلك بكى عندما نصب واشترط ألا يقتلوه إذا أرادوا خلعه.أثبت السلطان قانصوه أنه رجل قوي صلب، فقد عمل بسرعة على إعادة النظام والاستقرار إلى العاصمة، وملأ مناصب الدولة ممن

---

(1) سهيل طقوش: تاريخ المماليك، ص470.

(2) ابن إياس: المصدر السابق، ج3، ص402، ص404-405.

(3) المصدر نفسه، ج3، ص437. الزركلي: المرجع السابق، ج5، ص187.

(4) سهيل طقوش: تاريخ المماليك، ص473-474.

(5) ابن إياس: المصدر السابق،ج3، ص462. ابن الوكيل : المصدر السابق، ص69.

يثق فيهم من الأمراء، ثم اتجه إلى علاج الأزمة المالية المستحكمة التي كانت تعانيها خزانة الدولة.(1) وكان للسلطان الغوري محاسن ومساوىء لكن مساوئه أكثر من محاسنة، فأما ما عُدَّ من محاسنة فإنه كان رضيَّ الخلق، يملك نفسه عند الغضب، وكان له الاعتقاد الزائد في الصالحين والفقراء، وكان يعرف مقادير الناس على قدر طبقاتهم. أما مساوئه معاملته في الذهب والفضة، وما قرره على الحسبة، فكانت السوقة تبيع بما تختاره من الأثمان، وكان يولّي الكشاف ومشايخ العربان على بلاد المقطعين والأوقاف، ومن أفعاله الشنيعة ما فعله مع أولاد الناس من مصادرة أقاطيعهم ورزقهم من غير سبب، وأعطى ذلك إلى مماليكه الجلبان. أقام قانصوه الغوري في السلطنة ست عشرة سنة، ثم إن السلطان سليم قصد مصر وخرج الغوري لقتاله فالتقى الفريقان بمرج دابق قرب حلب فتقاتلا ثم كانت الغلبة على الجراكسة وقتل قانصوه الغوري في الحرب. (2)

لم يفلح طومان باي، الذي انتخب سلطاناً خلفاً للسلطان الراحل، وتلقب بلقب " الملك الأشرف"(922-923هـ)، في إيقاظ المماليك وتنبيههم إلى الخطر المحدق بالدولة، كي يقوموا بواجب الدفاع عنها بل خذلوه فجمع جيشاً من الصبيان والشعار والمغاربة، والتقى بالعثمانيين في الريدانية* وكان مصيره الهزيمة، ففر إلى صديق له من شيوخ أعراب الجيزة، يدعى حسن بن مرعى، وهو من أعز أصحاب طومان ليحتمي به، ولكن صديقه خانه وسلمه إلى العثمانيين، الذين قالوا" الآن ملكنا مصر".(3)

---

(1) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص185.

(2) ابن إياس: المصدر السابق،ج5، ص89-91. ابن الوكيل: المصدر السابق، ص69.علي شعيب: قراءة في نهاية الدولة المملوكية من خلال كتاب" بدائع الزهور في وقائع الدهور" لابن إياس، المؤتمر الدولي السادس لتاريخ بلاد الشام، جامعة دمشق، الجامعة الأردنية، 2001م. ص178.

*.وقعت فيها معركة عام 1517م بين المماليك والعثمانيين.أحمد بن أبي الحسن علي بن زنبل الرمال المتوفى 960هـ/1553م. آخرة المماليك أو واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني،تحقيق، عبدالمنعم عامر، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998م. ص209.

(3) ابن إياس : المصدر السابق ،ج5، ص174-ص176، ص197. سهيل طقوش: تاريخ المماليك، ص478.

سادسا: العلاقات الخارجية والأحداث التاريخية

1.الصدام التيموري المملوكي

كانت دولة المماليك الجراكسة تبدأ حياتها حين تأكد اقتراب الخطر الحقيقي المتمثل في تيمورلنك وذلك خلال فترة اجتياحه وتوسعه في بلاد ما وراء النهر(782-788هـ/1380-1386م).ولقد أضحى الخطر مباشراً مع سقوط بغداد795هـ/1392م.(1) وصار الصدام بينه وبين دولة المماليك الجراكسة قريب الحدوث، فقد وصل كتاب تيمور لنك للسلطان برقوق سنة 796هـ/1393م، وهو يرعد فيه ويبرق، ثم أطال الكلام ووبخ وقرع وخوف وفزع، وعدد مساوئاً من جملتها أكل الحرام ومال الأيتام وقبول رشوة الحكام، وقتل الشرفاء. فكتب ابن فضل الله جوابه، ذاكراً مثالبه راداً على تهديده، ثم قرأ الكتاب على السلطان فأعجبه وبعث به إلى تيمور لنك.(2)

تأجلت المواجهة بين الطرفين بعد استعداد السلطان برقوق لها في بلاد الشام، فقد جاءت الأخبار من بلاد الشمال بعودة تيمور لنك إلى بلاده والسلطان برقوق لايصدق ذلك، يريد لقاءه، فلم يجسر تيمورلنك على القدوم إلى البلاد الشامية مخافة من الملك الظاهر برقوق، وتوجه إلى بلاده.(3) لكنه عاد سنة 802هـ/1399م مسرعاً، بعد أن علم أن حاميته في بغداد قُضِيَ عليها نتيجة التحالف بين السلطان أحمد بن أويس وقرة التركماني. فتقدم بقواته إلى العراق وسرعان ما فر أمامه أحمد بن أويس الذي لجأ إلى حلب بعد أن سبقه إليها حليفه القديم قرة التركماني.(4) وعندما وصل تيمور لنك إلى

---

(1) نادية محمود مصطفى: العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوروبية الثانية، ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1996م. ص87.

(2) زين الدين عبدالباسط بن خليل بن شاهين الظاهري المتوفى920هـ/1514م: نيل الأمل في ذيل الدول، تحقيق، عمر عبدالسلام تدمري، 9ج، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 1422هـ/2002م. ج2، ص343.

(3) ابن تغري بردي: المصدر السابق ج12، ص52.

(4) هيام صالح يحي أبو الفرج: مجتمع دمشق ودوره السياسي في عصر الدولة المملوكية الثانية (784- 923هـ/1382-1517م)، رسالة ماجستير ، جامعة أم القرى، السعودية، 2000

بزاغة بظاهر حلب، برزله نائب طرابلس بسبعمائة فارس، ثم اقتتلوا، وأسر من التتار أربعة، وعاد كل من الفريقين إلى موضعه. أما دمشق فإن أهلها وقضاتها ، شهروا السيوف، ونادوا بقتال تيمور لنك، وفرضت على البساتين والدور مالاً، ثم قدم الأمير اسنبغا من القاهرة بتجهيز العساكر لحرب تيمور لنك وأعلن كتاب السلطان فرج بذلك في الجامع. (1) استولى تيمورلنك على سيواس ومرعش*وعينتاب*1 وبذلك وصلت قواته إلى أطراف الشام ، ثم أرسل كتاباً إلى نائب حلب فيه تهديد ووعيد، بأن يبادروا في الدخول تحت الطاعة، وأن يضربوا السكة باسمه، ويقيموا بحلب الخطبة باسمه.(2) لم يحصل تيمورلنك على مبتغاه، فتجمعت الجيوش من نيابات الشام استعداداً للمقاومة. ولكن تيمور لنك أنزل الهزيمة بقوات المماليك واقتحمت جيوشه حلب.(3) ثم رحل عنها، وهي خاوية على عروشها، خالية من ساكنها وأنيسها، قد تعطلت من الأذان،وإقامة الصلوات. وأصبحت مظلمة بالحريق، موحشة، قفراء مغبرة، لا يأويها إلا الرخم.(4)

أما أهل دمشق فقد استعدوا للعدو،وعظم ضجيجهم، وأخذوا ينتقلون من خارج المدينة إلى داخلها، ثم وصلت رسل تيمورلنك تطلب تسليم المدينة، فاختلف الناس بين التسليم أو الحرب. فرجحت كفة الحرب.(5)

خرج السلطان فرج الصغير على رأس الجيش ومعه الخليفة والقضاة، ولكن تيمورلنك أنزل الهزيمة مرة أخرى بالمماليك قرب دمشق سنة 803هـ/1400م، وبعد ذلك عاد السلطان إلى القاهرة خوفاً من سيطرة الأمراء على الحكم، ونجح تيمور

---

(1) المقريزي: المصدر السابق، ج6، ص39، ص40. ابن إياس: المصدر السابق،ج1، ق2، ص593. ص595.

*. بلدات شمال حلب صغيرتان فيهما مياه وزروع وأشجار كثيرة وهما ثغران. أبو الفدا: تقويم البلدان، ص243.

*1. بلدة حسنة كبيرة تقع شمال حلب ولها قلعة، وهي كثيرة المياه والبساتين. المصدر نفسه، ص270.

(2) ابن إياس: المصدر السابق،ج1، ق2، ص593.

(3) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص166.

(4) المقريزي: المصدر السابق،ج6، ص42.

(5) ابن إياس: المصدر السابق، ج1، ق2، ص599.

بالحيلة في دخول دمشق، وأقام بها ثلاثة أشهر جمع فيها كثيراً من أموالها فضلاً عن أولى الخبرة من أصحاب المهن الذين بعث بهم إلى سمرقند.(1)

2.العلاقة مع قبرص

لقد تزعمت قبرص تنفيذ المشروعات الصليبية العدوانية الاقتصادية والحربية على حد سواء على مصر والشام بحكم موقعها الجغرافي بين شواطيء المسلمين في مصر والشام، وشواطئهم في آسيا الصغرى وكذلك بحكم مصالحها الخاصة كمركز تجاري مهم وسوق متوسطية للممالك الصليبية الغربية.(2) وفي عهد الدولة المملوكية الأولى سنة 767هـ/1365م، وصل فرنج أهل قبرص إلى الإسكندرية في سبعين قطعة، فعاثوا ونهبوا، وأفسدوا وقتلوا، وأسروا ورجعوا إلى بلادهم.(3)

ومن الجدير ذكره أن سلاطين المماليك البحرية في مصر حاولوا غزو قبرص أكثر من مرة لإحساسهم بخطرها ورغبتهم في دفع ذلك الخطر، ولكنها لم تتخذ شكل غزو شامل للجزيرة. فلما اعتلى السلطان برسباي من المماليك الجراكسة حكم السلطنة (825-841هـ/1421-1437م). رأى في الجهاد ضد قبرص وسيلة لتحقيق مآربه، ووقف اعتداءات القبارصة على شواطيء المماليك.(4) خاصة بعد قيام الفرنج سنة 825هـ/1421م، بالهجوم على ميناء الاسكندرية وأخذ بضائع التجار في المراكب التي قدرت بمائة ألف،وبعد ذلك حرقوا المراكب، ثم مضوا نحو برقة فأخذوا ما قدروا عليه، ثم عادوا إلى الإسكندرية، ومضوا نحو الشام.(5)

---

(1) سعيد عاشور: العصر المماليكي ، ص167.

(2) نادية مصطفى: المرجع السابق، ص47. محمود شاكر: المرجع السابق، ج7، ص66.

(3) ابن العماد:المصدر السابق، ج8، ص357.

(4) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص170.

(5) المقريزي: المصدر السابق، ج7، ص63.

وفي سنة 827هـ/1423م،أخذ الفرنج مركبين قريبا من دمياط، فيها بضائع كبيرة، وعدة أناس، يزيدون على مائة رجل، فكتب السلطان بإيقاع الحوطة على أموال التجار ببلاد الشام والإسكندرية ودمياط، والختم عليها، ومنعهم عن السفر إلى بلادهم حتى ترد الفرنج ما أخذوا من المسلمين، فكلمه أهل الدولة في إطلاقهم فلم يقبل، وأخذ في تجهيز غزوهم.(1) فأرسل ثلاث حملات ضد جزيرة قبرص، وتعتبر من أعظم الاعمال الحربية التي تمت في عصر دولة المماليك الجراكسة، حتى انتهى الأمر بفتح الجزيرة وإخضاعها لسيادة سلطنة المماليك.(2) فقد أرسل السلطان برسباي حملته الأولى إلى قبرص سنة 827هـ/1423م فنجحت هذه الحملة في السيطرة على اللمسون من جزيرة قبرص، وهزيمة أهلها، وقتل عدة رجال، وحرق ثلاثة أغربة(نوع من المراكب متوسط الحجم)، وأغرقوا ثلاثة، وأسروا ثلاثة عشر رجلاً ، وغنموا جوخاً كثيراً، رفع للسلطان منه مائة ألف وثلاث قطع، طرحت على التجار.(3)

وفي السنة التالية جهز السلطان برسباي حملته الثانية، ففتح الله له عدة من بلاد الفرنج وفك خلقاً من أسرى المسلمين وقتل وسبى وغنم. فبلغ عدة المقتولين من الفرنج في نصف شهر خمسة آلاف، ولم يقتل من المسلمين في طوال المدة إلا ثلاثة عشر نفساً وبذل صاحب الماغوصة* للعسكر الطاعة وأمده بالأموال، ودله على عورات صاحب قبرص.(4)

---

(1) ابن تغري بردي: المصدر السابق،ج14، ص103.

(2) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص277.

(3) المقريزي: المصدر السابق، ج7، ص100، ص103. بن تغري بردي: المصدر السابق، ج14، ص105-106.

*.مدينة قبرصية تنتمي للقسم الشمالي من جزيرة قبرص، شمس الدين أبي عبدالله محمد أبي طالب الدمشقي شيخ الربوة المتوفى727هـ /1327م: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، طبع في مدينة بطرس بورغ،1281هـ/1865م. ص118.

(4) شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي المتوفى 902هـ/ 1496م: وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، تحقيق، بشار عواد معروف وآخروون،4ج، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1416هـ/1995م. ج2، ص484.

لم يقتنع السلطان برسباي بالنتائج التي حققتها الحملتان السابقتان، لأنه لم يستهدف مجرد السلب والنهب وبضع مئات من الأسرى، وعدة أكوام من الغنائم. لذلك أراد عقب عودة الحملة الثانية القيام بإعداد حملة ثالثة كبرى تحقق له خضوع قبرص وملوكها.(1) وهذا ما حصل فقد وصلت الحملة الثالثة قبرص، واستولت على أحد الحصون هناك، ونزل المسلمون بمكان قد حضر إليه ملك قبرص من غير علم أحدهما بالآخر، ولما علم المسلمون بالعسكر المذكور لم يعرفوا أنه الملك، واقتتل الفريقان فانتصر المسلمون عليهم وقتلوا أخا الملك كند ، وقبضوا على الملك، واستولوا على جزيرة قبرص، ووصلوا إلى جزيرة نيقوسيا(عاصمة قبرص)، وهي كرسي مملكة قبرص، فأحرقوا دار الملك، وأخربوا قُرى عديدة، وأسروا ونهبوا، وعادوا بالملك والغنائم لمصر".(2) فأمر السلطان بسجن صاحب قبرص، وولده، ومن معه من أعيان الإفرنج، واستمر صاحب قبرص في السجن حتى اشترى نفسه من السلطان بمائتي ألف دينار، وأن يكون نائباً عن السلطان في قبرص.(3)

3.العلاقة مع رود س*

نتيجة لفتح قبرص، أيقن الفرسان في رودس أن انتصار المسلمين هذا ماهو إلا إنذار بقرب حلول دور جزيرتهم، وقد تأكدت مخاوفهم خلال المفاوضات التي جرت حول فدية الملك القبرصي حينما أعلن السلطان برسباي عن ضرورة إرسال حملة إلى رودس. مما دفع صاحب رودس إلى طلب الأمان من السلطان، وبعث له هدية حافلة قُدرت بستمائة دينار.(4)

---

(1) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك ، ص278.

(2) حمزة بن أحمد بن عمر المعروف بابن سبط الغربي المتوفى 926هـ/1520م: صدق الأخبار، تحقيق، عمر عبدالسلام تدمري، 2ج، ط1، جروس برس، طرابلس، لبنان،1413هـ/1993م. ج2، ص790-791.

(3) ابن إياس: المصدر السابق، ج2، ص108.

*جزيرة في البحر من الثغور الشامية، بينها وبين قبرص عشرون ميلا. الحميري: المصدر السابق، ص278.

(4) ابن إياس: المصدر السابق، ج2، ص113. سهيل طقوش: تاريخ المماليك، ص521.

وفي عهد السلطان جقمق أُرسلت ثلاث حملات ضد رودس، في سنوات (844، 847، 848هـ/1343، 1346، 1347م).(1) أما أولاها فكانت بسبب كثرة عبث الفرنج في البحر، وأخذها مراكب التجار.(2) وكان مصيرها الفشل، بسبب استعداد أهل رودس لقتال المسلمين، حيث قتل من المسلمين اثناعشر، وجرح كثير، وقتل وجرح من الفرنج كثير فلما خلص المسلمون بعد جهد، مروا بقرية من قرى رودس، فقتلوا وأسروا ونهبوا ما فيها، وقدموا دمياط، وقد أسفرت نتيجة هذه الحملة عن أنّ المسلمين لاطاقة لهم بأهل رودس.(3)

أما التجريدة الثانية فعند وصولها إلى رودس سنة 847هـ/1346م ، هبت عليهم ريح عاصفة فغرقت المراكب، وقاسوا مالا خير فيه، فما اجتمعوا إلا بعد جهد كبير، ثم وقع بينهم وبين صاحب رودس وقعة شديدة، قتل فيها من عسكر المسلمين جماعة كثيرة، وجرح أكثر من خمسمائة مملوك، وارتد فيها طائفة إلى دين النصرانية من المماليك، ثم رجع البقية من غير طائل.(4) صمم السلطان جقمق على إرسال حملة ثالثة إلى رودس لإتمام عملية فتحها، وأنفق عليها أموالاً طائلة. وبلغ عدد أفرادها ألفاً وخمسمائة مقاتل.(5) والتقى الفريقان براً وبحراً فاستشهد من المسلمين طائفة، وقتل من الكفار طائفة، واقتضى الرأي الرجوع بغير طائل، بسبب تحصينات الأبراج بالآلات والسلاح والمقاتلة، ونصب المجانيق والمكاحل، وتخاذل عساكر المسلمين واختلافهم.(6)

---

(1) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص285.

(2) ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج15، ص103.

(3) المقريزي: المصدر السابق، ج7، ص463-464.

(4) ابن إياس: المصدر السابق، ج2، ص238.

(5) سهيل طقوش: تاريخ المماليك، ص523.

(6) السخاوي: وجيز الكلام، ج2، ص186. التبر المسبوك في ذيل السلوك، تحقيق،نجوى مصطفى كامل ولبيبة إبراهيم، 3ج، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 1423هـ/2002م. ج1، ص201- ص202.

أثارت حملات المماليك على جزيرة رودس لانتزاعها من أيدي الفرسان الإسبتارية (فرسان القديس يوجنا)، رغبة هؤلاء في الانتقام. فشنت البحرية الأستبارية هجوماً على السفن التجارية المملوكية عند شواطي الاسكندرية ودمياط وصور، وقد رد السلطان جقمق على هذه العمليات العدوانية، ففرض على تجار الفرنج غرامة مالية، وسجن عدداً كبيراً منهم.(1) ثم أخذت القوة البحرية الرودسية تفرض سيطرتها وحركتها في البحر المتوسط وهذا ما أدى إلى عرقلة حركة السفن التجارية المتوجهة إلى المواني المصرية والشامية ومما انعكس سلباً على الاقتصاد الجراكسي.(2)

استمرت العلاقة بين الطرفين تتأرجح بين الهدوء حيناً والعداء أحياناً، على الرغم من عقد الصلح بين فرسان رودس وسلطنة المماليك. ومن الواضح أن سلطنة المماليك صارت في حال لا تمكنها من القيام بعمل حربي كبير ضد رودس أو غيرها.(3) بفعل ظهور قوى أخرى جديدة معادية لها في الميدان البحري، وأخص بالذكر قوة الأتراك العثمانيين في البحر الأبيض المتوسط، وقوة البرتغاليين النامية في المحيط الهندي والبحر الأحمر.(4)

4.الصدام مع البرتغالين

أدت حركة التتار التوسعية منذ القرن السابع الهجري إلى انسداد طرق التجارة المألوفة بين الشرق والغرب، وبخاصة طريق الخليج، والطريق البري المار بسمرقند. ولم يبق طريق آمن بعيد عن سيطرة التتار سوى طريق البحر الأحمر ومصر، لذلك استغل سلاطين المماليك ذلك الوضع، وفرضوا ضرائب باهظة على الغلات الأسيوية،

(1) سهيل طقوش: تاريخ المماليك، ص524.

(2) فائز علي بخيت: المماليك الجراكسة في مواجهة الحصار الاقتصادي الصليبي على مصر، مجلة كلية العلوم، الإسلامية، جامعة الموصل، المجلد 7، العدد 13، 2013م. ص6.

(3) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص285.

(4) سهيل طقوش: تاريخ المماليك، ص524.

واتباع نظام احتكاري على تجارة التوابل، حتى غدت تباع بأسعار تفوق أربعين مرة أسعارها المستوردة بها. وهذا ما كان يثير القلق لدى الذين يحاولون فرض حصار اقتصادي يؤدي إلى إضعاف الدولة الجراكسية ومن ثم القضاء عليها باعتبارها صاحبة السيادة في ذلك الوقت.(1)

وبوصول البرتغاليين إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح، أنشأوا لهم مراكز تجارية مسلحة على سواحل البلاد الواقعة على هذا الطريق، وعملوا على بسط سيطرتهم العسكرية والتجارية على هذه المناطق ابتغاء احتكار تجارة الشرق(شرق آسيا)، ونقلها إلى أوروبا عبر الطريق الجديد.(2) لذلك فقد المماليك مورداً هائلاً من موارد الثروة التي كانت تأتيهم عن طريق الضرائب التي كانت تفرض على التجارة العابرة بالأراضي المصرية. وبطبيعة الحال، فقد التجار المصريون أيضاً مورداً ضخماً كان يأتيهم عن طريق المتاجرة مع التجار الأوروبيين الذين كانوا ينقلون تجارتهم عبر الأراضي المصرية.(3)

وترى بعض المصادر التاريخية أن أكثر أهداف حركة الكشوفات البرتغالية أهمية هدف الاستحواذ على مكانة البندقية كموزع أول لمنتوجات الشرق في أوروبا، وهدف الانضمام إلى مسيحي الشرق في الهجوم على العالم الإسلامي من قرب، حيث أن هذه الاهداف كانت تتضمن هجوماً أيضاً على دولة المماليك الجراكسة في مصر والشام.(4) لذلك اتفقت مصالح البندقية مع مصالح سلطة المماليك، فحرض البنادقة السلطان الغوري على إرسال حملة عبر البحر الأحمر إلى قاليقوط (ميناء هندي) لطرد البرتغاليين من الهند.وفي الوقت نفسه لجأ الغوري إلى تحريض الحكام المسلمين بالهند

(1) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص297. فائز علي بخيت: المرجع السابق، ص12.

(2) فاروق عثمان أباظة: أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحرالمتوسط أثناء القرن السادس عشر، ط2، دار المعارف، القاهرة، ص56. سهيل طقوش: تاريخ المماليك، ص552.

(3) فوزي جرجس: دراسات في تاريخ مصر السياسي منذ العصر المملوكي، العربي للنشر، القاهرة، ص10.

(4) نادية مصطفى : المرجع السابق، ص143.

على طرد البرتغاليين من بلادهم، وشن حرب عليهم. كما دأبت البندقية على تأليب القوى الأوروبية ضد البرتغاليين. على أن جميع جهود الغوري والبنادقة تلك لم تأت بنتيجة.(1) بدأت القوات البحرية البرتغالية عملياتها الأولى باعتمادهم سياسة التهديد والمحاصرة، ففي سنة (904هـ/1498م) عسكر القائد البرتغالي باسطوله عند مدخل البحر الأحمر بغرض منع دخول السفن الأوروبية إلى المواني المصرية والشامية.(2) ولذلك قرر السلطان قانصوة القيام بعمل حاسم وبخاصة عندما أصبحت التوابل مكدسة في الثغور المصرية، فأعد حملة بقيادة حسين الكردي نائب جدة سنة (911هـ/1505م)، مكونة من عدة مراكب مشحونة بالسلاح والزاد.مما مكنها سنة (914هـ/1508م)، من الانتصار على البرتغاليين الذين كانوا يتعبثون في البحر، وغنم منهم غنائم كثيرة، ثم أرسل قائد الحملة حسين الكردي يطلب عسكراً ثانياً حتى يتقوى به على من تبقى من البرتغاليين. وفي السنة التالية كانت الهزيمة من نصيب القوات الإسلامية في معركة ديو البحرية- منطقة قريبة من الهند- حيث كسرهم البرتغاليون كسرة فاحشة، وقتلوا العسكر عن آخره، ونهبوا مافي مراكبهم.(3) ويرى سعيد أن ذبول تجارة مصر مع الشرق الأقصى والمغرب الأوروبي، أدت إلى ذبول دولة المماليك كلها.(4)

5.العلاقات المملوكية العثمانية

بدأ العثمانيون في الظهور على مسرح الأحداث في المنطقة منذ النصف الأول من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشرالميلادي، وإن كانوا قد وفدوا إلى المنطقة بسبب غزوات التتار، بقيادة تيمور لنك، والذي أخرجهم من خراسان إلى منطقة آسيا الوسطى. وحين نشأت الدولة العثمانية واتخذت لنفسها مدينة بروسة في آسيا الصغرى عاصمة لم

(1) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص298.

(2) فائز علي بخيت: المرجع السابق، ص12-13.

(3) ابن إياس: المصدر السابق، ج4. ص85، ص142، ص156.

(4) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك ، ص299.

يكن ثمة مبرر للصدام. ولكن الدولة العثمانية سرعان ما اتسعت لكي تبتلع آسيا الصغرى وتستولي على مدينة القسطنطينية سنة(857هـ/1453م)، لكي تضع بذلك الفصل الختامي في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية وبعد ذلك اقتربت حدود الدولة العثمانية من حدود الدولة المملوكية مما أوجد نقطة احتكاك بين الطرفين.(1) وتذكر المصادر التاريخية أن السلطان العثماني محمد الثاني لمّا فتح القسطنطينية سنة (857هـ/1453م)، أرسل إلى الملك الأشرف أبو النصر أينال، يُهنئهُ بالملك ويخبره بما منّ الله عليه من فتح القسطنطينية، وكان معه أسيران من عظماء إسطنبول وطلع بهما إلى السلطان، فسر السلطان والناس بهذا الفتح العظيم سروراً زائداً، ودقت البشائر، وزينت القاهرة، واحتفلت الناس بزينة الحوانيت والأماكن.(2) وهذا دليل واضح على متانة العلاقات بين الطرفين المملوكي والعثماني، وأن خصمهما واحد، ولكن عندما اقتربت التوسعات العثمانية جنوباً أصبح التنافس والاحتكاك بينهما واقعاً لا مفرّ منه. وبدأ هذا الاحتكاك في عهد السلطان محمد الثاني، على حدود آسيا الصغرى وسورية. أضف إلى ذلك أن المماليك أوجسوا خيفة من منافسة العثمانيين لهم في العناية بالحرمين الشريفين وبشؤون الحاج، وكانت تُعتبر دائماً امتيازاً يستبد به أقوى ملوك المسلمين في كل عصر.(3)

بدأت العلاقات تسوء بين الطرفين منذ أن تولى خشقدم الحكم (865-872هـ/1460-1467م) نظراً لاصطدام مصالح الدولتين في مناطق شرق الأناضول وجنوبه، خاصة وأن بعض الإمارات كانت مشمولة بحماية المماليك مثل إمارة ذولغادر وقرمان* قرب حلب.(4) ويذكر أن أول صدام عسكري حصل بين الطرفين كان في عهد

---

(1) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص154.

(2) ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج16، ص49، ص50.

(3) بروكلمان: المرجع السابق، ص447.

*.هما إمارات تركمانية تقع على الحدود الشمالية لبلاد الشام، وكانت مشمولة بحماية المماليك. سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص188.

(4) أحمد فؤاد متولي: الفتح العثماني للشام ومصر، ط1، الزهراء للإعلام، القاهرة، 1995م. ص45.

السلطان قايتباي سنة 889هـ/1484م، حينما أرسل قايتباي تجريدة عسكرية من أربعمائة مملوك، لصد اعتداءات العثمانيين على الحدود المملوكية.(1)

وتجدد الصدام بين الطرفين سنة 890هـ/1485م، عندما استولى بايزيد الثاني على أطراف بلاد السلطان، فأرسل نائب حلب يستحث السلطان بخروج تجريدة ثقيلة، أو يخرج السلطان بنفسه، فأرسل قايتباي القائد أزبك الذي حقق انتصاراً عليهم بعد معركة بين الطرفين.(2) ولكن الحرب الفعلية بين الطرفين لم تتخذ شكلاً جدياً خطيراً إلا في عهد السلطان سليم الأول العثماني من ناحية، والسلطان قانصوة الغوري من ناحية أخرى.(3) فقد أسرع السلطان سليم الأول بعد عودته من فارس سنة 921هـ/1515م ، إلى ضم إمارة ذي القادر الفاصلة بينه وبين المماليك، والمشمولة بحماية هؤلاء، وقبض على حاكمها علاء الدين، وقطع رأسه، وأرسله إلى القاهرة.(4) ويعتبر هذا التصرف بمثابة إعلان حرب على المماليك وحلفائهم. لم يستطع السلطان الغوري أن يظل ساكناً إزاء الاستفزازات العثمانية، فقام باسترضاء المماليك الغاضبين عليه، استعداداً للمعركة فقد ذكر ابن إياس ذلك بقوله:" من حين تحقق السلطان أن ابن عثمان زاحف على البلاد السلطانية وهو يأخذ بخواطر المماليك القرانصة، ويرضيهم بكل ما يمكن، وصرف لهم ثمن اللحوم التي كانت مكسورة للعسكر، وأعطاهم ثمن الخيول التي كانت لهم في الديوان.(5) وعندما وصل قانصوة الغوري إلى الريدانية وخيم فيها، ورد عليه كتاب من السلطان سليم يحتوى على عبارات حسنة وألفاظ رقيقة مخاطبا الغوري بالوالد ويطلب منه الدعاء ويشرح له أسباب ضمه لبلاد علي دولات، وأنه على استعداد لردها لأملاك السلطان. استبشر السلطان والأمراء بأمر الصلح والعودة إلى الأوطان عن قريب، ولكن

---

(1) ابن إياس: المصدر السابق، ج3، ص206.

(2) المصدر نفسه، ج3، ص219. علي شعيب، المرجع السابق، ص185، ض186.

(3) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك ، ص304.

(4) سهيل طقوش: تاريخ المماليك، ص497.

(5) ابن إياس: المصدر السابق، ج5، ص13.

هذا كله كان حيلاً وخداعاً من ابن عثمان حتى يبلغ بذلك مقاصده.(1) ومن جملة مخادعه أنه أرسل يطلب منه سكراً وحلوى، فأرسل إليه الغوري مائة قنطار سكراً وحلوى، وكل ذلك حيل حتى يُبطل همة الغوري عن القتال.(2) عن طريق تبادل الهدايا بين الطرفين، إلا أن السلطان قانصوة الغوري بحنكته السياسية الطويلة يدرك أن الثقة بالسلطان سليم ليست في مكانها، لذلك جمع الأمراء والأعيان، وتحالفوا على أن لا أحد منهم يخون صاحبه، ويكونون على قلب رجل واحد، ويقاتلون عدوهم بعد أن كان غالب العسكر ما يظن إلا الصلح.(3)

التقى الجيشان عند مرج دابق سنة (921هـ/1515م)، فحارب المماليك بشجاعة نادرة، فهمّ سليم الأول بالهروب أو بطلب الأمان، وقد قتل من عسكره فوق العشرة آلاف إنسان، وكانت النصرة لعسكر المماليك.(4) لولا خيانة نائب حلب خايربك، عندما انسحب من الميدان، وشاع أن الغوري قتل، فانهارت صفوف المماليك، وعندما حاول الغوري أن يوقف تيار الفرار سقط ميتاً من فوق فرسه ومات، وقد قطع رأسه بأمر من الأمير علان، ورمي في جب، كي لا يعرفه العثمانيون.(5) استغل السلطان سليم انتصاره هذا وضم حلب وحماة وحمص ودمشق. وكان السكان يرحبون به ويحتفون بمقدمه بصورة لم يألفها أي سلطان عثماني من قبل. وعين على هذه المدن ولاة من قبله.(6)

كان طومان باي يتولى في ذلك الحين وظيفة نائب الغيبة عن مصر وأرسل إليه السلطان سليم رسالة يطلب منه الدخول في طاعته.وجاء فيها:"إن الله قد أوحي إلي بأن

---

(1) ابن إياس: المصدر السابق، ج5، ص45.

(2) المصدر نفسه ، ج5، ص60.

(3) ابن زنبل: المصدر السابق، ص95.

(4) ابن إياس: المصدر السابق، ج5، ص69.

(5) ابن زنبل : المصدر السابق، ص102، ص103.علي شعيب، المرجع السابق، ص189.

(6) ابن إياس: المصدر السابق، ج5، ص73 ومابعدها. سهيل طقوش: تاريخ المماليك، ص502.

أملك الأرض والبلاد من المشرق إلى المغرب كما ملكها الإسكندر ذو القرنين،وأني أخذت المملكة بالسيف بحكم الوفاة عن السلطان الغوري، فاحمل لي خراج مصر في كل سنة كما كان يحمل لخلفاء بغداد، وإن أردت أن تنجو من سطوة بأسنا فاضرب السكة في مصر باسمنا وكذلك الخطبة، وتكون نائباً عنا بمصر".(1)

رفض السلطان طومان باي ذلك وقرر المقاومة أمام جيش السلطان سليم العثماني، وبذل طومان باي خلال سلطنته التي استمرت ثلاثة شهور جهوداً مضنية للدفاع عن مصر.(2) وأظهر شجاعة لا تقل عن شجاعة الغوري في مرج دابق. ولكن فرداً واحداً مهما تبلغ إرادته وشجاعته، لايستطيع أن يصد جيشاً متماسكاً كبيراً. وكان أن حلت الهزيمة بالمماليك، وفر طومان باي ليواصل المقاومة بين دروب القاهرة وأحيائها، حتى نجح فعلاً في إخراج سليم من القاهرة بعد أن كان قد دخلها. وعندئذ ظهرت عوامل الخيانة مرة أخرى، ففوجىء طومان باي أثناء مقاومته الجبارة على ضفاف النيل بالجيزة بهجوم العربان والبدو على مؤخرته مما أوقعه بين نارين، فاضطر إلى التقهقر والفرار.(3)

---

(1) ابن زنبل: المصدر السابق، ص119. ابن إياس: المصدر السابق، ج5، ص124، ص125.

(2) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص154.

(3) ابن زنبل: المصدر السابق،ص194. سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص309.

الفصل الثاني

الحياة السياسية في بلاد الشام في العصر المملوكي الثاني

أولاً: جغرافية بلاد الشام
1.التسمية والموقع
2. الحدود
ثانياً: نظم الحكم والإدارة في بلاد الشام
أ. نيابات بلاد الشام
1.نيابة دمشق
2.نيابة حلب
3.نيابة طرابلس
4.نيابة حماة
5. نيابة صفد
6.نيابة الكرك
7.نيابة بيت المقد س
ب. وظائف أرباب السيوف" القيادة السياسية والعسكرية"
1.نائب السلطنة في بلاد الشام
2.نائب القلعة
3.الحجوبية

4.شد المهمات
5.والي المدينة
6. المهمندارية
7.الخزندار
8.نقابة القلعة
9.نقابة الجيش
10.شد الدواوين
11.شد الأوقاف
ثالثاً: الثورات والتجريدات العسكرية في نيابات بلاد الشام
1.ثورة الطنبغا السلطاني 784هـ/1381م.
2. حركة يلبغا الناصري ومنطاش 790هـ/1388م.
3. ثورة تَنَم نائب الشام في عهد فرج بن برقوق801هـ/1398م.
4. فتنة جَكَم وانتفاظة شيخ المحمودي 807هـ/1404م.
5.حركة الأمير نوروز الحافظي 816هـ/1413م.
6. حركة الأمير قاني باي المحمدي وأينال الصصلاني 818هـ/1415م.
7. حركة الطنبغا القرمشي والأمير جقمق 824هـ/1421م.
8. تمرد تغري برمش 842هـ/1438م.
9. تمرد العربان وثوراتهم.

الحياة السياسية في بلاد الشام في العصر المملوكي الثاني

أولاً: جغرافية بلاد الشام

1.التسمية والموقع

أطلق سكان وادي الرافدين القدامى على بلاد الشام اسم" أمورو"- وتقابل" مارتو" بالسومرية- وهي ترادف كلمة الغرب كذلك، ومنذ، العهد اليوناني استخدم اصطلاح " سورية" (سورستان عند الترك، وأرام في التوراة)، وهي كلمة يونانية محرفة عن أصل سامي قديم، بالمقابل مع اليمن (اليمين أو الجنوب) وذلك بالنسبة إلى أهل الحجاز، كما يقال اليد اليمنى واليد الشومى.(1)

وتباينت آراء اللغويين والجغرافيين العرب في سبب تسمية بلاد الشام بهذا الاسم، فقد قيل: إنما سميت الشام شاماً لأن قوماً من كنعان بن حام عن تفرقهم فتشاموا إليها أي أخذوا ذات الشمال.وقيل سميت الشام شاماً لكثرة قراها وتداني بعضها من بعض فشبهت بالشامات، كما سمي الخال في بدن الإنسان شامة ويجمع شامات، وقيل لأن أرض الشام مختلفة الألوان بالحمرة والبياض والسواد، ولوجود جبال هناك سود وبيض كأنها شامات فسميت شاماً.(2) وهذا ما أكده شيخ الربوة بقوله: الشام سمي شاماً لشامات في أرضه حمرٌ وبيضٌ وسود، وذلك في التراب والحجر والنبات. (3)

---

(1) محمد بيومي مهران: بلاد الشام، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1990م، ص14.

(2) ابن منظور: لسان العرب، ج12،ص315.314. القلقشندي: صبح الاعشى،ج4، ص78. الحميري: الروض المعطار، ص335. محمد كرد علي: خطط الشام، ط2، ط3، مكتبة النوري للنشر، دمشق، 1983م، ج1، ص8. نهى محمد حسين مكاحلة: الزراعة في بلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن، 1992م. ص23.

(3) شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص192.

ويرى المقدسي أن: الشام سُميت الشام شاماً لأنها شامة الكعبة وتقع شمالها، وأهل العراق يسمون كل ما كان وراء الفرات شاماً.(1) وللشام ألفاظاً منها: الشأُم، والشّام، والشّأم، ويذكر قصصاً لتفسير ذلك فمرة يرى أنه مأخوذ من اليد الشؤمى(اليسرى)، ومرة يرى بأنه مشتق من الشؤم.(2) وقيل جاءت التسمية نسبة إلى سام بن نوح لأنه نزل به واسمه بالسريانية شام بشين معجمة.(3) فتطيرت العرب أن تسكنها واسمها سام لأن السام اسم الموت، فقيل شام.(4) وذكروا أن معنى الشام الطيب، ويقال للشام اللمَّاعة واللماعة، بالركبان تلمع بهم أي تدعوهم إليها وتطيبهم، وقد تجمع الشام على شامات وتسمى الشام بذلك، ومن الناس من لا يجعله إلا شاماً واحداً، ومنهم من يجعله شامات فيجعل بلاد فلسطين والأرض المقدسة إلى حد الأردن شاماً، ويقولون الشام الأعلى ويجعل دمشق وأرجاءها من الأردن إلى الجبال المعروفة بالطوال شاماً ويجعل سورية وهي حمص وما ضمت إلى رحبة مالك شاماً، ويجعلون حماة وشيزر من مضافاتها ويجعل قنسرين من إقليمها، وحلب مما يدخل في هذا الحد إلى جبال الروم والعواصم والثغور. فأما عكا وطرابلس وكل ما هو على ساحل البحر وكل ما قابل شيءٌ منه شيئاً من الشامات فيحسب منه.(5)

---

(1) شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أبي بكر المقدسي المتوفى 390هـ/990م: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط2، دار صادر، دار صادر، بيروت، طبع في مدينة ليدن، سنة 1909م. ص152. محمد كرد علي: المرجع السابق، ج1، ص8.

(2) شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي المتوفى 626هـ/1228م: معجم البلدان، 5ج، دار صادر، بيروت، 1986م. ج3، ص312. عزالدين محمد بن علي بن ابراهيم بن شداد المتوفى 684هـ/1285م: الأعلاق الخطيرة في أمراء الشام والجزيرة، تحقيق، يحي زكريا عبارة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1991م. ج1، ق1، ص15.

(3) أبو الفدا: تقويم البلدان، ص225.القلقشندي: المصدر السابق، ح4، ص78.محمد كرد علي : المرجع السابق، ج1، ص8.

(4) عز الدين بن شداد: المصدر السابق، ج1، ق1، ص15،ص17. مبارك محمد الطراونه: الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة 784-923هـ/1382-1517م، ط1، دار جليس الزمان، عمان، 2010م، ص41.

(5) غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري، المتوفى 873هـ/1468م: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، صححه بولس راويس،، طبع في مدينة باريس، 1894م. ص41. محمد كرد علي: المرجع السابق، ج

والشام بلاد كثيرة وكور عظيمة وممالك، وقَسمت الأوائل الشام عدة أقسام: الأول فلسطين(1) وفيها: غزة* والرملة*1 والشام الثانية مدينتها العظمى طبرية*2 والغور*3 واليرموك، والثالثة الغوطة*4 ومدينتها العظمى دمشق ، ومن سواحلها طرابلس الشام، والرابعة أرض حمص وقنسرين ومدينتها العظمى حلب وساحلها انطاكية.(2) وتقع بلاد الشام فيما بين خطي عرض 31، 27 شمالاً، وخطي طول 22، 40 شرقاً، وهي واحدة من أقاليم آسيا الغربية، في المنطقة التي تمتد من جبال طوروس شمالاً، وحتى شمال سينا جنوباً، ومن البحر المتوسط غرباً، وحتى البادية وبلاد النهرين وقدر الجغرافيون مساحة بلاد الشام بالفترة الزمنية التي تستغرق في قطعها طولاً من العريش للفرات بنحو شهر، أما عرضها من جبلي طي أجا وسلمى*5 من القبلة، إلى بحر الروم عشرين يوماً.(3)

2.الحدود

لم يتفق الجغرافيون الأوائل في إعطاء وصف دقيق وواضح لحدود بلاد الشام وطبيعتها الجغرافية.(4) فكل واحد منهم ذكرها حسب تقسيم المنطقة في عصره إما كوراً

---

(1) الحميري: المضدر السابق، ص335.

*موضع بديار جذام من مشارق الشام على ساحل البحر وبها قبر هاشم بن عبد مناف، المصدر نفسه، ص428.

*1.كانت عاصمة فلسطين إلى أن احتلها الفرنجة سنة 1099م، وقيل سميت الرملة لكثرة الرمل بها.البكري: المصدر السابق، ص36.

*2. مدينة كبيرة ضخمة ولم يبقى منها إلا رسوم تنبيء عن ضخامتها، وهي قصبة الأردن،ابن بطوطة: المصدر السابق،ص260.

*3. وادي الأردن جنوب بحيرة طبرية، المصدر نفسه، ص256.

*4.اسم عرفت به واحة بضواحي دمشق، المصدر نفسه، ص299.

(2) الحميري: المضدر السابق، ص335.

*5.جبلان بأرض الحجاز، وبها مسكن طيء وقراهم، قيل: أجا اسم رجل وسلمى اسم امرأة، القزويني: المصدر السابق، ص74.

(3) شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت الحموي المتوفى 626هـ/1228م: معجم البلدان، 5ج، دار صادر، بيروت، 1986م،ج3، ص312.

(4) أبو سحاق أبراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري المتوفى 321هـ/933م : مسالك والممالك، طبع في مدينة ليدن، مطبعة بريل، 1937م. ص55.

أو أجناداً.أما جغرافيو العصر المملوكي فقد تباينت آراؤهم في تحديد المنطقة إلا أن الأغلب من الآراء يتفق مع رأي ياقوت الحموي(626هـ/1228م) الذي ذكر حدوداً عامة لبلاد الشام، حدها من الفرات إلى العريش المتاخم للديار المصرية طولاً، وأما عرضها فمن جبل طي من نحو القبلة إلى البحر المتوسط.(1)

وورد في تقويم البلدان لأبي الفدا (ت742هـ/1341م) بأن الشام تمتد من رفح في الجنوب، إلى ملطية في الشمال، ويحدها غرباً بحر الروم، أما من الشرق فيحدها خط يمتد من البلقاء* إلى شرقي صرخد مروراً بأطراف الغوطة وسلمية فشرقي حلب

فبالس وينحرف شمالاً في خط يمتد من البيرة إلى طرسوس*1 في بلاد الأرمن (بلاد سيس) مروراً بسميساط وحصن منصور وبهنسا ومرعش.(2) وعلى الرغم من إتفاق الجغرافيين على هذه الحدود نوعاً ما، إلا أننا نرى أنه من الصعب تحديد نقاط حدود بعينها لبلاد الشام خاصة في المنطقة الشمالية نتيجة للأحوال السياسية والعسكرية والتي شهدتها خلال العصر المملوكي.

ثانياً: نظم الحكم والإدارة في بلاد الشام

تعتبر بلاد الشام درعاً واقياً للأراضي المصرية على مر العصور. فقد حرصت معظم الدول التي توالت على حكم مصر على السيطرة على بلاد الشام، وضمان استمرار الوحدة بين هذين القطرين، وهذا ما ركز عليه المسلمون الأوائل الذين أدركوا أن فتح الأراضي المصرية لابد أن يسبقه تأمين بلاد الشام أولاً.وعندما استقر الفتح الإسلامي في مصر سنة (21هـ/640م)، حرص الخلفاء على تقسيم بلاد الشام على

---

(1) مبارك الطراونه: المرجع السابق، ص43،42.

*.بلدة أردنية مركزها مدينة حسبان، ومن مدنها السلط، القلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص106.

*1. مدينة بين انطاكية وحلب. مدينة جليلة سميت بطرسوس بن الروم بن اليقن بن سام بن نوح: القزويني: المصدر السابق، ص219.

(2) أبو الفدا: تقويم البلدان، ص225. فادي الياس توا: المناخ والأسعار والأمراض في بلاد الشام في عهد المماليك، (648-922هـ/1250-1516م) بيروت، 1998، ص11.

شكل أجناد. لحماية الوجود الإسلامي في مصر والشام من خطر الهجمات البيزنطية.(1) وعندما آلت بلاد الشام للمماليك عشية سيطرتهم عليها بعد نصرهم على المغول في معركة عين جالوت سنة 658هـ/1259م، تم تقسيم بلاد الشام إلى عدد من النيابات أعطي حكامها نوعاً من الاستقلال التام بحكمها. وذلك لأن المماليك أدركوا أن هذا الإجراء هو أنسب الحلول لمواجهة الأخطار المتوقع حدوثها لاحقاً ضد حكمهم في بلاد الشام، وخاصة من قبل المغول الذين أجبروا على عبور الفرات،إلا أن نفوسهم كانت تتوق للعودة مرة أخرى إلى بلاد الشام متى لاحت لهم بذلك فرصة،إضافة إلى الوجود الصليبي الذي كانت بقاياه لا نزال جاثمة في بعض مدن الساحل الشامي.(2) وتميزت دولة المماليك بتنظيمها الإداري المتقن، فقد اقتبس المماليك أسس هذا التنظيم عن الدولة الأيوبية التي أحسنت الجمع بين التنظيمات الإدارية الفاطمية من جهة، والممالك السلجوقية من جهة أخرى.(3)

وإذا ألقينا نظرة على خارطة بلاد الشام في العصر الأيوبي، يتبين لنا أن المماليك لم يأتوا بجديد في هذا التقسيم، فقد كانت بلاد الشام تتألف من ستة أقسام هي:أولاً: مملكة دمشق، ثانياً: مملكة حلب، ثالثاً: مملكة الكرك والشوبك والبلاد الشرقية، رابعاً:حماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم، خامساً: بعلبك، سادساً: حمص وتدمر والرحبة.(4)

---

(1) شيخ الربوة: المصدر السابق، ص192.القلقشندي: المصدر السابق، ج4،ض78.
إيمان بنت عبدالحليم عبدالقادر تركستاني: نيابة حماة في عصر سلاطين المماليك (698-922هـ/ 1299-1516م)، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، السعودية، 2004. ص19.

(2) سماح بنت سعيد عبد القادر باحويرث: الأثر السياسي والدور الإصلاحي للعلماء في عصر سلاطين المماليك(648-923/ 1250-1517م)، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، السعودية، 2010م. ص30.

زياد عبدالعزيز المدني: مدينة حلب في العصر المملوكي الثاني من خلال كتاب" الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب" ، ص144.(3)
علاء الدين أبو الحسن أبن خطيب الناصرية الحلبي المتوفى843هـ/1439م، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، 1983م.

(4) ابن واصل: المصدر السابق،ج2، ص3، ص4. ابن كثير: المصدرالسابق،ج2، ص1955. قاسم عبده قاسم: الأيوبيون والمماليك، ،ص83، ص84. عبدالعزيزسيد الأهل: أيام صلاح الدين، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، 1964م.ص228.

أما تقسيم نيابات الشام في العصر المملوكي فهي: نيابة دمشق، ونيابة حلب، ونيابة حماة، ونيابة حمص، ونيابة طرابلس، ونيابة الكرك.(1) ويرى شيخ الربوة أن نيابات الشام ثمانية سماها ممالك وهي: مملكة دمشق، مملكة حلب، مملكة الكرك، مملكة صفد، مملكة طرابلس، مملكة حماة، مملكة غزة، مملكة حمص. (2)

ويبدو أنّ هذا التقسيم يتفق مع الطبيعة الجغرافية لبلاد الشام في عهد المماليك، حتى أن معظم تلك النيابات التي نراها في بلاد الشام على عصر سلاطين المماليك إنما كانت في حقيقة أمرها أقساماً إدارية واضحة في العصور السابقة، بل لقد وصل بعضها فعلا قبل عصر المماليك إلى درجة الدول المستقلة، مثل طرابلس ودمشق وحلب.(3)

إن نشوء هذه النيابات لم يأت دفعة واحدة بل حدث حسب تطورات الصراع مع الصليبيين، فأنشئت نيابتا دمشق وحلب سنة659هـ/1260م بعد معركة عين جالوت مباشرة، وأصبحت حماة نيابة سنة 714هـ/ 1314م، أما نيابة الكرك فيبدأ تاريخها في عصر المماليك سنة662هـ/ 1263م، على عهد السلطان بيبرس، ومثلها نيابة صفد التي ترجع إلى سنة 665هـ/ 1266م، أما نيابة طرابلس فترجع نشأتها إلى عهد قلاوون الذي استولى على المدينة من الصليبيين سنة 688هـ/ 1289م.(4)

ويطلق على النيابة أسماء مختلفة مثل: كفالة، وبلاد، وممالك.(5) فكان يقال: " الممالك الحلبية" ويقصد بها نيابة حلب، و"الممالك الشامية" ويراد بها نيابة دمشق وهكذا.(6) وجعل المماليك على رأس كل من هذه الممالك نائب سلطنة، ويعين من قبل

---

(1) القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص163. محمد دهمان: ولاة دمشق، ص12. محمد صبحي نهار الشناق: أعراب بلاد الشام في عهد المماليك (648-923هـ/1250-1517م)، رسالة دكتوراه، جامعة القديس يوسف، بيروت،2000م. ص23.
إيمان أحمد حسين مقابلة: القرية في بلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، لأردن، 1998م. ص24.

(2) شيخ الربوة: المصدر السابق ، ص193، 202، 206، 207، 210، 213.

(3) مفيد الزيدي: موسوعة التاريخ الإسلامي(العصر المملوكي)، دار أسامة للنشر، عمان، 2009، ص193.

(4) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص205-206.. مفيد الزيدي: المرجع نفسه، ص193-194.

(5) شيخ الربوة: المصدر السابق، ص202. القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص180، ص184.

(6) أكرم حسن العلبي: المرجع السابق، ص27.

السلطان من بين الأمراء الكبار في القاهرة. كما كان لكل مملكة عسكرها الخاص ودواوينها. ولم تختلف التنظيمات المملوكية في العصر المملوكي الثاني عما كانت عليه في العصر المملوكي الأول.(1) ويتكون الجهاز الإداري في النيابة الواحدة من أمير كبير، وعدد من الأمراء من مقدمي الألوف، وعدد من أمراء الطبلخانات* والعشروات، وحاجب الحُجَّاب ومعه عدد من الحجاب، وأربعة قضاة على المذاهب الأربعة ولهم نواب كثيرون في المدينة وفي القرى. ثم يلي الأمراء والقضاة في الجهاز الإداري فئة المباشرين*1 ويتألفون من كاتب سر وناظر جيش.(2) وأستادار ووزير وناظر دولة ثم أرباب الوظائف الدينية والدنيوية، وهم الولاة والكشاف والمهندار*2 ونائب القلعة ونقيب الجيش والمحتسب ومقدم البريدية وشاد البر أو شاد البحر(المفتش) والوالي.(3) ونيابات السلطنة على مراتب بحسب البلدان: فأكبرها نيابات دمشق وبعدها حلب، ثم نيابة طرابلس، وبعدها نيابة حماة، ثم صفد، وبعدها غزة، ثم نيابة حمص.(4)

ولما كانت كل من هذه النيابات الشامية لها وضعها الخاص، وتمتد لتشمل مساحات كبيرة، ويتبعها من الناحية الإدارية عدد من المدن والموانيء والقلاع المهمة، فإنه روعي أن تقسم كل نيابة منها إلى أقسام إدارية صغيرة، تسمى النيابات الصغار.(5)

---

(1) زياد المدني: المرجع السابق، ص13.

*. هو الأمير الذي يرقى إلى درجة يستحق بها أن تضرب موسيقى على بابه، ويكون أمير أربعين، ويتدرج في الزيادة إلى ثمانين، ويعد أمير الطبلخانات في الدرجة الثانية بين الأمراء، محمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص106.

*1. هو الموظف المنادي لأصحاب العلاقة للوقوف أمام القاضي في قاعة المحكمة، المرجع نفسه، ص134.

(2) القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص182، ص189-190.

*2.هو الذي يتلقى الرسل والعربان الواردين على السلطان وينزلهم دار الضيافة ويتحدث في القيام في أمرهم. المصدر نفسه،ج4،ص22.

(3) المصدر نفسه، ج4، ص184- 190.

(4) نجم الدين إبراهيم بن علي الطرطوسي المتوفى 758هـ/1360م: تحفة الترك فيما يجب أن يُعمل في المُلك، تحقيق ودراسة، رضوان السيد، 1ج، ط1، دار الطليعة للنشر، بيروت، 1413هـ/1992م. ص76.

(5) القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص197. سعيد عاشور : العصر المماليكي: ص207.

أ. نيابات بلاد الشام

1.نيابة دمشق

وصفها القلقشندي بأنها: أجلّ نيابات المملكة الشامية وأرفعها في الرتبة، ونائبها يضاهي النائب الكافل بالحضرة السلطانية في الرتبة والألقاب والمكاتبة، ويعبر عنه بالمكاتبات السلطانية وغيرها" بكافل السلطنة الشريفة بالشام المحروس" ويكتب له من الأبواب السلطانية في أكثر الأمور المتعلقة بنيابته، ويُكتب عنه التواقيع الكريمة، ويُكتب عنه المربعات بتعيين إقطاعات الجند.(1)

وبنيابة دمشق كل ما في مصر من الوظائف. وليس هذا في بقية بلاد الشام. مثل قضاء القضاة الأربعة من المذاهب الأربعة، وقاضي العسكر، وخزانة تخرج منها الإنفاقات والخلع، وخزائن سلاح (وزردخانات)*. وبيوت تشتمل على حاشية سلطانية مختصرة، حتى لو حضر السلطان إليها جريدة وجد بها من كل الوظائف القائمة بدولته.(2)

وكانت سلطة نائب دمشق نافذة أحياناً على سائر النواب في النيابات الخمس الأخرى إذ كانوا يكتبون له بأمورهم وقضاياهم وهو يرفع ذلك كله إلى السلطان. ولهذه المنزلة العالية، كانت نيابة دمشق موضع تنافس كبير بين الأمراء، ولشعور النائب بأهميته كان كثيراً ما يجنح إلى الثورة على السلطان وينادي بنفسه سلطاناً.(3) فهي العاصمة الثانية في دولة المماليك المترامية الأطراف، وهي الممر الرئيسي لقوافل الحجاج، أو للمتجهين إلى القاهرة عاصمة السلطنة، وفوق ذلك كله كانت تتحكم في

(1) القلقشندي: المصدر السابق،ج4، ص184. أحمد بن معمر: المغاربة ومنصب قاضي القضاة المالكي في دمشق المملوكية ، مجلة التراث، إتحاد الكتاب العرب، 2008م. ص147.

*. هو المكان المخصص لحفظ السلاح والعتاد الحربي، وقد تطلق على السلاح نفسه، محمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص86.

(2) ابن فضل الله العُمري: المصدر السابق، ج3، ص355.

(3) إحسان عباس: تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك، الجامعة الإردنية، عمان، 1998م. ص54.

مصير السلاطين أنفسهم.(1) ورغم ذلك فإن اللافت للنظر أن الصلاحيات التي منحت لنائب دمشق والامتيازات التي كان يتمتع بها لم تشمل قلعة المدينة التي كانت تعد واحدة من أشهر قلاع المدن الشامية، إذ لم يكن يسمح لنائب دمشق بالتدخل في شؤون قلعتها بل كانت القلعة تخضع لحاكم خاص بها يعينه السلطان المملوكي بنفسه ولا يسلم مفاتيحها لأحد إلا للسلطان نفسه أو لمن يأمره السلطان بتسليمها له.(2)

ومن الناحية الإدارية يتبع نيابة دمشق سبع نيابات صغيرة وخمس عشرة ولاية، وهي على الترتيب بحسب الأهمية: نيابة غزة. ونيابة القدس. ونيابة قلعة صرخد. ونيابة عجلون. ونيابة بعلبك. ونيابة حمص. ونيابة مصياف.(3)

أما ولايات دمشق فهي: ولاية الرملة، ولاية اللد، ولاية قاقون، ولاية بلد الخليل، ولاية نابلس، ولاية بيسان، ولاية بانياس، ولاية قلعة الصبية، ولاية الشعراء، ولاية أذرعات، ولاية حسبان والصلت، ولاية بصرى. ولاية البقاع العلبكي، ولاية بيروت، ولاية صيدا.(4) وقد بلغت ثمانية وعشرين عملاً ، قسمها ابن فضل الله العمري إلى أعمال قُبلية، وساحلية، وشرقية وشمالية.(5)

وكانت بعض هذه الأعمال تفصل نظرياً عن سلطة نائب دمشق، لكنها سرعان ما تعود إليه، كما حصل مثلاً سنة 902هـ/1496م، حينما أعيدت إليه الرملة ونابلس وعجلون والصلت وحمص.(6)

---

(1) أكرم العلبي: المرجع السابق، ص43.

(2) القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص184.

(3) المصدر نفسه،ج4، ص198-2002.

(4) ابن فضل الله العُمري: المصدر السابق، ج3، ص360-363. إحسان عباس: المرجع السابق، ص56-57.

(5) المصدر نفسه ،ج3، ص361-362.

(6) أكرم العلبي: المرجع السابق، ص37.

2. نيابة حلب

تأتي في المرتبة الثانية بعد نيابة دمشق، ويسمى نائب السلطنة فيها بنائب السلطنة الشريفة، ولايقال فيه كافل السلطنة كما يقال لنائب دمشق، ويوقع نائب حلب على أكثر الوظائف في نيابة حلب وأعمالها، كما يكتب عنه المناشير الإقطاعية، ويوقع على كل ما يتعلق بنيابته من المناشير والتواقيع والمراسيم الشريفة بالاعتماد على ما يكتب السلطان، ويزيد نائب حلب عن نائب دمشق بأنه يخرج للصيد مرتين: الأولى في حلب في القسم الغربي للفرات يتصيد فيها الغزلان، ويقيم فيها نحو عشرة أيام، والثانية وهي العظمى يعبر فيها الفرات إلى بر الجزيرة شرقي الفرات، ويتنقل في نواحيها مما هو داخل في مملكة الديار المصرية وما حولها، يتصيد فيها الغزلان وغيرها من سائر الوحوش، ويقيم فيها نحو شهر.(1)

وليس لنائب السلطنة على القلعة ولا على نائبها حكم كما تقدم في قلعة دمشق، وعادة نائبها أن يكون أمير طبلخاناه* وتوليتها من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف، وفيها من الأجناد البحرية المعدين لحراستها نحو أربعين نفساً، مقيمون بها لايظعنون عنها بسفر ولاغيره.(2) وكانت نيابة حلب تتمتع بأهمية خاصة في عصر المماليك نظراً لخطورة موقعها على الأطراف الشمالية لدولة المماليك مما جعلها محوراً لكثير من أحداث العلاقات المضطربة بين المماليك من ناحية وجيرانهم مثل التتار والتركمان والعثمانيين من ناحية أخرى.(3)

---

(1) القلقشندي: المصدر السابق، ج3، ص217. حسام محمد إسماعيل الناطور: دولة المماليك في عهد برقوق، رسالة دكتوراه،1998م. الجامعة الأردنية، ص123.

*.مرتبة حربية من مراتب أرباب السيوف في الدولة المملوكية، صاحبها يلي أمير مائة، وسمي أمير طبلخاناه لأحقيته في دق الطبول على أبوابه كما يفعل السلاطين والأمراء. ويطلق على أمير طبلخاناه أيضاً أمير أربعين. سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص414.

(2) القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص217.

(3) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص 208. مفيد الزيدي: المرجع السابق، ص194.

ونظراً لهذه الأهمية فقد حرص سلاطين المماليك في مصر على تزويدها بين الفينة والأخرى بقوات خاصة ترابط بها لمواجهة الأخطار التي تهدد حدودها، حتى غدت نيابة حلب بفضل هذا الاهتمام، تشكل حزاماً أمنياً لحدود سلطنة المماليك.(1) ورغم ذلك ظلت العلاقة بين نيابة حلب ومصر يسودها عدم الثقة والتوتر وكثيراً ما يلجأ السلاطين إلى عزل نواب حلب خوفاً من تكوين النواب أعواناً لهم يساعدونهم على القيام بحركات عصيان ضد السلاطين فد يمتد تأثيرها إلى بقية الشام ومصر، وقد تكون نتيجتها إقصاء السلطان نفسه كما حدث بحركة العصيان التي قام بها الأمير يلبغا الناصري وانضم إليه معظم نواب البلاد الشامية، عندما وصلوا إلى مصر وتمكنوا من خلع السلطان برقوق.(2)

ونظراً لاتساع نطاق هذه النيابة فقد حرص سلاطين المماليك في القاهرة على تحري الدقة في اختيار النواب بها حيث شمل ذلك الاختيار عدداً من كبار أمراء السلطنة، الذين أقاموا بها نظاماً إدارياً محكماً يناسب مكانتها . فضمت نيابة حلب ثلاثاً وثلاثين نيابة بين كبيرة وصغيرة، واثنتي عشرة ولاية.(3) ما هو داخل في حدود البلاد الشامية، وهي إحدى عشرة نيابة هي: نيابة قلعة حلب، ونيابة كختا، ونيابة كركر، ونيابة بهسنا، ونيابة عينتاب، ونيابة الراوندان، ونيابة دربساك، ونيابة بغراس، ونيابة القصير، ونيابة الشغروبكاس، ونيابة شيزر.(4)

أما نيابات حلب الخارجة عن حدود البلاد الشامية فهي قسمان: القسم الأول: بلاد الثغور والعواصم وما والاها، وفيها ثماني نيابات هي: نيابة ملطية، ونيابة دبركي، ونيابة درنده، ونيابة الأبلستين، ونيابة إياس، ونيابة طرطوس، ونيابة أذنة، ونيابة

(1) إيمان بنت عبد الحليم: المرجع السابق، ص9.
(2) المقريزي: المصدر السابق، ج5، ص218. ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج11، ص226، ص318.
(3) إحسان عباس: المرجع السابق، ص57.
(4) القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص226-227.

سرفندكار، ونيابة سيس.(1) وبعد ذلك نيابات صغار يولي بها نائب حلب أجناداً، ولا مكاتبة لها من الأبواب السلطانية.وهي: نيابة باري كروك، ونيابة كاورا، ونيابة كولاك، ونيابة كرزال، ونيابة كومي، ونيابة تل حمدون، ونيابة الهارونيتين، ونيابة قلعة نجم، ونيابة حمص، ونيابة قلعة لؤلؤة. ويشمل القسم الثاني حدود بلاد الجزيرة شرقي الفرات، وهي ثلاث نيابات هي: نيابة البيرة، ونيابة قلعة جعبر، ونيابة الرُّها.(2) وولايات حلب المشهورة عند القلقشندي، فهي اثنتا عشرة ولاية، يصدر أمر إدراتها وولايتها بتواقيع كريمة وهي: ولاية بر حلب(واليها والي الولاة)، ولاية كفر طاب، ولاية سرمين، ولاية الجبول، ولاية جبل سمعان، ولاية عزاز، ولاية تل باشر، ولاية منبج، ولاية تيزين، ولاية الباب وبزاعة، ولاية دركوش، ولاية أنطاكية.(3) في الوقت الذي ذكر فيه ابن فضل الله العمري ثلاثة وعشرين عملاً لنيابة حلب في وقت سابق، وهذا يعني أن ولايات حلب إما قلصت في عهد المماليك الجراكسة أو دمجت.(4) وجميع من ولي هذه الولايات باستثناء ولاية بر حلب كان برتبة جندي.(5)

3. نيابة طرابلس*

امتازت طرابلس كغيرها من النيابات الشامية بحصانتها الطبيعية حيث اشتهرت بقلاعها المطلة على البحر المتوسط التي لعبت دوراً بارزاً في حماية مدن الشام من مغبة الهجمات الصليبية المتكررة، وأسهمت بدور فاعل في دعم جهود المماليك في استرداد مدينة عكا.(6) وطرابلس نيابة جليلة، نائبها من أكبر مقدمي الألوف، وهو في

(1) القلقشندي: المصدر السابق ،ج4، ص228-229.

(2) المصدر نفسه، ج4، ص229.

(3) المصدر نفسه،ج4، ص230.

(4) ابن فضل الله الغُمري: المصدرالسابق،ج3، ص369.

(5) القلقشندي: المصدر السابق: ج4، ص231.

*مدينة بالشام عظيمة، عليها سور صخر منيع، ولها رساتيق وأكوار وضياع جليلة ، وهي معقل من معاقل الشام، وفيها عدة قلاع وحصون داخلة في أعمالها. انظر ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص48. الحميري: المصدر السابق، ص390.

(6) ابن فضل الله الغُمري: المصدر السابق،ج3، ص371. إيمان بنت عبد الحليم: المرجع السابق، ص12.

الرتبة الثانية من حلب كما في حماة، ولطرابلس نائب سلطنة هو المتسلم لجميعها والمتصرف فيما لديها من أمر العسكر وغيره.(1)

ويتبع نيابة طرابلس خمس نيابات كلها تكاتب عن الأبواب السلطانية في المهمات ونحوها، دون خلاص الحقوق، فإنه يختص بنائب السلطنة. وهذه النيابات هي: نيابة حصن الأكراد، نيابة حصن عكار، نيابة بلاطنس، نيابة صهيون، نيابة اللاذقية.(2) هذا فضلا عن ست نيابات صغرى أسماها القلقشندي" نيابات قلاع الدعوة، أي أنها كانت مراكز جماعة الإسماعيلية الباطنية، وهي نيابة الرصافة، ونيابة الخوابي، ونيابة القدموس، ونيابة الكهف، ونيابة المنيقة، ونيابة القلعة. ويبلغ عدد الولايات التابعة لنيابة طرابلس ست، وولاتها جميعهم برتبة جندي، وهذه الولايات هي: ولاية أنطرطوس، ولاية جبة المنيطرة، ولاية الظنين، ولاية بشرية، ولاية جبلة، ولاية أَنَفَة.(3)

4. نيابة حماة.*

اهتم سلاطين المماليك بأمر نيابة حماة رغم صغر مساحتها اهتماماً كبيراً، لكونها تتوسط النيابات المملوكية في بلاد الشام، فهي بمثابة حلقة وصل بين تلك التي تقع في جنوبه والأخريات التي في شماله.(4) ولهذا فقد تم تزويدها من قبل سلاطين المماليك بجهاز إداري وعسكري مُحْكَم ، يتناسب مع هذه الأهمية، كما حرصوا على أن يكون نائبها من فئة الأمراء ويتم تعيينه من قبل السلطان المملوكي نفسه بتشاريف خاصة.(5) وكان صاحبها مستقلاً فيها بإعطاء الإمرة والإقطاعات وتولية القضاة والوزراء وكتاب

---

(1) القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص233.

(2) المصدر نفسه، ج4، ص235. إحسان عباس: المرجع السابق، ص60.

(3) المصدر نفسه، ج4، ، ص235، ص236. سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص209.

* مبنية على نهر العاصي وهي من أحس مدن الشام. ولها قلعة حسنة البناء مرتفعة وبها نواعير على العاصي تسقي أكثر بساتينها ويدخل منها الماء إلى كثير من دورها. أبو الفداء: المصدر السابق، ص363. ابن فضل الله العُمري: المصدر السابق،ج3، ص316.

(4) أحمد غسان سبانو: مملكة حماة الأيوبية، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، 1984م . ص39.

(5) القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص237.

السر وسائر الوظائف بها، وتُكتب المناشير والتواقيع من جهته ولكنه لا يمضي أمراً كبيراً مثل: إعطاء إمرة أو وظيفة كبيرة حتى يشاور السلطان في مصر، وهو يجيبه على ذلك، وربما كتب له مرسوماً شريفاً بالتصرف في مملكته.(1)

أما السادة القضاة ففيها أربعة على أربعة المذاهب، ولكل منهم نواب، وأما الأمراء ففيها أمير كبير وحاجب الحجاب وأميران، والجميع طبلخانات.(2)

استمرت هذه النيابة تؤدي دوراً فاعلاً إلى أن أصابها الوهن والضعف كغيرها من النيابات الشامية، وذهبت في نهاية المطاف ضحية للتوسع العثماني الذي شمل بلاد الشام بأكملها سنة 922هـ/ 1516م.(3) ولا يتبع نيابة حماة أي نيابات أخرى كما هو حال النيابات السابقة، بسبب صغر مساحتها، وإنما يتبعها ثلاث ولايات، ولاتها أجناد يوليهم النائب بها. وهي: الأولى: ولاية برها كما في دمشق وحلب، الثانية: ولاية بارين، الثالثة: ولاية المعرة، وليس بها عرب ولا تركمان تنسب إليها.(4)

5. نيابة صفد

صفد مدينة في سفح جبل، صحيحة الهواء، خفيفة الماء، على مسافة يومين من دمشق، ولها قلعة حصينة على جبل تحف بها جبال وأودية، قلَّ أن يوجد لها شبيه ، بَنَتْها الفرنج في سنة خمس وتسعين وأربعمائة، وهي إلى جانب عكا، وبعد خراب عكا بقيت هي مدينة ذلك الساحل وقاعدته.(5) وبها عسكر من الجند ، وكل ما يوجد بدمشق

---

(1) ابن فضل الله العُمري: المصدر السابق،ج3، ص315-316.

(2) ابن شاهين الظاهري(غرس الدين): زبدة كشف الممالك، ص133.

(3) ابن زنبل: المصدر السابق، ص77.

(4) القلقشندي: المصدر السابق،ج4، ص239. أبو الفضل محمد بن الشحنة المتوفى 890هـ/1483م. الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تقديم، عبدالله محمد الدرويش، دار الكتاب العربي، سورية وعالم التراث، دمشق، 1404هـ/1984م. ص270. إحسان عباس: المرجع السابق، ص60

(5) ابن فضل الله العُمري: المصدر السابق، ج3، ص372-373.

فيها.(1) وفيها من القضاة أربعة على أربعة المذاهب، ولكل منهم نواب، وأما الأمراء ففيها أمير كبير وحاجب الحجاب ونائب القلعة وثلاثة طبلخانات.(2)

أما جيوشها ووظائفها الديوانية ووظائفها الدينية، فحالها حال طرابلس. وليس بأعمالها نيابة بل كلها ولايات، يليها أجناد من قبل نائب صفد، وهي إحدى عشرة ولاية. ولاية برها كما في غيرها من الممالك، ولاية الناصرة، ولاية طبرية، ولاية تبتين وهونين، ولاية عثليث، ولاية عكا، ولاية صور، ولاية الشاغور، ولاية الإقليم، ولاية الشقيف، ولاية جنين.(3) ويضيف إليها ابن فضل الله العمري ولاية حيفا، وهي خراب على الساحل، وقلعة " كوكب" وهي التي قال فيها العماد الأصفهاني: راسية راسخة، شمّاء شامخة.و"قلعة الطور" وهي مفردة على جبل الطور بناها العادل أبوبكر بن أيوب، ثم قاتله عليها الفرنج فهدمها.(4)

6. نيابة الكرك

تكاد نيابة الكرك تقارع في أهميتها نيـابة دمشق، وكان حاكمـها يسمى(الكافل) وهي تسمية خاصة بنائب دمشق ونائب الكرك. وكان مما يميز الكرك ودمشق أنهما كانتا تكاتبان مقر السلطنة في مصر بالورق الأحمر، وهو تقليد موروث عن العهد الأيوبي .(5) وقد حرص سلاطين المماليك على إنشائها في هذا الجزء الهام الذي يربط بين مصر من ناحية، والحجاز واليمن وبلاد الشام من ناحية أخرى، ويبدو أن المماليك أقاموا هذا الكيان السياسي في هذه المنطقة حرصاً منهم على وأد أي محاولة صليبية للسيطرة على حصني الكرك والشوبك، ولهذا أولى سلاطين المماليك هذه النيابة جلّ

(1) ابن فضل الله العُمري: المصدر السابق ، ج3، ص372.

(2) شيخ البروة: المصدر السابق، ص134.

(3) القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص241-242.

(4) ابن فضل الله العُمري: المصدر السابق،ج3، ص374.

(5) شيخ الربوة: المصدر السابق، ص132. القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص175.ابن شاهين الظاهري(غرس الدين): زبدة كشف الممالك، ص132. محمد عدنان البخيت: المرجع السابق، ص45، ص46.

اهتمامهم حيث ولّوا عليها نواباً من خيرة رجالهم، كما لعبت الكرك دوراً آخر مهماً باعتبارها محطة تجارية للقوافل البرية التجارية القادمة من الحجاز ومصر والشام.(1) وكانت نيابة الكرك لا يتولاها إلا أتابك العساكر أو من هو نظيره، ومن جملة مَنْ تولى نيابة الكرك الأمير بشتك والأمير قديد والأمير الطنبغا وغير ذلك من ملوك الديار المصرية، وكانت محصلة نيابه الكرك في كل شهر قريب من عشرة الاف مثقال ذهب.(2) ولايتبع الكرك أي نيابات بل ولايات أربع هي: ولاية برها كما في غيرها ، ولاية الشوبك، ولاية زغر، ولاية معان.(3)

7.نيابة بيت المقدس

تحول إلى نيابة شامية مستقلة منذ سنة 777هـ/1375م، ويتربع على هرمها الإداري نائب كبير يتم تعينه بمرسوم سلطاني يصل من القاهرة.(4) ونيابتها إمرة طبلخاناه، وقد جرت العادة أن يضاف إليها نظر القدس ومقام الخليل عليه السلام، وبها من الوظائف غير النيابة ولاية قلعة القدس، وواليها جندي، وكذلك ولاية المدينة. وكانت توليتها أولاً من جهة السلطنة في دمشق، أما ولاية والي القلعة وولاية البلد صارتا إلى نائب القدس من حين استقر بيت المقدس نيابة، وكذلك ولاية بلد الخليل عليه السلام. ولنيابة بيت المقدس أربع ولايات: ولاية الرملة، ولاية اللد، ولاية قاقون، ولاية بلد الخليل عليه السلام.(5)

وهذه إحصائيات مقاربة لعدد القرى في بعض أقاليم الشام كما ورد في " زبدة كشف الممالك" إقليم الغوطة: 300 قرية، إقليم نعران: 160 قرية، إقليم الزبداني: 50

---

(1) إيمان بنت عبد الحليم: المرجع السابق، ص13

(2) شيخ الربوة: المصدر السابق، ص132.

(3) القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص242. محمد عدنان البخيت: المرجع السابق، ص13.

(4) يوسف درويش غوانمه: نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، دار الحياة، عمان، 1982م. ص 22.

إيمان بنت عبد الحليم: المرجع السابق، ص15.

(5) القلشندي: المصدر السابق، ج4، ص199.

قرية، إقليم حوران : 1000 قرية: إقليم الحولة: 200 قرية، إقليم صرخد: 100 قرية، إقليم وادي التيم:360 قرية، إقليم نابلس: 300 قرية، إقليم السويدية:200 قرية، إقليم بعلبك: 360 قرية، إقليم صيدا: 200 قرية.(1)

ب. وظائف أرباب السيوف*" القيادة السياسية والعسكرية"

1.نائب السلطنة في بلاد الشام

هو لقب للقائم مقام السلطان في عامة أموره أو غالبها في نيابته، ويقال لنائب النيابات أيضاً أمير الأمراء، ويقال له أحياناً كافل السلطنة.(2) كما مر معنا سابقا في نيابة دمشق والكرك.(3) وكون دمشق أكبر نيابات الشام ومركزها فقد أعطى سلاطين المماليك في مصر نائبها نوعاً من الوصاية على نيابات الشام، من ذلك ضرورة استئذان نائب دمشق عند سفر أي مسؤول في بلاد الشام إلى القاهرة، وذلك بحكم أن له سيطرة معنوية على بلاد الشام بأسرها.(4) وكثيراً ما جنح نواب الشام سياسياً إلى الثورة على السلطنة في القاهرة والمناداه بأنفسهم سلاطين، كما حصل في حركة العصيان التي قام بها الأمير يلبغا الناصري في نيابة حلب، وانتهت بخلع السلطان برقوق.(5)

2.نائب القلعة

من وظائف أرباب السيوف، وهي نيابة مستقلة في مختلف نيابات بلاد الشام عن نائب السلطنة، وليس لنائب السلطنة من سلطة عليها، ويتولاها موظف يسمى نائب القلعة بمرسوم شريف من قبل السلطان في مصر، وكان يتولى نيابة القلعة في نيابات

---

(1) ابن شاهين الظاهري(غرس الدين): زبدة كشف الممالك، ص42-48. إحسان عباس: المرجع السابق، ص61.

* هم أكابر أرباب الوظائف والنواب، وهي خمسة وعشرون وظيفة. القلشندي: المصدر السابق، ج4، ص14، ص16.

(2) محمد دهمان: معجم اللفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص149.

(3) القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص175.، ص184.

(4) أكرم حسن العلبي: المرجع السابق، ص332.

(5) المقريزي: المصدر السابق، ج5، ص218. ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج11، ص226، ص318

بلاد الشام في دولة المماليك الأولى أمير تقدمه ألف. ثم استقرت في فترة حكم السلطان برقوق إمرة طبلخاناه.(1) وربما كانت هذه الأهمية راجعة إلى الوضع الاستراتيجي العسكري لهذه القلاع في تلك العهود، فقد كانت القلاع حصوناً عسكرية مشحونة بالسلاح والرجال، وهي من أمنع الأمكنة في البلد إذا ما تعرضت النيابة إلى عدوان خارجي أو فتنة داخلية.(2)

ويقول ابن الشحنة: ليس في نواب قلاع القاهرة ودمشق وغيرها مقدم ألف إلا نائب قلعة حلب خاصة.(3) ومن شأن نائب القلعة حفظها وصونها، ولايسلم مفتاحها لأحد إلا لمن يتولاها مكانة أو لمن يأمره السلطان بتسليمها له. ولنائبها أجناد بحرية مقيمون في القلعة لخدمته، ولا يحضر هو ولا أحدُ منهم دار النيابة بالمدينة، وفي القلعة طبل مرتب لاستعلام أوقات الليل إذا أُذن للعشاء يضرب، وإذا انقضى ثلث الليل الأول ضرب ضربة واحدة، وفي الثلث الثاني من الليل يُضرب ضربتين، وهكذا إلى الرابع، حتى طلوع الفجر.(4) ويطلق على موظف القلعة في نيابة الكرك والي القلعة، وكان شبه مستقل إدارياً عن نائب السلطنة إذ أنه كان يكاتب مباشرة من مقر السلطنة في القاهرة.(5) وهذا حال نيابة القدس يعين نائبها بمرسوم سلطاني، ومن اختصاص النائب صيانة القلعة، وحفظها، وخزن السلاح، والاشراف على الأجناد المقيمين في القلعة، كما أنه عين للسلطان على النائب وجميع موظفي النيابة.(6)

---

(1) القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص184،ص185. حسام الناطور: المرجع السابق، ص124.

(2) سعيد عاشور:العصر المماليكي، ص182.

(3) ابن الشحنة: المصدر السابق، ص259.

(4) القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص184.

(5) محمد عدنان البخيت: المرجع السابق، ص61.

(6) ابن فضل الله العُمري: التعريف بالمصطلح الشريف، مطبعة العاصمة، مصر، 1312هـ. ص94-96، ص148. يوسف غوانمه: المرجع السابق، ص33.

وخلت هذه الوظيفة في كل من نيابة طرابلس، ونيابة حماة، ونيابة صفد.لعدم توفر قلاع في تلك النيابات.(1)

3.الحجوبية*

أهم وظائف أرباب السيوف، وعدّها القلقشندي في المرتبة الثانية من فئة أرباب السيوف، بعد مقدمي الألوف، فلا يدخل أحد دار النيابة راكباً غير النائب والحاجب، ومن شأنه الجلوس بدار العدل بدمشق وهو نائب الغيبة في دمشق وحلب إذا خرج نائب السلطنة في مهمةً رسمية أوصيد، وهو الذي يقبض على نائب السلطنة بمرسوم من السلطان، ويقوم بأمر البلد إلى أن يقام نائب آخر.(2) وقد اختلف عددهم بين نيابة وأخرى، ففي كل من نيابة دمشق وحلب أربعة حجاب، أحدهم برتبة أمير مائة ألف، وثلاثة أمراء طبلخاناه، أو أمير طبلخاناه، وأمير عشرون، وأمير عشرة.(3) وفي كل من نيابة طرابلس وصفد ثلاثة حجاب أكبرهم إمرة طبلخاناه، والآحران إمرة عشرة.(4)

أما نيابة حماة والكرك ففي كل منهما حاجبان الأول: أمير طبلخاناه، والآخر: أمير عشرة. وكان في نيابة بيت المقدس أمير حاجب كغيرها من نيابات الشام، ومن مهامه الحكم بين الناس وفض المنازعات، كما ترفع إليه الأُمور المتعلقة بأرباب الجرائم وغيرها. (5)

---

(1) القلقشندي: المصدر السابق،ج4، ص234،238،240.

*. منصب مملوكي كان صاحبه يقوم مقام النائب في الولايات، وإليه يشير السلطان، وإليه أيضاً يتقدم من يتعرض ومن يرد، وإليه يرجع عرض الجند وما شابه ذلك. محمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية. ص59.

(2) تاج الدين عبدالوهاب السبكي المتوفى 771هـ/1370م: مُعيد النعم ومُبيد النقم، تحقيق، محمد علي النجار وآخرون، ط1، دار الكتاب العربي، مصر، 1367هـ/1948م. القلقشندي: المصدر السابق، ج4،ص185،ص 218. بوران طاهر فريد لبنية: المجتمع الدمشقي من خلال كتابات ابن طولون (ت 953هـ/ 1946م)، رسالة ماجستير جامعة اليرموك، الأردن، 1997م. ص63.

(3) ابن شاهين الظاهري(غرس الدين): زبدة كشف الممالك، 131.القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص218.
ابن الشحنة: المصدر السابق، ص258.

(4) القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص238.233

(5) المصدر نفسه، ج4، ص241. محمد عدنان البخيت: المرجع السابق، ص61. يوسف غوانمه: المرجع السابق، ص34.

4.شد المُهمات

جاءت هذه الوظيفة لأرباب السيوف في صبح الأعشى في نيابة دمشق فقط.وهي رتبة جليلة، وموضوعها التحدث في أمور الاحتياجات السلطانية، فهي تارة تكون لنائب السلطان، وتارة لحاجب الحجاب، وتارة لبعض الأمراء من المقدمين والطبلخانات بحسب ما يقتضيه السلطان.(1)

5. والي المدينة*

من وظائف أرباب السيوف في بلاد الشام، ويتولاها موظف يسمى والي المدينة، وموضوعها التحدث في أمر الشرطة، ويوقع عن نائب السلطنة، ورتبتة أمير عشرة، وواليها مقدم حلقة في نيابة دمشق وحلب.(2) أما في نيابة طرابلس وحماة وصفد فواليها جندي. أما في نيابة الكرك فلا يوجد والي للمدينة. إنما والي للشرطة. وفي نيابة القدس يجري تولية والي المدينة من قبل نائب بيت المقدس، ثم أصبحت من اختصاصات السلطان في القاهرة. (3)

6. المهمندارية*1

ويتولاها في دمشق، أمير عشرة، وجندي، ويكتب لكل منهما توقيع كريم عن النائب على قدر رتبته. ويتولاها في حلب اثنان أحدهما يكون أمير طبلخاناه وتارة يكون

---

(1) القلقشندي: المصدر السابق ،ج4، ص186.

*. كان هذا الاسم قديماً لا يسمى به إلا نائب السلطان. وهو الآن اسم لمن إليه أمر أهل الجرائم من اللصوص والخمارين. ومن حقه الفحص عن المنكرات: من الخمر والحشيش ونحو ذلك. السبكي، المصدر السابق، ص43.

(2) ابن شاهين الظاهري(غرس الدين): زبدة كشف الممالك، ص131. القلقشندي: المصدر السابق،ج4، ص 187، ص219.

(3) المصدر نفسه، ص132.المصدر نفسه، ج4،ص234، 241،238.

حسام الناطور: المرجع السابق، ص127. يوسف غوانمه: المرجع السابق، ص33.

*1.متولي هذه الوظيفة يكون مسؤولاً عن استقبال الرسل الواردين وأمراء العربان والشخصيات السياسة البارزة، وتقديم واجب الضيافة لهم. السبكي: المصدر السابق، ص32. القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص187. محمد بن اسماعيل بن كنان الصالحي الدمشقي المتوفى 1153هـ/1740م: المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية، تحقيق، حكمت اسماعيل، 2ج، وزارة الثقافة، دمشق، 1992. ق2، 16. محمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية ، ص147.

أمير عشرة، والآخر جندي حلقة. وكذلك الأمر في بقية النيابات جنديان متفاوتان في الرتبة.(1)

.7 الخزندار*

وموضوعها التحدث على الخِلَع والتشاريف السلطانية بالقلعة ورتبتها أربعة طواشية*1 أحدهم في رتبة أمير طبلخاناه أو أمير عشرين، والثاني والثالث والرابع دون، وكل منهم له توقيع كريم من نائب السلطة بدمشق على قدر رتبته.(2)

8.نقابة القلعة

من وظائف أرباب السيوف، وهي إمرة عشرة بمرسوم شريف، يكتب له من الأبواب الشريفة.(3)

9.نقابة الجيش*2

وفيها ثلاثة نفر، أكبرهم يعبر عنه بنقيب النقباء، تارة يكون أمير طبلخاناه، وفي غالب الأوقات أمير عشرة، ودونه اثنان من جند الحلقة. ويكتب لكل منهم توقيع كريم عن النائب على قدر رتبتة.(4)

10.شد الدواوين

موضوعها التحدث في استخراج الأموال السلطانية، ورتبتها إمرة طبلخاناه، ثم استقرت إمرة عشرة، وهي الآن جندي من أجناد الحلقة ويكتب لمتوليها

---

(1) القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص187، ص218، ص238.

*.لقب للمسؤول على خزانة السلطان أو الأمير أو غيرهما. محمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية ، ص68.

*1.هم الخصيان الذين استخدموا في الطباق المملوكية، وفي الحريم السلطاني، وكانت لهم حرمة وافرة وكلمة نافذة، ويعد شيخهم من أعيان الناس. سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص455.

(2) السبكي: المصدر السابق، ص26. القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص186.

(3) القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص186.

*2. هو الذي يتكفل بإحضار ما يطلبه السلطان من الأمراء وأجناد الحلقة ونحوهم. محمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية ، 152.

(4) القلقشندي: المصدر السابق: ج4، ص186.

توقيع كريم عن النائب.(1)

11.شد الأوقاف

أي ناظر الأوقاف أو مديرها،ومهمة متوليها التحدث على أوقاف المسلمين بدمشق ، وعادتها إمرة عشرة، وربما كانت طبلخاناه، ويكتب لمتوليها توقيع كريم عن النائب. ووجُدِتْ هذه الوظيفة في طرابلس وصفد، وخلت منها كلٌّ من نيابة حماة والكرك.(2)

ثالثاً: الثورات والتجريدات العسكرية في نيابات بلاد الشام.

أدرك سلاطين المماليك منذ أن أقاموا دولتهم في مصر أنه لابقاء لهم ولا لدولتهم إلا في ظل وحدة تربط بين الشام ومصر تحت حكمهم، وتضمن لهم مراقبة التيارات العديدة التي يمكن أن تؤثر في كيانهم، فضلاً عن مراقبة الطرق الرئيسية التي سلكها الأعداء في تهديدهم لمصر والشام.(3)

وهكذا كان وضع نيابات الشام في عهد المماليك، نيابات ترتبط بروابط معقدة ومدروسة بعناية، بحيث تبقى أضعف من أن تواجه السلطان متحدة، وأقوى من أن تهزم بسهولة أمام الأعداء.(4)

نلاحظ في نفس الوقت أن نواب الشام وأمراء المماليك فيها أدركوا أهميتهم، واستغلوا موقع البلاد من ناحية وبعدها عن مركز السلطنة من ناحية أخرى في محاولة فرض إرادتهم وإملاء كلمتهم على السلاطين، وكثيراً ما أحسَّ أمراء المماليك في الشام

(1) القلقشندي: المصدر السابق: ج4، ص186.

(2) المصدر نفسه، ج4، ص186، ص 238 ،234 ،241. ابن كنان: المصدر السابق، ص173.

(3) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص220، ص221.

(4) أكرم حسن العلبي: المرجع السابق، ص333. 1381.

بنفوذهم وقوتهم فأعلنوا الثورات في وجه السلاطين في مصر، بل لقد طالب بعض أمراء الشام بالسلطنة لأنفسهم.(1)

ومن هذه الثورات مايلي:

1: ثورة الطنبغا السلطاني 784هـ/ 1381م

إنحاز الظاهر برقوق (784-801 هـ/ 1382-1398م) منذ بداية سلطنته إلى جركسة الدولة المملوكية، فأثارت هذه السياسة قلق المماليك الأتراك. فكانت أول هذه الثورات ثورة الطنبغا الأشرفي التركي نائب الأبلستين.(2) ضد الجراكسة، عندما هاجم سنة784هـ/1381م، قلعة دارندة.* المضافة إلى نيابتة. وقبض على بعض أمرائها الجراكسة الذين عينهم السلطان برقوق فيها. غير أن مماليك هؤلاء الأمراء تمكنوا من محاصرته، وأجبرو على طلب الآمان منهم، وألقوا القبض عليه، لكنه تمكن من الفرار من القلعة وتوجه نحو مقر نيابته.(3)

ومما هو ملاحظ في هذه الثورة أن الأمير يلبغا الناصري نائب حلب المملوكي، لم بنضم إلى الطنبغا السلطاني في حركته هذه بل على العكس كتب إلى الطنبغا يهدده بالزحف على نيابته وبعزله إن لم يرجع عن عصيانه.(4) والواقع أن هذه الثورة إن دلت على ما كان في نفوس الأشرفية الترك من الحقد ورغبتهم في الثورة على حكم الجراكسة، فإنها تدل على مدى تفكك المماليك الترك آنذاك، حتى أن الطنبغا السلطاني

---

(1) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص221.

(2) تتبع أعمال حلب ونيابتها تقدمه ألف من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف. القلقشندي: المصدر السابق،ج4، ص228.

*. من أعمال حلب ونيابتها في الغالب إمرة عشرة، وربما كانت طبلخاناه، وولاياتها في الحالتين من نائب حلب.

القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص228. المقريزي: المصدر السابق، ج5، ص144.

(3) المقريزي: المصدر السابق، ج5، ص144.حسام الناطور: المرجع السابق، ص32. حسام الناطور: السلطنة ونيابة السلطنة في دولة المماليك الثانية، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، 1991م. ص57

(4) مروان أحمد دخان: نيابة حلب في العصر المملوكي الثاني الجانب السياسي(784-922هـ/1382-1516م) رسالة دكتوراه، جامعة دمشق، 2009م، ص43، ص44.

حين شعر بضعف مركزه لعدم مؤازرة نواب الشام من اليلبغاوية الترك له، فرهارباً إلى بلاد التتار. مصرحاً: " لا أكون في دولة حاكمها جركسي".(1)

2: حركة يلبغا الناصري ومنطاش. (790-795هـ/ 1388-1393م)

حرص يلبغا الناصري وقد عُين نائباً لحلب عام 784هـ/1383م، خلفاً للأمير أينال اليوسفي الذي نقل إلى مصر على عدم استقرار بلاد الشام، فكان يرى في هدوئها توطيداً لنفوذ برقوق الجركسي، وإعانة على تحقيق سياسته الرامية إلى إلغاء وجود العنصر التركي في الدولة المملوكية الجديدة.(2)

وقد كان الأمير يلبغا الناصري بالأمس من جملة الأمراء الأشرفية، وبرقوق من جملة مماليك الأسياد، وهم أقل منزلة من الأمراء الأشرفية، وكان إذا جمعهما مجلس مع الأمير يلبغا الناصري، يستمر برقوق واقفاً على أقدامه بين يدي يلبغا الناصري لا يقول له اجلس، فأصبح برقوق ملكاً يقبّل له يلبغا الناصري الأرض، ويمتثل أمره ونهيه. قدم يلبغا من حلب سنة 785هـ/1383م، لتهنئة برقوق بالسلطة، فأكرمه برقوق، وأعاده لنيابة حلب، وحتى يثبت الناصري حسن نواياه طرد نعير بن حيار بن مهنا أمير آل فضل من مرج حلب، لأنه خرج عن طاعة برقوق. (3) إلا أن موقف يلبغا الناصري من اعتلاء برقوق عرش السلطنة في مصر لم يقابل بإيجابية من السلطان برقوق، لمعرفة برقوق بنفسية يلبغا كونه من الأمراء الأشرافية، فبعد عودة يلبغا إلى حلب، عزله السلطان برقوق عن النيابة سنة (789هـ/ 1387م). وبعد عزله توجه يلبغا إلى مصر حيث اعتقل هناك ثم أفرج عنه وأعيد إلى منصب نيابة السلطنة في حلب مرة

---

(1) حكيم أمين عبد السيد: المرجع السابق، ص62.

(2) المقريزي: المصدر السابق، ج5، ص147.محمد صبحي الشناق: المرجع السابق، ص174.

(3) المصدر نفسه، ج5، ص147.ابن إياس: المصدر السابق، ج1، ق2، ص326-327.

أخرى عام(790هـ/1388م) بعد عزل الأمير سودون المظفري الذي عُين في حجوبية حلب.(1)

ويبدو أن السلطان برقوق قد أراد من ذلك إثارة النزاع بين كل من يلبغا الناصري وسودون المظفري، وقد حقق السلطان برقوق هدفه، فأخذ كل منهما يثير السلطان ضد الآخر.(2) وقد ازداد هذا الوضع سوءاً مع نشوب ثورة سياسية كبيرة في سنة 789هـ/ 1388م قادها منطاش زعيم المماليك الأتراك الأشرفية نائب ملطية، عندما أعلن خروجه عن الطاعة.(3) وانتظر حلول فصل الربيع وذوبان الثلوج قبل إعلان عصيانه. ولم تلبث الأخبار أن جاءت بأن يلبغا الناصري نائب حلب قد أعلن العصيان أيضاً، وقبل ذلك جاء خبر ثالث بأن الطنبغا الجوباني نائب دمشق قد شقَّ عصا الطاعة. فلما علم الجوباني بعصيان يلبغا الناصري، استأذن السلطان في القدوم إلى مصر فأذن له، فلما وصل إليها قبض عليه السلطان وأرسله ليحبس في الإسكندرية، واستدعى السلطان يلبغا الناصري فاعتذر بأن مغادرته مدينة حلب تعرضها للخطر، وقبل السلطان عذره ظاهرياً، ولكنه في الحقيقة أبى الحضور لئلا يحل به ما حل بالجوباني.(4) حاول السلطان ان يدبر حيلة للقبض على الناصري، ولكنه لم ينجح .(5)

ونتيجة لسياسة برقوق تجاهُ الأمراء الأتراك، وما يخطط له السلطان لكل من الناصري ومنطاش قرر الناصري أن يضم قوته إلى قوة منطاش. فسار إلى القلعة وتسلمها. واستدعى التركمان والعربان، وقدم عليهم الأمير منطاش معاوناً له، وداخلاً في طاعته.وقد حدد الناصري هدف ثورته بخلع برقوق، وإعادة دولة قلاوون بتعين

---

(1) ابن ثغري بردي: المصدر السابق، ج11، ص206.

(2) المقريزي: المصدر السابق،ج5، ص215. محمد دهمان: ولاة دمشق، ص254.حسام الناطور: دولة المماليك في عهد برقوق، ص35. زياد المدني: المرجع السابق، ص26.

(3) ابن إياس: المصدر السابق،ج1، ق2، ص388. إحسان عباس: المرجع السابق، ص91.

(4) المقريزي: المصدر السابق، ج5، ص205. ص211.ص216. إحسان عباس: المرجع السابق، ص289، ص290.

(5) ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج11، ص211.

حاجي بن شعبان سلطاناً، وتخليص الخليفة المتوكل من سجن برقوق، ثم أعلن الخطبة بإسميهما. لقد شكل هذا التحالف قوة هائلة في بلاد الشام ضد السلطان برقوق مما ينذر باهتزاز عرش السلطنة، في حالة لم يتخذ برقوق إجراءً سريعاً ومناسباً. وهذا ما أقدم عليه فقد كتب إلى الأمير سيف الدين أينال اليوسفي أتابك دمشق ليتولى نيابة حلب، وجهز إليه التشريف والتقليد وجمع الأعيان والقضاة وأهل الدولة من الأمراء وغيرهم، وحدثهم في الناصري واستشارهم في أمره، فجرى الإتفاق على خروج تجريدة لقتاله.(1)

تواترت الأخبار بدخول سائر أمراء الشام والمماليك اليلبغاوية والأشرفية، وسولي ابن دلغادر أمير التركمان، ونعير أمير العربان، في طاعة يلبغا الناصري على محاربة السلطان. فسيطرأولاً على جميع القلاع بالبلاد الشامية، ما خلا قلعة دمشق وبعلبك والكرك. وقد بادر السلطان برقوق بإرسال جيش إلى دمشق لمحاربة يلبغا الناصري، ولكن الهزيمة حلت بجيش السلطان.في وقعة تعرف بالخمسمائة* وبوقعة شقحب، وبوقعة الناصري*1 ومنطاش، فقد دخل الناصري ومعظم العسكر منطقة دمشق ونزل خان لاجين في ظاهر المدينة، ونزل بالقصر من الميدان، وتسلم القلعة بغير قتال.(2) ووصلت قطعة من جموع الناصري إلى غزة واستولت عليها. فلما بلغت الأخبار السلطان اضطربت الناس بالقاهرة ومصر وظواهرها اضطراباً عظيماً، وغلقت الأسواق،وانتهبت الأخباز، وتجمع اهل الفساد.(3)

أخذ برقوق ببعض الاحتياطات، فقد أطلق الخليفة المتوكل من سجنه، وأمر الناس بوضع حواجز على مداخل الشوارع، وحصّن قلعة الجبل، ودخر الأقوات، وركّب

(1) المقريزي: المصدر السابق ، ج5، ص216، ص217.

*.هي القوة العسكرية المكون منها جيش برقوق، وقد هزمت في هذه المعركة بسبب قلة عددها. مروان دخان: المرجع السابق،ص57.

*1.هو يلبغا الناصري نائب حلب 784هـ خلفاً للأمير أينال اليوسفي فقام بثورة ضد برقوق.المقريزي: المصدر السابق،ج5،ص147.

(2) المصدر نفسه، ج5، ص218. ص220. ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج11، ص215. ص218.

(3) المصدر نفسه، ج5، ص221. المصدر نفسه، ج11، ص216.

المكاحل على أبراج القلعة، لكن هذه الإجراءات لم تثمر.فقد استطاع يلبغا دخول القاهرة سنة 791هـ/ 1389م،وتمكنت قوات الناصري من إلحاق الهزيمة بقوات الظاهر برقوق، الذي اختفى في بيت أحد مماليكه، فأقام الناصري في قبة النصر خارج القاهرة، وحضر إليه الأمير منطاش وبصحبته الخليفة، فأحسن الناصري استقباله بحضور العلماء وكبار الأمراء، ثم استشارهم الناصري بأمر السلطنة، وأبعد الفكرة عن نفسه وأشار بأن تكون لواحد من بيت قلاوون، فاختار أمير حاجي بن الأشرف شعبان سلطاناً ولقبوه بالملك المنصور.(1) على الرغم من أن أغلب الأمراء ما عدا منطاش كانوا يميلون إلى تنصيب الناصري، وجرى تحييد يلبغا الناصري بتعيينه أتابك العسكر. وظل منطاش وحده في مناوأته للظاهر برقوق، حتى عثر عليه، وقد أراد منطاش قتله، فلم يوافقه يلبغا على ذلك. فأخذ وحبس في قلعة الكرك.(2) وجد منطاش أن دوره أصبح ثانوياً وهو الحليف الأساسي للناصري، وساعده في التمرد والثورة على برقوق، ورأى أن الناصري انفرد بالحكم فتحول من حليف الأمس إلى عدو اليوم. فمال إلى الشراكسة واعداً إياهم باطلاق برقوق أستاذهم، فتلقى تأييداً ودعماً منهم انتقاماً لأستاذهم من الناصري، أما العامة فقد آزرته انتقاماً من الناصري الذي الحق بهم ضرراً بالمكوس، وفقدان الأمن.(3) اندفع منطاش ومممالكيه إلى مهاجمة باب السلسلة،وأخذ جميع الخيول التي كانت واقفة هناك، وأراد اقتحام الباب ليأخذ الناصري على غفلة، فلم يتمكن من ذلك، وألبس الناصري مماليكه السلاح، وتلاحقت المماليك الأشرفية والظاهرية والعامة بمنطاش، فترامى الفريقان واندلع القتال.(4)

---

(1) ابن إياس: المصدر السابق، ج1، ق2، ص400-402.ص404. محمد أحمد دهمان: ولاة دمشق، ص255. محمد صبحي الشناق: المرجع السابق، ص181

(2) المقريزي: المصدر السابق، ج5، ص239. ابن إياس: الصدر السابق، ج1، ق2، ص406، ص209. إحسان عباس: المرجع السابق، ص291. محمد دهمان: ولاة دمشق، ص256.

(3) مفيد الزيدي: المرجع السابق، ص95، ص96.

(4) المقريزي: المصدر السابق:ج5، ص245.

بدأت أمراء يلبغا الناصري بالتحول عنه واحداً بعد الآخر،ولما ضعف، ولم يبق لديه الإ عدد قيل من المماليك، تدخل الخليفه للصلح بينهم، ولكنه لم يفلح أمام إصرار منطاش على إكمال مهمة قتال يلبغا الناصري.لأنه استبد بالأمر، ونقض الاتفاق بعد أن حلف له بسيواس وبحلب ودمشق بأن يكونا شيئاً واحداً، وأن السلطان يحكم في مملكته بما شاء.(1) استولى منطاش على المملكة بعد قتال مع الناصري، فاعتقل الناصري والجوباني وغيرهما بالاسكندرية. ومع دخول سنة 792هـ/1390م، بلغه أن برقوق خلص من سجنه بالكرك، وانضم إليه جماعة فجهز العسكر وتوجه إلى جهته فوقع بينهم قتال في بلاد الشام هزم فيه منطاش وعاد برقوق واستولى على المملكة. ولكنه لم يكن مطمئناً تماماً لأن منطاش كان ما يزال في الشام، فجهز عسكراً لقتال منطاش فحاصره بدمشق كل من نائب حلب يلبغا الناصري، ونائب دمشق الطنبغا الجوباني. فخرج منها إلى حمص وكان بها نعير أمير العرب وكان ممن اعلن العصيان على برقوق فاجتمعوا بحمص ووقعت بينهم وقعة فانكسر العسكر السلطاني وتوجه منطاش ونعير إلى حلب فحاصروها.(2)

أمر السلطان بخروج تجريدة من مصرلإمداد الجوباني سنة 793هـ/1391م. فوصل السلطان إلى دمشق ثم غادرها إلى حلب، وبلغه وهو في حلب أن أحد الناس قبض على منطاش، فأرسل نائب حلب لإحضار منطاش فرفض معتقله سالم الدوكاري تسليمه وفر به إلى سنجار. فقوي الشك عند برقوق أن يكون منطاش لازال على علاقة مع يلبغا الناصري، فتحركت عنده تلك الكمائن القديمة من خروجه عليه وخلعه من الملك وحبسه بالكرك. فسكت حتى قدم الناصري إلى حلب فقبض عليه وقتله. ثم عاد إلى القاهرة.(3)

---

(1) ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج11، ص277.

(2) ابن خلدون: المصدر السابق،ج5، ص567-568. ابن حجر: المصدر السابق، ج4، ص365، ص366.

(3) المصدر نفسه،ج5، ص568. ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج12، ص23. ص25، ص.26، ص28.

بذل نائب حلب الأمير جلبان جهداً كبيرا للقبض على منطاش، وكان منطاش طيلة هذه المدة مقيماً عند نعير. ثم راسل السلطان نعير أمير العربان في أمر منطاش واسترضاه ورد عليه إمرته وأوسع له في الوعد، فندب نعير أحد عبيده إلى منطاش يستدعيه، فأحس منطاش بالشر، فهم بالفرار، ولكن قبض عليه وجهزه إلى حلب .فكان لدخوله حلب يوم عظيم مشهود. فاعتقل بقلعتها إلى أن جاء الأمر بقتله وتجهيز رأسه ففعل به ذلك سنة 795هـ/1393م، وطِيفَ برأسه في القاهرة ثم عُلّق على باب زويلة.(1) وبقتل منطاش ومن قبله يلبغا الناصري تم إخماد أكبر الفتن خلال سلطنة برقوق الأولى والثانية ومُهدت الطريق أمامه وأمام ابنه فرج لحكم مصر لفترة طويلة.

3: ثورة تَنَم* نائب الشام في عهد فرج بن برقوق.(801هـ / 1398م)

بعد وفاة السلطان برقوق، وتولي ابنه السلطان فرج الحكم، فأخذ الأمير تَنَم يقول: إن السلطان صغير، وكل ما يصدر عنه هو من الأمراء، وأنا وصيّ السلطان لايعمل أحد شيئاً إلا بمراجعتي(2) فاضطرب الناس بدمشق، وبلغ ذلك نائب حمص فاستولى على قلعتها، وأخذ نائب حماة قلعتها. وكل ذلك قبل أن يتم أسبوعان من سلطنة الملك الناصر فرج. فكتب الأمير تَنَم نائب الشام إلى النواب يدعوهم إلى موافقته، فلم يجبه نائب حلب ولا نائب حماة.(3)

انتهز تَنَم الصراع القائم بين الأمراء في مصر، فوجه عدداً من الأمراء والعساكر إلى حلب، ثم خرج هو بمن بقي معه فوصل حمص واستولى عليها، وأقام فيها من يثق به، ثم توجه إلى حماة، فامتنع نائب حماة، وقاتل تَنَم قتالاً شديداً، ولم يقدر عليه تَنَم،

---

(1) ابن خلدون: المصدر السابق، ج5، ص569- 570. ابن حجر: المصدر السابق، ج4، ص366.

ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج12، ص35.

*. تَنَم بن عبدالله الحسن الظاهري، كان اسمه تنبك ولي الشام من قبل برقوق، ثم خرج على طاعة فرج. ابن تغري بردي: الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق، فهيم محمد شلتوت، 2ج. مكتبة الخانجي، القاهرة، ج1، ص228.

(2) محمد دهمان: ولاة دمشق، ص268.

(3) ابن إياس: المصدر السابق، ج1، ق2، ص545،ص554.

وبعث بالأمير صُرق على عسكر إلى طرابلس فقاتله أهلها قتالاً شديدا، مدة تسعة أيام، وردوه عنها.(1)

وبعد عودة تَنَم إلى الشام، انضم إليه أيتمش* واتباعه فقوي موقف تَنَم، ثم انضم إليهم كل من نائب حماة ونائب حلب بعد دعوتهم إلى ماهمَّ عليه كل من تَنَم وأيتمش، فأجابا بالسمع والطاعة، والتحق يونس الرماح نائب طرابلس مع عسكره بهم.(2)

ونتيجة لاشتداد رياح الانتفاضة في بلاد الشام لم يجد السلطان مفراً من التوجه إلى الشام على رأس جيش كبير لمحاربة الخارجين على حكمه، واصطحب معه الخليفة المتوكل والقضاة الأربعة فوصل إلى غزة.(3) ولما وصل عسكر السلطان إلى غزة لاقاهم جموعاً من العساكر الشامية منهم نواب حلب وحماة وصفد وغيرهم في نحوستة آلاف فارس، وكانت المعركة عند تل العجول، أسفرت عن انتصار واضح للجيش السلطاني وانهزم جيش تَنَم إلى الرملة، وسيطر السلطان على غزة.(4)

عندما علم تَنَم بنتيجة المعركة خرج على رأس جيش عدته خمسة آلاف فارس وستة آلاف راجل.(5) من المماليك والأجناد والتركمان واصطحب معه أيتمش البجاسي وبعض نواب الشام أمثال نواب حلب وطرابلس والكرك للتصدي لجيش السلطان الزاحف باتجاه دمشق ، فوصل الرملة وجرت بين الطرفين مفاوضات لحقن الدماء لكنها فشلت.بسبب اشتراط تَنَم أن يسلم له السلطان الأمير يشبك الشعباني، وسودان

---

(1) المقريزي: المصدر السابق، ج6،ص 12.

*.يتمش البجاسي الجركسي أتابك العساكر في عهد برقوق، قتل بدمشق علي يد السلطان فرج. السخاوي: الضوء اللامع،ج2، ص324.

(2) المقريزي: المصدر السابق، ج6، ص.17ص19. تقي الدين أبي بكر أحمد الأسدي بن شهبة الدمشقي المتوفى851هـ/1448م: تاريخ ابن شهبة، تحقيق، عدنان درويش،4ج، طباعة المعهد العربي للدراسات العربية، دمشق، 1994م. ج4، ص 79، ص81. ابن إياس:المصدر السابق،ج1، ق2. ص564.

(3) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،ج12،ص161.إحسان عباس: المرجع السابق،ص302.محمد دهمان: ولاة دمشق، ص270.

(4) المصدر نفسه، ج12، ص163. ابن قاضي شهبة: المصدر السابق،ج4، ص86.

(5) المقريزي: السلوك، ج6، ص24. ابن إياس: المصدر السابق، ج1، ق2، ص578.

طاز، وجركس المصارع. ويعود الأمير أيتمش وجميع رفقته على ما كانوا عليه. فرفض السلطان وقرر الحرب(1)

سار السلطان بعساكره من غزة إلى أن أشرف على جنين. فوجد تَنَم قد صف عساكره، فتقدمت عساكر السلطان إليهم وقاتلوهم، فلم يكن غير يسير حتى انهزمت عساكر تَنَم، ووقع في الأسر تَنَم نائب الشام، وأقبغا نائب حلب، ويونس نائب طرابلس وغيرهم الكثير من الأمراء. وفر أيتمش في ثلاثة آلاف من العسكر إلى دمشق. فقبض عليه في قلعة دمشق.(2) فدخل السلطان الملك الناصر بعساكره إلى قلعة دمشق، فكان يوماً مشهوداً وسر الناس به سروراً كبيرا. وبهذا تم إخماد فتنة تَنَم لتبدأ بعدها انتفاضة نائب الشام شيخ المحمودي.(3)

4: فتنة جَكَم وانتفاضة شيخ المحمودي(807-815هـ/1404-1412م)

أتاح ضعف السلطان الناصر فرج وقلة تجربته في الحكم للأمراء استئناف الفتن، بعد حملة تيمور لنك على الشام، وكان سبب ذلك وجود رؤوس كثيرة بين مقدمي الأمراء ذوي طموحات، أمثال الأمير شيخ المحمودي، والأمير نوروز الحافظي،والأمير جَكَم، وقد حاول هذا الأخير أن يتقوى بمحالفة التركمان في منطقته.(4) وبعد أن أصدر السلطان فرج وعداً له بالآمان ، اختار طرابلس للإقامة فيها، ولكنه عاد واستولى عليها ، ثم استولى على حماة وحلب بعد هزيمة نائبها دمرداش عام 807هـ/ 1404م.(5)

---

(1) ابن خلدون: المصدر السابق، ج7، ص716. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،ج12، ص164.
أحمد شامخ الحميد العنزي: الحياة الفكرية في العصر المملوكي الثاني في مصر والشام والحجاز، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2010م. ص70.

(2) ابن خلدون: المصدر السابق، ج7، ص716.المقريزي: السلوك، ج6، ص24. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص165.

(3) المصدر نفسه ج7، ص716.ابن إياس: المصدر السابق، ج1، ق2، ص580.

(4) السخاوي: الضوء اللامع: ج3، ص76. إحسان عباس: المرجع السابق، ص306.

(5) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص240، ص241.

اتفق كل من شيخ المحمودي نائب دمشق الذي خرج عن الطاعة وجَكَم والأمير يشبك على المسير إلى القاهرة وخلع السلطان، موكدين إخماد الفتنة في حالة استجاب السلطان لشروطهم وهي : خروج دمرداش نائب حلب من مصر إلى الشام، وأن يعطى لكل من يشبك وشيخ وجَكَم، ومن معهم بمصر والشام ما يليق به، وإن لم يكن ذلك تزهق أرواح كثيرة .(1) دارت المعركة بين الطرفين وكانت في البداية لصالح عسكر الشام ، ثم أصبحت لصالح عسكر السلطان، ففر كل من جَكَم وشيخ المحمودي وعادوا إلى الشام، فلم يتبعهم أحد من عسكر السلطان، ونادى السلطان بالآمان.(2)

بدأ السلطان فرج سياسة جديدة في بلاد الشام بعد أن اختفى لمدة شهرين عام 808هـ/1405م، تتمثل في استقطاب الأمراء المعارضين له في الشام دعماً لموقفه في مصر ضد أمرائها المعارضين له، ففوض نيابة دمشق لشيخ المحمودي، ونيابة حلب للأمير جَكَم ومعها نيابة الرها.(3) تمكن جَكَم بعد نيابته لحلب من بسط الأمن، بعد أن كسر التركمان، وبدد شملهم، وتغلب على آل مهنا وقتل زعيمهم نعير.(4) مما ولدت انتصارات جَكَم حقداً لدى شيخ المحمودي فأخذ يحرض السلطان عليه حتى عزله، وكلف شيخ المحمودي بالقضاء عليه، مما ادى إلى وقوع قتال بينهم في الرستن هزم على أثره شيخ المحمودي ودخل جَكَم دمشق.(5) واستطاع السلطان فرج من استعادة دمشق وحلب من الأمير جَكَم بعد فراره من حلب إلى التركمان ، ووكل الأمير جركس المصارع بنيابة حلب.(6) وبعد عودة السلطان منها تمكن جَكَم من السيطرة عليها مرة ثانية ففر منها نائبها الجديد جركس المصارع. فأمر جَكَم بقطع الخطبة للسلطان وخلعه،

---

(1) المقريزي: المصدر السابق، ج6، ص128، ص131. السخاوي: الضوء اللامع، ج3، ص76.

(2) المصدر نفسه: ج6، ص132.

(3) المصدر نفسه، ج6، ص150.السخاوي: الضور اللامع، ج3، ص76. زياد المدني: المرجع السابق، ص43.

(4) ابن إياس: المصدر السابق، ج1، ق2، 750.

(5) المقريزي: المصدر السابق: ج6، ص161.

(6) المقريزي: المضدر السابق، ج6، ص176. ابن إياس: المصدر السابق، ج1، ق2، ص763، ص764.

وضرب السكة باسمه ولقب بالعادل. ثم توجه نحو آمد لقتال قرايلوك فقتل سنة 809هـ/ 1406م.(1)

عاد السلطان فرج إلى الشام عام 810هـ/ 1407م، فقام بعدة تغيرات. منها تثبيت تمربغا المشطوب في نيابة حلب، والأمير نوروز الحافظي في نيابة دمشق، واعتقل شيخ المحمودي، والأمير يشبك الشعباني بقلعة دمشق، ودام يشبك وشيخ بالقلعة إلى أن استمالا نائب قلعتها الأمير منطوقا حتى أفرج عنهما.(2) وبعد عودة السلطان إلى القاهرة تمكن شيخ من السيطرة على دمشق.ثم توجه إلى حلب للسيطرة عليها فاستنجد نائبها بنائب دمشق نوروز الحافظي ولم يحصل قتال بينهم، فتم الإتفاق بين الأمراء الثلاثة على الخروج على طاعة السلطان وقتاله. ولكن عاد شيخ وغدر بهما عند السلطان، فوجدها السلطان فرصة له لتفريق هذا الجمع الذي عقد ضده. فكتب لشيخ بنيابة الشام.(3) ودمرداش بنيابة حلب سنة 811هـ/1408م وكلفهما بالقضاء على حركة تمربغا المشطوب ونوروز في كل من حلب ودمشق وقد تمكنا من ذلك.(4)

وفي السنة التالية أي 812هـ/ 1409م. أظهر شيخ خروجه مرة أخرى عن الطاعة، وبدأت نفسه تحدثه بالسلطنة.فبدأ الاستعداد لمقاتلة السلطان.(5) فلما علم السلطان بذلك قدم إلى الشام للقضاء على شيخ وبعد قتال استمر ثلاثة أيام في صرخد، تم الصلح بينهما على أن يتولى شيخ نيابة طرابلس.(6) وكان طموح شيخ السيطرة على بلاد الشام، من أجل إضعاف موقف السلطان، فتوجه إلى دمشق وسيطر عليها، ثم توجه

---

(1) السخاوي: الضوء اللامع، ج3،ص76. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج13، ص25.

(2) ابن إياس: المصدر السابق، ج1، ق2، ص781، ص782.

(3) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج13، ص33، ص34.

(4) المقريزي: المصدر االسابق، ج6، ص219. ابن حجر: إنباء الغُمر بأنباء العُمر، تحقيق، حسن حبشي، مطابع الأهرام التجارية،1972م، 1994م. ج2، ص397.

(5) ابن إياس: المصدر السابق، ج1، ق2، ص794، ص795.

(6) المقريزي: المصدر السابق، ج6، ص235. ابن حجر: إنباءُ الغُمربأنباءِ العُمر، ج2، ض424.

السخاوي: وجيز الكلام، ج1،ص402. ابن إياس: المصدر السابق، ج1، ق2، ص797.

إلى حلب مما دفع بنائبها دمرداش إلى تشكيل حلف ثلاثي مع نائب حماة الأمير يشبك، والأمير نوروز الذي عين نائباً لدمشق من قبل السلطان بناءً على طلب من دمرداش. فوقع القتال مع شيخ قرب نهر العاصي كان النصر فيه لشيخ فسيطر على حماة سنة 813هـ/ 1411م.(1)

تردد السلطان على الشام أكثر من مرة للقضاء على حركة شيخ ولكن لم يتم له ذلك. وفي سنة 815هـ/ 1412م قدم السلطان للشام للقضاء على تحالف شيخ ونوروز، ولكنه مني بهزيمة ساحقة أمامهما. فاجتمع الخليفة والقضاة الذين قدموا معه وقرروا خلع السلطان وقتله. على أن يتولى الخليفة المستعين بالله عرش السلطنة موقتاً إلى أن يتم اختيار سلطان جديد. وأن يتولى شيخ أتابكية الجيش في مصر، وتكون له مصر والحجاز واليمن وغزة وصفد والكرك. ويكون للأمير نوروز طرابلس ودمشق وحماة وحلب.(2)

5: حركة الأمير نوروز الحافظي*(816-817هـ/ 1413-1414م)

تولى نيابة الشام بعد مقتل السلطان الناصر فرج، وجعل إليه التكلم في أمر الشام كله من ولاية وعزل.(3) وعندما تسلطن المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي. بقي نوروز يدعو على المنابر للخليفة المستعين بالله، ويضرب السكة باسمه، ويفتتح كتبه التي تصدر عنه بالمستعين، ماخلا حلب، فإنها بيد السلطان ونائبه، بها الأمير دمرداش المحمدي.(4) بدأ نوروز يتصرف كأنه سلطان الشام. رافضاً سلطنة شيخ معلناً عصيانه، مخاطباً شيخ بالمولى وليس بالسلطان في كتابه الذي أرسله لشيخ يذكره بالعهود التي

---

(1) ابن حجر: إنباءُ الغُمر بأنباءِ العُمر، ج2، ض449-450. السخاوي: وجيز الكلام، ج1،ص402. الضوء اللامع، ج3، ص309.

(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،ج13، ص98-104. ابن شاهين الظاهري،زين:نيل الأمل، ج3، ص229، ص230، ص315.

*. نائب الشام، ورفيق المؤيد شيخ في أيام عصيانه، ثم صار غريمه بعد سلطنته، ظفر به سيخ وقتله. ابن تغري بردي:الدليل الشافي،ج2، ص763.

(3) ابن شاهين الظاهري، زين الدين: نيل الأمل، ج3، ص234.

(4) المقريزي: المصدر السابق، ج6، ص347. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج13، ص160.

بينهما. وإذا أراد شيخ أن يستمر على الأخوة، ويقيم على العهد فلا يتعرض إلى ماهو بيده، وينقل دمرداش من نيابة حلب إلى نيابة طرابلس، ويستقر قرقماش أميراً بمصر.(1) سار نوروز إلى حلب لاستعادتها من الأمير دمرداش، فلما اقترب من حلب خرج منها دمرداش سنة 816هـ/ 1413م. فدخلها نوروز، وعين الأمير طوخ نائباً لها، كما ولي الأمير قمش نائباً لطرابلس.(2)

صمم السلطان المؤيد على السفر إلى الشام لقتال نوروز، فالتقت طلائع الفريقين فانهزم أصحاب نوروز واستعد للحصار وحَصّن القلعة، فبعث إليه المؤيد مجد الدين قاضي الحنابلة في طلب الصلح فامتنع فوقعت الحرب، فانهزم نوروز كعادته وامتنع في القلعة، وضاق بنوروز الأمر ومال إلى طلب الصلح، فقرر له الصلح والآمان فنزل هو والأمراء، فقبض عليهم جميعاً وقتلوا في ليلتهم.(3)

6: حركة الأمير قاني باي المحمدي* وأينال الصصلاني *[1] (818هـ/1415م)

أظهر نائب الشام قاني باي المحمدي العصيان بعد عزله عن نيابة الشام وتولية الطنبغا العثماني النيابة. ورفض المثول أمام السلطان المؤيد شيخ، وانضم إليه كل من نائب حلب أينال الصصلاني، ونائب غزة الأمير طرباي.(4)

اجتمع أمراء حلب ورفضوا خروج أينال على الطاعة، وقرروا قتاله فهزم أمامهم وفر إلى خارج حلب.(5) في الوقت الذي استطاع فيه قاني باي المحمدي من تحقيق

---

(1) المقريزي: المصدر السابق ، ج6، ص349. ابن شاهين الظاهري، زين الدين: نيل الأمل، ج3، ص234.
(2) المصدر نفسه، ج6، ص350. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج13، ص166.
(3) ابن حجر: إنباءُ الغُمربأنباءِ الغمر، ج3، ص36. السخاوي: الضوء اللامع، ج10، ص204.
*. نائب الشام، خرج على المؤيد فانكسر وقبض عليه، وقطع رأسه. ابن تغري بردي: الدليل الشافي،ج2، ص529.
*1. حاجب الحجاب بديار مصر، ولي نيابة حلب، خرج عن طاعة المؤيد. قتل سنة 818هـ. السخاوي: الضوء اللامع،ج2، ص327.
(4) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج13، ص182. ابن شاهين الظاهري، زين الدين: نيل الأمل،ج3، ص288، ص289.
(5) ابن شاهين، زين الين: نيل الأمل، ج3، ص289.

الإنتصار على الحلف الذي تكون ضده بدعم من السلطان المؤيد شيخ. فدخل دمشق.(1) وعندما علم قاني باي بقدوم عسكر السلطان، خرج منها متوجهاً إلى حلب عند حليفه أينال الصصلاني. فدعا نائب حلب للنفير العام لمواجهة أينال وقاني باي فلم يثبت لهم قاني باي والصصلاني وانهزما.(2)

توجه السلطان بعساكره إلى بلاد الشام للقضاء على هذا التمرد، وعودة الشام إلى قبضته. فعندما وصل حماة أرسل سرية من عسكره للقبض على المتمردين، ولكنها هزمت أمامهم، فتوكل هو بالأمر فهزمهم قرب حلب فقبض على أينال الصصلاني وأعدمه في قلعة حلب. وأسر قاني باي وقتله، وأرسلت رؤوسهم إلى القاهرة. فرفعت على رماح، ونودي عليها بالقاهرة" هذا جزاء من خامر على السلطان، وأطاع الشيطان، وعصى الرحمن"(3)

7: حركة الطنبغا القرمشي* والأمير جقمق*1 (824هـ/1421م)

أرسل قرا يوسف أمير تركمان الموصل وأذربيجان كتاباً ، للملك المؤيد شيخ يطلب منه أن يجهز له الجواهر التي أخذها منه وهو مسجون بدمشق، وإلا سار إليه وخرب البلاد وأخذها.(4) فكلف الملك المؤيد الطنبغا القرشي بحملة للقضاء على قرا يوسف وحماية أهل حلب منه، كما أنه أسر للأمير الطنبغا إعمال الحيلة في القبض على نائبها الأمير يشبك بسبب سوء سيرته.(5) وبعد وفاة الملك المؤيد تولي ابنه الأمير

---

(1) المقريزي: المصدر السابق، ج6، ص389. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج13، ص183.

(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج13، ص189. ابن إياس: المصدر السابق، ج2، ص23.

(3) المقريزي: المصدر السابق،ج6، ص393، ص394. المصدر نفسه،ج2، ص23.

*. الطنبغا بن عبدالله القرمشي الأتابكي الظاهري برقوق، قتله ططر في 824هـ بدمشق، ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج1، ص151.

*1. جقمق بن عبدالله الأرغون شاوى، الدوادر الكبير في الدولة المؤيدية، ثم نائب دمشق، قتله الأمير ططر سنة 824هـ بدمشق وأصله من مماليك أرغون شاه، أمير مجلس، ابن تغري بردي. الدليل الشافي، ج1، ص245.

(4) المقريزي: المصدر السابق، ج7، ص9.

(5) المصدر نفسه،ج7، ص32. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج14، ص14، ص15.

المظفر المقعد السلطاني (824هـ/1421م)، فامتنع أهل الشام عن الطاعة، وقام نائبها الأمير جقمق بأخذ قلعة دمشق واستولى على ما فيها من الأموال.(1)

في الوقت الذي سيطر فيه الطنبغا القرمشي على نيابة حلب بعد خلاف مع نائبها الأمير يشبك أدت إلى مقتله، وتحالف مع نائب الشام الأمير جقمق في العصيان، وقد عهد المؤيد من بعده لابنه، وأن يكون القائم بأمور الدولة الطنبغا القرمشي.(2) ولكن تم تفويض جميع أمور الرعية إلى الأمير الكبير ططر، ما عدا اللقب السلطاني، والدعاء له على المنابر، وضرب اسمه على العملة، فهي باقية للملك المظفر.(3) وهذه الأمور خاصة بالسلطان وحده دون غيره، ولايشترك فيها اثنان إطلاقاً.توجه الطنبغا القرمشي إلى دمشق، تاركاً نيابتها إلى نائبه الطنبغا الصغير.(4) في الوقت الذي اتخذ فيه كل من الملك المظفر والأمير ططر قراراً بالسير إلى الشام للقضاء على تحالف الطنبغا القرمشي نائب حلب والأمير جقمق نائب دمشق قبل أن تنتشر خطورته.(5) وقبل وقوع المواجهة بين الطرفين عرض على الطنبغا القرشي برسالة من الأمير ططر يطلب منه الحضور إليهم وله الخيار في البقاء نائباً لحلب أو يستقر نائباً للشام.(6) ويتضح من هذا العرض إيقاع الخلاف بين القرمشي وجقمق قبل اللقاء، وقد نجح في ذلك فقد انسحب كثير من عسكر دمشق وبعض الأمراء وانضموا إلى السلطان أثناء وجوده في غزة.(7) فشق ذلك على الأمير جقمق والطنبغا واختلفا، فاقتضى رأي القرمشي أن يدخل في الطاعة، وامتنع جقمق من ذلك، وصاروا حزبين. فبلغ القرمشي أن جقمق يريد القبض عليه، فبادر قتالة، فانكسر جقمق وفر إلى صرخد. فاستولى القرمشي على دمشق،

---

(1) ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ج14، ص13. ابن شاهين الظاهري، زين الدين: نيل الأمل، ج4، ص84.

(2) المقريزي: المصدرالسابق، ج7،ص32، ص33. ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ج14، ص16، ص18.

(3) االمصدر نفسه، ج7، ص32.

(4) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج14، ص16.

(5) المصدر نفسه، ج14، ص16. ابن إياس: بدائع الزهور، ج2، ص67.

(6) ابن شاهين الظاهري، زين الدين: نيل الأمل، ج4، ص85.

(7) المقريزي: المصدر السابق، ج7، ص37.

وتوجه لملاقاة السلطان.(1) وبعد دخول السلطان والأمير ططر دمشق تم القبض على الطنبغا القرمشي، وبعث في طلب الأمير جقمق حتى قبض عليه وقتل.(2)

8: تمرد تغري برمش* (842هـ/ 1438م)

تولى الأمير تغري برمش نيابة حلب سنة(839هـ/ 1434م). عوضاً عن الأمير أينال الجَكَمي بحكم انتقال الجَكَمي إلى نيابة دمشق، بعد موت الأمير قصروه الظاهري،

وعندما أصبح الأمير جقمق السلطان سنة(842هـ/ 1438م)، بعد عزله للسلطان العزيز بن برسباي. كتب الأمير تغري برمش نائب حلب بكتاب إلى السلطان جقمق بأنه مقيم على الطاعة، فلم يثق بذلك منه السلطان جقمق، لكثرة الإشاعات بسلوكه، فقد أكثر من استخدام المماليك، واستمال عدة طوائف من التركمان والعربان.(3)

ثم شرع تغري برمش بعد ذلك يتعاطى أسباب العصيان في الباطن. فاستعد أمراء حلب لقتاله خوفاً منه على أنفسهم، فقاتلوه بالبياضة بحلب، فكسر أمراء حلب وحاصر قلعتها، فاستفحل أمره.(4) ثارت العامة عند ذلك بأسلحتها، واحاطت بدار السعادة حيث سكن تغري برمش، فلم يثبت، وخرج فاراً، ولحق به عدد من أصحابه، فسار إلى طرابلس، وانضم إليه الأمير طرعلي التركماني، فلم يثبت نائبها الأمير جلبان، فدخل برمش طرابلس وأخذ من أهلها مالاً كبيراً.(5) ثم عاد مرة أخرى إلى حلب فاستعد أهل حلب لقتاله، وقاتلوه قتالاً شديداً، تفوق فيه أمراء حلب أولاً، ثم حمل عليهم برمش فهزمهم، وقبض على جماعة منهم ممن بقي خارج البلد، وقطع أيديهم، فنفرت القلوب

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج14، ص24، ص25.

(2) المقريزي: المصدر السابق،ج7، ص38. السخاوي: الضوء اللامع، ج2، 319. ج3، ص74، ص75. وجيز الكلام،ج2، ص466.

*. حسين بن أحمد التركماني،قتله الملك الظاهر جقمق بحلب، بعد خروجه عن طاعته.ابن تغري بردي:المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، 13ج، تحقيق، محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984م. ج4، ص58-65.

(3) المقريزي: المصدر السابق، ج7، ص390. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج15، ص50. المنهل الصافي، ج4، ص61.

(4) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج15، ص212. المنهل الصافي،ج4، ص63.

(5) المقريزي: المصدر السابق، ج7، ص402. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج15، ص62.

منه وقويت العداوة بينهم.(1) كان الملك الظاهر جقمق قلقاً لعصيان تغري برمش لكونه تركمانياً، وقريباً من بلاد التركمان. أكثر من قلقه من عصيان أينال الجَكَمي نائب الشام الذي أعلن أيضاً العصيان على السلطان جقمق.(2)

أمر السلطان بتوجيه حملة عسكرية بقيادة أتابك الجيش في مصر ونائب الشام أقبغا التمرازي ، ومشاركة الأمير أينال نائب صفد، والأمير طوخ نائب غزة ، والأمير جلبان نائب حلب للقضاء على تغري برمش، فالتقى الجمعان في حماة فانهزم فيها تغري برمش، بعد انضمام موسى بن حديثة أمير آل مهنا إلى العسكر المصري ففر تغري برمش إلى الجبل الأقرع. فلاحقه تركمان العمق المؤيدين للسلطان جقمق وتمكنوا من القبض عليه، وحملوه إلى قلعة حلب ليقتل فيها سنة 842هـ/1439م.(3)

9: تمرد العربان وثوراتهم.

تذكر المصادر التاريخية: أن عربان آل علي ثارت بمنطقة حمص سنة 821هـ/1418م. فأرسل لهم نائب الشام الأمير تنبك تجريدة عسكرية كبيرة، حملت أثقالها على 1300 جمل، أوقع بعرب آل علي، قريباً من حمص، وكسرهم، وغنم منهم ألفا وخمسمائة جمل، باع منها رديئها، وجهز باقيها.(4) وفي نفس العام طلب نائب الكرك الأمير شاهين مساعدة من السلطان لصد هجمات العرب، فأرسل له نائب غزة، وكاشف الرملة ونائب القدس.(5) وفي سنة 822هـ/1419م، تحرك عرب بني بشارة أمراء منطقة صفد فأُخِذَ شيخهم محمد وقيد بالأغلال، لأنه أعلن الخروج على طاعة السلطان.(6) وفي أوائل عهد برسباي وقعت بين نائب غزة وبين عرب جرم حرب

---

(1) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج4، ص64.

(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج15، ص55.

(3) المقريزي: المصدر السابق، ج7، ص218-220. ابن تغري بردي: المنهل الصافي،ج4، ص64، ص65.

(4) المصدر نفسه، ج6، ص466.

(5) المصدر نفسه، ج6، ص470.

(6) إحسان عباس: تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك، الجامعة الاردنية، عمان، 1998م، ص325.

هزموه فيها.(1) وعندما حاول نائب غزة طوخ الأبو بكري ونائب القدس طوغان وقف الخلاف الذي وقع بين العربان من بني خزام والعابد في غزة في سنة 849هـ/ 1445م، طُلب من نائب غزة عدم التدخل، فما انتهى، ولازال يحاربهم حتى قتل أشر قتلة، وجرح طوغان نائب القدس، وتفوقت فيها العربان على النواب، ورجع نائب القدس مهزوماً، على القدس، فلما سمع السلطان جقمق بذلك، استعد لإرسال تجريدة إلى منطقة النزاع.(2)

وفي سنة 885هـ/1399م، خرجت تجريدة عسكرية إلى حماة ، عليها الأمير يشبك الدوادار الذي عينه السلطان لقتال كبير أمير العرب سيف أمير آل فضل، لأجل قتله نائب حماة الأمير أزدمر، وشارك إلى جانب يشبك في التجريدة مماليك السلطان وخاصيته، ومشايخ جبل نابلس وهم: حرب، وابن الجيوسي، وغيرهم من عربان مصر.(3) وفي سنة 891هـ/1486م ارسلت تجريدة عسكرية من مصر إلى عربان جبل نابلس، لإخماد الفتنة، وكانت بقيادة أقبردي الدوادار، وقد نجح في إخمادها، وعاد حاملاً عدداً من رووس الأعراب.(4)

وعندما تحرك عربان حوران سنة 893هـ/1488م، نجدة لأميرهم عامر بن مقلد الذي طرده أمير المنطقة جانباي المرادي، خرجت سرية كبيرة من عند النائب نجدة لأمير الأمراء جانباي المرادي.(5) وعندما دخل دمشق عرب سعيدة، أحيط بهم قتلاً وقطعاً وضرباً وربطا، فشنق جماعة منهم وقطع رووس جماعة، ودخلت معهم جمال

---

(1) إحسان عباس: المرجع السابق، ص333.

(2) ابن إياس: المصدر السابق، ج2، ص247.

(3) شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر ابن الحمصي المتوفى 934هـ/1527م: حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، عمر عبدالسلام تدمري، 3ج، المكتبة العصرية، بيروت. نسخة ثانية، تحقيق، عبدالعزيز فياض حرفوش، ط1، دار النفاس، بيروت، 1421هـ/2000م ج1، ص242.

(4) ابن إياس: المصدر السابق، ج2، ص225.

(5) شمس الدين محمد بن علي بن أحمد بن طولون الصالحي المتوفى 953هـ/1546م : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت،1418هـ/1998م. ص74.

كثيرة أخذها النائب.(1) وبعد عام تقريباً خرج النائب، من دمشق إلى حوران لأجل العرب العصاة، نصرة لأمير آل مري جانباي العدوي على عامر بن مقلد، وسبقه النذير إلى عامر، ثم زحف النائب بعسكره شرقي صرخد على عامر بن مقلد فكسره، وعاد النائب إلى دمشق برووس كثيرة على الرماح، ومن الجمال نحو ألفين، ومن الغنم مثلها.(2)

استمرت الفتن والثورات في مناطق الشام، ففي سنة 915هـ/1508م، أرسل السلطان قانصوه مراسيم للقبض على شيخ العرب في عجلون ، وتخريب دياره.(3) وكلف نائب دمشق بإعادة الاستقرار للكرك في السنة التالية عندما حصلت فتنة العرب.(4)

---

(1) ابن طولون: المصدر السابق ق1، ص74.

(2) المصدر نفسه، ق1،ص88، ص94.

(3) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج2، ص197.

(4) شمس الدين محمد بن علي بن أحمد بن طولون الصالحي المتوفى 953هـ/1546م: إعلام الورى بمن ولي نائبا من الأتراك بدمشق الكبرى، تحقيق، ط2، محمد أحمد دهمان، دار الفكر، دمشق، 1404هـ/1984م. ص208.

الفصل الثالث

الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصر المملوكي الثاني

التركيب السكاني
أولاً: الفئات العرقية للمجتمع الشامي
1.العرب
2.الأكراد
3.التركمان
4.المماليك الجراكسة
5.فئات سكانية أخرى
ثانياً: الفئات المذهبية للمجتمع الشامي
1.السنة
2.الشيعة
3.النصارى
4.اليهود
ثالثاً: الفئات الإجتماعية للمجتمع الشامي
1.الطبقة العيا
2.الأعيان

3.التجار
4.عامة الشعب
5. المرأة في محتمع بلاد الشام
مظاهر الحياة الإجتماعية في بلاد الشام
1.احتفالات المجتمع الشامي
أ.المواكب والاحتفالات الرسمية
ب.المناسبات والاحتفالات العامة
2.مجتمع الحارات الشامية
3.الحمامات الشامية
4. قافلة الحج الشامي

الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصر المملوكي الثاني

التركيب السكاني

يمكن - من حيث المبدأ- تقسيم سكان بلاد الشام حسب الفئات إلى: عرقية، ودينية، واجتماعية.

أولاً: الفئات العرقية للمجتمع الشامي

1. العرب

يعدّ العنصر العربي هو أقدم العناصر وجوداً في بلاد الشام، فهم فيها منذ ألفين وخمسمائة سنة، ووصل بعضهم إلى نحو أربعة آلاف سنة.(1) وعندما جاء الفتح العربي الإسلامي للشام، بقيت القبائل العربية في مناطقها، وقد أسكن بعض القادة المسلمين قبائل عربية جديدة في الشام، ومثال ذلك قبيلة قيس التي سكنت في مناطق حلب.(2) وسكنت القبائل* العربية المدن والقرى في بلاد الشام. وظلت بعض القبائل تمارس حياتها البدوية التي تعتمد على الحل والترحال في بوادي الشام.(3)

وعشية انتقال الحكم من يد الأيوبيين إلى المماليك وحتى سقوط الخلافة العباسية اضطر كثير من سكان العراق على اختلاف أصولهم، وفلول جيش الخلافة، للهجرة إلى الشام، ونجم عن الضغط المغولي على أواسط آسيا هجرة أجناس أخرى، وكان في المهاجرين جماعات من المغول أنفسهم مثل الأويراتية، وغيرهم مثل الأكراد

---

(1) محمد كرد علي: المرجع السابق، ج1، ص20.

(2) أحمد بن جابر بن داود البلاذري المتوفى279هـ/882م: فتوح البلدان1ج، دار الهلال، بيروت، 1988م. ،ص146، ص147.
كامل بن حسين بن مصطفى بالي الحلبي الشهير بالغزي المتوفى(1351هـ/1933م). نهر الذهب في تاريخ حلب، ج1،ج3، طبع في المطبعة المارونية بحلب. ج3، ص15.

*. كانت غالبية هذه القبائل من اليمن وهم(همدان وأسلم وغفار ومراد والأزد وحمير ومذحج وخولان وخثعم وكنانة وقضاعة. وجذام وكندة وحضرموت. أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفي المتوفى 314هـ/926م: الفتوح،8ج، ج1، علي شيري،ط1، دار الأضواء، 1411هـ/1991م. ج1، ص53.

(3) مصطفى الحياري: الإمارة الطائية في بلاد الشام، ط1، وزارة الثقافة والشباب، عمان، 1977م. ص30-ص33.

والخوارزمية، بالإضافة إلى مماليك من جنسيات كثيرة.(1) وظهر ذلك في انتماءات عدد ممن أصبحوا سلاطين، فكان السلطان كتبغا مغولياً. ولاجين توتونياً. وخشقدم ألبانياً. (2) وأمام هذه الهجرات لم يستطع العنصر العربي المحافظة على نقائه، باستثناء القبائل العربية البدوية التي استطاعت أن تحافظ على طابعها العربي البدوي.(3)

ولكي تضبط السلطة المملوكية أمن الشام واستقرارها عملت على استيعاب العرب ودمجهم في النظام الإداري المملوكي، فاستحدثت منصب إمرة العرب، وتعاملت معه بدقة وحذر. ويتبين من المكاتبات السلطانية لأمراء العرب مدى اهتمام المماليك بهذا المنصب، حيث تم منح الأمراء العرب الألقاب التشريفية.(4) وقد انتشرت القبائل العربية في جميع أنحاء بلاد الشام، وكان لكل قبيلة منطقة نفوذ تقع تحت سيطرتها، وقد شاركت تلك القبائل في الأحداث السياسية في بلاد الشام في العصر المملوكي سواء بالوقوف ومساعدة الدولة المملوكية أو معارضتها والمساس بهيبتها من خلال أعمال النهب والفوضى وغيرها.(5) ووصف ابن فضل الله العمري عربان الشام بأنهم "جل القوم وعين الناس ولا عناية للملوك إلا بهم ولامبالاة بغيرهم".(6)

ومن أشهر القبائل العربية التي استقرت في بلاد الشام في الفترة المملوكية

قبيلة ربيعة بن طي: واشتهر من آل ربيعة هذا ثلاثة أفخاذ ، هم: آل فضل، وآل مرا، وآل علي، وكلهم رؤساء أكابر وسادات ووجوه، ولهم عند السلاطين حُرمة كبيرة وصيت عظيم. ولكل من الثلاثة أمير مختص به. ففضل، هو رأس الكل وأعلاهم درجة وأرفعهم مكانة، وديارهم من حمص إلى قلعة جعبر، إلى الرحبة، آخذين على شقي الفرات

(1) إحسان عباس: المرجع السابق، ص142.

(2) الذهبي: العبر في خبر من عبر،ج3، ص381. المقريزي:المصدر السابق،ج2، ص274. ابن إياس:المصدر السابق،ج2،ص378.

(3) زياد المدني: المرجع السابق، ص204.

(4) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ص35.محمد الشناق: المرجع السابق، ص43 و ما بعدها، ص61.

(5) مبارك الطراونه: المرجع السابق، ص96.

(6) ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص79.

وأطراف العراق حتى ينتهي حدهم جنوباً إلى الوشم، ويساراً إلى البصرة. (1) وكان لهذه القبيلة أهمية لدى سلاطين المماليك بسبب كثرة عددها، إذ بلغ عدد أفرادها خلال القرن الثامن الهجري أربعة وعشرين ألفاً.(2) ومن بطون ربيعة آل مرا، ومنازلهم في حوران، وديارهم من بلاد الجيدور والجولان إلى الزرقاء والضليل إلى بصرى، ومشرقاً إلى الحرة المعروفة بحرة كشت قريباً من مكة.(3) أما البطن الثالث من ربيعة فهم آل علي، وديارهم مرج دمشق وغوطتها بين إخوتهم آل فضل وبنى عمهم آل مرا، ومنتهاهم إلى الجوف، وهم أهل بيت عظيم الشأن مشهور السادات. يضاف إلى قبيلة ربيعة بن طي، قبيلة جرم بن طي، وديارهم غزة والداروم مما يلي الساحل إلى الجبل وبلد الخليل عليه السلام.(4)

ومن القبائل العربية التي سكنت الشام أيضا **قبيلة بني مهدي**، وهم من جذام، وكانت ديارهم من البلقاء إلى آيلة إلى الكرك. **وقبيلة زبيد** في المرج وحوران وصرخد والرحبة، ومنهم بنو خالد، وهم عرب حمص.(5) وقبيلة بني كلاب وهم عرب بأطراف حلب وهم من أشد العرب بأساً، وأكثرهم أناساً، ولكنهم لا يخضعون لأمير منهم.(6) وسكنت عرب بني عقبة بن جذام الكرك، وكان آخر أمرائهم شطى بن عتبة، ثم ألحق بأمراء آل فضل وأمراء آل مرا، وأقطع الإقطاعات الجليلة.(7)

---

(1) ابن فضل الله العُمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص79. ابن خلدون: المصدر السابق،ج6، ص8. القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص203-204.

(2) ابن شاهين الظاهري، غرس الدين: زبدة كشف الممالك، ص105.

(3) القلقشندي: المصدر السابق ، ج4، ص208.

(4) المصدر نفسه،ج4، ص210، ص211.

(5) ابن فضل الله العُمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص80 . ابن شاهين الظاهري،غرس الدين: زبدة كشف الممالك، ص105.

(6) القلقشندي: المصدر السابق،ج4، ص231-232.

(7) المصدر نفسه،ج4، ص242.

ومما ينسب إلى عرب الكرك بنو زهير، وهم عرب الشوبك.(1) وقد تفاوتت مراتب أعراب الشام وألقابهم، ومع ذلك فإنهم لم يكونوا في منزلة أمراء المماليك ونواب البلاد الشامية، فأمراء العرب وأعرابهم من الفئات التابعة للسلطة المركزية، بينما أمراء المماليك هم أعمدة السلطة، والكلمة النافذة لهم، بل يمكن أن يعينوا أمير العرب لكن دون مراسيم سلطانية.(2)

أما عرب العشير فهم قبائل عربية قيسية ويمنية استقرت حول المدن وفي القرى وامتهنت الزراعة مع احتفاظها بالقيم والعادات والتقاليد القبلية، وقد أطلقت عليهم المصادر العشير، والعشران، والعشيرات.(3) وانتشروا في معظم أنحاء بلاد الشام، ويرأسهم في كل منطقة شخص أطلق عليه مقدم العشير، وقد استوطن هؤلاء الزبداني والمرج والبقاع ووادي التيم.(4)

ومن الخدمات التي يقدمها مقدم العشير للدولة: الحفاظ على طرق المواصلات، وحفظ الأمن، والمشاركة في التجاريد العسكرية، والتعاون مع السلطنة في القضاء على حركات العصيان، والمساعدة على جمع الزكاة والضرائب.(5)

هذه القبائل العربية الشامية ليست هي كل القبائل، وإنما اخترنا القبائل التي كان لها دور فاعل في مجرى الأحداث السياسية في بلاد الشام فقط.

---

(1) القلقشندي: المصدر السابق،ج4، 243. ابن شاهين الظاهري، غرس الدين: زبدة كشف الممالك، ص105.

(2) محمد صبحي الشناق: المرجع السابق، ص61.

(3) إحسان عباس: المرجع السابق، ض143.

آمنة محمود عودة ذيابات: القبائل العربية في بلاد الشام في السياسة المملوكية (658-784هـ)، رسالة دكتوراه، جامعة مؤته، الاردن، 2006م. ص60.

(4) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج14، ص292.إحسان عباس: المرجع السابق، ص143.

(5) المصدر نفسه، ج14.، ص292. مبارك الطراونه: المرجع السابق، ص107.

2. الأكراد

يعود تاريخ دخول الأكراد إلى البلاد الشامية إلى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، بسبب اجتياح التركمان موطنهم الأصلي في أرمينيا وديار بكر، الأمر الذي دفع أعداداً كبيرة منهم إلى الهجرة لبلاد الشام،نظراً لقربها من موطنهم الأصلي.(1) وقدرت أعدادهم في بلاد الشام كما ورد في زبدة كشف الممالك والمسالك بما يزيد عن عشرين ألفاً.(2) وسكنوا قرى بلاد الشام وكانوا أقل بكثير من جماعات التركمان التي هاجرت إلى بلاد الشام في نفس الفترة التاريخية تقريباً.(3) ومن الأماكن التي انتشر فيها الأكراد في بلاد الشام بيت المقدس، حيث كانت لهم حارة خاصة بهم. وفي الأنس الجليل أن فتنة وقعت بين طائفة الدارية وطائفة الأكراد قتل فيها من الفريقين ثمانية عشر نفراً، واستنفر كل من الطائفتين من ينتصر لها من العشير فدخلوا إلى المدينة ونهبوا مافيها عن آخره.(4) وأقام الشيخ الكردي إبراهيم بن عبدالله الهدامة (ت730/1329م) في قرية بين القدس والخليل، وأصلح لنفسه مكاناً، وقُصد بالزيارة فظهرت له كرامات.(5) وشاع عن طائفة الأكراد الأغراب بدمشق، وغالبهم ساكن بمحلة قبر عاتكة، أنهم هم الحرامية الدائرون بدمشق ليلاً، فأمر النائب برحيلهم من دمشق، ثم رضي عليهم وأطلقهم.(6) وسكنوا كذلك في منطقة شيزر التابعة لحلب، حيث وقعت فتنة بين العرب والأكراد فيها قتل من الأكراد نحو خمسمائة نفس ونهبت أموال ودواب.(7)

---

(1) زياد المدني: المرجع السابق، ص207.

(2) ابن شاهين الظاهري، غرس الدين: زبدة كشف الممالك، ص105.

(3) إيمان مقابلة: المرجع السابق، ص53.

(4) مجير الدين الحنبلي العليمي المتوفى 927هـ/1521م : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ،2ج، تحقيق، محمد عودة الكعابنة، ط1، مكتبة دنديس، الاردن، 1999م، طبعة 2 لمكتبة المحتسب. ج2، ص78، ص298- ص299.

(5) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج1، ص88.

(6) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق2، ص393.

(7) الغزي، كامل: نهر الذهب،ج3، ص184.

وانتشروا في حلب في منطقة بهنسى، وجبل القيصر، والجبل الأقرع.(1) ولهم خارج حلب البلد حارة خاصة بهم باسم حارة الأكراد.(2) وقطنوا سواحل الشام فقد كان قسم منهم في عكا وفي بعض قراها السياحية، كما وجد قسم آخر في مدينة صفد حيث كانت لهم حارة تسمى باسمهم. وسكنت طائفة من الأكراد والتركمان في مكان واحد في قرية القريتين التابعة لأعمال حمص.(3) وكان للأكراد تواجد كبير في منطقة حماة. واحتل الأكراد المراكز السياسية المرموقة في حماة، في الفترة المملوكية. (4)

وقد استفادت الطبقة الحاكمة في بلاد الشام ومصر من الوافدين الجدد كقوة عسكرية تساعدهم ضد الأخطار الخارجية والداخلية.(5) فقد ذكر ابن إياس أن الفرنج عندما هاجموا سواحل بيروت سنة 785هـ/ 1383م، وملكوا بعض الأبراج فيها، تصدى لهم العسكر الشامي بما فيهم طائفة من الأكراد، وقتلوا منهم نحو خمسمائة إنسان.(6) وفي نفس السنة شارك الأكراد في التجريدة العسكرية ضد حركة التركمان، مع نائب الشام، وحلب، وطرابلس، وحماة، وتركمان الطاعة. فتوجهوا إلى سيس لمحاربة إبراهيم بن رمضان نائب أدنة، وبني أوزر، وابن مرناص من الأجقية.(7)

---

(1) القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص121. علي بن داود بن إبراهيم المعروف بابن الصيرفي المتوفى 900هـ/1494م: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق، حسن حبشي،مطبعة دار الكتب، القاهرة، 1390هـ/ 1970م. ص86.

(2) أبو الفضل محمد بن الشحنة المتوفى890هـ/1483م: الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تقديم، عبدالله محمد الدرويش، دار الكتاب العربي، سورية وعالم التراث، دمشق، 1404هـ/1984م. ص241.

(3) مبارك محمد الطراونه: نيابة حمص في العهد المملوكي، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، الأردن، 1996م. ص131. طه ثلجي الطراونه: مملكة صفد في عهد المماليك، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، 1981م، ص173.

(4) شهاب الدين أحمد بن طوق المتوفى 915هـ/1509م: التعليق،3ج، تحقيق، جعفر المهاجر، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق،2000م. ج1، ص64. ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص38.إيمان بنت عبد الحليم: المرجع السابق، ص296.

(5) زياد المدني: المرجع السابق، ص208.

(6) ابن إياس: المصدر السابق، ج1،ق1، ص335.

(7) المصدر نفسه،ج1، ق1، ص338.

3.التركمان

قدمت أولى جماعات التركمان إلى بلاد الشام في القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر الميلادي، قادمين من آسيا الصغرى مع السلطان ألب أرسلان وكانوا طائفتين هما: أوج وبزاق ومنهم أولاد دلغادر(1) وحدد ابن شاهين الظاهري مناطقهم، من غزة وحتى ديار بكر وأعدادهم بمائة وثمانين ألف خيال.(2) وقد اتخذ التركمان من حلب في شمال الشام موطناً لهم فقد كانت لهم فيها حارة.(3) وكانوا الأوفر حظاً بين العناصر السكانية في حلب بدليل نشاطاتهم الاقتصادية المختلفة داخل المدينة.(4) أما خارجها فقد اعتمدوا على تربية الماشية في غذائهم من منتجاتها، وبيع ما زاد عن حاجتهم في الشام، فقد فرض على تجار الأغنام التركمان الضريبة، فعندما رفع ذلك للنائب أمر ببطلانها.(5)

ويذكر أن أول من أسكن التركمان سواحل بلاد الشام السلطان بيبرس، وذلك لحمايتها من هجمات الفرنج. ومن مناطق سكنهم في الشام أيضاً: عين تاب، وتيزين، وبغراس* والعمق، والجبل الأقرع*1 (6) والمعرة التي تعد أول إقطاع يمتلكه التركمان في بلاد الشام.(7)

---

(1) العيني: السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، ص26.

(2) ابن شاهين الظاهري، غرس الدين، المصدر السابق، ص105.

(3) ابن الشحنة: المصدر السابق، ص241.

(4) زياد المدني: المرجع اسلبق، ص210.

(5) ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص189. مصطفى شاكر: دولة الترك، ص303، ص318، ص380.

*. بلدة شامية ذات قلعة مرتفعة ولها أعين وواد وبساتين، وهي على طريق الثغور. أبو الفدا: المصدر السابق، ص240.

*1 .وهو أعلى جبل بالشام، وأول ما يظهر منها من البحر وسكانه التركمان، وفيه العيون. ابن بطوطة: المصدر السابق،ج1، ص294.

(6) شيخ الربوة: المصدر السابق، ص205. ابن بطوطة: المصدر نفسه،ج1،ص 283، 285، 294.

(7) مبارك الطراونه: الحياة الاجتماعية في بلاد الشام، ص110.

وفي دمشق سكنوا في القابون الفوقاني، وكان أميرهم بالشام التاجي بن الديوان. (1) وامتاز التركمان بقدراتهم القتالية الكبيرة في الحروب حيث أجادوا الرمي بالقسي والنشاب والسيوف والأطبار*.(2) ولذلك كانوا مصدر اضطرابات كبيرة للدولة المملوكية، ولكن الدولة استطاعت أن توجه فئة منهم في خدمتها، وهؤلاء هم الذين يُدعون في المصادر بتركمان الطاعة. وهذه التسمية تعني أن هناك تركمان عصاة، وقد كان خطرهم في المناطق الشمالية وعلى حدود أرمينية الصغرى. وكانت تحركاتهم تميل إلى الاستقلال والانفصال عن سلطان المماليك، ونالوا أحياناً تأييد الدولة العثمانية الناشئة.(3) ففي أوقات المحن والشدائد ولظروف طارئة في الدولة المملوكية الثانية كان ينضم إلى الجيش المقاتل في الشام العنصر التركماني، ولكن لايولَّون وظائف أرباب السيوف لأنها اقتصرت على المماليك.(4) فقد ذكر القلقشندي أن جيش دمشق ضم مجموعة من الفئات، وذكر منهم التركمان المتميزين عن صفة الترك في زيهم.(5) وكان الهدف الأساسي من تجنيد التركمان في الجيش، استخدامهم لحراسة الحدود، وطرق المواصلات والمسافرين، كفرق مساندة للجيش عند الضرورة.(6) ونظراً لكثرة أعداد التركمان وانتشارهم في أكثر من مكان، فقد شاركت فئات منهم في ثورة منطاش ويلبغا

---

(1) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق2، ص327. هند غسان أبو الشعر: مجتمع دمشق أواخر أيام الدولة المملوكية، ط1، الناشر، جامعة آل البيت،الأردن، 2012م. ص205، ص206.

*. جمع طبر وهي آله حربية تشبه الفأس. ابن أجا، محمد بن محمود بن خليل الحلبي الملقب بابن أجا المتوفى 881هـ/ 1479م : العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير يشبك بن مهدي الدوادار، صنعه، محمد أحمد دهمان، ط1، دار الفكر النشر، دمشق، 1406هـ/1986م.ص46.

(2) المصدر نفسه، ص46.

(3) إحسان عباس: المرجع السابق، ص153.

(4) هيام صالح يحي أبو الفرج: مجتمع دمشق ودوره السياسي في عصر الدولة المملوكية الثانية (784- 923هـ/1382-1517م)، رسالة ماجستير ، جامعة أم القرى، السعودية، 2000م. ص107.

(5) القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص182. ابن الصيرفي: المصدر السابق، ص70.

(6) زياد المدني: مدينة حلب، ص210، ص211.

الناصري ضد السلطان برقوق عام 791هـ/1389م. وتمكنوا من خلعه.(1) ومشاركة الأمير دقماق في تمرده على السلطنة في حلب سنة 806هـ/1403م، وتملكها، وكان إلى جانبه الأمير التركماني علي بك بن دلغادر.(2) وقام التركمان ببعض عمليات التمرد والفتن ومهاجمة المدن الشامية، ففي سنة 808هـ/1405م، اجتمعوا على ابن صاحب الباز، وقصدوا مدينة حماة، فدافع أهلها أشد الدفاع عنها فما كان من التركمان إلا أن أفسدوا في ضواحيها فساداً كبيراً.(3)

وفي سنة 810هـ/1407م، حاول تمربغا المشطوب نائب حلب القضاء على التركمان، ولكنه فشل في ذلك.(4) وقد تكررت أحداث مشابهة في سنة 813هـ/ 1410م، وفي سنة 821هـ/1418م، وفي سنة 830هـ/ 1426م، حدثت فتنة عظيمة بين التركمان أنفسهم، فعين لهم السلطان تجريدة، وبها من الأمراء ثمانية مقدمي ألوف، ومن المماليك السلطانية خمسمائة مملوك.(5)

وكان من نتائج مشاركة التركمان في الصراعات بعض الآثار السياسية، إذ كثر فسادهم وتعديهم على الناس، وتدمير القرى والمزارع ونهب القوافل التجارية والبيوت وغيرها.(6) ورغم ذلك كله تولى بعض من فئات التركمان بعض الأعمال الإدارية والدينية في الدولة المملوكية الثانية. فقد كان الأمير سيف الدين خُجا التركماني نائب لقلعة جعبر التابعة لنيابة حلب والواقعة شرقي نهر الفرات، وكان قد قتل على يد الأمير نُعير بن حيار.(7) وتولى الشيخ شرف الدين عثمان بن سليمان التركماني إمامة الصلاة

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص14.

(2) المصدر نفسه، ج12، ص235.

(3) المقريزي: المصدر السابق،ج6، ص157.

(4) ابن إياس: المصدر السابق، ج1، ق2، ص787.

(5) المصدر نفسه، ج2، ص113.

(6) زياد المدني: المرجع السابق، ص211.

(7) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص286.

للسلطان الملك الظاهر برقوق، وتقدم في دولة برقوق، ثم ولي قضاء العسكر، ثم مشيخة الخانقاه البيبرسية إلى أن مات. وتولى محمد بن شاه التركماني نائب البيرة زمن السلطان جقمق. (1)

4.المماليك الجراكسة

استأثرت هذه الطائفة الإرستقراطية من الشعب في بلاد الشام بالحكم وبالوظائف، بل هم أصحاب السيادة والطبقة المسيطرة ذات النفوذ والسلطان، أما أهل البلاد الأصليون من العرب وغيرهم من الفئات الأخرى فكانوا مغلوبين على أمرهم، وحرمتهم هذه الفئة من المشاركات ذات القيمة في أي أمر من أمور بلادهم، بل خضعوا للأمر الواقع، ورضوا بما فعله المماليك بهم.(2) وقد وصف المقريزي طبقة المماليك:" بأنهم أهل الدولة" كثرت بأيديهم الأموال بما تحصل لهم من خراج الأرض، فأعرضوا عن مصالح العباد، وانهمكوا في اللذات.(3) وكانت العزلة الاجتماعية التي عاش فيها المماليك سبباً في جعلهم يحتفظون بأخلاقهم وطباعهم على مر السنين، دون أن يتأثروا بأخلاق أهل البلاد وعاداتهم.(4) لدرجة أن الأمراء منهم ومماليكهم، لم يحاولوا الزواج من أهل البلاد، بل اختاروا زوجاتهم وجواريهم من بنات جنسهم اللاتي جلبهن التجار.(5) أما أبناء المماليك الذين ولدوا في بلاد الشام ولم يمسهم الرق، فقد عرفوا بأولاد الناس* وكانت مكانتهم الاجتماعية أدنى من المماليك، والسبب يعود إلى أن

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج11، ص322. ابن إياس: المصدر السابق، ج2، ص287.

(2) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص213.

(3) المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق، كرم حلمي فرحات، ط1، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، ص119، ص147. القاهرة،1427هـ/2007م.

(4) فريال بدوي يوسف الزربا: الحياة الاجتماعية في دمشق في العهد المملوكي، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية،1980م. ص119.

(5) أكرم العلبي: المرجع السابق، ص91. 225 .p.

Muir, William: The Mamluke or Slave

*. أبناء أمراء المماليك فقط المملوكين بدون عبودية. محمد دهمان: معجم الألفاظ، ص26.

والد كل منهم كان مملوكا ثم تحرر فأصبح أولادهم أحرار، وغالباً ماكان أولاد الناس يبتعدون عن الحياة السياسية والعسكرية، ويختارون لأنفسهم حياة السلم والدعة، كما اشتهر مماليك هؤلاء باسم مماليك أولاد الناس- -. فمنهم من اتجه إلى العلوم، أمثال المؤرخ ابن تغري بردي،ومنهم من لبس خرقة الصوفية.(1)

5. فئات سكانية أخرى

قدمت إلى بلاد الشام عدة فئات أخرى نتيجة عوامل مختلفة، سياسية واقتصادية ودينية فتفرقوا في الممالك الشامية،ودخلوا الإسلام، واختلطوا بأهل البلاد ومنهم:

التتار، ويعد السلطان كتبغا أشهر شخصية تترية وصلت منصباً في الدولة المملوكية الأولى، وهو من سبي وقعة حمص سنة 659هـ/1260م، أخذه الملك المنصور قلاوون وأدبه، ثم أعتقه وجعله من جملة مماليكه.(2) ولما قتل الأشرف تولى كتبغا السلطنة 694هـ/1294م.(3) وفي سنة 695هـ/1295م، قدمت طائفة الأويراتية من التتار، فارين من سطوة قازان ملك التتار وعبروا الفرات يريدون الشام. وبلغ عددهم نحو الثمانية عشر ألف بيت، وفي رواية عشرة آلاف.(4) ثم توالت الهجرات، ففي سنة 704هـ/ 1304م، قدمت جماعة من المغول قدروا بمائتي فارس بنسائهم وأولادهم، فرتبت لهم الرواتب، وأعطوا الإقطاعات، وفرق جماعة منهم على الأمراء. وفي سنة 717هـ/1317م، قدمت جماعة أخرى قدرت بمائة فارس على رأسهم أمير كبير اسمه طاطاي. وفي سنة 722هـ/1322م، وصلت دمشق جماعات كثيرة كذلك.(5)

---

(1) قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة،1979م، ص25.
الباز العريني: المماليك، ص54. إحسان عباس: المرجع السابق، ص153. محمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص26.

(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج8، ص47.

(3) ابن إياس: المصدر السابق: ج1،ق1، ص386.

(4) المقريزي: السلوك، ج2، ص265.. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج8، ص51.

(5) المصدرنفسه،ج2، ص378، ص525، ج3، ص54.

أخذ الأمراء المماليك أولاد هؤلاء المهاجرين الشباب للخدمة العسكرية،وكثرت الرغبة فيهم لجمالهم، وتزوج الناس ببناتهم، وتنافس الأمراء والأجناد وغيرهم في صبيانهم وبناتهم. ثم انغمس من بقي منهم في العساكر، فتفرقوا في الممالك، ودخلوا الإسلام، واختلطوا بأهل البلاد.(1) ولم يذكر لهذه الفئة أي نشاط في الدولة البرجية.

ومن الطوائف الأخرى المهاجرة للشام لأسباب دينية:

المغاربة، وكان أهل الشام يحسنون الظن بهم، ويطمئنون إليهم بالأموال والأهلين والأولاد، وكانوا يشتركون مع أهل الشام في الحصول على الوظائف الدينية من إمامة مسجد، أو قراءة بمدرسة أو ملازمة مسجد أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة، أو أمناء للقيساريات. ومن كان من أهل المهنة فله أسباب أخر، من حراسة بستان او أمانة طاحونة أو كفالة صبيان يغدو معهم إلى التعليم.(2) ومن المناصب الإدارية ذات الصبغة الدينية التي حظيت باهتمام المغاربة ونالوا منها أوفر نصيب في دمشق أيام المماليك، منصب قاضي القضاة المالكي.(3) وللمغاربة شيخ يسمى شيخ المغاربة، ولهم زاوية مخصصة، أطلق عليها زاوية المغاربة.(4) وبدأت أعداد المغاربة في العصر المملوكي الثاني تزداد خاصة بعد سقوط غرناطة في أيدي الفرنج، ففي سنة 896هـ/1490م، قدمت جماعات من بلاد المغرب بعيالهم وأولادهم وسكنوا دمشق.(5) وحدد ابن طوق في يومياته المناطق التي قدم منها المغاربة، فهم إما من مكناس (مكناسي) أو جزائري أو مغربي فاسي أو مريني مالكي.(6) ولم ينحصر وجود المغاربة في دمشق فقط، وإنما وجدوا في القدس الشريف، بدليل وجود حارة من حارات القدس تسمى حارة المغاربة،

---

(1) الباز العريني: المماليك، ص57.

(2) ابن بطوطة: المصدر السابق ، ج1، ص331.ابن طوق: المضدر السابق، ج1،ص111. أكرم العلبي: المرجع السابق، ص92.

(3) أحمد معمر: المرجع السابق، ص146.

(4) ابن طولون: مفاكهة الزمان ،ق1، ص33.

(5) المصدر نفسه، ق1، ص119.

(6) هند أبو الشعر: المرجع السابق، ص206.

وهذا دليل على أنها موقوفة عليهم وسكنهم فيها.(1) ومن فضلاء القدس المغاربة، مدرس المالكية، وشيخ الخانقات الكريمة، أبو عبدالله محمد بن مثبت الغرناطي.(2)

ومن الطوائف الأخرى ذات الأقلية في بلاد الشام، الأرمن وتمركزوا في بلاد سيس، وبغراس.(3) ووجدت قبائل أخرى من الطاغستان، والبشناق، والشيشان، والشركس.(4)

ثانياً: الفئات المذهبية للمجتمع الشامي

1.السنة

هم الغالبية العظمى للسكان في بلاد الشام، وقد كانوا عماد الدولة المملوكية البرجية، ومنهم الحكام العسكريون- المماليك- ورجال الدين، بالإضافة إلى العامة، أو العوام.(5) وتوزع المسلمون السنة في معظم مناطق بلاد الشام، وكانت جمهرتهم في المدن الكبيرة، وفي سوريا الجنوبية.(6) كما ذكر ابن الشحنة أن أهل حلب كلهم سنة.(7)

وكانت مذاهب أهل السنة بمختلف مدن الشام أربعة: (الشافعية، والحنفية، والمالكية، والحنبلية) ودليل ذلك أن الدولة تعين قاضي قضاة لكل مذهب.(8) وقد شكل أتباع المذهب الشافعي بدمشق العدد الأكبر ويتبعهم الموالون للمذهب الحنفي والحنبلي والمالكي على التوالي.(9) بينما في حلب شكل أتباع المذهب الحنفي أغلبية، ثم صار فيهم شافعية.(10) وعادة ما تحصل خلافات بين أتباع المذاهب، ولكن لاتصل إلى درجة

(1) يوسف غوانمه: المرجع السابق، ص128.

(2) ابن بطوطة: المصدر السابق، ج1، ص249، ص252.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص284. ابن حجر: إنباءُ الغُمر،ج1، ص74.

(4) محمد كرد علي: المرجع السابق، ج1،ص32.

(5) أكرم العلبي: المرجع السابق، ص77.

(6) إحسان النمر: تاريخ جبل نابلس والبلقاء، مطبعة ابن زيدون، دمشق، 1938م.، ص22.

(7) ابن الشحنة: المصدر السابق، ص110.

(8) القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص192.

(9) مبارك الطراونه: الحياة الاجتماعية في بلاد الشام، ص73.

(10) ابن الشحنة: المصدر السابق، ص110.

التعصب بينهم، فقد ذكر ابن حجر أن فتنة عظيمة ثارت بين الحنابلة والأشاعرة بدمشق سنة 835هـ/1431م، فتعصب كل طرف إلى مذهبه، مما دفع السلطان إلى إصدار مرسوم أن لا أحد يعترض على مذهب غيره.(1)

ومن الفرق السنية التي عرفها أهل الشام **المتصوفة**: وهم المعرضون عن الدنيا، والمشتغلون في أغلب الأوقات بالعبادة، جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه.(2) ومن أهم أوصاف هذه الطائفة الرأفة، والرحمة، والعفو، والصفح، وعدم المؤاخذة.(3) وقد انتشرت الزوايا، والأربطة الخاصة بهذه الطريقة في العصر المملوكي الثاني. خاصة في دمشق، وحلب ، وبيت المقدس، حتى أنها بلغت 29 بيتا في القدس منها خانقاوتان وستة أربطة و21 زاوية.(4) وذكر ابن بطوطة، أنه لبس خرقة التصوف في زيارته للقدس.(5) ومن أهم طرق التصوف في بلاد الشام في هذه الفترة، الطريقة الشاذلية وشيخ هذه الطريقة أبو الحسن الشاذلي المتوفى (656هـ/1258م)، والطريقة الرفاعية ومن شيوخها أبو العباس أحمد بن علي الرفاعي المتوفى(578هـ/1182م)، والطريقة القادرية، والتي تنتسب إلى عبدالقادر الجيلاني المتوفى(561هـ/1165م). وغيرها من الطرق الصوفية الأخرى.(6)

---

(1) ابن حجر: إنباءُ الغُمر، ج3، ص477. إيرا لابدوس: مدن إسلامية في عهد المماليك، نقله إلى العربية علي ماضي، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت، 1987م. ص147.

(2) السبكي: المصدر السابق: ص119، 120.

(3) المصدر نفسه، ص120.

(4) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ج1، ص68. يوسف غوانمه: المرجع السابق، ص175.

(5) ابن بطوطة: المصدر السابق، ج1، ص252.

(6) رياض صالح علي حشيش: الحركة الصوفية في بلاد الشام خلال الحروب الصليبية(492- 690هـ/1098- 1291م)، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، عزة، 2005م. ص83، ص88.

2.الشيعة

يشكل هؤلاء بجميع فرقهم مجموعات منطوية على نفسها، لها حياتها وعاداتها وتطلعاتها ومعتقداتها، لا يختلطون بأهل البلد السنة، إلا بمقدار ما تقتضي مصالحهم.(1) وقد نشطت هذه الطائفة في دمشق وقراها، وبيروت، وصيدا، وصور، فقد ذكر ابن بطوطة في رحلة أثناء وصوله إلى مدينة صور أن بخارجها قرية أكثر أهلها رافضيون*. وفي معرة النعمان، وجبال القصير، وجبل السماق، والجبل الأقرع وجد صنفٌ منهم يسمى نصيرية.(2) وصفهم الغزي بأنهم أصحاب كد وتعب ومعرفة في الفلاحة والزراعة وتربية دود الحرير. وسكنت الإثنا عشرية في حلب في قرى: الفوعة، والنغاولة، ونبل. وسكنت فرقة الإسماعيلية ويقال لهم الفداوية مناطق الحصون الأربعة شرق بانياس وطرطوس وبعلبك.(3)

وفي سنة 785هـ/1383م، قتل كبير الرافضة في دمشق محمد بن مكي، لإظهاره الرفض وضربت عنقه تحت القلعة.(4) وهذا يدل على أن هذه الطائفة كانت محظورة إذا ما أتوا بعملٍ مستكره، ففي عام 892هـ/ 1487م، ذكر ابن طولون أن مرسوماً صدر من السلطان بهدم مسجد الشيعة الذي على باب جيرون في دمشق لما أحدث به من البدع طائفة الروافض، وقد كان كثر الكلام بسببه.(5)

وقد وصف ابن طولون هذه الطائفة بالأوباش والأعجام والقلندرية، فقد اجتمعوا يوم عاشوراء وأظهروا قاعدة الروافض من إدماء الوجوه وغير ذلك، مما دفع بعض

---

(1) أكرم العلبي: المرجع السابق، ص77.

*. الرافضة نعت أطلق من أهل السنة على الشيعة الذين رفضوا خلافة أبي بكر وعمر وعثمان. ابن بطوطة: المصدر السابق، ج1، ص258.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص258، ص272. الغزي، كامل: المصدر السابق، ج1، ص204. أكرم العلبي: المرجع السابق، ص79.

(3) المصدر نفسه،ج1، ص286. ابن خلدون: المصدر السابق، ج4، ص125. الغزي، كامل: المصدر السابق،ج1، ص193،ص205.

(4) ابن الصيرفي: المصدر الكامل، ص88.

(5) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص70، 71.

الناس للقيام عليهم وترافعوا إلى نائب الغيبة، فنصر أهل البدعة عليهم.(1) ولا يوجد تعليل لذلك التصرف من نائب الغيبة سوى التقرب لهذه الفئة من السكان.وهكذا نرى أنهم ما داموا يمارسون عبادتهم بدون إيذاء معتقدات الغالبية العظمى من السكان من اهل السنة، فإن أحداً لا يمكن أن يتعرض لهم، واما إذا تجاوزوا الحد، وتعرضوا للمقدسات، كما يفعلون أحياناً، فإنهم كانوا يعاقبون لهذا السبب، وليس لأنهم شيعة.(2) ويمكن ان نحصر فرق الشيعة في بلاد الشام في خمسة أقسام هي: اليزيدية، الشيعة الإمامية، الإسماعيلية، والدروز، والنصيرية. (3)

3. النصارى

وجد النصارى في مختلف أرجاء بلاد الشام، حيثُ سكنوا إلى جوار المسلمين في القرى والمدن.(4) وكان لهم الحرية في التعبد، وعدم التعرض لهم في زيارة الأماكن المقدسة، وتقرير الإعفاءات المالية لهم.(5) وسمح لهم بمقتضى مرسوم السلطان برقوق بإصلاح وترميم الأماكن الموجودة في رعايتهم داخل كنيسة القيامة، وسمح لهم في عهد السلطان فرج، وقاتباي، والغوري، وجقمق بعمارة كنيسة بيت لحم، ودير بيت لحم، وفي عهد برسباي سمح لهم بعمارة الأجزاء المتداعية بكنيسة علية صهيون، وترميم دير صهيون في عهد جقمق، وخشقدم، والغوري.(6)

---

(1) ابن طولون: إعلام الوَرَى، ص157.

(2) أكرم العلبي: المرجع السابق، ص81.

(3) ابن فضل الله العُمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص156-161. ابن بطوطة: المصدر السابق،ج1، ص286.
ابن خلدون: المصدر السابق، ج4، ص125، ص125. الغزي، كامل: المصدر السابق،ج1،ص204، 205، 209، 214.

(4) حسين أحمد سعيد خصاونه: طبقات المجتمع في بلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن، 1992م. ص192.

(5) أكرم العلبي: المرجع السابق، ص85.

(6) أحمد دراج: وثائق دير صهيون، منتدى سور الأزبكية،1968م. ص68.

أما الأماكن التي سكنها النصارى في بلاد الشام: دمشق، وفيها فئتان هما النصارى اليعاقبة، والنصارى الملكانية.(1) وكان تجمعهم في دمشق في حارة باب توما، وجرود، ومعلولا، وجبعا.(2) ولهم فيها كنيسة، ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها.(3) وفي حلب انتشرت طائفتان منهم الارثوذكس، والكاثوليك.(4) ويذكر الغزي: أن حكومة الجراكسة خططت المحلة الجديدة لسكنى المسيحين في حلب، فبنوا منازلهم ومعابدهم على أثر هدم تيمورلنك للكنائس عند دخوله حلب سنة 803هـ/ 1400م.(5)

أما مدينة القدس فقد سكنها أجناس مختلفة من المسيحين من أرثوذكس، وسريان، وأرمن، وكرج، وأقباط، وأحباش، وكاثوليك، وفرنسيسكان. ولكل طائفة من هذه الطوائف مؤسساتها الدينية والاجتماعية، الا أنها تشترك كلها في كنيسة القيامة وهي الكنيسة التي يقدسها الجميع.(6) وقد نال نصارى بيت المقدس حظوة لدى السلطان جقمق، ففي سنة 854هـ/ 1350م، أصدر مرسوماً نقشه على قطعة رخام أبطل فيه الضمان الذي يؤخذ من رهبان دير الأرمن بالقدس.(7) وكان في معرة النعمان في حماة دير للنصارى يسمى دير سمعان.(8) ونال نصارى الكرك والشوبك مكانة لدى السلطان برقوق إكراماً لمواقفهم، ومساعدتهم أياه، فأعفاهم من الضرائب والمصادرات، فقد ذكر ابن الفرات أن تاجراً من نصارى الشوبك اجتمع بالملك الظاهر برقوق أثناء وجوده في الكرك سنة 791هـ/1388م، وقال له عندي مائة الف دينار أعطيها لمولانا السلطان

---

(1) القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص194.

(2) ابن طوق:المصدر السابق ،ج1، ص189. هند أبو الشعر: المرجع السابق، ص207،208.

(3) الحميري: المصدر السابق، ص240.

(4) الغزي، كامل: المصدر السابق، ج1، ص197.

(5) المصدر نفسه،ج1، ص197.

(6) علي السيد علي: القدس في العصر المملوكي،ط1، دار الفكر للدراسات والنشر: القاهرة،1986م. ص82-87. لابدوس: المرجع السابق، ص149.

(7) يوسف غوانمه: المرجع السابق، ص104.

(8) الحميري: المصدر السابق، ص555.

يفرقها في العسكر والجيوش إن احتاج إليها، وإذا فرغت واحتاجوا إلى غيرها أحضره وأنا وجميع مالي وأولادي يد لمولانا السلطان فشكره على ذلك وفرح به، ولما رأى الملك الظاهر ذلك قويت نفسه.(1) وكانت فرق النصارى في بلاد الشام تتميّز بعمامة زرقاء توضع على الرأس، ولا ينطبق هذا على نصارى الكرك والشوبك بسبب موقفهم السابق.(2) وقد بالغ بعض النصارى في إعلان طقوسهم. فقد ذكرأن جماعة من نصارى الحبش، نحو ثلاثة آلاف نفس،قدموا لزيارة كنيسة القيامة، وأن كبيرهم أمر بضرب الناقوس، وكان الهدف إظهار دين النصارى، فوافق ذلك وقت الآذان، فلم يسمع الآذان، مما أحدث مشكلة بين المسلمين والنصارى.(3)

4.اليهود

تواجد اليهود في بلاد الشام بأعداد ضئيلة .(4) ويهود الشام فئتان أولاهما: القراؤون والربانيون، وثانيهما: السامرة.(5) أما اليهود القراؤون والربانيون فلهم في دمشق رئيس يرعى شئونهم يسمى "الناجذ" ويشرف على بيعهم ودورعبادتهم، أما رئيس اليهود السامرة فكان مركزه في نابلس التي هي مدينتهم المعظمة عندهم، وإلى طورها حجهم،وله نائب مقيم بدمشق وغيرها من البلدان الشامية.(6) ونعم اليهود بروح التسامح الديني في ظل دولة المماليك البرجية، فمارسوا نشاطهم وحياتهم بأمن وسلام. فقد ذكر ابن طولون أن السلطان قد أصدر أمراً في عام 885هـ/1480م، ونادى به علي عمر بن

(1) ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم بن الفرات المتوفى807هـ/1405م.تاريخ ابن الفرات، م9، ج1،عني بتحرير نصه ونشره، قسطنطين زريق، المطبعة الأميركانية، بيروت، 1936م. م9، ج2، حققه، قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين، المطبعة الأميركانية، بيروت، 1938م. مجلد9، ج1، ص140.

(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج15، ص156. الغزي، كامل: المصدر السابق، ج1، ص173.

(3) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص36.

(4) مبارك الطراونة: الحياة الاجتماعية في بلاد الشام، ص87.

(5) القلقشندي: المصدر السابق،ج4، ص194.

(6) المصدر نفسه، ج4، ص194. نقولا زيادة: دمشق في عصر المماليك، موسسة فرنكلين للطباعة والنشر، بيروت- نيويورك، 1966. ص166.

Kann, j, the Jews in Egypt and Palestine, p251.

الصابوني ناظر الجوالي: أنه من ظُلِمَ من اليهود ومن النصارى عليه بالأبواب الشريفة، ومرسومه إليه بأن يسافر إلى القاهرة. (1) أما الأماكن التي انتشر فيها اليهود في بلاد الشام، فهي دمشق فقد كان لهم فيها حارة خاصة. ومن قراهم جوبر وكان فيها كنيس مقدسة يزورونها ويقيمون فيها صلواتهم.(2) وانحصرت أحياء اليهود في حلب في باب النصر وكانت لهم فيها حارة. وكان لهم تواجد في قلعة جعبر.(3)

وسكنوا أيضاً في بيت المقدس، وعكا، والرملة، وعسقلان، وطبريا، واللاذقية، وجبيل، وصور، ونابلس، وبيروت، وحماة.(4) وكان لليهود في تجمعاتهم هذه رؤساء يسمى كل واحد منهم" رابي" وعلى رأس كل مجموعة من الربانية" حاخام" أو "الخاخام"، وكذلك كان لهم معابدهم الخاصة بهم التي مارسوا فيها طقوسهم الدينية بحرية تامة. وكان لرئيس اليهود أعوان منهم البرناس الذي كان يجمع الصدقات، والمقدمون والديان(المرقبان) والحزان وبيت الدين(القاضي)، وكان كل يقوم بواجباته على نحو مانصّ عليه ناموس اليهود. (5)

ورصد ابن طوق مهن وحرف يهود دمشق وذكر منها الكحّال، والعطّار. وتولى اليهود بعض المناصب الهامة في بلاد الشام على الرغم من قلة عددهم، وغالباً ما كانوا يتظاهرون بالإسلام ليحصلوا على مرادهم. فقد كان معلم دار الضرب في دمشق

---

(1) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص18.

(2) إيمان مقابلة: المرجع السابق، ص60. هند أبو الشعر: المرجع السابق، ص208.

(3) بنيامين بن يونه التطيلي النباري الأندلسي المتوفى 569هـ/1173م: رحلة بنيامين، ترجمها عن النص العبري وعلق على حواشيها وكتب ملاحقها،عزرا حداد، دراسة وتقديم، عبدالرحمن الشيخ، ط1، المجمع الثقافي، أبوظبي، 2002م. ص282.
الغزي، كامل: المصدر السابق، ص200-204.

(4) بنيامين: المصدر السابق، ص231-283.

(5) نقولا زيادة: المرجع السابق، ص166. انطوان ضومط: دمشق- الشام على عهد الدولة المملوكية الثانية 784-922هـ/1382-1516م، المؤتمر الدولي السادس لتاريخ بلاد الشام، جامعة دمشق، الجامعة الأردنية، 2001م. ص407.
أكرم العلبي: المرجع السابق، ص82. مبارك الطراونه: الحياة الاجتماعية في بلاد الشام، ص88.

يهودياً، وكان معززاً ومكرماً.(1) وتولى أسلم يعقوب صيرفي نائب الشام سنة 922هـ/1916م، ناظر الخزانة ونقيب الديوان بعد إسلامه. وكُرّم صدقة السامري من قبل أرباب الدولة في الشام بعد إسلامه سنة 899هـ/ 1494م. (2)

الخلاصة: أن أهل الذمة لم يشعروا طيلة العهد المملوكي الثاني باضطهاد حقيقي متعمد، سواء من قبل الشعب أو الحكام، وإنهم كانوا يمارسون عبادتهم بحرية تامة. وهذا ما شجع بعض يهود الأندلس للهجرة إلى حلب سنة 898هـ/ 1493م، من أصحاب التخصصات حيث تجمعوا في درب خاص بهم سمي بدرب اليهود.(3)

ثالثاً: الفئات الاجتماعية للمجتمع الشامي

1. الطبقة العليا

مَثّل الجركس في الدولة المملوكية الطبقة العليا صاحبة السيادة في الحكم والجيش والثروات، وشكل السلطان وأمراؤه وأجناده طبقة عسكرية حاكمة مغلقة عن الشعب. وحُدّد الانتماء إليها بشروط لم تتوافر للسكان الأصليين: كالعرق، والرق، والعتق، والتربية العسكرية، والتدرج بالإمرة، واللغة.(4) وبلغ عدد هؤلاء خمسة آلاف فارس من أجناد الحلقة والممالك السلطانية.(5) ولذلك يمكن أن نعد أمراء المماليك والمماليك السلطانية طبقة النخبة أو الطبقة العليا، أو أهل الدولة التي كثرت بأيديهم الأموال نتيجة ما يتحصل لهم من خراج الأرض وغيره.(6) وتضاعفت قوتهم بسبب قدرتهم على تنظيم

---

(1) ابن طوق: المصدر السابق،ج1، ص111، ص169، ص304، ص491. ابن كنان: حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين، تحقيق، عباس صباغ، ط1، دار النفاس، بيروت، 1412هـ/1991م. ص190.
أكرم العلبي: المرجع السابق، ص88.

(2) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص129، ص323.

(3) الغزي، كامل: المصدر السابق،ج1، ص202. أكرم العلبي: المرجع السابق، ص89.

(4) انطوان ضومط: المرجع السابق، ص395، ص396.

(5) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، تحقيق، محمد زينهم و مديحة الشرقاوي، 3ج، ط1، مكتبة مدبولي، 1998م. ج1، ص273.

(6) المقريزي: إغاثة الأمة في كشف الغمة، ص147، ص148.

الممتلكات،فهم أصحاب الخانات والحمامات والأسواق والقيساريات في دمشق. (1) وبالتالي كانوا ينظرون إلى أنفسهم نظرة فيها شيء من العنصرية، فكانوا يعتقدون في قرارة أنفسهم أنهم أرفع من السكان المحليين، ولكن ذلك كله لم يكن معلناً ولا مكشوفاً، لأن الإسلام قرب بينهم وبين فئات الشعب الأخرى إلى حد كبير.(2)

يقول إبراهيم زعرور في بحثه "ظل المماليك يعيشون في غربة عن بعضهم بعضاً وظلوا غرباء أيضاً عن الشعب الذي حكموه، وعاشوا كقشرة عسكرية مستبدة، ولذلك حين اقتلعوا لم يجد مُقتلعهم لهم في الأرض أدنى جذور".(3) وقد تناولنا هذه الفئة في الفصل الأول من هذا البحث.

2.الأعيان

هم جماعة المعممين أو أهل العمامة، وشملت هذه الطبقة أرباب الوظائف الديوانية، والدينية كالفقهاء والعلماء والأدباء والكتاب.(4) وأُطلق عليهم أرباب الأقلام، وقد تميزت هذه الطبقة بالنفوذ فمنهم القاضي، والمفتي، والمحتسب، والخطيب، والمدرس.(5) ولذلك حظيت هذه الفئة برعاية واحترام سلاطين المماليك فقربوهم إليهم ومنحوهم العديد من الإمتيازات.(6) ولعبت هذه الفئة دوراً مميزاً في الحياة الاجتماعية فقد كانوا يقومون بإصلاح ذات البين.(7) وتيسير الشؤون الداخلية للشعب، فوجب على الأمير الذي يطمع في الحكم أن يستميل هذه الفئة إلى جانبه ليكسب عن طريقها تأييد

---

(1) إحسان عباس: المرجع السابق، ص147.

(2) أكرم العلبي: المرجع السابق، ص91. مفيد الزيدي: المرجع السابق، ص221.

(3) ابراهيم زعرور: الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، رسالة دكتوراه، جامعة دمشق، 1990م، ص115.

(4) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص323.

(5) القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص192، 193، 219، 212، 222.

(6) ابن حجر: إنباءُ الغُمر، ج2، ص280.

(7) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص18.

العامة.على أن هذه المكانة لم تمنع بعض السلاطين والأمراء من التعرض لهم بالنقد والتهكم. ولم يرضوا أن تشاركهم هذه الفئة من السكان في ركوب الخيل مثلاً.(1) فقد ذكر المقريزي أنّه في سنة 793هـ/ 1391م، نودي لا يركب متعمم فرساً، ومن وجُد عنده فرس أخذت منه.(2) وكثيراً ما وقفت هذه الفئة ضد السلاطين، فقد وقف كل من قاضي قضاة دمشق شهاب الدين الشافعي والقاضي فتح الدين الدمشقي ضد السلطان برقوق، وحرضوا العامة على قتاله. وثار القاضي أبو الرضا الشافعي بحلب ضد السلطان برقوق، وأفتى بكفره لأنه أقطع جزءاً من الأوقاف الحلبية لأنصاره.(3)

3.التجار

جعلهم المقريزي في المرتبة الثانية، بل قدمهم على العلماء في التصنيف الاجتماعي.(4) وحظي التجار في كثير من الأحيان برعاية السلاطين ورضاهم باعتبارهم فئة من المجتمع وعلى تماس مع الرعية، وكانت منزلتهم الاجتماعية تحدد بحسب ثرواتهم.(5) ولأهمية هذه الفئة أيضاً أوجدت لهم الدولة ما عرف بشيخ التجار أوكبير التجار.(6) يتولى الإشراف على مصالح التجار ورعايتهم، وعادة مايكون من التجار الأثرياء.(7) وفي حلب فرضت الدولة عليهم تنظيم أنفسهم في نقابات، وذلك من أجل تسهيل مهمة المحتسب.(8) ولقد أحس التجار بالقوة الاجتماعية في مجتمع المماليك في بلاد الشام، لأنهم كانوا مصدراً من مصادر إمداد الدولة بالمال في أوقات الحرج

---

(1) سعيد عاشور: المرجع السابق، ص324. فريال بدوي: المرجع السابق، ص147.

(2) المقريزي: السلوك، ج5، ص301.

(3) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص96، ص97. زياد المدني: المرجع السابق، ص216.

(4) المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص148.

(5) أحمد شامخ الحميد العنزي: الحياة الفكرية في العصر المملوكي الثاني في مصر والشام والحجاز،منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2010م. ص125.

(6) ابن طوق: المصدر السابق، ج4، ص1706. ابن إياس: المصدر السابق، ج1، ق2، ص367.

(7) يوسف غوانمه: المرجع السابق، ص82. لابدوس: المرجع السابق، ص164.

(8) Ziadeh :Urban life.p.164-165

والشدة، كالحروب والمجاعات وانتشار الأوبئة.(1) فقد ذكر ابن الفرات أن تاجراً من الشوبك عرض على السلطان برقوق أثناء وجوده بالكرك سنة 791هـ/1388م، مائة ألف دينار، ليفرقها على العسكر من أجل استرجاع عرشه.(2) وفي سنة 803هـ/1400م اجتمع السلطان فرج بالقضاة والأمراء وأعيان الدولة، وكان القصد أخذ مال من التجار إعانة على النفقة في العساكر،لأن بيت المال خالي من المال.(3) ووقف تجار حلب إلى جانب نائبها جَكَم عندما ثار على السلطان وأعلن نفسه سلطانا، ولقب نفسه بالملك العادل أبي الفتح عبدالله جَكَم.(4) ويذكر أن السلطان قانصوة عندما قدم الشام سنة 922هـ/1516م، دقت له البشائر في قلعة دمشق، ونثر على رأسه بعض تجار الفرنج هناك ذهبا وفضة، فكاد السلطان أن يسقط من على ظهر فرسه من شدة ازدحام الناس عليه، فمنعهم من نثار الذهب والفضة، ومن فرش الشقق تحت حافر فرسه، ولما دخل إلى دمشق نثر على رأسه القنصل وتجار الفرنج دنانير ذهب، ونثر المعلم صدقة اليهودي معلم دار الضرب بالشام فضة جديدة.(5) وذكر نقولا زيادة أنه كان في دمشق في القرنين الثامن والتاسع الهجريين/الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين جالية أوروبية صغيرة تتكون من: رجال أعمال من بنادقة وقطلونيين وجنويين وفلورنسيين وكالاريين وفرنسيين، وكان لهم مخازن في المدينة من الأقمشة المنوعة، من الحرير والساتان، والقطيفة، وغير ذلك من المتاجر التي يتطلبها السوق.(6)

---

(1) هيام صالح: المرجع السابق، ص59. مفيد الزيدي: المرجع السابق، ص223.

(2) ابن الفرات: المصدر السابق، مجلد9، ج1، ص140.

(3) المقريزي: السلوك، ج6، ص38. ابن إياس: المصدر السابق، ج1، ق2، ص593.

(4) علي بن محمد بن الخطيب الناصرية المتوفى 843هـ/ 1440م: الدر المنتخب في تكملة حلب، نسخة مصورة في مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية ورقمها (1168). ج1، ص210. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،ج13، ص22. زياد المدني: المرجع السابق، ص219.

(5) ابن إياس: المصدر السابق، ج5، ص53. الغزي، كامل: المصدر السابق، ص246.

(6) نقولا زيادة: المرجع السابق، ص134.

4. عامة الشعب

انتشرت كلمة العوام أو(العامة) خلال عصر دولة المماليك الجراكسة، فدلت على جميع الرعايا من سكان المدن سواء في مصر أو الشام –باستثناء رجال القلم وأصحاب العمامة-، حتى أن مياسير التجار كانوا يُعرفون أحياناً ببياض العامة.(1)

وضمت هذه الفئة أرباب المهن والأجراء والحمالين والسواس والحاكة والبناة والفعلة وأهل الخصاصة والمسكنة.(2) والزعر والحرافيش* والفلاحين والبدو والعشير. وقد عاش هؤلاء بنفس الظروف تقريباً ماعدا البدو والعشير. إذ تعرضوا إلى مظالم المماليك، فقاموا بالاحتجاج عليها بنفس الطرق، أما البدو والعشير فقد كانوا في أغلب الأحيان في حالة تمرد وعصيان.(3) وأهداف العوام وأساليبهم دائماً شرعية وشريفة وعادلة، كما أن عددهم كان كبيراً بحيث كانوا يمثلون الشعب خير تمثيل، دون أن تكون لهم مصالح خاصة بهم.(4)

يذكر ابن إياس أن مماليك السلطان برقوق أثناء وجودهم في دمشق سنة 791هـ/1391م، عبثوا في سوق دمشق، وأخذوا من أصحابها شيئاً من البضائع بالغصب، فاستغاث أهل السوق بالعوام، فرجموا المماليك بالحجارة، وكسروهم كسرة قوية، حتى أخرجوهم من المدينة. وثارت العامة في حماة سنة882 هـ/1478م، ضد النائب ورجموه وأخرجوه منها، وقتلوا دواداره*1 وأحرقوه بالنار بسبب ظلمه وتعسفه في الرعية. (5) وهذا ما قامت به عامة دمشق أيضاً سنة 907هـ/1502م، ضد نائبها برجمه وأخراجه من البلاد، عندما جار عليهم بالمراسيم بأخذ أجرة سبعة أشهر من

---

(1) هيام صالح: المرجع السابق، ص66.

(2) المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص150.

*. وهي من العامي الفصيح، من الزعارة، وهي الشراسة وسوء الخلق. ابن طوق: المصدر السابق،ج1، ص202، ص202، 275.

(3) ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص487-488. حسين خصاونة: المرجع السابق، ص207.

(4) أكرم العلبي: المرجع السابق، ص94.

(5) ابن إياس: المصدر السابق، ج1، ق2، ص419. ، ج3، ص132.

أملاك الشام.(1) وفي سنة 911هـ/1506م، كثرت الرميات (الرسوم) والمصادرات على الناس في كل محلة، بحيث ضجوا من ذلك. ووقف حال الناس، وشاط الزعر، وهم في أكل وشرب ونهب وفساد. في نساء المسلمين ودمائهم وأموالهم.(2) فاجتمعت جماعات من القبيبات وغيرها، وأتوا بالأعلام، وهم يذكرون الله، إلى الجامع الأموي، وصعدوا المئذنة، وكبروا على المتسلم الغائب يومئذ كالحاجب، عن دمشق، وذلك لأجل الرميات والغرامات على الحارات من جهة القتلى، وقصدهم أن يقابل ذوو الجرائم بجرائمهم فأخرج لهم نائب القلعة والحاجب من حُبس من أهل الحارات، ونودي بترك هذه العادة، وأنها بطالة، ففرح الناس بذلك.(3)

ومن الفئات الكبيرة في طبقة العامة **الفلاحون** (أصحاب الفلاحة والحرث).(4) ويشكلون السواد الأعظم من سكان الريف الشامي،وكانوا مهملين بعيدين عن العناية بل وسموا بالاحتقار والضعف فكانت طبقة مغلوبة على أمرها، وفرضت عليهم الرسوم والمظالم من لدن الولاة والحكام، ودفع الضرائب، وبطش العُربان وغارتهم، والنهب والسلب أيام الفتن والحروب.(5) إن من قبائح ديوان الجيش إلزام الفلاحين في الإقطاعات بالفلاحة، وقد جرت العادة في الشام أن كل فلاح يغادر أرضه قبل ثلاث سنوات يعاد إلى القرية قهراً، ويلزم بالفلاحة.(6) وكانت الجيوش المملوكية المتوجهة إلى الشام لقتال نائبها شيخ المحمودي سنة 812هـ/1409م، تقوم بنهب القرى نهباً قبيحاً، وأخذ الغلال.(7) وعندما عزل نائب الشام جان بلاط سنة 904هـ/1499م، قام عَبِيده بنهب الزروع والفواكه والغلال. وفي السنة التالية شرع نائب الشام في الإحاطة

(1) ابن اياس: المصدر السابق، ج4، ص23.

(2) ابن طولون: مفاكة الخلان، ق1، ص236.

(3) المصدر نفسه،ج1، ص241، 242.

(4) ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص83. المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص149.

(5) المصدر نفسه، ج1، ص353. مفيد الزيدي: المرجع السابق، ص223. هند أبو الشعر: المرجع السابق، ص90.

(6) السبكي: المصدر السابق، ص34.

(7) المقريزي: السلوك، ج6، ص235.

على قمح الناس من الفلاحين، وتحويله إلى قلعة دمشق بعد أن وضع يده عليها، والناس في حيرة بسبب ذلك. (1) غير أن بعض السلاطين استجاب لمطالب الفلاحين برفع الجور عنهم، ففي أثناء مرور السلطان ططر بالقدس سنة 824هـ/ 1421م، نادى بإبطال المغارم عنهم، ونقش هذا الأمر على حجر بالمسجد. وكان من عادة نائب القدس أن يجبي كل سنة من فلاحي الضياع نحو أربعة آلاف دينار.(2)

ومن فئات العامة كذلك في الشام **الزعر**، وهم جماعات من الشباب المتمردين الخارجين على القانون والعرف المنظمة في ذاتها، وهذه المجموعات نظمت في أحياء خارج مدن الشام.(3) وأقلقت ظاهرة الزعر في حارات الشام المجتمع، وشكلت هماً كبيراً للأهالي وللسلطة.(4) ويقود هذه العصبات في كل حي الكبار أو الرؤساء، ويلقبون بالشريف، أو بالسيد.(5) وكانت تضاهي قوة الزعر في كثير من الأحيان قوة النائب، إن لم تتفوق عليها، ولذلك حرص النواب على إبقاء نوع من المودة مع الزعر، للاستعانة بهم.(6) فقد ذكر أن نائب الشام طلب زعر أهل الشاغور وأخبرهم أنه يمر في موكبه على حارتهم، فاخذوا أموال الخلق، وشعلوا المشاعل، وزينوا له من عند زاوية المغاربة إلى حارة القراونة.(7) وفي سنة 914هـ/1509م نودي من قبل نائب الغيبة، أن على كل حارة جماعة من الزعر، يخرجون مدداً لملك الأمراء ببلاد حوران، إلى قتال العرب.(8) وقد أفتى بعض الفقهاء للزعربأنه يجوز قتل أعوان الظلمة، فصار من في

---

(1) ابن طولون: إعلام الوَرَى، ص119. ص123.

(2) المقريزي: السلوك، ج7، ص41.

. Lapidus : Muslim cities,p.153-154(3)

إبراهيم زعرور: المرجع السابق، ص139.هند أبو الشعر:المرجع السابق،ص190.

(4) ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص202، ص524. هند أبو الشعر: المرجع السابق، ص183.

(5) المصدر نفسه، ج1، ص275. ابن طولون: مفاكهة، ق1، ص182. إيرا لابدوس: المرجع السابق، ص258.

(6) أكرم العلبي: المرجع السابق، ص102.

(7) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص182. ابن طولون: إعلام الوَرَى، ص121.

(8) المصدر نفسه، ق1، ص267.

قلبه من أحد شيء إما يقتله أو يغريهم ويعطيهم دراهم فيقتلونه، ويحتجون بأنه عواني (جاسوس) فحصل بذلك فساد كثير.(1)

شكل الزعر في حارات الشام سلطة كبيرة، فهم الذين كانوا يثيرون المشاكل بين الحارات ففي سنة 903هـ/1498م ثارت زعر ميدان الحصى ضد زعر أهل الشاغور،وارتجف الناس فوق ما هم فيه من الخوف من الوباء، وقلة الحكام، وكثرة الظلم.(2) وكان كل زعر حارة يستعرضون قوتهم أمام الآخرين بصفوف مشاة عسكرية، فأثناء عرض مشاة أهل الشاغور، مروا على حارة المزابل، فتقاتل زعر الحارتين، فقتل نحو عشرة، وجرح جماعات، وغلقت الأسواق.(3)

لقد شكلت ظاهرة الزعر قلقاً ومخاوف دائمة في مجتمع الشام، وتجاوزت دمشق إلى جوارها وقد حاولت السلطة اجتذابهم وتوظيف طاقاتهم، فكان بعضهم من المشاة مع الحكام، يسيرون في المناسبات بملابسهم الرسمية.(4) ويلخص لابيدوس سبب ظهورهذه الظاهرة نتيجة التدهور الاقتصادي والتفسخ السياسي. ففي زمن المحنة والعوز يزداد عدد العاطلين عن العمل والمعدمين، فتتضخم الطبقات الاجتماعية المؤلفة من الأعضاء الذين يعيشون على هامش المجتمع.(5)

ومن الفئات العامة الأخرى التي ذكرت في بلاد الشام، صغار الكسبة والباعة وأصحاب الحرف والمهن من خياطين وأساكفة، والعمال وصغار الموظفين ومعدومي الحال.(6) وهذه العناصر كانت تشكل وجهاً من أوجه النشاط الاجتماعي المحلي.(7)

---

(1) ابن طولون: مفاكهة الخلان ، ق1، ص148.

(2) ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص441.

(3) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص79.

(4) هند أبو الشعر: المرجع السابق، ص193.

(5) إيرا لابدوس: المرجع السابق، ص258-259.

(6) هند أبو الشعر: المرجع السابق، ص194-202.

(7) أحمد العنزي: المرجع السابق، ص128.

وهذه الفئات الأكثر تأثراً بظاهرة الغلاء واضطراب حال النقد. وكان بعض السلاطين يستعملون إزاءها بعض العوامل المسكتة، فيوزعون الصدقات أو يرسمون أن يتكفل كل أمير بعدد من الفقراء.(1) وقد تركزت أكثر المهن والحرف في نيابة حلب في يد التركمان واليهود والنصارى، وقد تخصصت كل حارة من حارتها بحرفة معينة.(2) ويذكر أن تيمور لنك بعد خروجه من حلب أخذ معه كثيراً من أصحاب الحرف والمهن من بلاد الشام، بسبب جودة أعمالهم ليستفيد منهم في بلاده.(3)

5. المرأة في مجتمع بلاد الشام:

أخذت المرأة مكانتها في دولة المماليك الثانية، ونالت قسطاً وافراً من الإجلال والتقدير والاحترام في طبقة المماليك. وسائر طبقات المجتمع وفئاته، فقد خصصت لنساء الطبقة الحاكمة الألقاب العديدة مثل خاتون* وخوند*1 والست والكريم (4) وعلى لقب الجليلة بين العامة. (5)

وقد استطاعت المرأة في هذا العصر المساهمة في الحياة العامة، والمشاركة الفعالة في الحياة العلمية والدينية، وكذلك كان لها نفوذ في شؤون

---

(1) إحسان عباس: المرجع السابق، ص156.

(2) ابن الشحنة: المصدر السابق، ص87-89. الغزي، كامل: المصدر السابق،ج1، ص105-109.

Ziadeh ; Urban life,p.99

(3) ابن إياس: المصدر السابق،ج1، ق2، ص599.

Ashtore ; A social and Economic History, p.307

الغزي، كامل: المصدر السابق، ج1، ص197. زياد المدني: المرجع السابق، ص149. فايزة عبد الرحمن حجازي: أهل الذمة في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، رسالة ماجستير،جامعة اليرموك، الأردن، 1992م. ص109.

(4) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج3، ص275. مبارك الطراونه: الحياة الاجتماعية في بلاد الشام، ص301.

*الخاتون: لفظ تركي معناه السيدة دخل العالم الإسلامي عن طريق الأتراك. حسن الباشا: المرجع السابق،ص264، 265.

*1.خوند: لفظ فارسي عرفته اللغة التركية، وهو لقب عام بمعنى السيدة أو الأميرة. المقريزي: الخطط، ج2، ص503. ابن شاهين، غرس الدين:زبدة كشف الممالك، ص121. محمد أحمد دهمان: المرجع السابق، ص70. حسن الباشا: المرجع السابق، ص280.

(5) الذهبي: العبر في خبر من عبر، ج4، ص19.

الحكم والسياسة.(1) ففي حوادث الزمان لابن الحمصي أن: سارة بنت عمر أجاز لها جماعة بمشيختها، وأن سارة بنت شرف الدين الشيخة المُسندة، كانت من خيار نساء زمانها عقلاً وديناً وأصالة، وكانت كل من كمالية الهاشمية وفاطمة الحرستاني شيخات مُسندات، وتفردت أسماء بنت المهراني بدمشق عن جماعة من الشيوخ.(2) وأرّخ ابن طوق لظاهرة تزايد عدد النساء في جامع منجك والاقصاب، في ليالي ختمة السيرة.(3)

وذُكِرَ أن برسباي البجاسي نائب الشام سنة 868هـ/ 1464م قد غَلبَ أمرَ زوجته عليه وقهرته، وكان يقضي غالب أوقاته بعيداً عنها بالإصطبل.(4) وتولى بردبك الظاهري نيابة الشام سنة 873هـ/ 1469م بشفاعة زوجته، وقد منع بردبك النساء من دخول الجامع الأموي في نيابته الأولى.(5) وسافرت أم القاضي الشافعي الفرفوري إلى مصر لتشفع في ولدها المسجون في دمشق، وقد نجحت في مهمتها تلك، ولبس خلعة الرضى عليه من المقام الشريف.(6) وشاركت نساء أهل الشاغور سنة 890هـ/1485م برمي الحجارة من على أسطح المنازل لصد نائب الغيبة والعسكر أثناء مهاجمتهم لأهل الشاغور (7)

ومما يدلل على مكانة المرأة في مجتمع بلاد الشام ما يُذكرعن قدوم زوجة نائب حلب إلى دمشق أثناء توجهها إلى للحج سنة 892هـ/1487م حيثُ كانت في تجمل عظيم، وثقل كبير، ومحفة حافلة.(8) وعندما عادت زوجة نائب الشام سيباي من الحج

---

(1) فايزة محمود أحمد الزعبي: مراسيم الزواج في مصر والشام(من العصر الفاطمي حتى نهاية عصر دولة المماليك) رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، 2003م. ص71.

(2) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج1، ص101، 140، 158، 159، 192.

(3) ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص395. هند أبو الشعر: المرجع السابق، ص228.

(4) ابن طولون:إعلام الوَرَى، ص84.

(5) المصدر نفسه، ص85، ص88.

(6) ابن طولون:مفاكهة، ق1، ص314. أكرم العلبي:المرجع السابق، ص116.

(7) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج1، ص300.

(8) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص68، 69.

سنة 920هـ/1514م دخلت دمشق في موكب عظيم فرشت لها الشقق الحرير، ونثرت عليها الدراهم من المباشرين. وكثير من النساء كُرّمن بعد وفاتهن ففي عام 919هـ/ 1513م، توفيت والدة نائب الشام، وحضر جنازتها القضاة الأربعة، وأعيان الشام ، وكان لها يوم مشهود. وفي السنة التالية ماتت ابنته ستيتة بالطاعون، فقفلت لها أسواق البلد ثلاثة أيام.(1)

وكان مهرُ المرأة دليلاً على مكانتها في المجتمع فقد بلغ صداق ابنة سيباي نائب الشام عشرة آلاف دينار،وبلغ صداق ابنة القاضي محب الدين ناظر الجيش في الشام ستمائة أشرفي.(2) وحكي عن جهاز عرس ابنة تاج الدين أمير التركمان على ولد ناظر الجيش في الشام أشياء خارقة للعادة.(3)

وعلى ما يبدو أن النساء كن يمارسن حرية مقبولة في المجتمع الشامي فقد ذكر ابن طوق أن ثلاث نساء، منهن اثنتان راكبتان على فرس ومكاري يقود بهما، وواحدة تسير على قدميها أردن الدخول إلى الجنينة، وكانت واحدة منهن بنت القاضي بدر الدين ابن قاضي شهبة. وسافرت زوجة القاضي شرف الدين ابن عيد للقاهرة. ودّعها القاضي ابن القصيف، راكباً أمام محملها، إلى خارج البلد، كما تُودّع الرجال. (4) وكانت المرأة تخرج إلى الأسواق للشراء والبيع، سواء كان لنفسها أو لزوجها، وكثيراً ما ارتادت النساء أسواق الملابس لشراء ما يلزم لأفراد الأسرة من ملابس بما في ذلك الزوج.(5)

---

(1) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج3، ص247، 257، 259، 260، 261، 275.

(2) المصدر نفسه، ج3، ص260-261، 275.

(3) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص303.

(4) ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص44، ص494.

(5) عبد الجبارأحمد محمد العملة: نيابة دمشق الشام في عهد الأمير تنكز الحسامي الناصري ،(712-740هـ/1312-1340م. رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2000م. ص387-388.

ويسمى لباس المرأة هطلة، وله ذيل طويل ينسدل على الأرض، وأكمام يبلغ اتساعها ثلاثة أذرع، وكانت دائماً تصدر مراسيم لمنع هذا النوع من اللباس، وتقوم المرأة بلف جسمها بملاءة متسعة فضفاضة يطلق عليها اسم الإزار، وكان لباس الرأس العصابة، حيث تلف كالعمامة حول جزء من الإزار الذي يغطي الشعر، وتكون العصابة مزينة بزخارف جميلة ومطرزة ومحلاة بالأحجار الكريمة.(1)

وكان لبعض النساء مهن معروفة ومطلوبة، مثل الداية والخاطبة والماشطة والخيّاطة والدّلالة في سوق الجواري وصاحبة الحمّام، فقد تسلمت فاطمة التركمانية حمام برهان الدين وأدارته، وعرفت باسم فاطمة الحمامية ، وعملت إحداهن ناسخة، وكان في السوق بائعة تركية تبيع مع الرجال.(2)

مظاهر الحياة الاجتماعية في بلاد الشام.

1. احتفالات المجتمع الشامي.

كانت النيابات الشامية أيام دولة المماليك البرجية زاخرة بالنشاطات الاجتماعية المتنوعة، وكثرت فيها الاحتفالات المدنية والدينية وذلك للتعبير عن مظاهر البهجة والسرور، ويرمز الاحتفال إلى تأييد للحدث والموافقة عليه. وأبرز هذه الاحتفالات:

أ.المواكب والاحتفالات الرسمية:

لايدخل السلطان أبداً مدينة من مدن البلاد الشامية بأبهة السلطنة إلا دمشق وحلب، وباقي البلاد يدخلها على عادة سفر إلا الملك المؤيد شيخ، فإنه سافر إلى البلاد الشامية سنة 836هـ/ 1432م، في واقعة نوروز الحافظي وعمل بحماة الموكب السلطاني ودخلها بأبهة السلطنة، وحمل على رأسه القبةَ والطيرَ الأميرُ الكبير، استقلالاً بنائبها،

---

(1) المقريزي: السلوك، ج5، ص312. ماير، ل، أ: الملابس الإسلامية، ترجمة صالح الشيتي، مراجعة وتقديم عبد الرحمن فهمي الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1972م. ص123-132.

(2) هند أبو الشعر: المرجع السابق، ص230، 231.

فإنه لا يحمل القبةَ والطيرَ على رأس السلطان إلا أحد هولاء الأربعة: الأمير الكبير، أو ابن السلطان، أو نائب الشام، أو نائب حلب.(1) وقد اعطتنا المصادر صورة كاملة عن الموكب السلطاني لقانصوة الغوري القادم للشام سنة 922هـ/1516م. فأول مدن الشام التي يدخلها السلطان غَزّة ويعد فيها له مدة حافلة، ثم يَشقّ مدينة غزة في موكب حافل، أمامة الخليفة* والقضاة الأربعة.(2) وعند وصول السلطان إلى قاقون أو قلنسوة(3) من أرض فلسطين يستقبله نائب الشام وأركان الدولة، ثم يلبس ملك الأمراء(النائب) ومن معه الكلوتات -السراويل الداخلية- والقماش على العادة في المواكب، فحين يراهم السلطان في الطريق، ينزل ويضرب له سحابة- خيمة كبيرة-، ويفرش له بساط، يوضع عليه كرسي من فولاذ يجلس عليه السلطان.(4) ثم أذن لوفد الشام، فجاؤوا وقبلوا الأرض، الأول فالأول، ولم يقم لأحد حتى جاء القضاة الأربعة فقام لهم نصف وقفة فلما جاء نائب الشام قام له وسلمّ عليه وشكر له حضوره، ثم أمرالسلطان بتهيئة الطعام.(5) وبعد الانتهاء من الطعام أمر بالخِلَع على نائب الشام والقضاة الأربعة، ثم عادوا إلى دمشق وهم لابسون الخلع، وكان لهم نهار مشهود. فزينت البلد بدخول موكبهم، وشرع النائب في تهيئة المُدّة للسلطان. (6)

وعند دخول السلطان دمشق، استقبله نائب الشام سيباي، ودخل في موكب حافل وعسكر بالشاش والقماش، وأمامه الخليفة والقضاة وسائر الأمراء، واستقبله أمراء الشام وعساكرها، وحمل على رأسه نائبُ الشام القبةَ*1 والجلالةَ حسب العادة، فزُينت

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج14، ص209.

*.هو الخليفة المتوكل على الله محمد بن أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب. ابن إياس: المصدر السابق، ج5، ص3.

(2) ابن إياس: المصدر السابق، ج5، ص51.

(3) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج3، ص282. ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق2، ص325.

(4) المصدر نفسه، ج2، ص383. محمد دهمان:معجم الألفاظ التاريخية، ص89، ص131.

(5) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق2، ص324.

(6) ابن الحمصي: المصدر السابق،ج2، ص282، 283. ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق2، ص325.

*1.مظلة أقماشها من الحرير المزركش والمموه بخيوط من الذهب وهي من خضائص السلاطين.محمد دهمان: معجم الألفاظ، ص121.

له مدينة دمشق زينة حافلة سبعة أيام، وَدُقّتْ له البشائر بقلعة دمشق، ونُثر على رأسه ذهبٌ وفضة، وفرش له تحت حافر فرسه الشقق* والحرير فتزاحمت عليه المماليك والناس. وعُدّ هذا الموكب من المواكب المشهودة في تاريخ بلاد الشام.(1)

أما الهدايا التي قدمت للسلطان بهذه المناسبة من نائب الشام فهي، أربعة عشر سدراً، على رأس كل رجل سدرٌ مغطّى بلون من الألوان، في أربعة سدور فيها خمسون ألف درهم فضة، وفي بقية السدورقماش مفتخر، بالإضافة إلى العشرات من المماليك الحسان، والعشرات من الخيول الخاصة.(2)

وعند مغادرة السلطان الشام رافقه ناظر الجيش بدمشق، وناظر القلعة، ثم لحق به النائب والقضاة الأربعة بموكب عظيم حتى نزل القابون ثم رجعوا.(3) ثم رحل موكب السلطان إلى حمص، ثم حماة وكان في استقباله نائبها جان بردي الغزالي، ومد له هناك حافلة أعظم من مدة نائب الشام. وعند وصوله إلى حلب كان يوماً مشهودا، كموكبه بالشام.(4)

وقد وصف المؤرخ ابن اياس موكب السلطان من خروجه من مصرحتى وصل حلب بقصيدة جميلة أذكر منها:

عاينته يوماً مضى في موكبٍ	يزهو على برقوق زهو الأشرف
رَكِبَ الخليفةُ والقضـــاةُ أمامه	وجيـوشـه مــن حــوله بالمرهف
في غزةٍ قـد كـــان يوم دخوله	يوم الخميـــس بعسـكرٍ متـرادف
قالـــت دمشـــقٌ فرحةً لما أتى	أهلا بمــن بين الرعـــاية منصفي

---

*.قماش مبطن من الصوف بشعردقيق وناعم. محمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص99.

(1) ابن إياس: المصدر السابق، ج5، ص53. ابن كنان: حدائق الياسمين، ص186.

(2) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق2، ص329. المصدر نفسه، ص191.

(3) المصدر نفسه، ق2، ص332.

(4) ابن إياس: المصدر السابق، ج5، ص54، ص60.

وحمـــاةُ أحمـــاها بصالح عدله فأطـاعـه العاصي بغـير توقـف

واستأنست حلب به مذ زارها واستــوحشــت مصرٌ له بتكلفـ(1)

وينادى بالزينة، وتستمر البشائر في نيابات الشام سبعة أيام أيضاً عندما **يتولى سلطان جديد،** فعندما تقلد السلطنة محمد ابن السلطان قاتيباي ولقب بالناصر سنة 901هـ/ 1496م، دقت البشائر بالشام، ونودي بالزينة كالعادة.(2) وفرح أهل الشام فرحاً كبيراً وكثر الدعاء للسلطان العادل سنة 906هـ/ 1501عند مبايعتهم له.(3)

وتقام الاحتفالات الرسمية والمواكب كذلك، وتُدق البشائر في نيابات الشام، وتزين المدن في حالة تعين **نائب جديد.** فعند قدوم النائب يخرج إلى استقباله القضاة وجميع الجيش وأرباب المناصب وطوائف المشايخ وأهل الحارات متجملين، فإذا وصل إلى باب القلعة نزل عن فرسه، ونزل لنزوله حاجب الحجّاب، ويتقدم إليه نائب القلعة ومتولي الحجر والنقيب فنزعوا سيفه. فيصلي ركعتين، ثم يقدم إليه العَلم السلطاني فيقبّله ويقبلّ الأرض، ثم يركب ويدخل دار النيابة فيقرأ تقليده.(4) ففي سنة 912هـ/ 1506م، وصل من مصر النائب الجديد سيباي، ونزل تجاه قبة من جهة الغرب، ونودي بالزينة بدمشق وحاراتها، وهرع الأكابر للسلام عليه، ثم لبس على مصطبة القبق خلعته، وهي بطراز مذهب، ودخل دمشق، وتلقاه أرباب الوظائف على العادة، ودخل الشام مدخلاً حسناً.(5)وتقام الاحتفالات كذلك عندما ترسل **خلعة لنائب الشام ونائب القلعة** من مصر يستقبلها خارج النيابة، ثم يدخل بموكب عسكري لابساً الخلعة الخضراء أو الحمراء.(6)

---

(1) ابن إياس: المصدر السابق، ج5، ص61-62.

(2) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص137.

(3) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج2، ص107. ابن طولون: إعلام الوَرَى،ج1، ص135، 136.

(4) ابن الشحنة: المصدر السابق، ص258.

(5) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص244، 245 ، 272.

(6) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج3، ص214.

ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص212، 216، 231، 236، 245، 270، 271.

ففي سنة 904هـ/1498م، جاء مبشر من مصر بخروج خلعة النائب الجديد كرتباي الأحمر.(1) فطاف على القضاة والأمراء، وأخذ من بشارته مالاً كثيراً، ودقت البشائر، فخرج أرباب الدولة، والقضاة الأربعة، والنائب، والعبيد البارونية مشاة بين يديه، والقلعية قبلهم، والحرافيش قبلهم، ولبس من قبة يلبغا على العادة، ودخل في أبهة حافلة، وعليه خلعة خضراء بسمور خاص، بشاش بطراز خاص، وأمامه خاصكي*.

بخلعة بطراز.(2) وتدق البشائر وترفع الزينة عند خروج النائب **لتأديب العربان،** فقد سافر النائب سبيباي والعسكرإلى عرب آل علي، وعرب الجبل سنة 917هـ/1509م، لتأديبهم، ففرح الناس لنصرته عليهم.(3) ونودي بزينة دمشق سبعة أيام بمناسبة **شفاء نائب** الشام من كسر في يده وكتفه في هذه السنة.(4)

وتقام الأفراح أيضاً عندا **ستقبال الوفود أو وداعهم** من خارج السلطنة، فعندما دخل إلى دمشق وزير الملك محمد بن عثمان، وصحبته ملكة في ثقل كبير، قاصداً الحج، تلقاه أرباب الدولة: النائب، فمن دونه، ومشاه دمشق، وزعرها، فدخل من المصطبة في أبهة حافلة.(5)

ومن الاحتفالات الرسمية أيضاً**عرض العساكر الشامية،** وكل من لا يخرج يؤخذ إقطاعه. ويحتفلون أيضاًفي لبس **القضاة خلعهم:** الشافعي بصوف أبيض، والمالكي بالأخضر، والحنفي والحنبلي بالأحمر. (6)

---

(1) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج2، ص51.

*. لفظ مملوكي جمع مفرده الخاصكي، وهم نوع من المماليك السلطانية يختارهم السلطان من المماليك الأجلاب الذين دخلوا في خدمته صغاراً. محمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص66.

(2) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص172.

(3) المصدر نفسه،ق1، ص271، ص291.

(4) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج3، ص218. ابن طولون: مفاكهة، ق1، ص212.

(5) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص103، 116، 117، 173.

(6) المصدر نفسه، ق1، ص 181 ، ص233. ، ق2، ص325

ب.المناسبات والاحتفالات العامة.

شهدت نيابات الشام احتفالات متعددة المناسبات في العصر المملوكي الثاني، منها :احتفالات حلول شهررمضان.(1) والعيدين **الفطر والأضحى**. فإذا ثبت رؤية هلال رمضان، تهيأ الناس بالشام للصوم، وعملوا الأقراص المشبك والبسيس، وغير ذلك، وعلقت القناديل بعد المغرب.(2)

أما يوم العيد إذا كان السلطان متواجداً في إحدى نيابات الشام كما حصل عام 796هـ/ 1394م، في عيد الفطر، صلى السلطان بالميدان وخطب به قاضي مصر، ثم قدّم الخلع للقضاة والأمراء والمباشرين، ثم يحمل القبة نائب الشام.(3) وهكذا يعمل نواب الشام يوم العيد سواء في عيد الفطر أو الأضحى.(4) ويستعد الناس لعيد الفطر والأضحى، ويسهرون ليلة العيد حتى ساعة متأخرة من الليل في شراء وأعداد الملابس والزخارف والكعك والحلويات، وفي صباح عيد الفطر بعد تادية الصلاة تذهب العامة إلى المقابر أو التنزه.(5) وكانت الاحتفالات في موسم العيد الكبير تتم بعد صلاة القاضي الكبير، بدخول الحرافيش* معه بالاعلام ومعه الفقراء، وكانوا يدقون على على بابه بالطبلخانه والمغاني والدفوف.(6) وغالباً ماكان الناس يتهادون الأضحيات في عيد الأضحى المبارك، وخاصة ذوو اليسار، الذين يهدون الأضحيات لأبناء العائلة والعمومة والجيران.(7)

---

(1) المقريزي: السلوك،ج5، ص358.

(2) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج2، ص42.ابن طولون:مفاكهة الخلان، ق1، ص107.

(3) ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، ج3، ص518.ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص514.

(4) ابن طولون: إعلام الوَرَى، ص117.

(5) مفيد الزيدي: المرجع السابق، ص226، 227.

*. طائفة كبيرة أهل صلابة وجاه ، وهم أحط طبقات الشعب. إحسان عباس: المرجع السابق، ص محمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص60، ص61.154

(6) ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص442. هند أبو الشعر: المرجع السابق، ص224.

(7) هند أبو الشعر: المرجع السابق، ص224.

ومن المناسبات الأخرى التي يحتفل بها أهل الشام **المولد النبوي** الشريف، والذي يكون في شهر ربيع الأول، ويحرص كل من السلطان والعامة على الاحتفال به.(1) حيث تزين المدن، وتقاد القناديل، وتوزع الحلوى، ويحضر النائب والأعيان والقضاة إلى الجامع لحضور هذه المناسبة.(2)

فقد عمل نائب الشام قصروه مولداً سنة 905هـ/ 1499م بالإصطبل في العمارة التي جددها جان بلاط وحضر الأكابر هذا المولد.(3) وكان يقع في هذه المناسبة في بعض الأحيان سلوكيات غير ملائمة كالضرب بالأحجار، والرمي من الأطباق بالطين والزيت والقاذورات، والتي منعها السلاطين.(4)

ويُحتفل كذلك يوم **عاشوراء،** فيوسع القادرون فيه على الأهل، والأقارب واليتامى والمساكين، ويطبخ فيه الحبوب ويذبح الدجاج، وتتم فيه زيارة القبور وإطلاق البخور.(5) ويلبس في هذا اليوم نائب الشام خلعة خضراء بطراز خاص ويكون يوماً حافلاً.(6) وتقوم طائفة الشيعة بعزاء الحسين في هذا اليوم، بالبكاء والنحيب والعويل وإدماء الوجوه.(7)

أما الإحتفال برأس **السنة الهجرية،** فيكون في أول ليلة من ليالي شهر المحرم، يطلع الخليفة والقضاة الأربعة إلى القلعة ليهنئوا السلطان بالعام الجديد، ويمنح الأخير الأرزاق والمنح لأرباب الرواتب.(8) وفي نيابات الشام يخرج النائب في موكب ومعه

---

(1) ابن حجر: إنباءُ الغُمر، ج2، ص449. ابن إياس: المصدر السابق، ج4، ص20. فريال بدوي: المرجع السابق ص332.

(2) بوران طاهر فريد لبنية: المرجع السابق، ص142.

(3) ابن طولون: إعلام الوَرَى، ص130.

(4) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج2، ص86، 159، 160.

(5) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص333. قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص293.

(6) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص84، ص164.

(7) ابن طولون: إعلام الوَرَى، ص157. مبارك الطراونه : الحياة الاجتماعية في بلاد الشام، ص240.

(8) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج2، ص62. مفيد الزيدي: المرجع السابق، ص224.

الأمراء بزيهم الفاخر، ويقدم في هذه الليلة العديد من أنواع الطعام والحلوى، وتوزع على عامة الأهالي.(1) ومن المناسبات المهمة التي يحتفى بها، **ختن الأولاد، فقد أجمعت** مختلف فئات المجتمع الإسلامي في بلاد الشام على الاحتفال بختان الطفل احتفالاً كبيراً.(2) فإذا كان الختان لابن السلطان ختن معه أولاد الأمراء والأعيان الذين مات آباؤهم، فقد خُتِن ابنان لنائب حلب مع ختان الناصري محمد ابن السلطان سنة 895هـ/ 1490م، وقد امتلأ الطشت ذهباً مصروراً، مكتوب على كل صرة اسم صاحبها وكميتها، وفرق بهذه المناسبة على كل يتيم بمكاتب السبل درهم فضة، وأطعموا وأكرموا.(3) وعندما خَتن نائب الشام سيباي ولده وولد ابنته أشهرهما بالفرح في دمشق.(4) وأقام القاضي محب الدين ابن سالم وليمة طهور ابنه وابن بنته وولدي اختي زوجته، فحضره القضاة الأربع وجمعاً كثيراً من الناس. وأحرقوا باروداً كثيراً.(5)

وكانت تقام في دمشق احتفالية سنوية بختن الأيتام، وعادة ما تقام في المدارس، وبحضور جمع كبير يصل إلى مائة وأربعين نفس، وكان يقدم للأيتام الأطعمة الحلوة، والأطعمة المشمشية والأرز الحلو، ويسقونهم السكر والسويق، ويدخلون الحمام، ويأكلون ويشربون ثم يزفوا إلى الختن.(6)

أما **حفلات الزواج** فهي ذات أهمية كبيرة سواء للسلطة الحاكمة أو العامة في بلاد الشام، وجرت العادة أن أفراد طبقة المماليك لايصاهرون إلا بعضهم، واعتادت هذه الطبقة أن تدفع مبالغ باهظة من الصداق.(7) ففي عام 905هـ/ 1499م نقل جهاز خوند

(1) إيمان بنت عبد الحليم: المرجع السابق، ص308.

(2) مبارك الطراونة: الحياة الاجتماعية في بلاد الشام، ص339.

(3) السخاوي: وجيزالكلام، ج3، ص1134.

(4) ابن طولون: إعلام الوَرَى، ص193. ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص235.

(5) ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص153.

(6) المصدر نفسه، ج1، ص158، 248.

(7) فريال بدوي: المرجع السابق، ص321.

أم الملك الناصر وأخت الظاهرمن القلعة إلى اليزبكية، وكان عدة الأقفاص والبغال سبعماية مابين مخاد ومقاعد وذهب ولولو وعنبر وتحف وصناديق مذهبة وأواني ذهب وفضة، ومحفة زركش. ومشى فيها الأمراء والمباشرون والطواشية، وكان فيه من التحف ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت.(1) وبعد أربعة أيام من العرس نزلت العروس من القلعة في محفة مزركشة كما سلف وامامها الخوندات والنساء على الحمير المهارية، وجمع من الناس، والمغاني أمام الجميع ولما وصلت إلى باب البيت الكبير في الأزبكية، فرشت لها الشقق الحرير تحت حوافر بغال المحفة، ونثرت على رأسها الذهب والفضة.(2) ولما عقد نائب الشام نكاحه على بختباي، حضره القضاة الأربعة والأمراء، وحضر القرّاء والوعاظ، وكان نهاراً مشهودا.(3)

وتتفاوت المهور حسب الحالة المالية للزوج ومكانته في المجتمع الشامي.(4) فقد بلغ صداق ابن قانصوة الغوري على ابنة نائب الشام سيباي عشرة آلاف دينار. وزين له مدينة دمشق وأبوابها.(5) وكتب كتاب بنت شمس الدين محمد الخطيب، سبط الشيخ برهان الدين الباعوني، من بنت ابن زهرة علاء الدين التاجر، على ابن أخي القاضي شهاب الدين ابن الفرفور الشافعي. على صداق جملته 300 أشرفية، كسوة في السنة 53 أشرفية ذهب.(6) ومن عادات أهل الشام أن يتولى الأهل تجهيز بناتهم في حالة غناهم، وإذا تعذر عليهم ذلك تتولى الأوقاف تجهيز البنات إلى أزواجهن.(7) والعادة أن أم العريس هي التي تختار الزوجة لابنها، وأن لايرى العريس عروسه إلا ليلة زفافه.

(1) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج2، ص93.

(2) ابن إياس: المصدر السابق ج3، ص429..

(3) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج3، ص257، 258.

(4) أكرم العلبي: المرجع السابق، ص114. مبارك الطراونه: الحياة الاجتماعية في بلاد الشام، ص328.

(5) ابن إياس: المصدر السابق، ج4، ص379. ابن الحمصي: المصدر السابق، ج3، ص260، 261.

(6) ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص379.

(7) ابن بطوطة: المصدر السابق، ج1، ص330.

ومراسم الخطبة وعقد القران تأتي مقدمة للاحتفال الكبير يوم العرس.(1) وفي ليلة الزفاف تقام الولائم، ويدعى لهذه الولائم الحكام والأمراء والأقرباء، وذلك بحسب حالة الزوجين ومنزلتهما.(2) وتستقدم المغنيات في أفراح الزواج مقابل مبلغ معين من المال، ويحرقون في هذه الليلة كذلك الالعاب النارية.(3) وكثيراً ما يتباهى المدعون والمدعوات بالمبالغة في تقديم النقوط إلى المغاني. وبعد انقضاء وليمة الطعام يتوجه العريس إلى الحمام بصحبة جمع من أهل العريس في موكب كبير، وخلال مسيرهم إلى الحمام يقدمون وصلات من اللهو واللعب.(4) وكذلك الأمر تكون العروس قد توجهت إلى الحمام، وخضبت نفسها بالحناء وتزينت ولبست أجمل الثياب وتحلت بالذهب والزينة. وبعد مضي خمسة عشر يوماً من ليلة القران يولم الزوج وليمة حافلة يدعو إليها أهل زوجته، ويقال لهذه الوليمة عزيمة الخامس عشر.(5)

أما الزواج من الجواري اللواتي يتم شراؤهن من السوق كان عادياً، وتقام له الولائم والاعراس كما تقدم إلى الأحرار من النساء ولأنّ شهادة العتق هي الفيصل كان يحق للجارية التي تتزوج، أن تشتري لنفسها جارية.(6)

ولم تقتصر المناسبات والاحتفالات والأفراح في المجتمع الشامي على تلك، بل وجد خميس البيض وعيد الزبيب وعيد النصارى.(7)

---

(1) ابراهيم زعرور: المرجع السابق، ص181.

Granavist : Marriage conditions in Palestinian village,p47

(2) .ابن تغري بردي: حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق، محمد كمال الدين عز الدين،2ج، ط1، عالم الكتب، 1410هـ/1990م. ج1، ص102. ابن طوق: المصدر السابق، ج1،ص186. أكرم العلبي: المرجع السابق، ص112.

(3) الغزي، كامل: المصدر السابق،ج1، ص250، ص253.حسام الناطور: دولة المماليك في عهد الظاهر برقوق، ص296.

(4) المصدر نفسه، ج1، ص254. فريال بدوي: المرجع السابق، ص325.

(5) المصدر نفسه، ج1، ص255. ابراهيم زعرور: المرجع السابق، ص185.

(6) هند أبو الشعر: المرجع السابق، ص107.

(7) ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص50، ص79، ص351.

2.مجتمع الحارات الشامية.

قُسّمت المدن في بلاد الشام إلى مناطق سميت حارات ومحلات أو أختات. وكانت هذه الحارات أحياء سكنية ذات أسواق محلية، غير أنها منعزلة على نحو مميز عن النشاط الصاخب للأسواق الشعبية الرئيسة القائمة في وسط المدينة. وكان حجم الأحياء في دمشق وحلب بحجم القرى الصغيرة تقريباً.(1) وتكون أبنية الحارات متلاصقة، وتنعدم في بيوتها النوافذ والشرفات وقد يكون مرد ذلك إلى نظرية الحلال والحرام في الإسلام التي تدعو إلى التستر والاحتشام،وللحارة باب خارجي مشترك يقفل في المساء وأيام الاضطرابات، ويتوسطه باب صغير يعبر منه سكان الحارة كل إلى داره.(2) ويكون بناء المنازل داخل حارات الشام من حجارة بسيطة من وجه الأرض إلى ما فوقه بثلاث أو أربع أذرع وما فوق ذلك لبن أو لبن وخشب مُغطى بطين أحمر أو شيد، وأما من داخلها فهي دور فسيحة مزخرفة بأنواع الزخارف والنقوش، وفي صحنها بركة ماء محفوفة بالأشجار والنباتات العطرية.(3) ولكل حارة مصدر للمياه الذي تستقي منه، من الاقنية أو الأنهر،ولها أبوابها ومعتبروها وواليها، ولها مرافقها التي تخدمها مثل الجوامع والأسواق والمقابر والبساتين وأدى هذا الأمر أحياناً إلى الخلافات التقليدية بين الحارات على اقتسام مصادر المياه أو الخلافات بين الأهالي.(4)

وللحارة جيشها المؤلف من الأحداث، وهم جنود الحرف، أما سكان الحارة فيتألفون على الغالب من أرباب المنطقة الواحدة كما نرى في حارة الحوارنة مثلاً، أو

---

(1) إيرا لابدوس: المرجع السابق، ص146.

(2). انطوان ضومط : المرجع السابق، ص390.

(3) نعمان قساطلي: الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، ط2، دار الرائد العربي، بيروت، 1982م. ص95.أحمد غسان سبانو: دمشق في دوائر المعارف العربية والعلمية، دار الكتاب العربي، سورية، ص124، 125. ميادة عبد الملك محمد صبري: تخطيط وعمارة المدينة الإسلامية مدينة دمشق القديمة نموذج حضري لقمة التعايش، والتعامل في المنظور الإسلامي مجلة كلية التربية، واسط، العراق، العدد11. ص18.

(4) هند أبو الشعر: المرجع السابق، ص36، 37. ميادة عبد الملك: البحث السابق، ص17.

من ذوي الدين الواحد، أو من أبناء القبيلة أو الأسرة الواحدة.ولا يندر أن يكون سكان الحارة معادين بل محاربين سكان الحارة المجاورة.(1) ويترأس الحارات في مدن الشام شيوخ أو عرفاء.(2) يعينهم نائب السلطان في النيابة، من أجل حسن سير الأعمال بالحارة كحفظ النظام، وتمثيل الحارة في المناسبات العامة التي تقتضيها الدواعي السياسية والاجتماعية، ومساعدة الشرطة في تنفيذ مهامها، أو تولي هذه المهام بنفسه، كجمع الضرائب .(3) ففي سنة 893هـ/ 1487م، شرع النائب في استحضار عرفاء الحارات لأجل استخلاص مال من الناس، وحذرهم بأن لا يحابي عرفاء الحارات أحداً من الناس.(4) وشكلت حارات الشام مركز القوى الشعبية، وكان لكل حارة متنفذوها وقواها التي تحركها، مما أدى إلى منافسات وصراعات أحياناً بين الحارات، ففي سنة 893هـ/1487م، بلغ عدد القتلى من حارة أهل الشاغور وحارة المزابل نحو العشرة، وجرح جماعات.(5)

وفي بعض الأحيان يحصل قتال بين بعض الحارات وبين النائب.(6) ففي سنة 898هـ/ 1492م ضرب قانصوه اليحاوي نائب الشام رقبة شيخ الحارة وشيخ الجيدور بدمشق، بسبب قتله مماليك النائب وكسرعسكره مراراً.(7) وقيام نائب حلب سنة 899هـ/1493م، بحرق حارة الحوارنة ونهبها، وقتل الكثير منهم. بسبب قتلهم استادار نائب حلب.(8) وترتب على خلافات السلطة خلافات بين حارات الشام كذلك، ففي سنة

(1) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج1، ص301. ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص182. جان سوفاجيه: دمشق الشام لمحة تاريخية منذ العصور القديمة حتى الوقت الحاضر، مجلة المشرق، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1939م. ص29.

(2) ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص504. ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص267.

(3) انطوان ضومط :المرجع السابق، ص390.

(4) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص76. إعلام الوَرَى، ص100.

(5) المصدر نفسه،ق1، ص79. ص150، ص151.

(6) ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص488، ص489.

(7) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج1، ص343.

(8) المصدر نفسه، ج1، ص359.

903هـ/1497م هاجم نائب حلب آقبردي الشام، فوقف إلى جانبه كل من حارة القبيبات، وحارة ميدان الحصى، في الوقت الذي وقفت فيه حارة أهل الشاغورإلى جانب نائب الشام كرتباي الأحمروكسروا عسكره مرات، وقطعوا رؤوس مماليكه، ثم هاجموا ممتلكات وأموال حارة ميدان الحصى فنهبوها، فردّ عليهم أهل الميدان بحرق حارة الشاغور، ومدرسة الصابونية والمزلقية، وجامع جراح، وانهدم غالب تلك المحلة، وأصبحت دمشق يبكى عليها وعلى أهلها.(1) ونُشير هنا إلى أن نيابة دمشق(الشام) ضمت في العصر المملوكي الثاني تسعاً وعشرين حارة ومحلة، فضلاً عن ضواحي دمشق، وسوف نستعرض هنا أسماء بعض الحارات الشامية التي تكرر ذكرها في المصادر: القبيبات، ميدان الحصى، الشاغور، الصالحية، باب جيرون، القصر، القابون، باب توما، ، المصطبة، الدقاقين، قبر عاتكة، القريتين، باب السريجة، البغيل، باب المصلا، المزابل، الجابية، الناصرية.(2)

أما حارات نيابة حلب، فقد ذكرها ابن الشحنة بشكل مفصل في الباب الثاني والعشرين في "الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب".(3) وأورد يوسف غوانمه في مرجعه" نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي". حارات ودور نيابة القدس.(4)

3.الحمامات الشامية.

من المؤسسات الاجتماعية المهمة التي زخرت بها بلاد الشام في العهد المملوكي الثاني، والتي وجدت بكثرة بسبب كثرة المياه وغزارتها.(5) وعدم قدرة العامة جميعاً على تضمين منازلهم حمامات خاصة، ورغبة القادرين على إنشاء هذه الحمامات في

---

(1) ابن الحمصي: المصدر السابق ، ج2، ص30، 31. ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص154، 155.
هند ابو الشعر: المرجع السابق، ص159.

(2) المرجع نفسه، ص35، 36، 149. أكرم العلبي: المرجع السابق، ص61، 62، 63.

(3) ابن الشحنة: المصدر نفسه، ص241- 245.

(4) يوسف غوانمه: المرجع السابق، ص127، 128.

(5) محمد كرد علي: المرجع السابق، ج1، ص14. فريال بدوي: المرجع السابق، ص270.

استثمار أموالهم في إنشائها لما تدر من ريع وفير لشدة الطلب عليها.(1) وكانت مركزاً للراحة النفسية والاجتماعية ، وكان للحمام دور ديني يتمثل في الطهارة والنظافة التي يحض عليها الإسلام، وكان الناس يقصدون الحمامات العامة من مختلف الطبقات، رجالاً ونساء للاستحمام والشفاء من العلل.(2) فقد ذكر ابن الشحنة أن ماء حمامات حلب في غاية الحرارة، يأتيها الناس من كل الآفاق، فينتفعون بها من العلل التي تصيبهم كالبلغم والجرب.(3) ومن منافعها أيضاً توسيع المسام، واستفراغ الفضلات، وتحلل الرياح، وتعالج الإسهال بإمساك الطبيعة، وتنظف الأوساخ، وتذهب الحكة، وتنضج الزلاف والزكام.(4)

خضع الحمام الشامي لتقاليد وأعراف وآداب خاصة، لا لأنه كان وسيلة من وسائل النظافة وصورة معبرة عنها فحسب، بل لأنه كان يعتبر وسيلة من وسائل المتعة والأنشراح كالمتنزهات تماماً.(5) ومن تلك الأعراف عدم وجود الصور في مداخله ، أو قراءة القرآن فيه جهراً، وتجنب دخوله بين المغرب والعشاء، والاقتصاد في استخدام الماء، وتجنب كشف العورة.(6)

وتوكل مهمة مراقبة ونظافة الحمامات في بلاد الشام إلى المحتسب، فيطلب من القائمين عليها غسلها وكنسها بالماء الطاهر غير ماء الغسالة عدة مرات في اليوم الواحد، وغسل حوض النوبة من الأوساخ المجتمعة فيه، ودلك بلاط الحمام بالأشياء الخشنة ليلاً، وغسل مجاري الحمام من الأوساخ والعكر الراكد في أسفلها في كل شهر

---

(1) ابن طولون: القلائد الجوهرية، ج1، ص316. محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1988م. ص221.

(2) إيمان مقابلة: المرجع السابق، ص187.

(3) ابن الشحنة: المصدر السابق، ص131. ابن الغزي، كامل: المصدر السابق،ج1، ص45.

(4) محمد بن محمد بن أحمد بن أبي زيد بن الأخوة المتوفى729هـ/1329م : معالم القربة في أحكام الحسبة ، مكتبة جامعة الملك سعود، قسم المخطوطات، رقم 5023. ص100.

(5) أكرم العلبي: المرجع السابق، ص121.

(6) ابن الأخوة: المصدر السابق، ص100.

مرة، ومنع دخول الأشخاص الذين يعانون من الجذام والبرص، ويجب أن يحتوي الحمام على ميازر تؤجر للناس، بحيث تكون عريضة حتى تستر العورة، ويأمر بفتح الحمام بالسحر لحاجة الناس إليها للتطهر فيها قبل صلاة الفجر.(1) وهناك ضوابط على المقيم على الحمام وصاحب النوبة، كحفظ أقمشة وملابس الناس من أن يضاع منها شيء، واستعمال الأمواس الفولاذية الجيدة في الحلاقة، والابتعاد عن أكل البصل والثوم والكراث في يوم نوبته ليلاً، وأن لايحلق شعر صبي إلا بإذن وليه، وأن يعطر الحمام بالبخور في اليوم مرتين.(2)

ولم تكن الحمامات الشامية حكراً على الرجال دون غيرهم، ولكن للنساء نصيب أيضاً، فقد أنشئت في بلاد الشام حمامات خاصة بالنساء وأخرى مستقلة للرجال، وثالثة يتناوبها الجنسان في أوقات معلومة، وغالباً ما كان الحمام يخصص من الظهر إلى بعيد الغروب للنساء، ثم يخصص بقية الفترة للرجال.(3) بل إن بعض النساء كانت صاحبة حمام ومديرة له كفاطمة التركمانية.(4)

واعتادت نساء كل أسرة من الأسر أو حي من الأحياء أن يذهبن في موعد متفق عليه إلى الحمام، وكنَّ يحملن معهن الأطعمة والأشربة المعدة لهذه المناسبة خصيصاً.(5) ففي سنة 887هـ/1482م، وقع طباق على سطح حمام خارج المدينة، فماتت معلمة الحمام، ومعها بعض نساء كنّ بالمشلح.(6) وذكر الشيخ علوان الحموي ستة وأربعين أدباً لخروج النساء إلى الحمام نذكر منها: أن لا تخرج إلا بإذن وليها،

---

(1) ابن الأخوة: المصدر السابق، ص101. هند عبدالله البدارين: الحسبة في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي 570-923هـ/1174-1517م، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، الأردن، 2008م. ص101.

(2) ابن الأخوة: المصدر السابق، ص101.

(3) أكرم العلبي: المرجع السابق، ص121. مبارك الطراونه: الحياة الاجتماعية في بلاد الشام، ص212.

(4) ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص234، 544، 546.

(5) علي بن عطية علوان الحموي المتوفى 936هـ/1530م: الفتح النبوي بشرح عقيدة الشيخ علوان الحموي، نسخة جامعة الملك الملك سعود، رقم المخطوط، 348. ص57. .ابراهيم زعرور: المرجع السابق، ص173.

(6) ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص209.

وأن لا تخرج متبرجة بالزينة للرياء والسمعة، وأن لا تتوسع في الأشياء المستعملة في الحمام من حناء وسدر، وأن لا تمكن الذميّة من النظر إلى جسدها.(1)

وفي زمن الأمير يلبغا السالمي أمر نساء النصارى واليهود أن لا يدخلن الحمامات إلا وفي أعناقهن أجراس.(2) وتفضل حمامات الشام على غيرها لما فيها من الإتقان والنظام والهندسة، فالحمام الشامي يقسم إلى دائرة خارجية في وسطها بركة مستديرة ينسكب فيها الماء من أربعة أو خمسة انابيب، وحولها مصاطب يخلع عليها المغتسلون ثيابهم ويقدم ما يلزم الحمام، ودائرة للاستحمام تقسم إلى قسمين خارجي وداخلي، ولكل منهما انبوبان واحد ماؤه حار وآخر بارد، أما سقف دائرة الاستحمام فهو عقد ذو نوافذ صغيرة مستديرة.(3)

وتتشابه الحمامات الحلبية بالرومانية من حيث نمط البناء وأقسام الحمام، فيتألف الحمام الحلبي من طابقين، طابق تحت الأرض لتزويد الحمام بما يحتاج من ماء وحطب، وطابق أرضي للاستحمام يشمل مجموعة من الغرف ذات درجات حرارة مختلفة.(4) فقد عَدّ ابن شداد ما بباطن حلب وظاهرها من الحمامات في سنة 657هـ/1258م فبلغت مائة وخمسة وتسعين حماماً، ثم تقلصت إلى ما دون العشرة، بسبب تهدم أكثرها، ثم أعيد بعد ذلك كثير من هذه الحمامات، واستمر كثيرٌ منها داثراً ثم جددت بعد ذلك، ومن أشهر حمامات حلب، حمام آشقتمر، وحمام الناصري ، وحمام العمق والذي تأتي ماؤه من عدة عيون كبريتية حارة لوجمعت إلى حوض لكانت حماماً

---

(2) علوان الحموي: المصدر السابق، ص57. عبدالرءوف بن تاج العارفين بن زين العابدين المناوي المتوفى1031هـ/1621م: النزهة الزهية في أحكام الحمام الشرعية والطبية، تحقيق، عبدالحميد صالح حمدان، ط1،الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1408هـ/1987م. ص46.

(2) ابن إياس: المصدر السابق، ج1، ق2، ص605.

(3) نعمان قساطلي: المرجع السابق، ص108، 109.

(4) زياد المدني: المرجع السابق، ص207.

عظيماً.(1) ولم تقتصر الحمامات على دمشق وحلب بل وجدت في حماة ومدن الشام الأخرى.(2)

4.قافلة الحج الشامي.

يبدأ الاستعداد للحج في حالة أعلنت السلطة المملوكية الحج، وتبدأ أول مظاهره بنصب الصنجق (العلم السلطاني) بالجامع الأموي على العادة الجارية ثم يبدأ بدوران المحمل.(3) والغرض منه إعلام بالتهيؤ لأمر الحج في هذه السنة، لاجتماع شروط السفر،فمن يريد الحج فلا يتأخر ولا يتخوف من الطريق، ويسود جوّ من الأمل والشوق إلى الحج.(4) وجرت العادة أن يدور المحمل في السنة مرتين: المرة الأولى في شهر رجب بعد النصف منه، وفي شهر شوال، يحمل ويكلف اصحاب الحوانيت التي في طريق دورانه بتزين حوانيتهم، ويكون دورانه يوم الأثنين أو الخميس، ويحمل المحمل على جمل في هيئة لطيفة، عليه غشاء من حرير أطلس أصفر، وبأعلاه قبة من فضة مطلية.(5)

وذكر أن الأمير شيخ نائب الشام عمل محملاً سنة 806هـ/1404م، وأداره في دمشق حول المدينة، وبلغ مصروف ثوب المحمل فقط، وهو من الحرير الأصفر المذهب ما يقارب خمسة وثلاثين ألف درهم من الفضة، ثم نودي بخروج الحاج.(6) وفي عام 917هـ/ 1511م، ألبس نائب الشام سيباي عساكره العدة الكاملة، وركب معه القضاة ووصلوا معه إلى باب الجابية، بسبب عودة دوران المحمل، وكانت هذه العادة قد قطعت منذ عهد السلطان خشقدم سنة 871هـ/1466م، نتيجة لتصرفات فئة من

---

(1) ابن الشحنة: المصدر السابق، ص133، 134. الغزي، كامل: المصدر السابق، ج1، ص45.

(2) أحمد إبراهيم الصابوني: تاريخ حماة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2014م، ص57، ص58.

(3) ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص200، ص331.

(4) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص300. مفيد الزيدي: المرجع السابق، ص225.

(5) القلقشندي: المصدر السابق،ج4، ص57، 58

(6) المقريزي: السلوك، ج6، ص104، ابن إياس: المصدر السابق، ج1، ق2، ص686، 687.

المماليك الجلبان عن المقصد الشريف في يوم المحمل، وخاصة في عهد السلاطين الضعاف، من الخطف والنهب وغير ذلك.(1) ومحامل الشام في عصر المماليك الجراكسة كما ذكرها ابن الفرات هي: المحمل الغزاوي والتكروري والمغربي والصفدي والكركي والحلبي والشامي، بالإضافة إلى محامل أخرى تخرج من مصر واليمن.(2) ويعين لقافلة الحج أمير كبير من رجال الدولة، وبعض القضاة والفقهاء ورجال الدين، وعدد من العساكر تتولى مهمة حراسة قافلة الحاج إلى الديار المقدسة. ففي سنة 892هـ/ 1487م، ودع نائب الغيبة الشامي قافلة الحج المكونة من الوفد الحلبي وكان أميرهم ابن نائب حلب، والمفتي الحلبي العلامة عثمان الكردي وجماعته، وبرد بك أمير الوفد الشامي وقاضي الركب الشامي شهاب الدين الرملي.(3)

وكانت وظيفة أمير قافلة الحج الشامي، طوال العهد المملوكي منوطة بالأمراء والمماليك الذين هم دون النائب في المرتبة، ولم يعين لهذه الوظيفة أحد من أبناء البلد، وكان الأمراء يتسابقون في الحصول على هذه الوظيفة لما كانت تدر عليهم من أموال، بالإضافة إلى ما كان يجمع من السكان من أجل القافلة عن طريق الرميات (الرسوم).(4)

وفي سنة 889هـ/1484م جاء مرسوم من السلطان المملوكي برفع المظالم عن الحجاج الشاميين وأن لا يتعرض أمير الحاج لهم بما أحدثه عليهم جاني بك التَنَمي.(5) وفي حج سنة 911هـ/1506م، تضرر الناس كثيراً بسبب رمي مال على أملاكهم بأجرة شهرين على كل مُلْك، من أجل مشاة يخرجون يذبّون عن الحجاج، حتى أن بعض

---

(1) ابن إياس: المصدر السابق،ج2، ص447. ابن الحمصي: المصدر السابق،ج3، ص221.
ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص289، 291. محمد الشناق: المرجع السابق، ص100.
مبارك الطراونه: الحياة الاجتماعية في بلاد الشام، ص245.

(2) ابن الفرات: المصدر السابق، م9،ج2، ص313. ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص108، ص118، ص309.

(3) ابن طوق: المصدر السابق: ج1، ص285. ابن الحمصي: المصدر السابق، ج2، ص124.
ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص68، 69، 111، 120، 233، 303.

(4) أكرم العلبي: المرجع السابق، ص148.

(5) ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص404.

المسلمين دعا على الحجاج بأن لا يرجعوا لكثرة ما حصل عليهم من الظلم.(1) وانطلاق محامل الحج وقوافله السابقة الذكر من الديار الإسلامية بشكل عام، ومن الشام بشكل خاص تحظى باهتمام من السلطة الحاكمة ممثلة بالسلطان والنائب، وعامة الشعب على حد سواء، حيث تودع قوافل الحج، وتستقبل باحتفالات شعبية ورسمية. ففي سنة 897هـ/ 1492م، دخل أوائل الحاج عند عودتهم إلى الشام، فلبس النائب خلعة حمراء بفرو، من القبة، ودخل دمشق ومعه أرباب الدولة.(2)

وفي سنة 902هـ/ 1497م، لبس نائب الشام من القبة خلعة السلطان الجديد، ثم خرج عقب خلعها إلى القبة وأرسل جماعة لتلقي الحاج، ثم رجع آخر النهار.(3) أما إذا كان أمير قافلة الحاج أمير الأمراء نائب الشام دولات باي(أخ السلطان طومان باي)* تختلف صورة الوداع والإستقبال، فعندما أراد الحاج سنة 906هـ/1501م، أمر بإشهار النداء للحاج، بأن ما لكم أمير إلى الحجاز إلا ملك الأمراء، فأظهر النفقة على خروجه.(4) ولما عادت قافلة الحج هذه كان أميرها النائب الجديد للشام قانصوه البرجي المحمدي وكان منفياً بمكة فكان في استقباله نائب الغيبة، وأرباب الدولة، وابن الحنش وجنده، والزعر.(5) وقد أُبطل دوران المحمل بإعلان الحج عدة مرات لأسباب بعضها سياسي وبعضها الآخر آمني، ففي سنة 917هـ/1511م، نودي بدمشق بالحج منها إلى بيت الله الحرام، على عادته المتقدمة، وحمل صنجق المحمل إلى الجامع الأموي،

---

(1) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص233. أكرم العلبي: المرجع السابق، ص149.

(2) السخاوي: وجيز الكلام،ج، ص51. ابن الحمصي: المصدر السابق، ج1، ص330.

ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص122، 222.

(3) المصدر نفسه، ق1، ص139.

*. عندما علم بمقتل أخيه السلطان هرب إلى الشرق وتولى بدلا منه قانصوه المحمدي، ابن الحمصي: المصدر السابق،ج2، 135.

(4) ابن طولون: مفاكهة الخلان ، ق1، ص190. إعلام الوَرَى، ج1، ص150.

(5) المصدر نفسه، ق1، ص199.

ووضع في مكانه، ثم أبطل بإذن المقام الشريف، لعلمهم أنّ الخارجي إسماعيل الصفوي جهز ثوباً للكعبة، وإنه سيأتي للحج ويلبسها إياه.(1)

أما المرحلة الأصعب من مراحل قافلة الحج الشامي فهي الطريق السالك فيه الحاج من دمشق ولغاية الأماكن المقدسة ذهاباً وإياباً، نظراً لما يواجه الحاج من مشاق وأزمات قد تصل إلى القتل والسلب والنهب ودفع الأموال إلى قُطّاع الطرق من بعض أفراد القبائل المار فيها طريق الحاج. أو إلى ظلم كبير من قبل أمير الحج أحياناً. ففي سنة 886هـ/1480م، تعرض الحجاج خصوصاً الغُرب منهم إلى ظلم كبير من قبل أمير الحج يلباي.(2) ولما تعرضت قافلة الحاج الشامي قبل وصولها إلى معان سنة 900هـ/ 1495م، لهجوم العرب برز أمير الركب أركماس بحريمه وجماعته عن الحاج، بعد أن أشترى نفسه من العرب بسبع مائة دينار، وكان كل ما وقع للحاج من سوء تدبيره ، فإنه قطع صررهم وأبطل عوايدهم، فطمع العرب في الحاج، مابين نهب وسلب وقتل، فطرح الكثير من الرجال والنساء والأولاد أمواتا، ونهبت الأموال والجمال والقماش والتجارة والأمتعة، وتوزع الحاج عدة فرق: فرقة في الكرك، وفرقة في الأسر، وفرقة ضاعت في البرية من الجوع والعطش. وقد امتنع السلطان في هذه السنة من مقابلة أمير الحاج الشامي لفعلته.(3) وفي سنة 904هـ/ 1499م، أخذ العرب جماعة من الحاج أثناء دخوله إلى المزيريبة، فوصل كتاب إلى نائب الشام يطلب النجدة والمساعدة، فخرج النائب بعسكره إليهم.(4)

وتعرض الحاج الشامي والمصري سنة 908هـ/ 1503م، إلى هجوم من قبل يحي ابن سبع صاحب ينبع، ومعه الجازني أخو الشريف بركات صاحب مكة ومعهم عربان

(1) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص289، 293.

(2) ابن طوق: المصدر السابق،ج1، ص237،ص238. ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص32.

(3) ابن إياس: المصدر السابق، ج3، 306. ابن الحمصي: المصدر السابق، ج1، ص368- 373.
ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص13.

(4) المصدر نفسه، ق1، ص177.

وعساكر لايحصون، وكلهم عصاه، وهاجموا الحاج بين مكة والمدينة، فكسروا الحاج الشامي، ونهبوه عن آخره، وقتلوا غالبه، ولم يحجوا، فغضب السلطان على أمراء الحاج، فرض عليهم رسوم.(1)

وفي سنة 911هـ/ 1505م، عانى الحاج الشامي مشقات كثيرة بسبب هبوب الرياح عليهم بوادي الغنائم، فمات فيها خلق كثير، فما كان من وسيلة إلى الحجاج إلا طلب المساعدة من أمير بني لام، وأمراء أخر، مقابل شيء من الأموال نظير إيصالهم إلى الحسا (جنوب الاردن) .(2) وتكررت هذه الحوادث أيضاً سنة 919هـ/ 1513م، حيث حصل للحاج الشامي مشاق بسبب موت الجمال، وغلو الأسعار، مما دفع الكثير من النساء إلى مواصلة المسير على الأقدام إلى أن وصلت لهم الأمتعة والزاد من نائب القدس.(3)

---

(1) ابن إياس: المصدر السابق، ج4، ص35، 36. ابن الحمصي: المصدر السابق، ج2، ص156.

(2) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص234

(3) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج3، ص244.

الفصل الرابع

الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر المملوكي الثاني

اولاً: نظام الإقطاع
1.اقطاع التمليك
2.اقطاع الإستغلال
3.اقطاع الإرفاق
ثانياً:القطاعات الرئيسية للحياة الاقتصادية
أ.الأراضي الزراعية والري
1.الحاصلات الزراعية في مدن بلاد الشام
2.الأثر السياسي والطبيعي في الناتج الزراعي
ب.الصناعات الشامية
1.صناعة السكر
2.صناعة زيت الزيتون
3.صناعة الصابون
4.صناعة الخمور
5.صناعة طحن الغلال

6.صناعة الحصير
7.صناعة العطور
8.صناعة تجفيف الفواكه
9.صناعة الخشب
10. صناعة المنسوجات
11. الصناعات المعدنية
12. صناعة الزجاج
جً.النشاط التجاري والسلع التجارية
د.الأسواق التجارية والحوانيت الشامية
هـ. العملة في النيابات الشامية

الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر المملوكي الثاني

شكل العامل الاقتصادي دعامة أساسية استندت إليها الدولة المملوكية الثانية في قيامها واستمراراها، فإذا تطرق الضعف إلى هذه الدعامة، كان ذلك نذيراً بتداعي الدولة وانهيارها.(1)

ولم يقتصر تأثر الأوضاع الاقتصادية في دولة المماليك الثانية على الجانب السياسي كالفتن والثورات والحروب فقط، فقد كان للعوامل الطبيعية كالفيضانات، وانحباس الأمطار، وموجات البرد والصقيع، والأوبئة والطواعين، والزلازل أثر آخر، بالإضافة إلى سياسة العرض والطلب، وسياسة الاحتكار، وظلم رجال الدولة والولاة.(2) وكانت سياسة الطرح التي اتبعتها الدولة من أسوأ العوامل أثراً في الحياة الاقتصادية، وسياسة الطرح هي أن تحدد الدولة سعراً لسلعة بأكثر من قيمتها الحقيقية وتطرحها في الأسواق، وتلزم المواطنين بدفع السعر المقدر، وقد شكلت هذه السياسة عبئاً ثقيلاً على كواهل الناس.(3)

أدت السيطرة السياسية والإدارية للمماليك على شئون البلاد الشامية إلى هيمنة اقتصادية هائلة إن لم نقل هيمنة مطلقة على الحياة المدنية جعلت أهل الشام ينصاعون قسراً لهم، بما في ذلك أرباب الاقتصاد من المدنيين، وتجلت تلك السيطرة في طلب الناس الحماية من الدولة على نشاطهم الاقتصادي، وبتلبية الأطماع المادية للفئة العسكرية الحاكمة.(4)

ولذلك لابد أولاً من الحديث عن ملكية الأراضي في بلاد الشام ونخص بالذات

(1) محمد طقوش: تاريخ المماليك، ص564.

(2) حسام الناطور: دولة المماليك في عهد الظاهر برقوق: ص206.

(3) إحسان عباس: المرجع السابق، ص113.

(4) ابن كنان: حدائق الياسمين، ص95-102. انطوان ضومط: المرجع السابق، ص399.

أولاً: نظام الإقطاع* ومساحة الاقطاعية تختلف بحسب رتبة صاحبها، ودرجة رضى السلطان عنه، وبصورة عامة فقد كانت تكفي الأمير الذي كان عليه أن يدفع في مقابلها مبلغاً من المال كل سنة لديوان الجيش (1) وعرف في الدولة المملوكية الثانية ثلاثة أنواع من الإقطاعات هي:

1.**إقطاع التمليك**: ويضم الأرض الموات والعامر، والمعادن، ولصاحبه حق الملكية التامة، وحق التوريث مقابل مبلغ من المال يبلغ العشر نظير تملكه.(2)

2.**إقطاع الاستغلال**: وهو قسمان، أحدهما: أن يقطع السلطان بعض الأراضي التي يجوز إقطاعها لمن يستغلها بنفسه ونوابه من غير تمليك. والقسم الثاني: أن يقطع السلطان شيئاً من الخراج المقدم ذكره لبعض الأجناد المرتزقة بقدر ما يستحقه منه لكفايته وحاجته.(3)

3.**إقطاع الإرفاق**: وهو نوعان: الأول: المعادن الباطنة في الأرض التي لا يتوصل إلى نيلها إلا بعمل، كمعادن الذهب والفضة والنحاس والحديد، فيجوز للإمام أن يقطع منها قدراً يتأتى للمقطع العمل فيه والأخذ منه، فإن تركه وأعرض عنه زال حكم الإقطاع.والثاني: ما بين العمائر من الشوارع، والطرق، والرحاب، ومقاعد الأسواق، فإذا لم يكن ملك أحد، ولا يضر المارة، فيجوز للسلطان أن يقطعه لمن يرتفق به (4)

---

*.في العرف المملوكي والدول الإسلامية جميعاً، كان أمراً شخصياً بحتاً لا دخل لحقوق الملكية أو لأحكام الورثة فيه، فكان المقطع يحل في الإقطاع محل السلطان ليتمتع بغلاته وإيراداته فحسب، ثم يؤول جميعه إلى السلطان بمجرد انتهاء مدة الإقطاع أو لوفاته أو بسبب إخلال المقطع بشروط العقد القائم، سواء في ذلك ما يسمى بإقطاع التمليك. محمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص21.

(1) أكرم العلبي: المرجع السابق، ص298.

(2) بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة الكناني المتوفى 733هـ/1332م: تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، تحقيق، فؤاد عبد عبدالمنعم أحمد،ط1، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، قطر،1405هـ/1985م. ص108.

(3) المصدر نفسه، ص110. إيمان مقابلة: المرجع السابق، ص109.

(4) المصدر نفسه، ص115، 116.

والإقطاعات تجري على الأمراء والجند، وعامة إقطاعتهم بلاد وأراض يستغلها مُقطعها ويتصرف فيها كيف يشاء، وربما كان فيها نقد يتناوله من جهات وهو القليل، وتختلف باختلاف حال أربابها. ولا تقارب الإقطاعات في الشام الإقطاعات في مصر بل تكون بقدر الثلثين، إلا نائب الشام فإنه يقاربهم في ذلك.(1) وذلك لأن امراء الشام، يعتبرون -نظرياً- أدنى مرتبة من امراء مصر الذين يكونون من خواص السلطان.(2)

ويعد الروك الناصري الذي جرى في دولة المماليك الأولى سنة 715هـ/ 1315م، فيما يتعلق بالتوزيع الإقطاعي ومقاديره، الأساس الذي سار عليه التوزيع الإقطاعي في دولة المماليك الثانية.(3) وقد ارتبط التوزيع الإقطاعي في دولة المماليك الثانية بأسباب سياسية غالباً، ففي الوقت التي تقلصت فيه إقطاعات أجناد الحلقة، وخاصة أولاد الناس، أصبحت فئة المماليك السلطانية تحوز الإقطاعات نظراً لارتباط هذه الفئة بالسلطان، ويظهر ذلك واضحاً عند تولية بعض السلاطين الحكم، إذ يعمد إلى توزيع الإقطاعات بهدف تدعيم سلطنته.(4)

ولما كانت الإقطاعية هبة من السلطان لأمرائه ونسائهم وأولادهم، فقد حاول هؤلاء تحويلها إلى أحباس – أوقاف-لمنع استردادها بعد وفاتهم. اما إذا نقل الإقطاعي إلى إقطاعية أخرى، فقد كان ينال في محلته الجديدة إقطاعية مثلها. وأما إذا لم يجد إقطاعية تليق بمقامه، فإن إقطاعته الأولى تبقى على حالها.(5) ثم يزورون اقطاعاتهم تفقداً ويمكثون فيها ولو وقتاً قصيراً، وفي بعض الأحيان يعين الأمير مملوكاً من

(1) القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص50.
(2) أكرم العلبي: المرجع السابق، ص300.
(3) المقريزي: الخطط المقريزية، ج1، ص254-262.
(4) ابن إياس: المصدر السابق، ج2، ص371.
(5) أكرم العلبي: المرجع السابق، ص299.

أتباعه يدير إقطاعته.(1) لقد كان النظام الإقطاعي العسكري عاملاً مساعداً في قضية الجهاد وحماية البلاد الإسلامية من تهديدات الصليبيين والمغول والتركمان، ثم تحولت هذه الإقطاعات من اختصاصات ديوان الجيش، ووزعت حسب الرتب العسكرية في الجيش.(2) وقد تكون إقطاعات الأمراء والجند إما بلاداً يستغلها مقطعها كيف شاء، وإما نقداً على جهات يتناولها منها.(3)

فقد ذكر القلقشندي أن إقطاع الواحد من كبار الأمراء بلغ مائتي ألف دينار، وربما زاد على ذلك. ويتناقص باعتبار انحطاط الرتبة إلى ثمانين ألف دينار، ويبلغ إقطاع أمراء الطبلخانات ثلاثين ألف دينار فأكثر، وينقص إلى ثلاثة وعشرين ألف دينار، ويبلغ إقطاع الواحد من أمراء العشرات تسعة آلاف دينار إلى مادون ذلك، ويبلغ إقطاع الواحد من مقدمي الحلقة إلى ألف وخمسمائة دينار، وكذلك أعيان جند الحلقة إلى مائتين وخمسين دينار.(4)

وتبقى العلاقة الحسنة مع السلطان الوسيلة الأنجع في زيادة الإقطاع أو نقصانه أو مصادرته، ففي سنة 842هـ/1483م، أنعم السلطان جقمق على مقدمي الألوف بدمشق بزيادة جيدة في إقطاعه.(5)

أما الأراضي التي يتم إقطاعها فثلاثة أنواع، ويعود ذلك إلى عوامل منها خصوبة الأرض وريّها، ووفرة الإنتاج. فأجود الأراضي تكون من أملاك السلطان وكبار أمرائه حتى جمع بعضهم نحو عشرة قرى كاملة، وأما الأرض متوسطة الجودة فتكون من نصيب المماليك السلطانية، والنوع الثالث منها وهو الأقل جودة يقطع للأجناد والعربان

(1) بولياك، أ، ن: الأقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان، ط1، دار المكشوف، بيروت، 1948م. ص188.

(2) مفيد الزيدي: موسوعة التاريخ الاسلامي، ص231.

(3) ابن فضل الله العُمري: مسالك الأبصار، ج3، ص301-302.

(4) القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص51.

(5) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج15، ص72.

والتركمان.(1) وقسم من بعض الأراضي منح إقطاعات لفئة المتعممين والقضاة والفقهاء والعلماء والأدباء والكتاب، وقسم آخر منها كان ملكيات شخصية صغيرة خاصة في القرى البعيدة.(2) وهناك بعض الأراضي في بلاد الشام خصصت كوقف للمؤسسات والمنشآت العلمية والدينية كالمدارس، والزوايا، والأربطة، والخانقاوات*.(3)

وفي القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، أصبحت الأراضي مملوكة تمليكاً جماعياً، وانتشر هذا النوع من التمليك في جميع أنحاء بلاد الشام، ففي وقت اقتسام الأراضي السنوي، توزع أراضي القرى بين رجال القبيلة طبقاً لعدد مواشيهم التي تقوم بالأعمال الزراعية، فكلٌّ يأخذ أرضاً بمقدار ما لديه من هذه الحيونات، أما الفلاحون الذين لايملكون الماشية فيصبحون تلقائياً غير مالكين.(4) ويطلق على هذا النوع من الأراضي المشاع، وهي الأراضي التي لا يملكها فرد له حق التصرف فيها، مثل أراضي المراعي والحصاد.(5) أما الأراضي الحرة والموات فهي من أملاك الدولة أو من الأملاك الأميرية، وتصبح أرضاً أميرية مع حق التصرف فيها لمن يصلحها، وتمتد هذه الأراضي في المناطق الصحراوية حيث تقيم القبائل.(6) ولم يظل على حاله من الثبات والإحكام طوال عصر المماليك إذ لم يلبث أن تطرق إليه الفساد والخلل، واصبح مظهراً من مظاهر للفساد العام الذي اعترى الدولة وأجهزتها، ومن أبرز مظاهر ذلك الخلل تصرف الأمراء والأجناد في إقطاعتهم عن طريق البيع والتنازل والمقايضة.(7)

---

(1) آمنة شفيق كليب الشريدة: الجيش في بلاد الشام في العصر المملوكي،رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن، 1993م. ص202.

(2) ايمان مقابلة: المرجع السابق، ص113.

*.مفردها خانقاه وهي محلاً للتعبد والتزهد والبعد عن الناس، وبمعنى بيت أيضاً.محمد دهمان: المرجع السابق، ص66.

(3) ايمان مقابلة: المرجع السابق ، ص121.

(4) يوسف غوانمه: المرجع السابق، ص76.

(5) إحسان النمر: المرجع السابق، ج1، ص46. فريال بدوي: المرجع السابق، ص172.

(6) فريال بدوي: المرجع السابق، ص172.

(7) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص363.

ثانياً: القطاعات الرئيسية للحياة الاقتصادية

أ.الأراضي الزراعية والري.

اهتم المماليك بالزراعة اهتماماً كبيراً لما للزراعة من أهمية كونها مصدراً من مصادر الدخل الأساسي لخزينة الدولة، ومصدر رزق للعائلات الفلاحية، غير أن تطور الزراعة يتوقف على نوعية التربة. وتتسم أرض بلاد الشام بشكل عام بضعف الخصوبة وبكثرة الطبقة الحصية التي تعرقل تمدد جذور النباتات في عمق التربة.(1)

وتختلف نوع التربة في بلاد الشام من حيث سماكتها بين منطقة وأخرى، ففي الساحل تنتشرالتربة الرملية خصوصاً في المناطق الجنوبية من بلاد الشام، وتغطي سلسلة جبالها طبقة رقيقة من التربة المعرضة بإستمرار للإنجراف وكشف الغطاء النباتي، وتنتشر التربة السمراء في الأودية الواقعة بين الجبال، أما الأراضي المحيطة بدمشق وجميعها سهول حمراء التربة، وتميل تربة حلب إلى البياض، بينما تتصف حماة بخصوبة التربة، ويغلب الرمل على أرض معرة النعمان، أما طرابلس فأرضها غورية، وأصح بلاد الشام تربةً حمص.(2)

ولا تزرع الأرض في بلاد الشام كل عام كالعادة في مصر بل يقسم الفلاح في بلاد الشام أرضه إلتي بيده إلى شطرين، فيزرع شطراً، ويريح شطراً، ثم يتعاهده بالحرث لتقرع الشمس باطن الأرض، ثم يزرعه في العام القادم، ويريح الشطر الذي كان به زرع.(3) ويمكن أن نصنف أراضي بلاد الشام الزراعية إلى ثلاثة أقسام. بعلية: وهي التي تعتمد على مياه الأمطار. ومروية: وهي التي تسقى بالمياه الجارية من

---

(1) فادي الياس: المرجع السابق، ص15. أحمد العنزي: المرجع السابق، ص238.

(2) ابن الشحنة : المصدر السابق، ص269. نعمان قساطلي: المرجع السابق، ص116.

فادي الياس: المرجع السابق، ص15، 16.

(3) شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري المتوفى 733هـ/1332م: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق، علي بوملحم، ج8، دار الكتب العلمية، بيروت، ج8، ص187. أكرم العلبي: المرجع السابق، ص230.

الأنهار والعيون، وقيمة الأملاك بها أرفع وأغلى من البعلية، وأراضي المراعي: وهي التي لا تصلح للزراعة، نظراً لانعدام وجود الأنهار فيها، وقلة سقوط الأمطار. .(1)

وتم تصنيف تلك الأراضي بناءً على توزيع المياه، فأغزر أراضي الشام أمطاراً غوطة دمشق، وسهول حمص، وفلسطين، والأغوار، وسهول الساحل في لبنان، وهي أكثرها قرباً من الأنهار كالعاصي* والليطاني، وبردى، واليرموك، والأعوج*1 وعشرات الأنهار الصغيرة الأخرى. (2)

وعلى الرغم من كثرة جريان أنهار بلاد الشام في المناطق الزراعية إلا أنها لا تروي مساحات واسعة من الأراضي، فنهر العاصي المار بحمص فحماه فانطاكية حتى السويدية، لا ينتفع منه انتفاعا كبيراً، ونهر الفرات المار ببلاد الشام من الشرق لا يستفاد منه الاستفادة المطلوبة لانخفاض منسوبه عن أرض الشام.(3)

وكان نهرا بردى والأعوج أكثر الأنهار نفعاً للزراعة من سائر الأنهار الأخرى التي كانت تصب في البحر دون أن تستفيد الأراضي التي حولها من مجراها رغم أنه على بعد قيد أشبار منها. ومن هذه الأنهار نهر عفرين والأسود وقاديشا والأولي والأزرق والعوجا وإبراهيم والمقطع والقاسمية وغيرها.(4) وتتم عملية تنظيف الأنهار والقنوات في بلاد الشام بشكل دوري، ففي أول الربيع من كل عام تنظف أنهار دمشق وفروع بردى، ويُزال التراب والطين والأوساخ من مجاري الأنهار من قبل الفلاحين. وكذلك الحال في نهر العاصي حيث يتم تنظيف قنواته. ففي سنة 726هـ/1326م، قام

---

(1) النويري: المصدر السابق، ج8، ص187. زياد المدني: المرجع السابق، ص251.

*. يجري عكس أنهار الشام من الجنوب إلى الشمال و،لا يسقى منه الا بنواعير تنزع الماء منه. الأعشى: المصدر السابق، ص80.

*1.نهر شمال مدينة الرملة من فلسطين، ومنبعه جبل الخليل ويصب في البحرالمتوسط، المضدر نفسه، ص81، ص82.

(2) أكرم العلبي: المرجع السابق، ص229.

(3) عمار مرضي علاوي: حمص في العصر المملوكي دراسة في الأوضاع السياسية والاقتصادية، مجلة كلية، الآداب، الجامعة العراقية، العدد 99، ص134.

(4) محمد كرد علي: المرجع السابق، ج4، ص133.

أبو الفداء وعسكره أثناء مرورهم بحماة بتنظيف قناة نهر العاصي من التراب والطين، وقد أخذ تنظيفها أسبوعاً حتى حرروها.(1) وقد كانت الأنهار في الشام من مهمة المحتسب، ثم أصبحت من مهمة ناظر الأنهر وعاملها. وقد جرت عادة أناس في الشام أن يشتري بعضهم قدراً معلوماً من ماء نهر ثورا (أحد فروع نهر بردى) مثلاً، ويتحيل لصحته بأن يورد العقد على مقره بما له فيه من حق الماء، وهو كذا إصبعاً، ثم يسوقه، ويحمله على مياه الناس برضى طائفة يسيرة منهم. والحاصل أن الخلق(الناس) في أنهار الشام سواء، يقدم الأعلى منهم فالأعلى، ولا يجوز بيع شيء من الماء ولا مقره، ولا يفيد رضى قوم ولا كلهم، لأنهم لا يملكون الانتفاع، بل ولا رضى أهل الشام بجملتهم. (2)

أما الأراضي الأقل غزارة فتشمل سهول دمشق، والزبداني، والبقاع، وحوران، والجولان، والقلمون، وسهول الأردن ولا سيما الكرك والشوبك. أما الأراضي فقيرة المياه فهي بادية الشام.(3)

1.الحاصلات الزراعية في مدن بلاد الشام.

كانت بلاد الشام ولا زالت تنتج أنواعاً عديدة من المحاصيل الزراعية، وتجدر الإشارة إلى أن هناك تشابهاً كبيراً بين ما أنتجته بلاد الشام في العصر المملوكي من محاصيل، وما أنتجته في العصور السابقة، بالإضافة إلى أن هذه المحاصيل ما زال معظمها يزرع في بلاد الشام حتى وقتنا الحاضر.(4) ومن أشهر مدن بلاد الشام في

---

(1) أبو الفدا: المختصر في تاريخ البشر، ج4، ص94.

(2) السبكي: المصدر السابق، ص66. شمس الدين محمد بن علي بن أحمد بن طولون الصالحي المتوفى953هـ/1546م: نقد الطالب لزغل المناصب، تحقيق، محمد أحمد دهمان، وخالد محمد دهمان، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1412هـ/1992م. ص50.

(3) أكرم العلبي: المرجع السابق، ص229. فادي الياس: المرجع السابق، ص23.

(4) أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن إدريس الحسني المعروف بالشريف الإدريسي المتوفى 559هـ/1164م: نزهة المشتاق في إختراق الآفاق، مجموعة محققين،2ج، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة،2002م، ج1، ص366. نهى مكاحلة: المرجع السابق، ص165.

العصر المملوكي حاصلات زراعية مدينة **دمشق**، يروي زروعها نهرها الذي يحيط بمدينتها من كل ناحية حتى يلتقي من جهة الغوطة، وفي باب توما أربعة أنهر: برزة وثورا ويزيد والقناة، وتسير من المدينة في بساتين وتدخل الأنهار إلى المدينة وهي تجري مخترقة دورها وأسواقها.(1) ونهر دمشق هو بردى فمجراه من عينين: البعيدة منهما دون قرية الزبداني، ودونها عين بقرية تسمى الفيجة بذيل عزتا، والماء خارج من صدع في نهاية الجبل، وعليه ألفاف البساتين ممتدة من الجانبين إلى أن يمر على المكان المسمى الربوة.(2)

وفي دمشق سبعة أنهر إذا جمعت صارت مثل النيل، وأما ما بها من الفواكه الرطبة واليابسة والرياحين ما يطول شرحه.(3) وصفت "بجنة الأرض لما فيها من النضارة وحسن العمارة، ونزاهة الرقعة وسعة البقعة وكثرة المياه والأشجار، ورخيصة الفواكه والثمار.(4) متميزة بكثرة حنطتها، وكثرة الرحاء على أوديتها. ومن أشهر ثمارها التفاح، الذي كان يحمل إلى الخلفاء في العراق.(5) والمشمش، وقد بلغت صنوفه في دمشق واحداً وعشرون صنفاً، والدراقن، ويسمى في مصر الخوخ، والأجاص، ويسميه أهلها بالخوخ وهو أصناف، والكمثري، وهو اثنان وعشرون صنفا، والقراصيا، وهي سبعة أصناف، ويحمل منها إلى السلطان في الديار المصرية. وكل هذه الأصناف والألوان بالمزة* واللوان في دمشق.(6) أما الغوطة فهي قصبة دمشق

---

(1) سراج الدين عمر بن الوردي البكري القرشي المتوفى 861هـ/1457م: خريرة العجائب وفريدة الغرائب، تحقيق، أنور محمود زناتي، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1428هـ/ 2008م. ص98، ص99 .الحميري: المصدر السابق، ص238.

(2) ابن فضل الله العُمري: مسالك الأبصار، ج3، ص358، 359. ابن الوردي: المصدر السابق، ص99.

(3) ابن شاهين الظاهري، غرس الدين: المصدر السابق، ص46.

(4) القزويني: المصدر السابق، ص189.

(5) الإدريسي: المصدر السابق. ج1، ص369.القزويني: المصدر السابق، ص206. ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص39، ص42.

*.من أعظم قرى دمشق بها جامع كبير، وسقاية، وأكثر قرى دمشق حمامات ومساجد وأسواق، ابن بطوطة: رحلة،ص119.

(6) أبو البقاء عبدالله بن محمد البدري المصري الدمشقي المتوفى 887هـ/1482م: نزهة الأنام في محاسن الشام، المكتبة العربية، بغداد، المطبعة السلفية، مصر،1341م. ص187، 188، 192، 195، 201، 206، 210، 212 ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص39، ص42.

وهي مكان أشجار وأنهار، ومياه محدقة تشق البساتين، ويخرج ماء الغوطة من عين تنحط من أعلى الجبل كالنهر العظيم لها صوت هائل.(1) ويذكر أن عدد بساتينها مائة وواحد وعشرون ألف بستان تسقى بماء واحد يأتي من أرض الزبداني ومن وادي بردا. وبها من أنواع الفواكه ما لا يحيط به تحصيل ولا يأتي به تمثيل كثرةً وخصباً وطيباً.(2) حتى أن الشجرة الواحدة بغوطة دمشق تحمل أربعة أصناف من الفواكه كالمشمش والخوخ والتفاح والكمثري. وتطرح الشجرة الواحدة من الكرمة ثلاثة أصناف من العنب الأبيض والأسود والأحمر وعلى شجرة التوت الواحدة ترى التوت الأبيض والأسود(3).واشتهرت الزبداني بجنانها وبساتينها، وبكثرة فواكهها.(4) المنقولة إلى القاهرة المحروسة وغيرها. ويعود ذلك إلى كثرة أشجارها.(5) ويصف القلقشندي ثمار الصالحية، بأنها ذات الفواكه الجنية، والثمرات الشهية، التي تغني شهرتها عن الوصف.(6) حيث يزرع البلح والأترج* والكبّاد، والقسب والطلع والبسر*1 والليمون و النارنج*2 وتميزت بلدة يلدا بالشام بصنوف كثيرة من العنب. والمزاز والشويكة بصنوف الرمان. (7) ويزرع البطيخ والعنب في بلدة داريا*3 ودوما والمرج ويزرع البطيخ الأصفر في قرية ضمير. ويزرع اللوز والتين وهو عدة أصناف في برزة.

---

(1) الإدريسي: المصدر السابق، ج1، ص366. الحميري: المصدر السابق، ص431.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص366، 367. شيخ الربوة: المصدر السابق، ص194.

(3) البدري الدمشقي: المصدر السابق، ص359. ص360.

(4) ابن فضل الله العُمري: مسالك الأبصار، ج3، ص357.ابن بطوطة: المصدر السابق، ج1، ص100 . الحميري: المصدر السابق، ص296.

(5) البدري الدمشقي: المصدر السابق، ص118. الحميري: المصدر السابق، ص296.

(6) القلقشندي: المصدر السابق ،ج4، ص95.

*.هم مما يغرس غرساً ولا يكون برياً وورقه مثل ورق الجوز طيب الرائحة وله بزر شبه الكمثري:البدري: المصدر السابق،ص330.

*1.القسب والطلع والبسر: نوع من أنواع الرطب وهو أفضل من التمر. المصدر نفسه، ص326.

*2.من أنواع الحمضيات ويزرع في الشام، المصدر نفسه، ص335.

(7) البدري الدمشقي: المصدر السابق، ص214،ص223،ص323، 326، 329، 334، 335.

*3. قرية من قرى الشام،تتبع الغوطة وفيها قبر أبي سليمان الداراني، ابن بطوطة: المصدر السابق، ج1، ص126.

واشتهرت القابون بزراعة الفول. (1) والزهور والورد في المزة، حيث يحمل وردها إلى سائر البلاد الجنوبية كالحجاز، ويحمل زهر الورد المري إلى الهند وبلاد السند ويسمى هناك الزهر.(2)

وتعد شجرة الزيتون من أشهر شجر دمشق ويتوصل منها إلى قرية كفر سوسة، ويذكر أن بها معصرة زيت وأشجار زيتون من زمن عيسى عليه السلام .(3) وكذلك الزيت الركابي فإنه في دمشق في غاية الصفاء. وقد استعمل زيت الزيتون في دمشق في الجامع الأموي، حيث يتم إضاءة ألف قنديل في ليلة النصف من شعبان بخمسين قنطاراً دمشقية زيت زيتون. (4) وتعتبر سفوح جبل قاسيون في دمشق مكاناً ملائماً للمزروعات بكافة أنواعها، حيث يزرع في سفحه الشمالي الحنطة والشعير والتي تسقى بماء الأمطار، ويزرع سفحه الجنوبي بأنواع الأشجار المثمرة والبقول ، ويرجع الفضل في ازدهاره إلى نهر يزيد الذي يستمد من مائه خيراته، فأرض هذا السفح لا تستريح من الزرع أكثر من أسبوع أو أسبوعين، فالزرع فيه دائماً صيفاً وشتاءً وخريفاً وربيعاً.(5) ودليل ذلك أن هذا السفح يُمَون دمشق طول السنة بأنواع الخضروات والبقول التي تعدّ منها السلطات كالسلق، والبراصيا*، والسبانخ، والكزبرة، والبقدونس، والخس، والفجل.(6) ومن أزهاره جبل قاسيون، القرنفل وهو شديد العطرية، والخزام،

(1) البدري الدمشقي: المصدر السابق، ص219، 223، 261،260،256. ابن طوق: المصدر السابق، ج1،ص113،111، 168.

(2) شيخ الربوة: نخبة الدهر ، ص195، 198. ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص145.

(3) البدري الدمشقي: المصدر السابق، ص212. القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص87.ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص113.

(4) القزويني: آثار البلاد، ص206. شيخ الربوة: المصدر السابق، ص193.

(5) ابن طولون: المصدر نفسه، ج1، ص43.

*.نوع من أنواع الخضروات الورقية، المصدر نفسه، ج1، ص43.

(6) ابن طولون: القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ، تحقيق، محمد أحمد دهمان، ط2، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1401هـ/1980م. ج1، ص43.

وهو مشهور بالعطرية كذلك، والشيح، والسماق، الذي يستعمل في الطعام، والزعرور، والزيزفون له زهر أصفر برائحة عطرية(1) والخرنوب ويسمى أيضاً الخروب*.

وتميزت قرية الميطور القائمة على سفوح جبل قاسيون في دمشق بغزارة إنتاجها من الفستق، والبندق، والتين، وغيرها. وهذا حال محلة النيرب أيضاً على سفح هذا الجبل.(2) ويزرع الخيار والقثاء والعناب في بلدة القابون.(3) ومن بلدات قاسيون كذلك منين والتي ينسب إليها الجوز المنيني لرقة قشره وبياض قلبه، وهو صنوف: مغاربي، وفرك، ومنيني، وجبلي، وبستاني، وفيها الريباس.(4) أما منطقة حوران فهي مستودع زراعة القمح في الشام، ومنها يصدر إلى بلاد مصر. ففي أعلام الورى أن أسعار القمح ارتفعت في مصر سنة 910هـ/ 1504م، بسبب إنقطاع الجلب من بلاد حوران، ووصل ثمن رطل الخبز بدمشق بنحو ثلاثة دراهم وأقل ما يكون بدرهمين.(5)

ويزرع في دمشق أنواعاً كثيرة من الخضار والبقوليات ومنها: الباذنجان، والكراث، والجزر، والزعتر، والسذاب، والنعناع، والرشاد، والبقلة، والاسفاناخ، والكرفس، والسلق، والهندباء، والبصل، والثوم، والكسفرة، والكراوية، والكمون، والقرع، والكمأة، واللوبيا، والأرز، والبا قلاء، والذرة، والقرطم، والعدس، والسمسم، والترمس، والحمص، والحلبة،(6) وتضرب الأمثال والأشعار بورود الشام، بسبب تنوعها وتعددها: ما بين النرجس، والبنفسج، والياسمين، والسوسن، والآس، والريحان،

---

(1) البدري الدمشقي: المصدر السابق، ص340، 342، 344.

*.أشجار دائمة الخضرة من فصيلة البقوليات يصنع منه الشراب الحار والحلو. البدري: المصدر السابق، ص345.

(2) ابن طولون: القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ، ج1، ص55، 61.

(3) البدري الدمشقي: المصدر السابق، ص264، 265، 267، 271.

(4) المصدر نفسه، ص345، 349.

(5) ابن طولون: إعلام الوَرَى، ص193.

(6) القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص87. البدري الدمشقي، المصدر السابق، ص290- 310.

وشقائق النعمان، وتمر الحناء.(1) وتعد قرية الزبداني في دمشق قلعة الورد يستخرجون بها ماء ورد القاهرة ومكة المشرفة وغيرها.(2)

وينقل لنا ابن إياس في "بدائع الزهور" دليلاً واضحاً على كل ما سبق ذكره في أحداث سنة 912هـ/1506م بقوله:" وصل إلى السلطان من البلاد الشامية صناديق خشب فيها أشجار بطينها ما بين تفاح شامي، وكمثري، وسفرجل، وقراصية، وكروم عنب، وأشجار مزهرة ما بين ورد أبيض، وسبوسان، وزنبق، وغير ذلك من الأزهار الشامية، حتى أحضر إليه شجرة جوز هند بطينها، فغرس ذلك جميعه بالميدان الذي تحت القلعة، فكانوا نحوا من مائة وخمسين حملا، وقد صار هذا الميدان مثل غوطة دمشق بأشجارها ومياهها الجارية حتى عُد ذلك من النوادر".(3)

وللحديث عن المزروعات خارج قصبة دمشق نسترشد بما ذكره القلقشندي في تقسيماته الإدارية.(4) وأول هذه الجهات الساحلية، وهي التي بساحل بحر الروم (البحر المتوسط)، ومنها عمل **غزة** وهي على طرف الرمل بين مصر والشام، ويشرب أهلها من الآبار، وبها أمكنة يجتمع بها ماء المطر، إلا أنه يستثقل في الشرب، وبساحلها البساتين الكثيرة، وأجل فاكهتها العنب والتين، وبها بعض النخيل.(5) وبسبب انتشار التربة الرملية في نواحي غزة جعلها ذلك غير مفيدة لزراعة القمح والخضار.(6) وفي **الرملة** من بلاد فلسطين صنف من التين ليس له نظير في أي مكان، يصدر منها إلى

(1) ابن فضل الله العُمري: مسالك الأبصار،ج3، ص359. البدري الدمشقي: المصدر السابق، ص121، 137، 143، 153، 160.

(2) القلقشندي: المصدر السابق ، ج4، ص87. البدري الدمشقي، المصدر السابق، ص118.

(3) ابن إياس: المصدر السابق، ج4، ص102.

(4) القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص72. 91، 97.

(5) أبو الفدا: تقويم البلدان، ص239. ابن فضل الله العُمري: مسالك الأبصار، ج3، ص379.
القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص97.

(6) فادي الياس:المرجع السابق، ص15.

جميع البلاد.(1) ومحصول الشعير فيها يساوي محصول القمح، بل يزيد عنه في منطقة يافا، وفيها أسواق للقطن.(2)

وثاني هذه الجهات الجبلية عمل **القدس**. وقد جمع الله فيها فواكه الغور والسهل والجبل، والأشياء المتضادة كالأترج واللوز والجوز والرطب والتين والموز.(3) وينبت الزيتون والتينفي بيت المقدس بغير ماء، وفيها أرباب عائلات أغنياء يبلغ انتاجهم من زيت الزيتون 50.000 مَنْ (يعادل 40950 كغم) ، يحفظونها في الآبار والأحواض، ويصدرونها إلى جميع أطراف العالم.(4)

أما مدينة **الخليل** فهي كثيفة الأشجار خاصة الزيتون والتين والجميز والفواكه.(5) وفي قرى المدينة الكثيرة زروع وحدائق وشجر بري لا يحصى من عنب وتين وزيتون وسماق، ويزرع فيها الشعير والزيتون بنسبة أكثر من القمح، وفيها طواحين كثيرة لطحن الدقيق.(6)

وثالث جهة جبلية هي: عمل **نابلس**، وليس بفلسطين بلدة فيها ماء جار سواها، وباقي البلاد تعتمد على ماء المطر.(7) يذكرها ابن بطوطة في رحلته بأنها مدينة عظيمة، كثيرة الأشجار مطردة الأنهار، من أكثر بلاد الشام زيتوناً، ومنها يحمل الزيت إلى الديارالمصرية والشامية.(8) والحجازية، والبراري مع العربان. ويحمل إلى جامع

---

(1) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص7، ص164، ص181. ناضر خسرو علوي قبادياني المتوفى 418هـ/1088م: سفر نامة، ط2، ترجمة، يحي الخشاب، تصدير،عبدالوهاب عزام، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1993م. ص66.

(2) نهى مكاحلة: المرجع السابق، ص168.

(3) القزويني: المصدر السابق، ص161. القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص100.

(4) ناصر خسرو: المصدر السابق، ص67. يوسف غوانمه: المرجع السابق، ص77.

(5) الإدريسي: المصدر السابق،ج1، ص363.

(6) ناصر خسرو: المصدر السابق، ص84، ص86. مجير الدين الحنبلي: المصدر السابق ج2، ص81.

(7) القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص103.

(8) ابن بطوطة: المصدر السابق، ج1، ص78. مجير الدين الحنبلي: المصدر السابق،ج2، ص75.

بني أمية منه في كل سنة ألف قنطار بالدمشقي، وفيها البطيخ الأصفر الزائد الحلاوة على جميع بطيخ الأرض. ويزرع فيها الكروم واللوز والرمان الشيء الكثير(1)

أما من مدن الجهة القبلية من المملكة الشامية عمل **بيسان**، وهي على الجانب الغربي من الغور، ذات بساتين وأشجار وأنهار وأعين كثيرة، واسعة الرزق،(2) خاصة النخيل، والسامان الذي يعمل منه الحصر السامانية، ولا يوجد نبتة البتة إلا بها، وليس في سائر الشام شيء منه.(3) ومن أعمال دمشق مدينة **بانياس**، ويزرع فيها الأرز، ويجلب منها إلى الشام. وكذلك يزرع فيها الحمضيات.(4)

وفي عمل **أذرعات** (درعا). يزرع القمح بشكل أساسي، ويمكن وصفها بأهراءات بلاد الشام، بسبب كثرة إنتاجها منه. (5) ومن قراها صرخد ذات البساتين والكروم الكثيرة، وليس بها ماء سوى ما يجمع من ماء المطر في الصهاريج والبرك. (6)

ومن أعمال دمشق من القبلة عمل **عجلون**. ذكرت عجلون في "تقويم البلدان" بأنها ذات أشجار وأنهار وبساتين. يكثر فيها الزيتون والكرمة، وأشجار البلوط والأشجار الحرجية إلى يومنا هذا. (7) ومن المدن القبلية كذلك عمل **البلقاء**، ومن مدنها حُسبان وهي بلدة صغيرة ولها واد وأشجار وأرحية وبساتين وزروع. ومدينة الصلت وفيها عين واسعة يجري ماؤها حتى يدخل البلد، وهي بلدة عامرة آهلة ذات بساتين وفواكه. خاصة فاكهة الرمان المجلوب منها مشهور في البلاد. (8) والبلقاء غنية بزراعة القمح

---

(1) شيخ الربوة: المصدر السابق، ص200. ابن الوردي: المصدر السابق، ص151.

(2) القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص103، 104.

(3) المقدسي: المصدر السابق، ص162. الإدريسي: المصدر السابق،ج1، ص356. أبو الفدا: تقويم البلدان، ص243.

(4) أبو الفدا: تقويم البلدان، ص250. ابن شاهين الظاهري، غرس الدين: المصدر السابق، ص46.

(5) القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص105. فادي الياس: المرجع السابق، ص22.

(6) أبو الفدا: المصدر السابق، ص259. القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص107.

(7) المصدر نفسه، ص228، 245. المصدر نفسه، ج4، ص105. نهى مكاحلة: المرجع السابق، ص180، 194، 195.

(8) المصدر نفسه، ص228، ص245. المصدر نفسه، ج4، ص105.

ودليل ذلك ما ذكره أبو الفداء في أحداث سنة 588هـ/1192م، أن السلطان صلاح الدين اشترط على الملك العادل في كل سنة ستة آلاف غرارة تحمل من الصلت(السلط حالياً) والبلقاء إلى القدس.(1)

ومن أعمال دمشق الشمالية **بعلبك** وهي على طرف وادي بردى والبساتين متصلة من هناك إلى دمشق.(2) يحيط بها غوطة عظيمة أنيقة ذات بساتين مشتبكة الأشجار بأنواع الثمرات.(3) كالفواكه والكروم والآجاص حيث تميز بكبر حجمه.(4) والغلات ولذلك كثرت مطاحن الحبوب فيها، ومصانع دبس العنب.(5)

ومن مدن هذه الجهة **بيروت** وهي مدينة جليلة على ضفة البحر الرومي، بها غيضة من أشجار الصنوبر تتصل إلى جبل لبنان.(6) وبها بساتين كثيرة، وشرب أهلها من الآبار. (7) وجبل لبنان من أخصب جبال الدنيا بالفواكه والنباتات، فيكثر فيه اللوز المر والحلو، وفي تفاحه أعجوبة.(8)

وتشتهر مدينة **صيدا** بكثرة أشجارها وأنهارها. يحمل منها التين والزبيب والزيت إلى بلاد مصر. ويزرع فيها قصب السكر بكثرة. وبصيدا سمك بطول الإصبع يصاد ويجفف. (9)

---

(1) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج3، ص81.

(2) أبو الفدا: تقويم البلدان، ص255.

(3) ابن فضل الله العُمري: مسالك الأبصار، ج3، ص364. القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ض110.

(4) الإدريسي: المصدر السابق ،ج1، ص369. القزويني: المصدر السابق، ص156. ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص124.

(5) ابن بطوطة: المصدر السابق،ج1، ص100.الحميري: المصدر السابق، ص109.

(6) الإدريسي: المصدر السابق، ج1، ص371. القلقشندي: المصدر السابق،ج4، ص110، 111. الحميري:المصدر السابق، ص123.

(7) أبو الفدا: تقويم البلدان، ص247. الحميري: المصدر السابق، ص109.

(8) البكري: المصدرالسابق ،ج2،ص35. أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني الأندلس المتوفى 614هـ/1217م: رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت ص260. القزويني: المصدر السابق، ص208.ابن بطوطة: رحلة، ج1،ص99.

(9) ناصر خسرو: المصدر السابق، ص60. ابن فضل الله العُمري: مسالك الأبصار ، ج3، 363. ابن بطوطة: المصدر السابق، ج1، ص80. القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص111. الحميري: المصدر السابق، ص373.

وتبدأ الجهة الشرقية للشام بعمل **حمص**.(1) وهي مدينة ذات بساتين، بظاهرها نهر العاصي ولهم عليه أجنة حسنة، وأكثر زروع رساتيقها* أعناب (2) وزيتون، وقليل من الأرز بعد سحب المياه من نهر العاصي. ومن الزهور النرجس والأقاح.(3) وفي قرى حمص تزرع الفواكه وتجلب إلى المدينة.(4) وفي تدمر تكثر زراعة النخيل والزيتون.(5)

ومن القواعد في البلاد الشامية مدينة **حلب** فهي مدينة كثيرة الخيرات يزرع في أرضها القطن والسمسم والخيار والدخن والكرم والمشمش والتفاح والتين عذباً يسقى بماء المطر فيأتي روياً يفوق ما يسقى بالسيح في غيرها من البلاد.(6) ويزرع فيها الحبوب كالحبة السوداء والانيسون والكراوية*1 وينبت في أرض حلب زهرة يسمونها القرنفل طيبة الرائحة يستقطر ماؤها وهو زكي الرائحة. وبها الفستق الأخضر ولايباع في بلد غيرها، ومنها يجلب يابساً على الجمال إلى الديار المصرية، وسائر المملكة. وبها التين الذي لا يوجد نظيره في بلد من البلاد لا في شكله ولا في مقداره ولا في طعمه ولا في كثرته، فقد بيع الملك الأشرف برسباي بحلب عشرة أرطال حلبية بدرهم فضة.(7) وبها البطيخ بنوعيه، الأخضر ويسمى في حلب الزبش وهو شديد الحلاوة، ويجلب بزره إلى غزة في كل سنة ويزرع. والأصفر السمرقندي قليل في الشام. وبها الخوخ الزجاجي والتل باشري الذي لا يوجد في غيرها. وبها الرمان أنواع بعضه بقدر

---

(1) البكري : المصدر السابق: ج2، ص34. القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص112.

*.مفردها رستاق، وهي المواضع التي فيها زرع وقرى مجتمعة. المعجم الوسيط، ص343.

(2) الاصطخري: المصدر السابق، ص61. أبو الفدا: تقويم البلدان، ص261. ابن الوردي: المصدر السابق، ص106.

(3) ابن فضل الله العُمري: مسالك الأبصار، ج3، ص365. عمار مرضي علاوي: المرجع السابق، ص136.

(4) الإدريسي: المصدر السابق، ج1، ص374. الحميري: المصدر السابق، 198. القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص113.

(5) ابن فضل الله العُمري: المصدر السابق، ج3، ص363. القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص113.

(6) ابن جبير: المصدر السابق، ص228. ابن بطوطة: رحلة، ج1، ص87. ابن فضل الله العُمري: المصدر السابق،ج3، ص369. القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص116. ابن الشحنة: المصدر السابق، ص250.

*1.هي حبوب موصوفة لبعض الأوجاع، ابن الشحنة، ص48.

(7) القزويني: المصدر السابق، ص183. ابن الشحنة : المصدر السابق،ص48، ص252.

البطيخة المتوسطة. كل هذه الأشياء وإن وجدت بغيرها لكنها ليست كما هي بها. (1) ولحلب نهران: أحدهما يعرف بقويق وهو نهرها القديم، والثاني الساحور وهو مستحدث ساقه إليها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، ويجري إلى داخلها فرع ماء يتشعب في دورها ومساكن أهلها، ولكنه لا يشفي غلتها، وبها الصهاريج المملوءة من ماء المطر، ومنها شُرب أهلها.(2)

أما أعمال حلب فهي ذات بساتين وأرحية كثيرة وفواكه كما في عينتاب، وتل بشر، والراوندان، والدر بساك، وبغراس والشغر وبكاس وأنطاكية.(3) ومن فواكه شيزر وحارم الرمان، والذي يظهر باطنه من ظاهره.(4) واشتهرت سرمين بكثرة أشجار التين والزيتون.(5)

ويكثر في منبج زراعة التوت لأجل القز. ويزرع العنب في دركوش، ويذكر القلقشندي أن حبة العنب(القطف) بها بلغت في الوزن عشرة دراهم.(6) أما جبل السماق فهو منبت السماق، والحبوب والمشمش، والقطن والسمسم، والزيتون والزبيب، والحبة الخضراء، وفي بعض ضياع حلب ما يزيد على عشرين صنفاً من الغلات، يحمل إلى

(1) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج3، ص369.ابن الشحنة :المصدر السابق، ص252، ص254.
مروان عاطف الضلاعين: السلع التجارية في الأسواق المصرية في دولة المماليك البحرية(648-784هـ/1250-1382م)، المجلة الاردنية للتاريخ والآثار، المجلد 6، العدد2، 2012م. ص77.

(2) القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص117. الحميري: المصدر السابق، ص197.

(3) أبو الفدا: تقويم البلدان، ص261. عزالدين محمد بن علي بن ابراهيم بن شداد المتوفى 684هـ/1285م: الأعلاق الخطيرة في أمراء الشام والجزيرة، تحقيق، يحي زكريا عبارة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1991م. ج1، ق2، ص100، 108، 133.
القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص121-123. ابن الشحنة : المصدر السابق، ص169، 170، 201.

(4) أبو الفدا : تقويم البلدان، ص259.، 263. القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص123، 124.

(5) ابن شداد،عزالدين: المصدر السابق،ج1، ق2،، ص48.أبو الفدا: تقويم البلدان، ص265. ابن بطوطة:المصدر السابق،ج1،ص85.
القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص126.

(6) ابن شداد: المصدر السابق، ج1، ق2، ص444، ص445. أبو الفدا: تقويم البلدان، ص271.
القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص128،127. ابن الشحنة: المصدر السابق، ص226. الحميري: المصدر السابق، ص547.

مصر والعراق.(1) ومن قواعد المملكة الشامية **حماة،** وهي بلدة زراعية. وموارد تجارتها من الحنطة والشعير، وبخارج هذه المدينة بسيط فسيح عريض قد أنتظم أكثره شجرات الأعناب.(2) والمشمش اللوزي.(3) والكافوري الذي لم يرَ سائر الآفاق مثله أصلاً.(4) والتين والرمان والتفاح والبطيخ بنوعيه الأخضر والأصفر. ومن الحبوب الحنطة والشعير والذرة والعدس.(5) وتسقى أكثر محاصيلها بواسطة نواعير على نهر العاصي، تدور بذاتها وترفع الماء إلى البساتين والغيطان.(6) ومن نواحي وأعمال حماة مدينة **المعرة،** وهي مدينة عامرة كثيرة الفواكه والثمار. ومن محاصيلها الزيتون والكروم. والمشمش والرمان والتفاح. واللوز والجوز. (7) والتين والفستق ويحمل فستقها إلى مصر والشام. ويصل التفاف بساتينها مسيرة يومين، وليس في شيء من نواحيها ماء جار ولا عين، وشُرب أهلها من ماء السماء. وفي معرة مصرين يزرع البصل والثوم والكسفره والحبة. (8)

أما **طرابلس** فهي من قواعد المملكة الشامية على بحر الروم، ذات كروم ومروج عامرة الخيرات والثمرات. كالزيتون والعنب وقصب السكر، والجمّيز والمحمضات الكثيرة والقلقاس، وبها الجوز واللوز والموز، وتتبع مدينة اللاذقية طرابلس ويزرع فيها

---

(1) كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة بن العديم المتوفى 660هـ/1261م: بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق، سهيل زكار،11ج دار الفكر، بيروت. ج1، ص60. القزويني: المصدر السابق، ص207. ابن الشحنة: المصدر السابق، ص149، 169.

(2) ابن جبير : المصدر السابق ، ص231. الحميري: المصدر السابق، ص199. أحمد الصابوني: المصدر السابق، ص60.

(3) ابن بطوطة : المصدر السابق ، ج1، ص83. ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص160، ص162.

(4) شيخ الربوة: المصدر السابق، ص206، 207. المصدر نفسه، ج1، ص160، ص163.

(5) متعب حسين القثامي: مملكة حماة في العصر الأيوبي (574-698هـ/1178-1299م)، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، السعودية، 1993م. ، ص439. إيمان بنت عبد الحليم: المرجع السابق، ص286.

(6) أبو الفدا: تقويم البلدان، ص263. ابن فضل الله العُمري: مسالك الأبصار، ج3، ص366. ابن الشحنة: المصدر السابق، ص268.

(7) الإدريسي: المصدر السابق، ج2، ص652. ابن جبير: المصدر السابق، ص229. شيخ الربوة: المصدر السابق، ص205. أبو الفدا: المصدر السابق، ص265. ابن بطوطة: المصدر السابق،ج1، ص84. القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص142. الحميري: المصدر السابق، ص555.

(8) ابن جبير: المصدر السابق، ص229. ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب ، ج1، ص134،127. ابن بطوطة: المصدر السابق، ج1، ص84. الحميري: المصدر السابق، ص555.

الزيتون. (1) وتكثر المحاصيل الزراعية في القاعدة الخامسة للمملكة الشامية مدينة **صفد،** فهي ذات بساتين تشرف على بحيرة طبرية. ومن أعمالها الناصرة ومن عجائبها شجرة الأترج*. (2) ويكثر في طبرية العنب فيقال إن بها سبعين نوعاً من العنب.(3) ومن أعمال صفد ثغر شقيف حيث يكثر فيه الكمثري المعطر الرائحة الطيب الطعم، والأتريج ما تكون التمرة الواحدة نحو ستة أرطال دمشقية، وفي جبل عاملة يكثر الزيتون والخروب والكروم، ويزرع الأرز في جبل تبنين، والسفرجل في مرج عيون.(4)

وتاتي مدينة **الكرك** القاعدة الأخيرة في المملكة الشامية وهي من البلقاء في الاردن ذات بساتين كثيرة وفواكه. كالمشمش والرمان والكمثري، ومن عملها الشوبك ويزرع فيها المشمش وغيره، وتنقل إلى ديار مصر،(5) أقطعها صلاح الدين مع الكرك إلى أخيه العادل فأعطاهما لابنة المعظم عيسى فاعتنى بهما وجلب للشوبك غرائب الأشجار حتى تركها تضاهي دمشق في بساتينها. وبالقرب من الشوبك جبال الشراه ومدينتها أذرح حيث يكثر فيها الزيتون واللوز والتين والكروم والرمان.(6) ومن المحاصيل الشتوية التي كانت تزرع في محيط الكرك القمح والشعير، حيث جمع نائب غزة من الشوبك ثلاثة آلاف غرارة من الشعير.(7)

---

(1) الإدريسي: المصدر السابق،ج1، ص372.القزويني: المصدر السابق، ص408. شيخ الربوة: المصدر السابق، ص208.
أبو الفدا: المصدر السابق، ص253. ابن فضل الله العُمري: مسالك الأبصار ، ج3، ص371 ابن بطوطة: المصدر السابق، ج1، ص98. القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص142، 143. ابن الشحنة: المصدر السابق، ص263. الحميري: المصدر السابق، ص507.

*.شجرة حمضيات، ثمرتها على هيئة النساء، القزويني، المصدر السابق، ص277.

(2) القزويني: المصدر السابق، ص277. القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص149، 150.

(3) ناصر خسرو: المصدر السابق، ص63. شيخ الربوة: المصدر السابق، ص192. الحميري: المصدر السابق، ص386.

(4) شيخ الربوة: المصدر السابق، ص211. القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص154.

(5) أبو الفدا: تقويم البلدان، ص247. المصدر نفسه، ج4، ص155، 156.

(6) الإدريسي: المصدر السابق، ج1، ص357. ابن فضل الله العُمري: مسالك الأبصار، ج3، ص378.

(7) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج10، ص46. محمد عدنان البخيت: المرجع السابق، ص34.

2.الأثر السياسي والطبيعي في الناتج الزراعي.

عانى الفلاح الشامي بشكل عام والقطاع الزراعي بشكل خاص في بلاد الشام في العصر المملوكي الثاني من عوامل سياسية، وأخرى طبيعية.(1) فقد ابتكر سلاطين المماليك ضرائب فرضوها على الأرض والمحصول الزراعي مثل ضريبة الخراج والعشر والطرح والرمي* وضريبة الحطب، وضريبة الشعير.(2)

ففي طرابلس فرضت ضريبة على قصب السكر بعد عصره، وغالباً ما استولت السلطات المملوكية على كامل الانتاج واحتكرته لتستهلكه. (3) فقد ذكر المقريزي أنه نودي في دمشق عام 806هـ/ 1404م، بإبطال مكس الفاكهة والخضروات بأمر من الأمير شيخ، وكتب بذلك للسلطان، فرسم به. وفي سنة 811هـ/1409م، طلب الأمير شيخ نائب الشام من أهل دمشق مالاً كثيراً، وفرض على القرى شعيراً يقوم به أهلها. وفي سنة 812هـ/1410م قدم من مصر عدة من المماليك السلطانية، وفيه فرض على قرى المرج والغوطة وعلى بلاد حوران وغيرها، شعير يقوم به أهل كل ناحية بقدر معلوم، فاشتد الأمر في جبايته على الناس. (4)

كما ساهمت الحروب في خراب القرى والقضاء على الزراعة، فكان العسكر يعوثون فساداً في القرى والبساتين والمزارع والكروم، فيأخذون ويأكلون وينهبون قرى كثيرة.(5) وعمدت السلطات إلى تجنيد الفلاحين في المناطق الجبلية في فلسطين، بسبب

---

(1) حسام الناطور: دولة المماليك في عهد برقوق: ص206.

*. وهو البيع والشراء القسري من قبل السلطة. الرمي:فرض مبلغ من المال على حارة أو حي. انطوان ضومط،المرجع السابق ص416

(2) آمنة الشريدة: المرجع السابق، ص216.

(3) النويري: المصدر السابق، ص192.، ص197.المقريزي: السلوك،ج7، ص169.إبراهيم زعرور: المرجع السابق، ص235.

(4) المقريزي: السلوك، ج6، ص102، ص206، ص230.

(5) ابن طولون: إعلام الوَرَى، 193. أحمد عبد الكريم سليمان: تيمور لنك ودولة المماليك الجراكسة، ط1، دار النهضة العربية، 1985م. ص26، 27. إيمان مقابلة: المرجع السابق، ص140.

نقص الرقيق.(1) ولم يسلم الفلاحون ومحاصيلهم الزراعية من أذى العربان وبطشهم، فكثيراً ما أغار العربان على الأرياف، وردت السلطة عليهم بالحملات فأصبح الفلاح ومحاصيله بين الطرفين الخاسر الأكبر.(2) وفي هذا العهد لم يظهر نواب الشام من المماليك أثناء حكمهم لها اكتراثا بأحوالها الزراعية الا بمقدار ما يمكن أن تؤديه اقطاعاتها لهم من واردات، ولحكومتهم من أموال، وبذلك أقفرت أراضٍ كثيرة من ساكنيها، وتركت الأرض بدون زراعة.(3) وقد أدت هذه السياسات وفي كثير من الأحيان إلى فرار الفلاحين من أراضيهم الزراعية، للتخلص من وطأة الضرائب الكثيرة المفروضة عليهم، والظلم الذي لحق بهم من كبار رجال الدولة، لدرجة أن الفلاح كان يدفع ثمن المخاطر العسكرية (4) وإذا ما نجا الفلاح من ظلم الانسان واستغلاله، لا ينجو في كثير من الأحيان من كوارث الطبيعة. وحدث مرارا أن تضافرت الطبيعة ورجل الإقطاع والسلطة للعمل ضد الفلاح المسكين، فانحبست الأمطار وحدثت الزلازل وانتشرت الأوبئة أو جاءت الفيضانات فألحقت الدمار بمسكنه وحقله.(5)

لقد شهدت بلاد الشام خلال الفترة المملوكية الثانية وفي سنوات مختلفة انحباساً للأمطار كان له أكبر الأثر على الزراعة مما انعكس أثره على الانسان والحيوان على حد سواء ففي سنة 818هـ/ 1415م، كان الغيث قليلاً، فلم ينجب القمح، ولا حصل فيها وقت الحصاد طائل، فوقع الغلاء بأرض الشام.(6) وأجدبت أراضي بلاد حوران والكرك والقدس والرملة وغزة سنة 825هـ/1422م لعدم نزول المطر، فنزح كثير من سكان هذه البلاد عن أوطانهم، وقلت المياه عندهم.(7) ولم تزرع أراضي حوران بالشام

---

(1) إبراهيم زعرور: المرجع السابق، ص235.

(2) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج3، ص451، 463، 488.

(3) حياة ناصر الحجي: السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك،ط1،جامعة الكويت،1997، ص90.فريال بدوي:المرجع السابق، ص170.

(4) السبكي: المصدر السابق، ص34. حياة ناصر الحجي: المرجع السابق، ص90. نهى مكاحلة: المرجع السابق، ص238.

(5) إبراهيم زعرور: المرجع السابق، ص241.

(6) المقريزي: السلوك، ج6، ص365.

(7) المصدر نفسه، ج7، ص56.

سنة831هـ/1425م، لعدم نزول المطر، وقد هلك النحل من قلة المراعي، وعز وجود الفول، وقل الحمص.(1) وفي سنة 873هـ/1468م كان غلاء للأسعار بالشام بسبب انحباس الأمطار. وتكرر انحباس المطر سنة 888هـ/1384م، فحصل بذلك غلاء في القمح والشعير، إلى أن وصل ثمن غرارة القمح إلى خمسمائة، والشعير إلى ماتين وخمسين للغرارة.(2) ولم يكن انحباس الأمطار وحده يؤثر على الزراعة، بل كثرة هطول المطر، وشدة البرّد والهواء والثلج تؤثر كذلك. ففي سنة 787هـ/1385م وقع بدمشق مطر عظيم كأفواه القرب، وبرد شديد رمى طيوراً كثيرة، ونثر جميع الفواكه. وفي سنة 841هـ/1437م، هبت بدمشق ريح شديدة، فاقتلعت من شجر الجوز مالا يمكن حصره لكثرته.(3) وفي سنة 888هـ/1483م أتلف البرد غالب زهر اللوز وبعض الحمضي والزرع. ومن شدة البرد سقط محصول المشمش من على الشجر في حماة سنة 890هـ/1485م، وفي سنة 896هـ/1489م، كسرت أشجار الزيتون في دمشق بسبب تراكم الثلوج. (4) وفي السنة التالية بلغ حجم حبّة البردُ في الشام أوقية ونصف، ومن شدة الهواء كسرت الأشجار، وأخربت البيوت.(5)

وكان للحشرات والآفات أثر كبير على الزراعة ففي سنة 803هـ/1401م أقبل على دمشق جراد حجب من كثرته الشمس عن الأبصار، فأتلف جميع ما تنبته الأرض أرض الشام من غزة إلى الفرات، حتى لم يدع بها خضراً من شجر. وفي سنة 888هـ/1483م أكل الجراد أوراق الشجر وبعض ثمار الفاكهة الشتوية. (6)

---

(1) المقريزي: السلوك ، ج7، ص177.

(2) ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص187، ص200. ابن الحمصي: المصدر السابق، ج1، ص117، ص194، 195.

(3) المقريزي: السلوك، ج7، ص348. ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، ج3، ص156.

(4) ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص49، ص229. ابن طولون: مفاكهة الخلان، ج1، ص59، ص112.

(5) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج1، ص235.

(6) المقريزي: السلوك،ج6، ص63. ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص260.هيفه صالح صلاح الساعدي: الأوبئة والأمراض في العصرين الأيوبي والمملوكي في مصر والشام، رسالة ماجستير، جامعة طيبة، السعودية، 2012م، ص66.

وفي سنة 890هـ/1485م أكل الجراد زروعاً قد أسبلت في الحولة والبقاع(1) وبيروت والغوطة، ثم وصل إلى النيرب* والمزة وكفرسوسة والصالحية*1 فخرب كثيراً في الزيتون والتين والباذنجان وغيره.(2) وفي سنة 894هـ/1488م، دخل دمشق جراد فمر على أشجارقرية المزة وفي ساعة واحدة رعت أوراق التين والقنبيط وغير ذلك ، ثم غدت إلى جهة القبلة.(3) وفي سنة 917هـ/ 1511م، أفسدت الفيران محصول القمح والشعير في البقاع اللبناني.(4) أما الزلازل فكان دورها كبيراً في خراب القرى الزراعية ، وتدمير محصولها، وتشريد سكانها، ففي سنة 806هـ/1404م، زلزلت طرابلس واللاذقية وجبلة، وعدة بلاد في الجبل، فهدمت مباني عديدة.(5) وتكررت في عام 811هـ/ 1409م، في حلب وطرابلس واللاذقية، وبلغ من شدتها أن بلد السلفوهم كانت فوق رأس جبل، فنزلت عنه، وانقلبت قدر ميل بأهلها وأشجارها ومواشيها.(6) ووقعت في مدينة الكرك سنة 863هـ/1458م، زلزلة مهولة أخربت أماكن من قلعتها ودورها وأبراجها.(7) وحصلت زلزلة سنة 886هـ/1481م، ماجت منها مدينة دمشق.(8) وتفشى الطاعون*2 ببلاد الشام سنة 812هـ/1409م، بحمص وحماة وطرابلس فمات ألوف الناس.وفي السنة التالية تفشى في دمشق وحوران*3 وطرابلس

---

(1) ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص451.

*.قرية شامية تقع في سفح حبل قاسيون في دمشق، تكثر فيها الأشجار المثمرة، ابن بطوطة: رحلة، ج1، ص119.

*1.الصالحية مدينة عظيمة في الشام لها سوق لا نظير لحسنه، وفيها مسجد جامع ومارستان. المصدر نفسه، ج1، ص116.1

(2) ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص451، ص455، ص486.

(3) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ج1، ص88، 91.

(4) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج3، ص477.

(5) المقريزي: السلوك، ج6، ص104.

(6) المصدر نفسه، ج6، ص213، 214.

(7) خالد يونس الخالدي: الزلازل في بلاد الشام، مجلة الجامعة الأردنية، ج13، العدد1، 2005م ، ص67-92.

(8) ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص43.

*2.نوع من الوباء، وهو ورم قتال، يخرج معه تلهب شديد مؤلم جداً، ويصير ما حوله أسوداً أو أخضراً، ثم يؤول إلى التقرح سريعاً، هيفه الصاعدي: الأبئة والأمراض، ص71.

*3.من أعمال دمشق، ومدينتها بصرى، تسير في صحراء حوران عشرة فراسخ في منازل ومزارع حتى تصل إلى مدينة بصرى، وهي مدينة حوران.الحميري: المصدر السابق، ص201.

وبالس. وفي سنة 814هـ/1411م، كان أكثر فتكاً بالناس حيث توفي عشرات الآلآف، حتى أن الزرع استمر قائماً لا يجد من يحصده.(1) وفي سنة 816هـ/1413م، تفشى الطاعون في حلب وحماة. ثم عاد سنة 825هـ/1422م، إلى حلب وحماة وحمص وأهلك خلائق. وفي السنة التالية عظم الوباء بدمشق، وفشا في البلاد إلى غزة، وعدة من مات به بصالحية دمشق زيادة على خمسة عشر ألف إنسان.(2) وكثر الوباء بغزة والرملة سنة 832هـ/1429م. وفي السنة التالية فشا في حماة وحمص. وفي سنة 841هـ/1437م، انتشر الموت في الناس بمدينة حماة، وكثر بدمشق، وشنع بحلب وأعمالها.(3) وتفشى أيضا في سنة 874هـ/1469م، في دمشق حتى صعب عد الموتى. وسنة 917هـ/1511م، أصاب الطاعون بقر الشام حتى أن بعض البلاد صاروا يحرثون على الآدميين، وأن غالب ضواحي دمشق لم يقدروا على الزرع لموت البقر.(4) وانتشر الطاعون في دمشق سنة 919هـ/1513م واشتد أمره، فأعلن أهلها التوبة، وذلك بصيام ثلاثة أيام، والخروج إلى الصحراء.(5) لقد مات ثلثا سكان القرى من هذا الوباء، مما دفع من تبقى إلى الهجرة إلى المدن، فتسبب ذلك في قلة المزارعين وبالتالي قلة المحاصيل.(6) وقد يعود السبب إلى جملة من الأسباب، ولكن من أهمها فساد كل من الهواء والماء، وتلعب الحيونات والحشرات المصابة مثل الفئران والبراغيث التي تعيش ملاصقة لجسم الفئران، دوراً كبيراً في نقل عدوى الطاعون للإنسان.(7)

---

(1) فيصل عبدالله بني حمد: أثر الكوارث الطبيعية على الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر المملوكي(648هـ-922/ 1250-1516م) حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الرسالة 272 الحولية الثامنة والعشرون2008.ص20، ص22، ص23.

(2) المقريزي: السلوك، ج6، ص230، 258، 354، ج7،ص57، 76، 78، 80.

(3) المصدر نفسه، ج7، ص192، 208، 343، 345، 347.

(4) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج1، ص118. ج3، ص477.

(5) فيصل بني حمد: المرجع نفسه، ص28.

(6) مبارك محمد الطراونه: الأوبئة (الطواعين) وآثارها الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة(784-922هـ/1382-1516م)، المجلة الاردنية للتاريخ، المجلد 4، العدد3، 2010م. ص46-61.

(7) هيفه الصاعدي: المرجع السابق، ص73، ص74.

ب. الصناعات الشامية

ازدهرت الصناعة في العهد المملوكي الثاني نتيجة كثرة الثروات. وتفنن الصُناع في الصناعة والاهتمام بالسلع لعرضها في الأسواق وبيعها بأسعار جيدة مع وجود أصحاب الثروات الذين اقتنوا المواد والسلع، وبذلك نهضت الصناعة وفاضت الخزائن بالأموال.(1) واعتمدت الصناعة في الشام بشكل أساسي على توفر المواد الخام التي ساعدت على ازدهار الصناعة بمختلف أنواعها. وأهمها توفر المنسوجات الطبيعية كالحرير والقطن والكتان. وتوفر المواد المعدنية من حديد ونحاس. إضافة إلى توفر مواد الخام الزراعية ومنها الزيتون والعنب والمشمش والقراصيا* وما كان يستفاد من أخشابها.(2) وتدلنا كثرة الصناعات المنتشرة في دمشق على سبيل المثال على مدى التقدم في الصناعة في هذه الفترة، وعلى الرغم مما تعرضت إليه الشام من حوادث خارجية وأخرى داخلية إلا أن هذا لم يقضِ على الصناعات، ويعود السبب في ذلك إلى عدم تعقيد هذه الصناعات، إذ إنها لا تحتاج إلى آلات ضخمة أو دقيقة، وإنما كلها صناعات خفيفة. وقد أدت الحركة الصناعية في الشام إلى تطور المدينة، فاتسعت الأسواق اتساعاً جديداً، فأخذت محلات البيع والشراء تتميز مائلة إلى الاختصاص بالنسبة إلى زبائنها. ولكل أهل حرفة نظاماً ثابتاً، فإذا كان الوالد جوهرياً تعذر على الابن أن يمارس حرفة أخرى، وهكذا قضت الظروف على أبناء الحرفة أن يتقنوها إتقاناً تاماً.(3) ويرأس كل حرفة شيخ ليقف على مشاكلهم ويرجعون إليه في كل ما يهم شؤون حرفتهم.(4)

---

(1) مفيد الزيدي: المرجع السابق، ص234. سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص288.

*.شجرة أغصانها مبسطة، ولها ورق مثل ورق المشمش، ولها ثمرة شبيهة بحبة العنب، يصنع منها المربى. بوران لبنية: المرجع السابق ص194.

(2) بوران لبنية: المرجع السابق، ص194. عبد الجبار العملة: المرجع السابق، ص186.

(3) فليب حتي : المرجع السابق، ج2، ص289. جان سوفاجيه: المرجع السابق، ص40. فريال بدوي : المرجع السابق، ص169.

(4) هند أبو الشعر: المرجع السابق، ص196، 197. فايزه حجازي: المرجع السابق، ص103.

1. **صناعة السكر:**

شكلت هذه الصناعة أهم الموارد الاقتصادية للدولة المملوكية، وكان يزرع في سواحل الشام.(1) وغور الأردن وبكميات كبيرة.(2) وقد عين لمطابخ السكر في الغور موظف من أرباب السيوف يسمى شد مفرد يولى بتوقيع كريم عن النائب، ثم استقر ذلك مضافاً لمن يتحدث على الأغوار من النائب أو غيره.(3) وتتم عملية الاعتصار بواسطة حجارة الماء، أو الأبقار. وبعد أن يجف ينقل إلى مطابخ السكر، فيحلَ بالماء، وشيء من الحليب، فيطبخ فيصير منه السكر البياض، ومنه ما يكرر ثانياً فيصير في غاية البياض والنقاء، ومنه ما يطبخ نباتاً.(4) ونظراً لأهمية هذه الصناعة فقد تم احتكارها من قبل بعض السلاطين والنواب، ففي سنة 802هـ/1400م، استدعى الأمير تَنَم نائب الشام، أرباب الأموال بدمشق، وطرح عليهم السكر الحاصل من الأغوار. فضر الناس كلهم، بحيث أنه طرح ذلك على الفقهاء والقضاة وأهل الغوطة، فتنكرت القلوب على النائب بهذا السبب، وكثر الدعاء عليه.(5) وفي سنة831هـ/ 1428م، رسم السلطان برسباي أن لا يزرع أحد من الناس قصب السكر، وأن يبقى صنفاً مفرداً للسلطان يزرعه في مزارعه بجميع الإقليم، ويعصره عسلاً وقنداً وسكراً، ويبيعه من غير أن يشاركه في ذلك أحد.(6)

ويذكر ابن طوق في أحداث سنة 886هـ/1382م، أن استادار (من يتولى قبض المال السلطاني) دار السلطان طرح سكر الأغوار بثمانية وعشرين درهماً. مما دفع

---

(1) الإدريسي: المصدر السابق،ج1، ص372، ص374. ابن فضل الله العُمري: مسالك الأبصار، ج3، ص371.

شيخ الربوة: المصدر السابق، ص208. صالح حمارنه: زراعة قصب السكر وصناعته عند العرب المسلمين، حولية دائرة الآثار العامة، العدد 22، عمان، 1977/1978م، ص12-ص19.

(2) ناصر خسرو : المصدر السابق، ص60. القزويني: المصدر السابق، ص142. ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص62.

(3) القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص188.

(4) النويري: المصدر السابق، ج8، ص197.

(5) ابن إياس: المصدر السابق، ج1، ق2، ص556.

(6) المقريزي: السلوك، ج7، ص169. مروان الضلاعين: المرجع السابق، ص68.

تجار سوق الطواقين، وسوق جقمق إلى رفع شكوى للنائب فأشار عليهم بأن يكون بثلاثة وعشرين درهماً للرطل فلم يذعنوا لذلك. فتدخل السلطان وأصدر مرسوماً يُقوم فيه سعر السكر من المعلمين والسماسرة.(1)

وقد توزعت مصانع السكر زمن المماليك في منطقة الأغوار الأردنية ما بين وادي زقلاب ووقاص ووادي العرب وطبقة فحل شمالي الأردن، وكذلك الأمر من صيدا وطرابلس . وكان ينقل بعض إنتاجه إلى القاهرة.(2)

2. **صناعة زيت الزيتون**

اشتهرت بلاد الشام بصناعة زيت الزيتون وذلك لكثرة أشجار الزيتون.(3) وأشهر الزيوت ما يصنع في معاصر لبنان وفلسطين. وهذا يتطلب الكثير من المعاصر والمكابس لإنتاج الزيت وتصنيعه، بتفريق الزيت عن الماء والعناصر الأجنبية المختلطة به، وذلك بترك العصير يروق فيفترق الزيت الصافي لأنه يطفو على وجه العصير. أما الثفل فيسحق ويكبس فيخرج منه زيت أسود يسمى الجفت يستعمل في صنع الصابون. (4) واشتهرت القدس بصناعة الزيت، حيث يحفظ بعد إنتاجه في الآبار والأحواض، ويصدرونها إلى أطراف العالم.(5) أما زيت نابلس فيضرب به الأمثال، ويحمل إلى مختلف الديار.(6)

ويذكر في هذا الصدد أن متحصل السلطان بلغ 1400 قنطار من الزيت سنة 896هـ/ 1490م، كان السلطان يفرضه على التجار في القدس والخليل والرملة بخمسة

---

(1) ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص62، ص66، ص74. محمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص15.

(2) ابن الشحنة: المصدر السابق، ص263. ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص365.

السيد عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة صيدا، موسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 1986م.ص167، ص168. هند أبو الشعر:المرجع السابق، ص73.

(3) ابن بطوطة: المصدر السابق، ج1، ص78.

(4) محمد كرد علي: المرجع السابق، ج6، ص190، ص191.

(5) ناصر خسرو: المصدر السابق، ص67. علي السيد علي: المرجع السابق، ص199.

(6) ابن بطوطة: المصدر السابق، ج1، ص78. شيخ الربوة: المصدر السابق، ص200. مروان الضلاعين: المرجع السابق، ص69.

عشر ديناراً ذهباً للقنطار الواحد، أي أكثر من ثمنه بستة دنانير.(1) ويطلق على الزيت المصنع في دمشق بالركابي، وهو في غاية الصفاء.(2) واشتهرت بلد الأتارب وأرتاح في حلب بصناعة الزيت.(3) وكذلك حمص، و حماة.(4)

3.صناعة الصابون

من أنجح الصناعات المملوكية وكانت مصابنه في حلب وكلز وإدلب وأنطاكية ودمشق وطرابلس واللاذقية وحيفا ورام الله وبعض قرى لبنان. وخير الصابون وأشهره الصابون النابلسي*.(5) وكان صابون نابلس والقدس يصدر إلى البلدان المجاورة كالشام ومصر والحجاز، وإلى أطراف العالم.(6) وذكر الغزي أن عدد مصانع الصابون في قضاء أنطاكية بلغ خمسة عشر مصنعا، وفي سرمين يصنع الصابون الآجري ويجلب إلى مصر والشام، ويصنع أيضاً الصابون المُطَيَّبُ لغسل الأيدي ويصبغونه بالحمرة والصفرة.(7) ومما اختصت به حلب صناعة الصابون، وهو أفخر الصابون ويباع بحلب في اليوم الواحد منه مالا يباع في غيرها في الأشهر.(8) ويصنع الصابون من مادة الجفت وهي من مخلفات الزيتون بعد عصره. ويضاف إليها مادة البوتاس والتي تجمع من الجبال في الصحراء.(9) ومادة أخرى تستخرج من الدردار والشمان* المنتشرة في

---

(1) مجير الدين الحنبلي: المصدر السابق، ج2، ص365-358. يوسف غوانمه: المرجع السابق، ص77.

(2) القزويني: المصدر السابق، ص206.

(3) ابن شداد، عزالدين: المصدر السابق، ج1، ق1،ص363. ابن الشحنة: المصدر السابق، ص149.

(4) إيمان بنت عبد الحليم: المرجع السابق، ص289. عمار مرضي: المرجع السابق، ص137.

*.نوع من الصابون اشتهرت في صناعته مدينة نابلس بسبب كثرة انتاجها من زيت الزيتون. شيخ الربوة: المصدر السابق، ص200.

(5) شيخ الربوة: المصدر نفسه، ص200. محمد كرد علي: المرجع السابق، ج6، ص 159،190.

(6) يوسف غوانمه : المرجع السابق، ص77.

(7) ابن بطوطة: المصدر السابق،ج1، ص85. الغزي: المصدر السابق، ج1،ص389، 524. إحسان عباس: المرجع السابق، ص99.

(8) ابن الشحنة: المصدر السابق، ص254. داود بن عمر الصرير الأنطاكي المتوفى 1008هـ/1599م: تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب،2ج، المكتبة الثقافية، بيروت. ج1، ص221.

(9) Pocoocke: Description of the East, Vol. II p.3.

الأنطاكي: المصدر السابق، ج1، ص222. محمد كرد علي: المرجع السابق، ج4، ص191.

*.نوع من الأعشاب البرية تنمو بكثرة في الجبال، تجمع وتحرق، ويستخرج رمادها في صناعة الصابون. نهى مكاحله: المرجع السابق، ص277.

البلقاء والشراة، ويعتبر رماد الصابون المستخلص من عشبة الشمان التي تنبت في البلقاء من أحسن الأنواع.(1)

4.**صناعة الخمور.**

اشتهرت صناعة الخمور في قرى ومدن بلاد الشام، بسبب كثرة أشجار الكروم من العنب.(2) وقد تخصص في هذه الصناعة من فئات السكان أهل الذمة من اليهود والنصارى. ومن مناطق صناعته في الشام دير كفتون بطرابلس، ودير الطور مابين طبرية واللجّون حيث الكروم الكثيرة. (3) وفي القدس اختص بصناعتها المسيحيون، وهكذا الحال في حلب(4) وتخصص أهل صيدنايا في دمشق ببيع الخمور.(5) وداريا في الغوطة.(6) وكانت معاصر بعلبك تغصّ بأعنابها حيث يصنع بها الدبس والنبيذ وهو نوع من الرُّب يصنعونه من العنب. وفي سنة 885هـ/1381م، يذكر أن حاجب الحجاب وبعض الشيوخ في دمشق أزالوا منكرات وأراقوا خمور كثيرة. وكان قرقماس التَنَمي، أحد مقدمي الألوف بدمشق عنده خمارة ببيته في حارة القصر. (7)

وفي سنة 910هـ/ 1504م، نادى نائب الشام أركماس بإبطال الخمّارات، وأن لا يتاجر أهل الذمة بالخمر، وكانوا يحفرون لهم حفراً في حوانيتهم يجلسون فيها.(8) ويشرح لنا محمد كرد علي في خطط الشام كيفية صناعته حيث يوضع عصير العنب في دنان عظيمة حتى إذا اختمر يضاف إليه الأنيسون، وبعدها يقطر العرق بالأنبيق*

(1) رنا سعد الحمود: حرف وصناعات بلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الاردن،1996م، ص132.

(2) الإدريسي: المصدر السابق، ج1، ص369، 372. ج2، ص651، ص652. ابن جبير: المصدر السابق، ص231.

(3) الغزي، كامل: المصدر السابق، ج1، ص107. حبيب زيات: الديارات النصرانية في الإسلام، مجلة المشرق، السنة السادسة والثلاثون، 1938م، ص320، ص222- 323، ص331.

(4) الغزي: المصدر السابق، ج1، ص107. علي السيد علي: المرجع السابق، ص194، 200.

(5) ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج3، ص438. ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص422.

(6) صالح محمود وهبي: التطور الزراعي الصناعي في غوطة دمشق وأثره في الحياة الاقتصادية بين القرنين العاشر والثامن عشر، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العددان 117-118، 2012م. ص228، 229.

(7) ابن بطوطة: المصدر السابق، ج1، ص100. ابن طوق: المصدر السابق،ج1،ص37،36. إيمان مقابلة: المرجع السابق، ص147.

(8) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص232. إعلام الوَرَى، ص188.

*.جهاز تقطر به السوائل، المعجم الوسيط ، ض29.

فيكون مقداره ربع العصير تقريباً.(1) بالإضافة إلى الخمور، وجدت زراعة الحشيش والمتاجرة فيه. ففي سنة 890هـ/1485م يذكر ابن طوق أنه تم إتلاف وإحراق حشيش يباع جهرةً في منطقة العين المدورة.(2)

5. صناعة طحن الغلال

تصنع المطاحن من أحجار رحى يديرها الماء بقوة انحداره. وأقيمت المطاحن في بلاد الشام على مجاري السيول والأنهار من أجل ديمومة استمرارها، وكانت تستعمل لطحن كافة أنواع الغلال والحبوب.(3) ففي مدن بعلبك وحلب ودمشق وحمص بنيت الرحاء والمطاحن على الأنهار وعيون الماء،(4) ووجدت طاحونة القليلة في حوران بسبب غزارة القمح فيها.(5) ويذكر أنّ: " عَمّان ورستاقها البلقاء معدن الحبوب، بها عدة أنهار وأرحية يديرها الماء.(6) وهناك بعض الطواحين كانت تدار بواسطة البغال والثيران كما في مدينة الخليل في فلسطين. وتقوم هذه المطاحن بطحن الدقيق خاصة، وذلك لصنع الخبز.(7)

6.صناعة الحصير:

وقد تخصصت بيسان* بهذا النوع حيث ينبت فيها السامان الذي يعمل منه الحصر السامانية.(8)

---

(1) الغزي، كامل: المصدرالسابق، ج1، ص122. محمد كرد علي: المرجع السابق، ج4، ص191.

(2) ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص431.

(3) إيمان مقابلة: المرجع السابق، ص149. محمد كرد علي: المرجع السابق، ج4، ص192.

(4) ابن شداد: المصدر السابق، ج1، ق2، ص69. الحميري: المصدر السابق، ص109. 19. 240.
عمار علاوي: المرجع السابق، ص138.

(5) ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص177.

(6) المقدسي: أحسن المصدر السابق، ص175. مروان الضلاعين: المرجع السابق، ص65.

(7) ناصر خسرو: المصدر السابق، ص86.

*. مدينة صغيرة بالشام من غور الأردن، وتنسب الخمر الطيبة إليها. الحميري: المصدر السابق، ص119.

(8) ناصر خسرو: المصدر نفسه، ص64. الإدريسي: المصدر السابق، ج1، ص356.

وفي طبرية تصنع الحصر السامانية بأشكال عجيبة. وصنع الحصير في الكرك من نبات الحلفاء، وكان يزرع في منطقة الشونة في غور الأردن. (1)

7.صناعة العطور:

وجدت صناعة العطور في الشام بسبب كثرة الورود فيه ذات الرائحة الطيبة.(2) فقد اشتهرت مدينة الزبداني والمزّة في الشام، ومدينة الباب في حلب.(3) واستقطر من ورد الشام ماء الورد، ونقل إلى سائر الأقطار.(4)

8.صناعة تجفيف الفواكه:

وجدت هذه الصناعة لكثرة الإنتاج من التين والعنب والمشمش والخوخ والإجاص والتفاح وغيرها.(5) فقد اشتهرت دمشق بتجفيف القطين والزبيب، في جيرود والرحيبة والريحان ودومة ، ويليه زبيب الصلت شرق الأردن . (6) ولا نظير لقطين الرملة في الشام.(7)

9.صناعة الخشب:

لكثرة أشجار الصندل والصنوبر والسرو واشتهرت كل من مدينة بيروت وبعلبك.(8) وجبل لبنان، وجبل نبنين، بكثرة أخشابها. (9)

---

(1) ابن الوردي: المصدر السابق، ص104.الحميري: المصدر السابق، ص386. يوسف غوانمه: التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، ط2، دار الفكر للنشر والتوزيع،عمان، 1982م. ص111.

(2) البدري: المصدر السابق، ص118، 121، 133، 137، 152، 153، 182.

(3) شيخ الربوة: المصدر السابق، ص195، 198. ابن الشحنة: المصدر السابق، ص252.

(4) القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص87.االمصدر نفسه، ص252.

(5) البدري: المصدر السابق، ص359- 360. محمد كرد علي: المرجع السابق، ج4، ص189.

(6) ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص386. المرجع نفسه، ج4، ص190.

(7) المقدسي: المصدر السابق، ص181.

(8) الإدريسي: المصدر السابق، ج1، ص371،ج2،ص646. ابن بطوطة: رحلة،ج1، ص100. الحميري: المصدر السابق، ص109.

(9) شيخ الربوة: المصدر السابق، ص200، 211.ابن فضل الله: مسالك الأبصار، ج3، ص356. البدري: المصدر السابق، ص351.

10. صناعة المنسوجات

وقد زاد عدد المشتغلين بها على مئة صنف، منها عشرة أصناف لصناعة النسيج القطني. وكان يزرع في الشام وحلب وطرابلس وبيروت وعكا وحماة.(1) فقد صنع في دمشق من القماش والنسيج على تعداد نقوشه وضروبه ورسومه، وفيها صنع القماش الأطلس والهرمزي، والسابوري، والقماش الأبيض القطني.(2) وصناعة ثياب الحرير كالخز والديباج النفيس.(3) وكان يفرض على تجار الحرير في دمشق شيء من الضرائب، وهذا ما دفع التجار إلى الاحتجاج.(4) وصنعة نسج الأقمشة في حلب صنعة السواد الأعظم من أهلها، فقد وجد لهذه الصنعة نحو خمسة عشر ألف منوال يحاك عليها القطن والغزل والحرير والملاحف والعباءات. وكان يلزم لتشغيل كل منوال عدة أشخاص من الصناع والعملة ما بين حايك وصبّاغ وفتّال ودقّاق وشطّاف وقصّاروصقّال.(5) وكانت منبج في حلب مشهورة بتربية دودة القز حتى قيل إن كلمة منبج تحريف منفذ يعنون بها منفذ الحرير.(6) ومنها صنعة القز وتعرف بالعقادة وهي عبارة عن تنويع السلوك الحريرية والغزلية إلى أنواع شتى كالسفائف والبنود والقيطان والأزرار والعُرى، وأكثر من يشتغل في هذه الصنعة النساء.(7)

استمرت هذه الصناعة في ازدهار حتى اجتاح تيمورلنك المدينة سنة803هـ/1400م، فدمر مصانع الحرير وسبى مهرة الصناع.(8) ويصنع في بعلبك

(1) القزويني: المصدر السابق، ص183. ابن بطوطة: المصدر السابق، ج1، ص85. أكرم العلبي: المرجع السابق، ص238.

(2) البدري: المصدر السابق، ص362. ديماند، م، س: الفنون الإسلامية، ترجمة أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم أحمد فكري، دار المعارف، مصر،الطبعة 1982م. ص258.

(3) الإدريسي: المصدر السابق، ج1، ص369. الحميري: المصدر السابق، ص240. فادي الياس: المرجع السابق، ص36.

(4) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص121، 122.

(5) الغزي، كامل: المصدر السابق، ج1، ص101، 102. فليب حتي: المرجع السابق، ج2، ص278.

(6) المصدر نفسه، ج1، ص515.

(7) المصدر نفسه، ج1، ص103.

(8) المقريزي: السلوك، ج6، ص43. لابدوس: المرجع السابق، ص59. زياد المدني: المرجع السابق، ص257.

الثياب المنسوبة إليها من الإحرام.(1) وقد حازت الثياب البعلبكية شهرة لدى المماليك إذ كانت معتمدة في أزيائهم.(2) أما حمص فتتلو إسكندرية مصر فيما يُعمل فيها من القماش الفائق على اختلاف الأنواع وحسن الأوضاع. حيث يتم فيها نسج الصوف الأبيض مع الحرير مما أكسبها شهرة فائقة وذاع صيته في بلدان أوروبا. ووجدت في حماة صناعة المنسوجات الحريرية.(3) ولم تقتصر الصناعات النسيجية في الشام على صناعة الحرير فقط، وإنما وجدت صناعة **للمنسوجات القطنية**. بسبب توفر القطن في مدن حلب وجبل السماق، ودمشق وطبرية وعكا وحماة وسرمين واللاذقية.(4) وقد أثارت صناعة الثياب القطنية في سرمين دهشة ابن بطوطة.(5) وتميزت حماة دون غيرها من البلدان بصناعة المنسوجات القطنية من الشراشف، والمناشف المسماة بالبياض. ويعمل في صور من الثياب البيض كل شيء حسن عالي الصفة والصنعة ثمين القيمة، وقليلا ما يصنع مثله في البلاد المحيطة. (6)

ومن صناعات المنسوجات كذلك **صناعة البسط**، واشتهرت فيها كلٌّ من الكرك والشوبك، وتخصّص فيها النصارى، وقد نالت إعجاب الملوك والسلاطين لنفاستها وإحكام صناعتها وجمال مظهرها.(7) لذلك أمر السلطان برقوق أن يفرش الإيوان، الذي يقال له دار العدل، من قلعة الجبل، ودهاليز القصر الكبير بالبسط التي صنعت في الكرك والشوبك.(8) واشتهرت البسط الشوبكية وبسط آعناك في البلقاء، وفي حوران

---

(1) ابن بطوطة: المصدر السابق، ج1، ص100.

(2) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج2، ص288.إحسان عباس: المرجع السابق، ص114.لابدوس: المرجع السابق، ص48.

(3) ابن الشحنة: المصدر السابق، ص274. أحمد الصابوني: المرجع السابق، ص60.

(4) القزويني: المصدر السابق، ص183، 207.البدري: المصدر السابق، ص 363. إحسان عباس: المرجع السابق، ص116.

(5) ابن بطوطة: المصدرالسابق، ج1، ص85. الغزي: المصدر السابق،ج1، ص524.

(6) الإدريسي: مسالك الأبصار، ج1، ص366. متعب القثامي: المصدر السابق، ص440.

أحمد الصابوني: المرجع السابق، ص60. إيمان بنت عبد الحليم:المرجع السابق، ص288.

(7) يوسف غوانمه: التاريخ الحضاري، ص113، ص114. فايزة حجازي: المرجع السابق، ص119.

(8) ابن إياس: المصدر السابق، ج1، ق2، ص358.

ودمشق وجبل قلمون وحمص وحلب ألوف من الأنوال تحيك البسط من الصوف الخالص.(1) وذكر ابن الوردي أن ملطية وحدها كان فيها اثنا عشر ألف نول تصنع الصوف.(2) وارتبط بصناعة المنسوجات كذلك **صناعة الجلود** ودباغتها لوفرة الثروة الحيوانية في بلاد الشام في ذلك الوقت، حيث تصنع منها الأحذية والسروج والمطارح والمقاعد والقرب والروايا والمحافظ والمطاهر والركوات وغيرها.ونذكر هنا مدينة حماة ودمشق وبيروت وطرابلس وحلب. وتحتاج الجلود عادة لصنعة الدباغة حيث يدبغ الجلد الأبيض والأحمر والقرمزي والأصفر. (3)

11. الصناعات المعدنية.

ذكر أحد الرحالة الأوروبيين أن ما يصنع في دمشق هو أكثر مما يصنع في أي مكان آخر في الدنيا، من الذهب والفضة والنحاس والزجاج، وكل تلك الصناعات مزخرفة بنقوش من الأشكال والأوراق.(4) ومن أهم هذه الصناعات صناعة الأسلحة، وتصنع في خزائن السلاح في دمشق المجانيق والزردخانات* ويحمل إلى جميع نواحي الشام.(5) ويطلق على صناع السلاح في الفترة المملوكية الزردكاشية.(6) وقد تخصصت مدينة دمشق **بصناعة السيوف،** وتسمى بالسيوف المدمشقة. وكان لها شهرة واسعة في أوروبا، وقد بلغ من إتقان صنعها أنها كانت مصقولة كالمرآة، كما أنها تقطع بدرجة

---

(1) ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص535. محمد كرد علي: المرجع السابق، ج4، ص227.

(2) ابن الوردي: المصدر السابق، ص110. ابن الشحنة: المصدر السابق، ص195.

(3) ابن الشحنة: المصدر السابق، ص147. الغزي، كامل: المصدر السابق، ج1، ص104.

محمد كرد علي: المرجع السابق، ج4، ص206. إيمان بنت عبد الحليم: المرجع السابق، ص290.

(4) أكرم العلبي: المرجع السابق، ص239.

*.هو المكان المخصص لحفظ السلاح والعتاد الحربي، وقد تطلق على السلاح نفسه. محمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص86.

(5) ابن فضل الله العُمري: مسالك الأبصار، ج3، ص355. البدري: المصدر السابق، ص363.

(6) محمد دهمان: المرجع السابق، ص86.

عالية من الإتقان.(1) وكتب نائب الشام قانصوة البرجي سنة 907هـ/1501م. على تجار القسي والنشاب والسيوف والسيور، أن لا يبيعوا منها شيئاً إلا للتُرك فقط.(2)

ووجدت صناعة الأسلحة في حلب. وطرابلس.(3) وعندما جاء الغزو التتري للشام قام تيمور لنك بأسر جميع العمال، وبخاصة صناع السيوف المهرة ونقلهم إلى سمرقند.(4) واشتهرت في الشام **صناعة الذهب** المسبوك والمضروب والمجرور والمرفوع والممدود والمرصوع.(5) ويصدّر منها إلى مصر قصب الذهب الذي كان عبارة عن خيوط الحرير الطبيعي مع خيوط الذهب. وعرفت حلب صناعة الصياغة، وتركيب الماس والياقوت والأحجار الكريمة، وأكثر من يعمل بها النصارى.(6) واشتهرت دمشق **بصناعة النحاس،** ففيها يصنع النحاس من الضرب والتفصيل والنقوش التي تشرح صدر الناس. (7) وفي حلب يصنع النحاس الأصفر والأحمر. ويستخرج النحاس في حلب من جبل جوشن.(8)

ج. صناعة الزجاج

من أهم الصناعات التي اختصت بها الشام، وقد اشتهرت بهذا النوع من الصناعات كل من وحلب ودمشق.(9) ولاجدال في أن حلب ودمشق كانتا أهم مراكز صناعة الزجاج، وعدت منتجاتهما في طليعة أبدع ما خلفته تلك الصناعة.(10) فمن عجائب حلب

---

(1) أكرم العلبي: المرجع السابق، ص239. ماير: المرجع السابق، ص81.

(2) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص204.

(3) ابن الشحنة: المصدر السابق، ص262. الغزي، كامل: المصدر السابق، ج1، ص104.

(4) نعمان قساطلي: المرجع السابق، ص121. عفيف البهنسي: الشام الحضارة، ط1، وزارة الثقافة، دمشق، 1986م. ص282.

(5) البدري: المصدر السابق، ص363. ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص537. نعمان قساطلي: المرجع السابق، ص121، 124.

(6) الغزي، كامل: المصدر السابق، ج1، ص103، 104. أكرم العلبي: المرجع السابق، ص239.

(7) البدري: المصدر السابق، ص363.ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص535. فادي الياس: المرجع السابق، ص37.

(8) ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج2، ص186. الغزي، كامل: المصدر السابق، ج1، ص153.

(9) محمد كرد علي: المرجع السابق، ج4، ص217، 218. مروان الضلاعين: المرجع السابق، ص76.

(10) ديماند: المرجع السابق، ص238. فايزة حجازي: المرجع السابق، ص106.

عند القزويني سوق الزجاج، فإن الإنسان إذا اجتاز بها لا يريد أن يفارقها لكثرة ما يرى فيها من الطرائف العجيبة والآلآت اللطيفة تحمل إلى سائر البلاد للتحف والهدايا.(1) وكانت للأواني الزجاجية المصنوعة بدمشق شهرة واسعة، ولاسيما زمن المماليك، إذ غمر صناع دمشق أسواق القاهرة بمفاخر إنتاجه.(2) وفي صور يعمل جيد الزجاج والفخار على يد يهودها حيث تعلم أهالي البندقية الموجودون في صور صناعة الأواني وتطعيمها على أيديهم.(3) ووجدت هذه الصناعة كذلك في الرقة والخليل.(4)

د. صناعة الورق

استعمل الورق الشامي في الدواوين، وكانت الكفة منه خمسة وعشرون، ويستخدم في المكاتبات السلطانية في حالة عدم توفر الورق المصري. أما مقادير الورق المستعملة بدواوين الإنشاء بالممالك الشامية هي: قطع الشامي الكامل، وقطع نصف الحموي، وقطع العادة من الشامي. ويوصف الورق الحموي بالأحمر.(5) ولا يصنع الورق في الشام إلا في الصالحية.حيث يوصف القرطاس بحسن صقاله ونقي أوصاله.(6)

ج. النشاط التجاري والسلع التجارية

كانت التجارة من المظاهر الأساسية للنشاط الأقتصادي المملوكي، وقد ساعد موقع مصر والشام الإستراتيجي ومدنها وثغورها في هذا التميز.(7) ومن هنا جاء اهتمام المماليك بهذا الرافد وعملوا على حمايته وتطويره حتى صاروا وسطاء التجارة الدولية

---

(1) القزويني: المصدر السابق، ص183، 184. الغزي، كامل: المرجع السابق، ج1، ص113.

(2) ديماند: المرجع السابق، ص238.

(3) الإدريسي: مسالك الأبصار،ج1، ص365، ص366. آشتور، أ: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة، عبدالهادي عبلة، وأحمد غسان سبانو، دار قتيبة للطباعة والنشر، دمشق، 1985م. ص400.

(4) ديماند: المرجع السابق، ص238. محمد كرد علي: المرجع السابق، ج4، 217.

(5) القلقشندي: المصدر السابق، ج6، ص192. ابن طوق: المصدر السابق،ج1، ص528. مروان الضلاعين: المرجع السابق، ص71.

(6) البدري: المصدر السابق، ص363.ابن طولون: القلائد الجوهرية: ج2، ص508. فادي الياس: المرجع السابق، ص36.

(7) مفيد الزيدي: المرجع السابق، ص237.

في ذلك الوقت.(1) وتنوعت السلع التجارية المتداولة في الأسواق المملوكية بتنوع مصادرها، فقد ساهمت السلع المحلية بصورة أساسية في النشاط الداخلي للدولة، وكانت حركة الأسواق تتمثل في استقبال السلع التجارية الورادة إليها عن طريق الموانيء على سواحل البحر المتوسط والبحر الأحمر، وطرق القوافل البرية التي ربطت بين النيابات المملوكية والمناطق المجاورة لها.(2) وكانت بلاد الشام ذات خانات وفنادق كثيرة في المدن، وعلى الطرق التجارية خارج المدن، ونجد كثيراً منها في دمشق وحلب وبيروت وطرابلس. وأفادت بعض المدن من وقوعها على الطريق التجارية، فازدهرت غزة لأنها على طريق القوافل بين دمشق والقاهرة، كما انتعشت أيلة (العقبة حالياً)، لأنها كانت مكان تجمع البضائع المنقولة من مصر إلى الشام.(3)

وارتبطت السلع التجارية في الأسواق المملوكية بمستوى المعيشة، وحاجات السكان الأساسية، وتتمثل في الغلال بجميع أنواعها، والأقمشة بكل أشكالها والزيوت والفواكه والمعادن، والأسلحة والرقيق، والأخشاب والورق والزجاج، وأدوات الزينة، والسلع الدوائية التي تشتد إليها الحاجة وقت الأمراض والأوبئة.(4)

ويجلب إلى حلب الكثير من البضائع كالحرير والصوف واليزري والقماش العجمي، وأنواع الفرا من السمور والوشق والفُنك والسنجاب والثعلب وسائر الوبر، والبضائع الهندية وأجناس الرقيق من الجركس والترك والروم وسائر الأجناس، فانه قد يتفق أنه يباع فيها في يوم واحد ما لايباع في غيرها في شهر. كل ذلك بأطيب ثمن وأرغبه، فمثلاً إذا أُحضر اليها مائة حمل حرير فأنه يباع في يوم واحد ويقبض ثمنه ولو أُحضر إلى القاهرة التي هي أُم البلاد عشرة أحمال لا تباع في شهر، وعلى هذا

(1) حسين خصاونه: المرجع السابق، ص97.

(2) سعيد صالح موسى: التجارة الداخلية في دولة المماليك الثانية(784-922هـ/ 1382-1517م)، رسالة دكتوراه ، الجامعة الأردنية، 1992م. ص204.

(3) إحسان عباس: المرجع السابق، ص131.

(4) سعيد صالح موسى: المرجع السابق، ص205.

فقس.(1) ويدل هذا على رواج تجارة حلب أن أقمشتها تنقل إلى سائر البلاد شرقاً وغرباً وتربح أرباحاً عظيمة تستحق الذكر، وما ذلك إلا لحسنة واتقانها. وفي بعض ضياع حلب ما يجمع عشرين صنفاً من الغلات يحمل إلى مصر والعراق ويجهز إلى كل بلد .(2) ويحمل زيت الآتارب وارتاح* إلى الرقة وكل بلد.(3) ويجلب من معرة مصرين الزيت الكثير.(4) وقد أخذ الازدهار التجاري في حلب يتراجع منذ نهاية القرن التاسع للهجرة بسبب ما كان بين سلطنة المماليك وشاه سوار من أمراء التركمان على الحدود الشمالية للدولة من حروب ، ثم الصراع بين المماليك والعثمانيين بعد ذلك.(5)

وشهدت الحركة التجارية في حماة رواجاً للمنتوجات المحلية من المنسوجات والإقليمية من المصنوعات النحاسية والزجاجية والخشبية، أما الخارجية فكانت منتوجات العطور والبخور والتوابل.(6)

وكان لحمص علاقات تجارية مع المدن الشامية الأخرى في تناول المواد التجارية، إذ أنها كانت تصدر الكروم إلى تلك المدن فضلاً عن الفواكه. والمسافرون يقصدونها بالأمتعة والبضائع من كل مكان. (7) وتجلب قدورالخزف من كفر طاب بحمص إلى غيرها.(8)

---

(1) ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص254.

(2) المصدر نفسه، ص149. الغزي، كامل: المصدر السابق، ج1، ص102.

*.الاتارب وارتاح بلدات تتبع مدينة حلب وهي مثل بلد فلسطين في كثرة الزيتون ولها ارتفاع جليل من الزيت.ابن الشحنه: المصدر نفسه، ص149.

(3) ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، ج1، ص60. ابن الشحنة: المصدر نفسه، ص149.

(4) المصدر نفسه، ج1، ص133.

(5) ابن إياس: المصدر السابق، ج2، ص451، ج3، ص215، 216، 219.

فاروق عثمان أباظة: المرجع السابق، ص54. زياد المدني: المرجع السابق، ص264.

(6) ابن جبير: المصدر السابق، ص231. إيمان بنت عبد الحليم: المرجع السابق، ص292. أحمد الصابوني: المرجع السابق، ص60.

(7) الإدريسي: المصدر السابق، ج1، ص374. ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج3، ص365.

الحميري: المصدر السابق، ص198.عمار مرضي: المرجع السابق، ص21.

(8) أبو الفدا: تقويم البلدان، ص263.

أما القدس فكان القمح ينقل إليها من الرملة، والزيت من نابلس والخليل، والتين والرمان من الرملة ونابلس وشرقي الأردن، أما الأرز والحصر فمن بيسان، والموز والسكر من أريحا والأغوار.(1) وشكلت الخليل مركزاً تجارياً هاماً في العصر المملوكي سواء على مستوى التجارة الداخلية أو الخارجية، فقد نشطت تجارتها مع المدن الشامية ومصر.(2) وكان يجلب لدمشق من نابلس الزيت وحلوى الخروب.(3) ومن بعلبك الألبان، ومن بانياس الأرز، ومن الزبداني الفواكه، ومن المعرة الفستق والتين.(4)

واتصفت العلاقات التجارية بين الشام ومصر بالتكاملية، كون الشام جزءاً مهماً من السلطنة المملوكية، ولذلك حملت من الشام إلى مصر الكثير من الخيرات.(5) ففي سنة 853هـ/ 1449م، يورد لنا ابن طولون أن أمير التركمان في دمشق شرع في تجهيز الأغنام الشامية إلى مصر، فكانت ستة عشر ألف رأس غنم، واشترى هو ونائب القلعة سودون عدة عشرين ألف رأس غنم وجهزها إلى مصر فتفتحت أعين المصريين إلى حضور الغنم إليهم.(6) وفي سنة 872هـ/ 1468م، ورد إليه مرسوم بتجهيز الأغنام على العادة، ومن مضمونه أيضاً أن يشتري مائة فرس ويجهزها إلى الاصطبلات الشريفة فشرع بذلك.(7)

وفي الروض الغنّاء أنّ دمشق كانت باب الحجاز، وكان كل سنة يتقاطر إليها الحجاج أفواجاً من بلاد العجم وبر الاناضول والروملي والعراق وغيرها فتروج تجارتها البرية حيث كان يأتيها كل سنة ثمانية آلاف ونيف يتجهزون منها للحجاز، وفي

---

(1) القزويني: المصدر السابق، ص142. يوسف غوانمه: نيابة بيت المقدس، ص83.

(2) ناصر خسرو: المصدر السابق، ص86. الإدريسي:المصدر السابق، ج1، ص363. نعمان عمرو: مدينة الخليل في العهد العهد المملوكي (648-922هـ/ 1250-1517م)، 2011م. ص15.

(3) ابن بطوطة: المصدر السابق، ج1، ص78. شيخ الربوة: المصدر السابق، ص200.

(4) المصدر نفسه ، ج1، ص84 ، ص100. ابن شاهين الظاهري، غرس الدين: زبدة كشف الممالك، ص46.

(5) المقريزي: السلوك، ج5، ص164. البدري: المصدر السابق، ص364.

(6) ابن طولون: القلائد الجوهرية، ج1، ص99-100.

(7) المصدر نفسه، ج1، ص100.

إيابهم يأخذون البضائع إما هدايا وإما للتجارة.(1) وكانت البضائع متنوعة مثل: الحلويات والمنسوجات والأواني النحاسية والعطور والزجاج والنحاس المطعم بالفضة، وقصدها التجار من داخل الشام ومن خارج الشام.(2)

وكانت السلطة المملوكية تفرض الضرائب على تجار الشام في حالة الحاجة للاستعدادات العسكرية والحملات ففي عام 821هـ/ 1418م، طلب الأمير شيخ نائب الشام من أهل دمشق مالاً كثيرا، فأخذ من تجار دمشق وحدها خمسة آلاف دينار على يد كبيرهم شمس الدين محمد بن المزلق.(3) وكان تجار الشام يحملون البضائع التي يشترونها من جدة إلى القاهرة، فوقع الإتفاق على أن يؤخذ منهم بمكة عن كل حمل قل ثمنه أو كثر ثلاثة دنانير ونصف، ويعفوا من حمل ما يتبضعونه من جدة إلى مصر، فإذا حملوا ذلك إلى دمشق أخذ منهم مكسها هناك، على ما جرت العادة. أما إذا ورد التجار الشاميون إلى جدة ببضائع اليمن يؤخذ منهم عشران.(4)

ونستنتج مما سبق أن التجارة في بلاد الشام زمن الدولة المملوكية الثانية لم تكن فقط على مستوى مدن الشام، وإنما تنقل تجار الشام لجلب البضائع من مختلف ولايات الدولة للتجارة فيها. وأن الدولة المملوكية كانت تستوفي رسوماً مقابل نقل البضائع والمتاجرة فيها. ومما يدلل على نشاط تجارة الشام وازدهارها في الفترة المملوكية الثانية داخليا وخارجياً. أن المراكب الأفرنجية أخذت تترد وبشكل كبير على مرافىء عكا وصور وطرابلس وبيروت، فكان تجار الأفرنج يستبضعون الحرير والقطن بكميات وافرة، والكتان والخام والأنسجة الكتانية والحريرية، وكانت صور لا تزال تتجر بالأرجوان، واشتهرت بآنيتها الصينية وزجاجها الفاخر، ويقبل الأوروبيون على

---

(1) نعمان قساطلي: المرجع السابق، ص125، 125.

(2) البدري: المصدر السابق، ص363- 366. الحميري: المصدر السابق،ص240. مفيد الزيدي: المرجع السابق، ص242.

(3) المقريزي: السلوك: ج6، ص206.

(4) المصدر نفسه، ج7، ص170، ص277.

حرير أنطاكية وزجاجها، ويبتاعون السكر بالكميات الكبرى من صور وطرابلس وغيرهما من مدن الساحل، إلى غير ذلك من ضروب الثمار والعقاقير والحشائش الطيبة، والورود العطرية. وكان البنادقة يجلبون من حلب مقادير عظيمة من القطن والشب والبهار، وخيرات الهند والعجم تتدفق عليها.(1)

ويرى سعيد عاشور أن احتكار سلاطين دولة المماليك الجراكسة لبعض السلع والغلات مثل التوابل والبخور أدى إلى إرتفاع أثمانها إرتفاعاً فاحشاً، الأمر الذي أنزل أبلغ الضرر بالتجار الأوروبيين بوجه خاص، فضلاً عن المستهلك الأوروبي. وقد كانت سياسة الاحتكار هذه على أشدها على عهد السلطان الأشرف برسباي الذي أبطل التعامل بالنقد البندقي والفلورنسي وسك الدينار الأشرفي ليكون أساساً للتعامل مع التجار الأوروبيين.(2)

د. الأسواق التجارية والحوانيت الشامية.

تعد الأسواق التجارية وتنظيمها وتوزيعها في المدن الشامية جزءاً أساسياً من حركة التجارة، ففي تعدد هذه الأسواق واتساعها وتنوع بضائعها دلالة على حجم الفعاليات التجارية فيها. وكان ازدهارها أو تراجعها رهناً بالظروف السياسية.(3)

فقد كانت أسواق دمشق ومتاجرها مدعاة لدخول السرور والمتعة إلى نفوس زوارها، وقد تنبه بعض زوارها لا إلى البضائع فحسب، بل إلى تنظيم الصناعات والأسواق. فقد وصفت أسواق دمشق بأنها من أحفل أسواق البلاد وأحسنة ا انتظاماً وأبدعها وضعاً، ولا سيما قيسارياتها.(4) وأثنى على أسواقها ابن فضل الله العمري بأنها

---

(1) نعمان قساطلي: المرجع السابق، ص125. محمد كرد علي: المرجع السابق، ج4، ص245.

(2) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص307.

(3) سعيد صالح موسى: المرجع السابق، ص134.

(4) ابن جبير: المصدر السابق، ص261. فريال بدوي: المرجع السابق، ص66.

مليحة الترتيب.(1) وتنتشر أسواق المدينة على طرفي الشارع الرئيسي، في حين تتوزع على أطراف الشوارع الرئيسية الأنشطة التجارية والحرفية لكل حيّ، وبوجهٍ عام كانت الشوارع ضيقة نسبياً لأنها رافقت المدينة منذ نشأتها ولم تتطور. وكانت أسواق وشوارع دمشق منارة في الليل، وكان ثمة جماعة من الناس، يسمون الضوئية، كان عليهم أن يحفظوا المصابيح مشتعلة باستمرار.(2) وعادة ما تكون هذه الأسواق مسقوفة أو معقودة، يتخللها النور بالقدر اللازم من فتحات في السقف.(3)

وكان على المحتسب أن يعنى بنظافة الأسواق والشوارع، وأن يتأكد من أن المتاجر لا تزعج المارة.(4) ومن ضمن واجبات المحتسب منع الاحتكار في الأسواق، حماية للمستهلك من جشع التجار، وفي حالة اكتشاف أية حالة احتكار من قبل التجار ألزمهم بيعها إجباراً.(5) ولكن في بعض الحالات يرتكب المحتسب نفسه مخالفات في السوق، فيذكر ابن طولون في أحداث سنة 892هـ/1486م، أن العوام في الشام رجموا عبدالقادر المحتسب، لكونه يتعاطى صناعة الطحانة والخبازة، ويتاجر في القمح، ويأخذ المشاهرة من كل صناعة في السوق.(6) ويقوم المحتسب أو مفتش السوق بجبي ضريبة شهرية من جميع المؤسسات التجارية في السوق، وكانت الضرائب تجبى أيضاً بطريقة غير مباشرة من خلال رسوم الوسطاء أو الشهود الذين يعيدون جزءاً من عمولاتهم إلى النظام.(7)

---

(1) ابن فضل الله العُمري: مسالك الأبصار، ج3، ص356، 357.

(2) انطوان ضومط: المرجع السابق، ص387. نقولا زيادة: المرجع السابق، ص155.

(3) أكرم العلبي: المرجع السابق، ص254.

(4) نقولا زيادة: المرجع السابق ، ص170.

(5) عبدالرحمن بن نصر الشيزري المتوفى 590هـ/1094م: نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، قام على نشره، السيد الباز العريني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1365هـ/1946م. ص11، 12. ابن الأخوة: المصدر السابق، ص80. إيرا لابدوس: المرجع السابق، ص167.

(6) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص71.

(7) إيرا لابدوس: المرجع السابق، ص74.

ولكل أهل صنعة منهم سوقٌ يختص بهم، وتعرف صناعتهم فيه، ومن كانت صناعته تحتاج إلى وقود نار كالخباز والطباخ والحداد يستحسن أن تكون في أطراف المدينة، وأن لا تكون مجاورة للعطارين والبزازين، لعدم المجانسة بينهم وحصول الأضرار.(1) ولم تكن أسواق الشام حكراً على التجار المسلمين فقط، وإنما كان للتجار من أهل الذمة حوانيت أيضاً، فقد كان في سوق جقمق ثماني حوانيت للنصارى.(2) وكثيراً ما تتعرض هذه الحوانيت للسرقة، فقد تعرضت ثلاثة حوانيت للنصارى في دمشق للسرقة سنة 886هـ/1481م، وفي سنة 890هـ/ 1485م، هاجَمَ الحراميةُ سوق جقمق بالنشاب ونهبوا سبعة حوانيت قماش للنصارى.(3)

وفي هذا السياق لابد لنا أن نتعرف على أسواق الشام في الفترة المملوكية الثانية كما وردت عند ابن الحمصي: سوق الأخفافيين، وسوق العنبرانيين، وسوق السيوريين، وسوق الحريريين، وسوق التجار، والحباكين، والصفين، المعروف بسوق الذراع، والصاغة الكبير، وسوق باب الفراديس، وسوق الشيخي، والقواسين، والعُلبيين، والعمارة، والنطاعين، وسوق السلطان، وسوق مسجد القصب، وسوق السلاح، والطواقين، والقطانيين، والعبي، وميدان الحصى.(4) ومن أسواق الشام كذلك سوق جقمق، وسوق البزورية، وسوق الشاغور، وسوق القبيبات.(5) وسوق الذهابين، و الكوافيين، والوراقين، والجزارين، والخيل، وساروجا، والرقيق.(6).

(1) الشيزري: المصدر السابق، ص11، 12.ابن طوق: المصدر السابق،ج1، ص284.ابن الحمصي: المصدر السابق، ج1، ص354.

(2) ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص470.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص48، ص470. ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص59.

(4) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج1، ص231، 232، 259، 288، 304، 300، 316، 358، ج2، ص31.

(5) ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص62. ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص58، 38 ، 59.

(6) أكرم العلبي: المرجع السابق، ص251- 253. انطوان ضومط: المرجع السابق، ص388.

هند أبو الشعر: المرجع السابق، ص42-43.

ويبدوا أنه كانت لسوقين بعينهما مكانة خاصة عند والي الشام، لا لأنهما كانتا تزودان الخزينة بالكثير من مواردها فحسب، بل لارتباطهما بالشؤون العسكرية وأمور الأمن وهما سوق الخيل وسوق الرقيق. أما الأولى فلأن الجند كانوا بحاجة دائمة إلى الخيل، وهي عدة النقل الأولى في الحرب، وكان من المهم أن يستمر جلبها وبيعها. وأما السوق الثانية فكانت مراقبتها شديدة خشية أن يتزيا العيون(أي جواسيس الأعداء) بزي الرقيق فيطلعوا على ثغرات البلاد ويبعثوا بأخبارها إلى قومهم، فضلاً عن أن المماليك كانوا يبحثون عن الخدم والحرس الخاص في هذا السوق.(1)

وعرفت أسواق مدينة حلب بالخانات، ووصفت بالأنيقة.(2) وهي كثيرة، وتركزت بالقرب من الأبواب الرئيسية للمدينة، وتحت القلعة، وكان يباع فيها مختلف أنواع البضائع والسلع التجارية غير أن هذه الأسواق قد تعرضت للخراب نتيجة الحملات المغولية والفتن والثورات.(3) ومن أسواق حلب التجارية: سوق الفرى، سوق البن، سوق الخيل، سوق الغنم، سوق النحاسين، سوق الأبرية، سوق الصابون، سوق الدهشة، سوق الهواء.(4) وكذلك سوق الحدادين، وسوق الدقيق، وسوق الغزل، وسوق الصاغة، وسوق الحرير، وسوق السلاح.(5) ووصفت أسواق مدينة حماة بأنها حسنة التنظيم، بديعة الترتيب، جامعة لجميع الصناعات والتجارات.(6) وقصد المسافرون أسواق حمص بالأمتعة والبضائع.(7) وذكرت أسواق طرابلس بالجليلة.(8)

---

(1) الشيزري: المصدر السابق، ص84-85. القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص191. نقولا زيادة: المرجع السابق، ص159، 160.

(2) ابن كنان: المواكب الإسلامية، ج2، ص58.

(3) ابن الشحنة: المصدر السابق، ص44. إيرا لابدوس: المرجع السابق، ص58، 60 . حسام الناطور:دولة المماليك في عهد برقوق، ص223.

(4) ابن الشحنة: المصدر السابق، ص90، 96، 246، 247، 248. محمد كرد علي: المرجع السابق، ج4، ص245.

(5) زياد المدني: المرجع السابق، ص200.

(6) ابن جبير: المصدر السابق، ص231. ابن الشحنة: المصدر السابق، ص268.

(7) الحميري: المصدر السابق، ص198.

(8) ابن الشحنة: المصدر السابق، ص263.

واشتهرت أسواق مدينة القدس بالتجارة، ويعود ذلك لمكانتها الدينية، وقد احاطت بالمسجد الأقصى، فمنها سوق القطانيين المجاور لباب المسجد، وهو سوق في غاية الاتقان والارتفاع، لم يوجد مثله في كثير من البلاد، وأيضاً الأسواق الثلاثة المجاورة من باب المحراب، فالأول سوق العطارين، يليه سوق الخضروات، ثم سوق القماش، وذكر المسافرون أنهم لم يروا في أي بلد مثل الأسواق الثلاثة في الترتيب والبناء.(1) وكذلك سوق المعرفة(2) والصاغة، والمبيضين، وخان الفحم، والطباخين، والحريرية، والزيت، ووجدت الأسواق المتخصصة في كل من الرملة، ونابلس، والخليل.(3) وفي الرملة عدة أسوق حسنة يباع فيها أنواع السلع مثل: سوق القماحين، والقطانيين، والمشاطين، والخشابين، والصياقلة، والسراجين.(4)

هـ. العملة في النيابات الشامية

سار المماليك على الخطة التي اتبعتها الدول الإسلامية من قبل واتخذوا نقدين: الأول اساسه الذهب ووحدته الدينار، وهو نادر الوجود، والثاني قاعدته الفضة ووحدته الدرهم، وهو الذي غلب وجوده واستعماله. وقد اختلف نسبة الأول إلى الثاني بنسبة وجود الفضة في الدرهم.(5)

ولا تختلف نماذج النقود البرجية عن نماذج نقود البحرية، غير أن برقوق أصدر دراهم فضية ونحاسية (6) حيث نودي على الفلوس الجدد أن يتعامل بها كالعتق كل درهم يساوي أربعة وستين فلساً، وأن يتعامل بالعتق كل درهم يساوي ثمانين فلساً، فشق

---

(1) مجير الدين الحنبلي: المصدر السابق، ج2، ص50، 72، 103. يوسف غوانمه: نيابة بيت المقدس، ص81.

(2) المصدر نفسه: المصدر السابق، ج2، ص51.

(3) يوسف غوانمه: نيابة بيت المقدس، ص82.

(4) الحميري: المصدر السابق، ص268.

(5) نقولا زيادة: المرجع السابق، ص186. فادي الياس: المرجع السابق، ص217.

(6) إحسان عباس: المرجع السابق، ص136.

ذلك على الناس، إذ أضرهم هذا الاضطراب النقدي، وخسروا ما يقرب الثلث.(1) ثم عاد وضرب فلوساً وجعل اسم السلطان في دائرة، فتطير الناس بذلك.(2) وشهد عصر الناصر فرج الدينار السالمي، ثم عاد وضرب دنانير سماها الناصرية ووضع عليها صورته.(3)

أحدث سك العملة من النحاس تضخماً في الأسعار، وأصبحت قطعة النقود من النحاس، محسوبة لقيمتها من الدراهم، الوسيلة العامة في التبادل، مما أدى إلى انخفاض قيمة النحاس بسرعة إزاء الذهب، وبلغ هذا الانخفاض أدنى مستوياته سنة 808هـ/1405م.(4) ويؤرخ المقريزي لهذا التطور فيقول: "ولم تزل الدراهم الظاهرية والكاملية بديار مصر وديار الشام إلى أن فسدت في سنة 781هـ/1379م، بدخول الدراهم الحموية فكثر تعنّت الناس فيها، وكان ذلك في إمارة الظاهر برقوق قبل سلطنته. (5) فلما تسلطن وأقام محمود بن علي استاداراً* أكثر من ضرب الفلوس، وأبطل ضرب الدراهم فتناقصت حتى صارت عرضاً ينادي عليه في الأسواق، وغلبت الفلوس إلى أن قدم الملك المؤيد شيخ من دمشق سنة 817هـ/1414م، وقام بضرب الدراهم المؤيدية".(6)

وكثيراً ما تعرضت العملة إلى الغش، ففي سنة 861هـ/1456م، نودي بشوارع القاهرة بأن أحداً لا يتعامل بالفضة المضروبة في دمشق في هذه الدولة، فشق ذلك على الناس قاطبة، لكثرة معاملاتهم بهذه الفضة التي داخلها الغش.(7) ولم تكن للدرهم قيمة

---

(1) ابن قاضي شهبة: المصدر السابق،ج3، ص136.

(2) المقريزي: السلوك،ج5، ص198.

(3) ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، ج4، ص407. ابن إياس: المصدر السابق، ج1، ق2، ص606.

(4) إيرا لابدوس: المرجع السابق، ص65.

(5) المقريزي: شذور العقود في ذكر النقود(مخطوط) نشره دار الكتب، نسخة جدة، رقم: 2170، جامعة الملك سعود. ص69.

*. لقب يطلق على من يتولى قبض المال السلطاني وصرفه، وتمثيل أوامر السلطان فيه. محمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص15.

(6) سليمان العيس: المرجع السابق، ص410.

(7) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،ج16، ص79. ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص537.

ثابتة أبداً، بل كان يرتفع وينخفض بحسب مصالح الحكام، وكان الشعب بدوره يقاوم هذه التبديلات حفاظاً على أمواله.(1) ففي سنة 885هـ/ 1480م، نودي في الشام على أن الدراهم العتق بطّالة، فلم تسمع العامة وأرادوا ضرب المنادي. ثم نودي بعد ذلك بأن الفضة العتق والجدد وزن كل اثني عشر درهماً ونصف درهم بأشرفي ذهب(دينار ذهبي)، ومشى الحال على هذا بعد أن كان الخلق في غاية الضيق والحصر، وكانت قد غلقت الحوانيت بسبب ذلك.(2) وفي سنة 888هـ/ 1483م، نودي في دمشق أيضاً بأن الفضة العتق بطالة، والجدد كل أشرفي ذهب بخمسين منها. ثم نودي أن سعر الدراهم الجديدة الوازنة نصف سعر العتيقة الناقصة، وفي هذه السنة أودع كل من الصيرفي العجمي واليهودي الصيرفي بالقلعة، بسبب تغيرهم بالفضة.(3)

أما العملات التي استعملت في الشام في الفترة المملوكية الثانية هي: الأشرفية، وتساوي اثنان وخمسون درهماً، واستعملت عملة الفلورين (عملة أجنبية) ويساوي مائتين وثلاثين درهماً. والفضة العتق، والفضة الجدد، والدراهم، والفلوس، والمنصورية.(4) ويذكر ابن طولون عملة اخرى تم استعمالها في دمشق وهي القرابيص، ففي سنة 895هـ/1491م، كانت الدراهم قلة، بخلاف الأشرفية والفلوس، وغالبها قرابيص.(5) وعندما تولى الأمير أركماس سنة 910هـ/1504م، نيابة دمشق نادى بإبطال القرابيص النحاس من الفلوس.(6)

وكانت في دمشق ثاني دور الضرب للذهب والفضة والنحاس، بعد القاهرة والاسكندرية، وقد بدأ نقدها المملوكي من أيام الظاهر بيبرس. ويكتب على ما يضرب

---

(1) ابن إياس: المصدر السابق، ج1، ق2، ص713. أكرم العلبي: المرجع السابق، ص243.

(2) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص28، ص55.

(3) ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص304.

(4) ابن حجر: إنباءُ الغُمر،ج3، ص100. هند أبو الشعر: المرجع السابق، ص72.

(5) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص108.

(6) المصدر نفسه، ق1، ص231.

فيها " دمشق" أو " دمشق المحروسة"(1) وضربت السكة في حلب سنة 809هـ/1404م، عندما بويع الأمير جَكَم بالسلطنة ولقب " الملك العادل" وكانت دراهم صغيرة الحجم، وإن لم يكتب عليها اسم دار الضرب يمكن نسبتها إلى حلب. والكتابة عليها بالخط الكوفي الايلخاني" حلب" أو "مدينة حلب" أو " حلب المحروسة"(2)

ويرى القلقشندي أن عملة حلب مماثلة لعملة دمشق من الدنانير والدراهم والصنجة، ويتعامل فيها بالفلوس القديمة.(3) وفي عهد السلطان الأشرف أينال(857-865هـ/1453-1460م) ابطل العمل بالدراهم الحلبية بسبب الغش فيها.(4) وضرب دراهم جديدة، خالصة من الفضة.(5) وبقيت العملة التي تضرب في حلب سواء في عهد السلطان الأشرف أبو النصر قايتباي (873- 901هـ/1468-1495م)، أو في عهد السلطان أبو النصر قانصوة الغوري (906-922هـ/1500-1516م) يسودها شيء من الغش وقلة النقاء.(6) وتعاملت نيابة غزة بالدنانير وبالدراهم النقرة (الذهبية) ، ثم راجت فيها الفلوس الجديدة زمن السلطان فرج ، وكان تعامل نيابة القدس بالذهب والفضة والفلوس كما في معاملة دمشق. ولم تختلف عملة نيابة طرابلس عن ذلك، فكانت الدنانير والدراهم النقرة كما في الديار المصرية ودمشق وحلب، وصنجتها (عيارها) كدمشق في الذهب والفضة، وبها الفلوس العتق. ولا تختلف معاملة نيابة حماة عما تقدم في غيرها من الممالك الشامية من المعاملة بالدنانير والدراهم، وصنجتها كصنجة دمشق وحلب وطرابلس، تنقص عن الصنجة المصرية كل مائة مثقالٍ مثقالٌ وربع، وكل مائة

---

(1) ابن حجر: إنباءُ الغُمر، ج2، ص398. البدري: المصدر السابق، ص60.

ابن كنان: حدائق الياسمين، ص190. إحسان عباس: المرجع السابق، ص139.

(2) ابن حجر: المصدر السابق، ج2، ص356.إحسان عباس: المرجع السابق، ص139.

(3) القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص215.

(4) ابن شاهين الظاهري، زين الدين: المصدر السابق، ج6، ص13.

(5) شفيق مهدي: مماليك مصر والشام نقودهم- نقوشهم – مسكوكاتهم – ألقابهم- سلاطينهم 648-922هـ/ 1250-1517م، ط1، الدار العربية للموسوعات، 2007م. ص200.

(6) ابن إياس: المصدر السابق، ج3، ص105-106، 121. شفيق مهدي: المرجع السابق، ص210-211. 226.

درهمٍ درهمُ وربع. أما معاملة كل من نيابة صفد ونيابة الكرك فمثل في دمشق وغيرها، في المعاملة بالدنانير والدراهم.(1)

ولا يفوتني أن أذكرأن ّ من مهام المحتسب الإشراف على الأسواق، ومنها الحسبة على الصيارف، فيمنع بيع الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، إلا مثلاً بمثل. ولا يجوز بيع الخالص بالمغشوش، ولا بيع المغشوش بالمغشوش من الذهب والفضة وهكذا.(2) فقد دأب الصيارفة وعمال الضرب معاً على التلاعب في أوزان الذهب والفضة على أختلاف أشكالها. فقد استباح معلمُ دار الضرب بالشام يعقوبُ اليهودي أموال المسلمين بهذه الأعمال.(3)

---

(1) القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص198، 199، 233، 236، 237، 240، 241.

(2) الشيزري: المصدر السابق، ص74-75.

(3) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق2، ص318. فايزة حجازي: المرجع السابق، ص125.

الفصل الخامس

الحياة الثقافية والعلمية في بلاد الشام في العصر المملوكي الثاني

أولاً: المؤسسات الثقافية والعلمية
1.المكتب أو الكتاب
2.المساجد
3.المدارس
4. خزائن الكتب(المكتبات)
5. الخوانق والزوايا والربط والترب
ثانياً: مؤرخو العصر المملوكي الثاني
1.محمد بن عبدالرحمن بن علي الفرات(ت807هـ/1404م).
2.عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي(ت808هـ/1405م).
3. أحمد بن علي أبو العباس القلقشندي(ت821هـ/1418م).
4. تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقريزي(ت845هـ/1448م).
5.تقي الدين أبي بكر بن أحمد بن قاضي شهبة (ت851هـ/1448).
6.أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني(ت852هـ/1448م).
7.محمود بن أحمد بن موسى بدر الدين العيني(ت855هـ/1451م).
8.جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي(ت874هـ/ 1470م).
9. شمس الدين محمد بن الحلبي،المعروف بابن الشحنة(ت 890هـ/1485م).
10.الخطيب الجوهري علي بن داود الصيرفي(ت 900هـ/ 1494م).
11.الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي(ت 902هـ/1496م).
12.مجير الدين عبد الرحمن بن محمد العليمي(ت928هـ/ 1521م).
13.محمد بن أحمد بن إياس الحنفي(ت 930هـ/1524م).

الحياة الثقافية والعلمية في بلاد الشام في العصر المملوكي الثاني

يعدّ العصر المملوكي من الناحية الفكرية والعلمية امتداداً للعصر العباسي بحضارته العربية الإسلامية. ذلك أن سيطرة المماليك السياسية المباشرة على مقاليد الأمور، لم تغير من الأمر شيئاً، لأنهم كانوا يحكمون من وراء ستار، وعلى هذا لم يحدث للعربية ما يعرقل من مسيرتها أو يؤثر في حيويتها وأصالتها نتيجة الحكم المملوكي (1)

ولا ريب أن عناية سلاطين المماليك باللغة العربية كانت عناية اضطرتهم الظروف إليها اضطراراً، فأطلقوها تجري كما شاءت لها الأقدار في ضبط أمور الملك والسياسة، والقضاء، والعلوم، وذلك لعجز لغتهم التركية أو الجركسية عن أداء ما يتطلبه هذا الملك من ضبط وأمن وربط، ونشر تعليمات، وبعث مراسلات، وكتابة تقاليد، وقضاء وتشريع، وما إلى ذلك.(2) وهذا ما جعل دارسي الأدب المحدثين يتصورون أن عصر المماليك يمكن أن يدعى عصر انحطاط، ولكن هذا تصور خاطئ، فهو عصر مليء بالحيوية من نواح مختلفة.(3) فقد مارس المماليك سلطانهم من خلال العلماء، الذين كان منهم القاضي والمحتسب وأعوانهما، وكذلك أدار العلماء الأوقاف التي تعود للمدارس والمساجد والأربطة، ويمكن القول إن العلماء كانوا هم السلطة التنفيذية الداخلية والمؤثرة على الجماهير العامة والمنحازة بحكم مصالحهم مع السلطة المملوكية.(4)

---

(1) أكرم العلبي: المرجع السابق ، ص159.

(2) أحمد العنزي: المرجع السابق، ص182.

(3) إحسان عباس: المرجع السابق ، ص163.

(4) حسام الدين عباس الحزوري: الحركة الفكرية في نيابة دمشق في عصر المماليك البحرية، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب ، 2010م. ص60.

ومما يشير إلى عظم الحركة الثقافية والعلمية في العصر المملوكي الثروة العلمية الزاخرة من دور كتب، ومكتبات، ومدارس تعليمية ودينية، ودور للمخطوطات، ولم يقتصر فحوى الكتب على علم بحد ذاته بل شملت الأدب والتاريخ والفقه واللغة والجغرافيا والفلاحة والطب والعلوم الدينية، وبذلك شهدت البلاد نهضة ثقافية وعلمية واسعة رغم أن عدداً كبيراً منها فُقد لأسباب مختلفة.(1)

إن من العوامل الأساسية والحيوية التي أدت إلى تنشيط الحركة الثقافية والعلمية إنشاء دور التعليم بما ضمته من مدرسين وطلاب، وكذلك لما يعتمد فيها من دروس، وهي المناخات الملائمة لنمو وازدهار العلم وقد عرفت بلاد الشام خلال العصر المملوكي مراكز كان لها جميعها حظ وافر في نشر الثقافة والمعرفة، والمحافظة عليها واستمرارها.(2) وقيض الله لها من سلاطين المماليك كالسلطان الغوري مَنْ حرص على عقد المجالس العلمية والدينية بالقلعة مرة أو مرتين أو أكثر كل أسبوع، بحثت فيها مختلف المسائل والقضايا العلمية والدينية، التي تناولها الحاضرون من كبار العلماء والفقهاء. وجاء عن بعض أمراء المماليك وأبنائهم أنهم اشتغلوا بالتاريخ والفقه والحديث واللغة العربية، بل تصدى لإقراء الطلبة وتدريسهم.(3)

فقد سمع الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام كتاب" الآثار" للطحاوي من الشيخ عبد الرحمن بن عبد المولى إبراهيم، فوصله ورتّب له مرتباً.(4)

---

(1) مفيد الزيدي: المرجع السابق، ص257. يوسف غوانمه: نيابة بيت المقدس، ص145.

(2) حسام الدين الحزوري: المرجع السابق، ص64.

(3) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص342.

(4) حسام الدين الحزوري: المرجع السابق، ص14.

ونستطيع القول إن حلقات الدرس والتدارس كانت تتم في المدارس والزوايا والخانقاوات والرُّبَط وفي الجوامع. وكانت الشام آنذاك مركزاً للعلماء القادمين من المغرب أو الأندلس، أو القادمين من بلاد فارس.(1)

أولاً: المؤسسات الثقافية والتعليمية

1.المكتب أو الكتاب

أنشئ إلى جانب المسجد، وخصص لتعـليم القراءة والكتــابة والقرآن وشيء من علوم العربية والرياضة، وكان الكتّاب يشبه المدرسة الإبتدائية في عصرنا الحاضر، وكان من الاتساع بحيث يضم أعداداً كبيرة من الطلاب.(2) ومن الكتاتيب ما هو ملحق بالمدارس والخوانق* والأسبلة،(3) لإقامتها في علو السبيل، أو قريباً منه.(4) فقد ألحق بمدرسة المنصور قلاوون مكتبُ سبيل، فيه معلمان يقرئان الأيتام.(5) ويفضل أن يكون موضع الكتاب بالسوق إن أمكن ذلك، فإن تعذر ذلك فعلى شوارع المسلمين أو في الدكاكين، ويكره أن يكون بموضع ليس بمسلوك للناس، فإن الصبيان يُسرع إليهم القيل والقال، فاذا كان بالسوق أو على الطريق أو في الدكاكين ذهب عنهم ذلك.(6) وتبدأ الدراسة في الكتاتيب في سن مبكرة حيث يلحق بها الأطفال في سن الرابعة وحتى العاشرة.(7)

---

(1) هند أبو الشعر: المرجع السابق، ص247.

(2) المعجم الوسيط: مادة "كتب" ص775. مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، دار الوراق، بيروت، 1999م. ص206.

*.جمعها خوانق أو خانقاوات وهي كلمة فارسية ومعناها البيت حيث كانت مركزاً ينقطع فيه الصوفية للعبادة والتصوف. القلقشندي: المصدر السابق، ج11، ص371-375. ابن كنان: المصدر السابق، ج1، ص252.

(3) ابن طولون: القلائد الجوهرية، ج1، ص265. مبارك الطراونه: الحياة الاجتماعية في بلاد الشام، ص165.

(4) محمد كمال الدين عز الدين علي: الحركة العلمية في مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، دراسة عن التاريخ والمؤرخون (784-922هـ/1382-1517م)، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس، مصر،1989م. ص38.

(5) جلال يوسف العطاري: حركة التأليف العلمي في مصر والشام في العصر المملوكي الأول، ط1، دار الفكر، عمان، ص27.

(6) ابن الأخوة: المصدر السابق ، ص108. أبو عبدالله محمد بن محمد العبدري الفاسي المتوفى 737هـ/1336م: المدخل، 4ج، مكتبة دار التراث، القاهرة ج2، ص313.

(7) إيمان مقابلة: المرجع السابق، ص162.

ويمكننا التمييز بين ثلاثة أنواع من الكتاتيب ظهرت في هذا العصر: كتاتيب أولية، يتعلم فيها الأطفال القراءة والكتابة، ويحفظون القرآن، ومبادي الدين، وأوليات الحساب. وكتاتيب قانونية، تعلم الأطفال والشباب علوم اللغة والآداب، ثم يتوسعون فيها بعلوم الدين والحديث وسائر صنوف العلوم الأخرى. ثم كتاتيب اختصت بالأيتام، وكان الغرض من إنشائها تعليم الأيتام وأبناء الفقراء، وأبناء الجند. وهذا النوع من الكتاتيب كان إنشاؤه رهناً بأصحاب النفوذ والثروة من سلاطين وأمراء وتجار وعلماء. (1)

وقد خُصصت للكتاتيب أوقاف من بعض المحسنين، ففي سنة 847هـ/ 1443م، يذكر لنا النعيمي: أن أبا العباس البصري أجلّ أعيان الشام أوقف على دار القرآن الكريم بالدلامية، وكان فيها ستة أيتام بالمكتب أعلى بابها، وخصص لكل منهم عشرة دراهم، وجبّة قطنية وقميصاً ومنديلا، وقرر لهم شيخاً وله ستون درهما.(2) ووجد في المدرسة الأسعردية* مكتب للأيتام يضم خمسة عشر يتيماً وشيخاً لتعليمهم.(3) وأنشأ الخواجكي أحمد الشهابي القضائي ابن علم الدين الدمشقي المعروف بالصابوني سنة 868هـ/1464م، مكتباً لعشرة أيتام بشيخ يقرئهم القرآن العظيم بمعاليم من المال، شرطها لهم معلومة، تصرف عليهم من جهات عديدة، منها عدة قرى غربي بيروت تحت يد أمير الغرب.(4)

---

(1) محمد أطلس: التربية والتعليم في الإسلام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2014م. ص60
أحمد العنزي: المرجع السابق، ص215. حسام الدين الحزوري: المرجع السابق، ص84.

(2) عبدالقادر بن محمد النعيمي الدمشقي المتوفى 978هـ/1570م: الدارس في تاريخ المدارس،2ج، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت،1410هـ/1990م. ج1، ص8-9. عمار محمد النهار: الأوقاف الإسلامية وأثرها على النهضة العلمية في عصر المماليك، جامعة دمشق، ص2.

*نسبة إلى صاحبها إبراهيم الأسعردي، النعيمي المصدر السابق، ج1،ص113.

(3) النعيمي: المصدر السابق، ج1،ص113. معن علي أحمد مقابلة: المؤسسات الاجتماعية في بلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الاردن، 1992م. ص51.

(4) النعيمي: المصدر السابق، ج1، ص11-12. عمار النهار: المرجع السابق، ص4.

ويبذلُ للأيتام كذلك في مواسم الأعياد والمناسبات كعك وسكر وفاكهة وأضحيات. ويخصص للصبيان مرافق – سائق- ويشترط فيه الأمانة والثقة والتأهيل. لأنه يتسلم الصبيان في الغدو والرواح.(1)

وحدد الزمن اليومي للدراسة من طلوع الشمس حتى العصر، مع استثناء يومي الثلاثاء أو الخميس، حيث تكون الدراسة فيهما أو في أحدهما حتى الظهر. وكان انصرافهم قبل العيد بيوم أو يومين أو ثلاثة، وكذلك بعده بل ذلك مستحب، فإذا استراحوا يومين في الجمعة نشطوا لباقيها. ومدة بقاء الطفل في الكُتّاب خمسة أعوام أو ستة على الأكثر، وتكون على الطالب ابتداءً من السنة الخامسة أو السادسة من عمره إلى السنة العاشرة أو الحادية عشرة. (2)

ويشترط في معلم الكتاتيب أن يكون من أهل الصلاح والعفة والأمانة، حافظاً للكتاب العزيز، حسن الخط، يعرف الحساب، والأولى أن يكون متزوجاً، ولا يسمح لعازب أن يفتح مكتباً للتعليم إلا أن يكون شيخاً كبيراً، وقد اشتهر بالدين والخير، ومع ذلك لا يؤذن بالتعليم إلا بتزكية مرضية، وثبوت أهليته لذلك، بمعرفة الحروف وضبطها بالشكل، وأن يرفق بالصغير ويعلمه السور القصار من القرآن، ثم أصول الحساب وما يُستحسن من المراسلات. ومن كان عمره فوق سبع سنين يأمره بالصلاة في جماعة، ويحثه على بر الوالدين، والانقياد لأمرهما بالسمع والطاعة، والسلام عليهما وتقبيل أيديهما عند الدخول إليهما، ويضربه على إساءة الأدب والفحش في الكلام وغيره.(3)

---

(1) ابن الأخوة: المصدر السابق، ص110. محمد كمال الدين: المرجع السابق، ص39.

(2) ابن الحاج: المصدر السابق، ج2، ص321. حسام الدين الحزوري: المرجع السابق، ص86. محمد أطلس: المرجع السابق، ص67.

(3) الشيزري: المصدر السابق، ص103. ابن الأخوة: المصدر السابق، ص108-109. أحمد العنزي: المرجع السابق، ص216. محمد أطلس: المرجع السابق، ص60-63.

واشترط السبكي أن يكون معلم الكتاب صحيح العقيدة، فلقد نشا صبيان كثيرون عقيدتهم فاسدة، لأن فقيههم كان كذلك. فأول ما يتعين على الآباء الفحص عن عقيدة معلم أبنائهم قبل البحث عن دينه في الفروع، ومن حق معلم الصغار ألا يعلمهم شيئاً قبل القران.(1) ويتعين على المؤدب أن لا يترك أحداً من الصبيان يأتي إلى الكتاب بغذائه ولا بفضة معه، ولا فلوس ليشتري شيئاً في المكتب، لأن من هذا الباب تتلف أحوالهم وينكسر خاطر الصغير الفقير منهم. وأن لا يدع أحداً من البياعين يقف على المكتب ليبيع للصبيان إذ فيه من المفاسد ما أشرنا إليه إن اشترى منه.(2) ولكثرة قرب المؤدب من الصبيان وتعامله معهم، يصبح لدى المؤدب فراسة في معرفة ما سيؤول إليه حال الطفل مستقبلاً فيقول" هذا لا يستفاد من علمه أبداً، وهذا يصبح علّامة وقته، ومعظم ما قاله يصبح واقعاً.(3)

ويساعد المؤدب في عمله " العريف" وهو أشبه بالمعيد في المدارس، إذ كان يعاون المتخلفين من الأطفال، ويعرضون عليه ألواحهم في غيبة المؤدب. وربما كان في المكتب الواحد أكثر من مؤدب وعريف إذا تطلب كثرة الأطفال ذلك، بحيث يكون لكل مؤدب عدد معين من الأطفال يقوم بالإشراف عليهم وتعليمهم.(4) وفي مرحلة تالية تطور الأمر، فأصبح يشرف على التعليم في الكتاتيب أكثر من معلم، إضافة إلى ملقن يعلم الأطفال قراءة القرآن الكريم وحفظه، فإذا ما فرغ منهم، انتقلوا إلى حجرة أخرى يتعلمون فيها الكتابة والخط.(5)

---

(1) السبكي: المصدر السابق، ص130.

(2) ابن الحاج: المصدر السابق، ج2، ص213.

(3) مبارك الطراونه: الحياة الاجتماعية في بلاد الشام، ص169.

(4) سعيد عاشور: العصر المماليكي ، ص347.

(5) منتصر محمود صيتان شطناوي: التربية والتعليم في بلاد الشام في دولة المماليك البحرية (658-784هـ/1260-1382م)، رسالة دكتوراه، جامعة مؤته، الأردن، 2008م. ، ص50-51.

وتأتي المرحلة الأخيرة من مراحل تعليم الكتاب.(1) وتسمى الإصرافة* فإذا أتم الطفل حفظ القرآن الكريم احتفل بتخريجه من باب إدخال السرور على الأولاد، فيقوم الطلاب بتزويق الألواح والمكتب بالحرير أرضاً وحيطاناً وسقفا، ثم يأخذون الصبي الذي له الاصرافة فيزينونه ويلبسونه الحرير ويحلونه بالقلائد من الذهب مع قلائد العنبر ويركبونه على فرس أو بغلة مزينة باللباس من الحرير والذهب، ويحملون أمامه أطباقاً فيها ثياب من حرير وعمائم، ويمشي بين يديه صبيان المكتب وينشدون إلى أن يوصلوه إلى بيته، وهناك يدخل المؤدب ويعطي اللوح لأم الصبي صاحب الاصرافة فتعطيه مبلغاً من المال.(2) أعتقد أن هذه المراسم من الاحتفالات في نهاية مرحلة الكتاتيب لا تتم إلا إلى أبناء الأثرياء من الناس، ودليل ذلك أن المؤدب يشارك في هذا الحفل، ويحصل على مبلغ من المال في نهايته. وبعد اجتياز الصبي لهذه المرحلة بنجاح ينتقل إلى حلقة من حلقات المسجد الذي يعنى بتدريس كتب سهلة، فإذا وفّق في ذلك انتقل إلى حلقة أخرى في نفس المسجد.(3) لمجالسة مشاهير الشيوخ الذين يدرسون كتباً ذات مستوى أعلى في علوم مختلفة، فإذا أظهروا رغبة في الاستمرار، كانوا يلتحقون بمدارس دمشق أو حلب أو بيت المقدس.(4)

ويبدو أن الكتاتيب في هذه الفترة قد اختصت بالذكور دون الإناث، فقد أورد ابن الأخوة ذلك في نص صريح " بأن لا يعلم الخط امرأة ولا جارية"(5) أعتقد أن المقصود بهذا التصريح هذه المرحلة من التعليم فقط، وهي مرحلة الكتاتيب، وربما يكون السبب لصغر سن المتعلم، فما بالك إذا كانت أنثى. غير أن تعليم البنات كان متأخراً وكان

(1) ابن الحاج: المصدر السابق، ج2، ص331

* تعني صرف الغُلام من المكتب، في المعجم الوسيط، ص513.

(2) ابن الحاج: المصدر السابق، ج2، ص331-333.

(3) إيمان مقابلة: المرجع السابق، ص164.

(4) السبكي: المصدر السابق، ص82-83. منتصر شطناوي: المرجع السابق، ص52.

(5) ابن الأخوة: المصدر السابق، ص110. فريال بدوي: المرجع السابق، ص210.

التركيز على تعليمها أعمال الزراعة والأعمال المنزلية، وإعدادها لتكون ربة منزل.(1) وساهمت المرأة في إنشاء بعض الكتاتيب، فقد أوصت والدة دوادار السلطان في دمشق بإنشاء كتّاب للأيتام في جامع يلبغا. وسبقتها في ذلك الست الجليلة خوند الحجازية، التي أنشأت مكتب سبيل فيه عدد من أيتام المسلمين، ولهم مؤدب يعلمهم القرآن الكريم.(2)

وكان لطوائف اليهود والنصارى مكاتب خاصة لتعليم أبنائهم، حيث يتم فيها تعليم الأطفال أصول دينهم، بالإضافة إلى تعلم القراءة والكتابة وعلم الحساب، وكانت شبه مشتركة إذ يمكن للأطفال المسلمين دخولها والدراسة بها.(3)

لم تقتصر الكتاتيب فقط على دمشق، وإنما وجدت في كافة مناطق الشام، فقد تأسست مكاتب للأيتام في حلب، على يد التاجر عبد الرحمن الحلبي المتوفي سنة 786هـ/ 1384م، للتعليم، ومكتب آخر للأيتام أسسه الأمير يشبك اليوسفي نائب حلب سنة 821هـ/ 1418م، بالقرب من مسجد بناه.(4) وآخر بناه داوود بن عبد الرحمن المتوفى سنة 826هـ/1422م، لنفس الغرض وهو تعليم الأيتام في منطقة حلب، وكان داوود مُحَباً في العلماء والفقراء.(5) أما التعليم في بيت المقدس فقد كان ذا مكانة عالية نظراً لقداسة المكان، فقد اقتصر التعليم فيها في مراحله الأولى على المكاتب أو مايسمى بالكتاتيب، وقد وجد في بيت المقدس نوعان من المكاتب، الأول يرسل الآباء إليها أولادهم ليتعلموا مقابل دفع أجرة تعليم لصاحب المكتب(مكاتب خاصة). والنوع الثاني المكاتب التي أنشئت بهدف تعليم الأيتام والفقراء علاوة على صرف الأموال النقدية والعينية لهم ولمؤدبهم وعادة ما يكون من أموال موقوفة لهذه الغاية.(6) فقد ورد في

(1) إيمان مقابلة: المرجع السابق، ص164.

(2) جلال العطاري: المرجع السابق، ص27. مبارك الطراونه: الحياة الاجتماعية في بلاد الشام، ص167-168.

(3) فايزه حجازي: المرجع السابق، ص168.

(4) السخاوي: الضوء اللامع، ج10، ص279.

(5) المصدر نفسه، ج3، ص213. زياد المدني: المرجع السابق، ص226.

(6) علي السيد علي: المرجع السابق، ص157.

وثيقة وقف لتعليم الأطفال في القدس، أن الواقف قام ببناء مكتب ووقف عليه داراً مقابل المسجد الأقصى لتعليم أولاد المسلمين القرآن، تصرف أجرته لتعلم الأيتام والمساكين، وللمعلم، ولإشعال القناديل، وللماء للصبيان لغسل الألواح والشرب، وهذا وقف مؤبد مخلد لا يغير ولا يبدل.(1) ومن الشيوخ الذين ذُكروا في هذا الباب الشيخ شمس الدين البسطامي المتوفى سنة 875هـ/ 1470م، فقد كان يحفظ القرآن ويقرىء الأطفال، وكذلك الشيخ شمس الدين محمد بن غضبة المتوفى سنة 880هـ/ 1475م، فقد كان مؤدباً للأطفال بالجوهرية.(2) ووصف أحد الرحالة عملية التعليم، فقال" سمعت ورأيت أطفالاً جالسين على الأرض صفوفاً، وكانوا يرددون مجتمعين نفس الكلمات بصوت عال، ويهزون رؤوسهم للأمام والخلف، وهي أول ما يعلمون صبيانهم، لأنها أصل عقيدتهم.(3)

2.المساجد.

كانت المساجد أولى المؤسسات التعليمية ظهوراً، وحظيت باهتمام كبير من سلاطين المماليك لدورها الديني التعبدي فضلاً عن دورها التعليمي ودورها في جميع المجالات، بالإضافة إلى المهمة الدينية التي بنيت من أجلها، كانت المساجد من أهم المراكز التعليمية في الإسلام، وأكثرها انتشاراً، فقد عقدت مجالس العلم، حيث كان العلماء والفقهاء والأدباء يجلسون، وحولهم تلاميذهم، وسميت مثل هذه المجالس بالحلقات التعليمية، أو حلقات العلم.(4)

---

(1) علي السيد علي: المرجع السابق ، ص156.

(2) مجير الدين الحنبلي: المصدر السابق، ج2، ص194، ص233.

(3) علي السيد علي: المرجع السابق، ص157.

(4) عبد الجليل حسن عبد المهدي: الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي، ط1، مكتبة الأقصى عمان، 1980م. ص91، ص92. منصور إحميد سالم الصوفي: الأوضاع الدينية للمسلمين في الشام في العهد المملوكي، (648- 922هـ/1250-1517م)، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة، 2010م. ص132، 133.

حيث يتعلم فيها المسلمون القراءة والكتابة والقرآن وعلوم اللغة والشريعة وفروع العلوم المختلفة.(1) ويرى ابن الحاج أن أفضل مواضع التدريس المسجد لأن الجلوس للتدريس إنما فائدته أن تظهر به سنة أو تخمد به بدعة أو يتعلم به حكم من أحكام الله علينا، والمسجد يحصل فيه هذا الغرض متوفراً، لأنه موضع مجتمع الناس، رفيعهم ووضيعهم، وعالمهم وجاهلهم، بخلاف البيت والمدرسة.(2) لذلك يعتنى عناية فائقة باختيار من يقوم بالتدرس في الجوامع، حيث إنها المكان المعد لاستقبال مختلف طبقات الشعب لأداء الصلوات، والاستماع إلى الخطب والأحاديث الدينية.(3) وقد عرفت الشام هذا النوع من المراكز العلمية منذ إنشاء" الوليد بن عبد الملك الجامع الأموي، وأخذت حركة بنيان المساجد والجوامع وعمارتها تزدهر بعده.(4)

فقد ذكر ابن المبرد المتوفى(909هـ/ 1503م)، أن عدد مساجد دمشق بلغ ألف مسجد، تزيد يسيراً وإن كان بعضه قد تكرر، مع أن المتروك الذي لم يذكر أكثر من خمسمائة مسجد.(5) وبلغ العدد عند النعيمي نقلاً عن ابن شداد ثمانمائة مسجد، وزاد عليها مسجد المؤيد الذي شيد سنة 820هـ/ 1417م.(6) وبلغ تعداد مساجد دمشق في الفترة مابين (906- 922هـ/ 1500-1520م)، عند العلبي ثلاثمئة وأربعين مسجداً جامعاً تؤدى فيها صلاة الجمعة، وتلقى فيها الدروس، وأنا شخصياً أميل إلى رأي الباحث العلبي فيما ذهب إليه من أعداد المساجد ، أما ماورد عند ابن المبرد والنعيمي من أعداد فربما يعود إلى ذكر المساجد مضاف إليها مصليات ضغيرة، لا تقام فيها الجمعة والجماعات. ومن أهم هذه المساجد الجامع الأموي، وجامع العقيبة، المعروف

(1) مصطفى السباعي: المرجع السابق، ص205-206.

(2) ابن الحاج: المصدر السابق، ج1، ص40، 85.

(3) حياة ناصر الحجي: صور من الحضارة العربية الإسلامية في سلطنة المماليك، ط1، دار القلم، الكويت، 1992م. ص141.

(4) النعيمي: المصدر السابق، ج2، ص285. حسام الحزوري: المرجع السابق، ص70.

(5) يوسف بن عبد الهادي بن المبرد المتوفى 909هـ/1503م: ثمار المقاصد في ذكر المساجد، بيروت، 1943م، ص159.

(6) النعيمي: المصدر السابق، ج2، ص233-284.

بجامع التوبة شمال باب الفراديس، وجامع يلبغا إلى الشمال الغربي من القلعة، وجامع تنكز إلى الغرب منها، وجامع الأفرم، وجامع السنجقدار، وجامع السلحدار.(1)

ومن أهم مساجد دمشق عامة المسجد الأموي.(2) ومن ميزات هذا الجامع بل الجامعة العلمية أن رتب له تسعة أئمة، وفيه لإقراء القرآن ثلاثة وسبعون متصدراً، وفيه من الأسباع*المجرى عليها الأوقاف أربعة وعشرون، وعدة مافي السبع الكبير وحده ثلاثمائة وأربعة، وسبع الكورية بعد صلاة العصر، فيه أربعمائة وعشرون نفرا، وسبع المتلقين من الصغار ثلاثمائة وثمانية وسبعون نفرا. وفيه من الخلق للاشتغال بالعلم الشريف، المصروف عليها من مال الصالح أربع عشرة حلقة، وفيه من حلق الحديث الشريف ثلاث حلقات. دارالحديث الحمصية، ودار الحديث العروبة، ودار الحديث القوصية. وفيه من المدارس ثمانية: الغزالية، والأسدية، والمنجائية، والقوصية، والسفينية، والمقصورة، والمالكية، والشيخية.(3) وأضاف العلبي إلى مدارس الجامع الأموي في دراسته كذلك: المدرسة الرواحية، والتاجية، والعزية.(4) وللمسجد حلقات للتدريس في فنون العلم، فالمحدثون يقرؤون الحديث الشريف وهم جلوس على كراسي مرتفعة، وبه الوعاظ ، وجماعات مختصة بتعليم القرآن ، يستند كل منهم إلى إحدى سواري المسجد يلقن الصبيان ويقرئهم. وهم لا يكتبون القرآن في الألواح تنزيهاً لكتاب الله، وإنما يقرأون القرآن تلقيناً. ومعلم الخط غير معلم القرآن، يعلمهم بكتب الأشعار

---

(1) ابن كنان: المواكب الإسلامية، ج1، ص357-367. أكرم العلبي: المرجع السابق، ص178- 179.
حسام الدين الحزوري: المرجع السابق، ص71.

(2) النعيمي: المصدر السابق، ج1، ص45، 61، 72، 199، 313، 370، 423. ج2، ص10.
أكرم العلبي: المرجع السابق، ص170.

* مفردها سبع، ولعل المراد مجالس يقرأ فيها سبع القرآن الكريم، أو السور السبع الطوال من أوله، وكانوا يوقفون الأوقاف للإنفاق على قراءتها. ابن كنان: المواكب الإسلامية، ج1، ص426.

(3) النعيمي: المصدر السابق، ج2، ص315-318. ابن كنان: المواكب الإسلامية، ج1، ص426.
أحمد العنزي: المرجع السابق، ص207.

(4) أكرم العلبي: المرجع السابق، ص170.

وسواها. وكان فيه زوايا لكافة المذاهب الفقهية، فهناك المقصورة الحنفية، ومقصورة الحنابلة، ومقصورة الشافعية. وله نفقاته من مال الوقف والواقفين، لأن الوقف يعتبر عصب الحياة للمؤسسات التعليمية الإسلامية.(1) فقد وُقِفَ على الطلاب في الجامع الأموي من سائر المذاهب راتبٌ شهري قدره عشرة دراهم، وللمعيد عشرون درهماً، ولكاتب الغيبة* عشرون درهماً، وللمدرس ثمانون درهماً.(2)

ونظراً لهذا الدور المهم الذي كان يمارسه المسجد، ولأنه كان مركز اجتماع أهل دمشق ووجوهها، فقد كان ملتقى علمائها، وعلماء المسلمين الوافدين على دمشق.(3) وحظي المسجد الأقصى أيضاً برعاية المماليك، ليكون مهد الحياة الدينية والعلمية والفكرية، ومحط رجال العلماء والفقهاء وطلبة العلم، وقد تبوأ في تلك الفترة مركز الصدارة.(4) فقد عقد الملك المؤيد شيخ المحمودي مجلساً علمياً في المسجد الأقصى سنة 820هـ/1417م، وعقد السلطان الأشرف مجلساً علمياً آخر في المسجد الأقصى سنة 880هـ/1475م، وشارك فيه عدد من الأمراء وأركان الدولة.(5)

ويَلحقُ بالمسجد الأقصى كما هو الحال المسجد الأموي عددٌ كبيرٌ من المدارس والزوايا والخوانق والربط والتُّرَب*1.(6) وتركزت هذه المؤسسات في مكان واحد حول الحرم الشريف أو بداخله، ولكنها اختلفت فيما بينها، باختلاف المذاهب التي أنشئت لتدريسها، وباختلاف الهدف الذي أقيمت من أجله المدرسة، حيث كانت هناك مدارس

---

(1) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص110. أكرم العلبي:المرجع السابق، ص170. حسام الدين الحزوري:المرجع السابق،ص73، 74.

*.هو من يقوم بتسجيل حضور وغياب وتأخر الطلاب في حلقات التدريس. السبكي: المصدر السابق، ص110.

(2) انطوان ضومط: المرجع السابق، ص405. فريال بدوي: المرجع السابق، ص239.

عمار النهار: المرجع السابق، ص3.

(3) نقولاء زيادة: المرجع السابق، ص162. أكرم العلبي: المرجع السابق، ص170.

(4) منصور إحميد الصوفي: المرجع السابق، ص133.

(5) عبد الجليل عبد المهدي: المرجع السابق، ص97.

*1.المكان الذي يدفن فيه المتوفى، المعجم الوسيط، ص83.

(6) مجير الدين الحنبلي: المصدر السابق، ج2، ص34-48.

للشافعية، وأخرى للحنفية والحنابلة والمالكية.(1) وقد تَنزّل بمدارس المالكية الإمام الفاضل مسعود ابن خطيب مالقة المتوفى 789هـ/1387م، وكان يُقريء في العربية، والشيخ جلال الدين الأسد آبادي قام مقام شيخه علاء الدين البسطامي في تأديب المريدين وتهذيبهم، وأوقع الله له القبول والمحبة في الخلق، توفي في زاويته بالقدس سنة 794هـ/1392م.(2)

ومن العلماء الوافدين على المسجد الأقصى وقاموا بالتدريس كذلك الشيخ أبو بكر الحلبي توفي سنة 848هـ/1479م.(3) وتولى شهاب الدين أحمد بن محمد المصري الذي توفي 840هـ/1437م، التدريس بالخانقاه الصلاحية.(4) وبلغ عدد المساجد في حلب سواء في باطنها أو ظاهرها مائتان وأربعة مساجد.(5) وكان أشهرها المسجد الأعظم (جامع حلب)، ومسجد تغري بردي. أما جامع حلب أو المسجد الأعظم، فكان يضاهي الجامع الأموي في دمشق في الزخرفة والرخام والفسيفساء، وقد قام على بنائه سليمان ابن عبد الملك ليضاهي به ما عمله أخوه الوليد في الجامع الأموي.(6) ولهذا الجامع وظيفة ديوانية زمن المماليك، تسمى نظر الجامع الكبير، ومتوليها يكون رفيقاً للنائب في التحدث فيه. وله فيه وظيفة دينية وهي الخطابة بالجامع الكبير.(7) ويعد هذا الجامع مركزاً مهماً من مراكز العلم منذ قيامه، فدرّس فيه علوم الفقه والحديث والقراءات واللغة والنحو والتفسير علماء كثيرون من أمثال محمد بن سعيد بن عبد الرحمن الحلبي ت 803هـ/ 1400م، وعبدالملك الحلبي الشافعي ت 813هـ/1410م، وابن حجر

---

(1) علي السيد علي: المرجع السابق، ص163-164. عبد الجليل عبد المهدي: المرجع السابق، ص92-93.
(2) ابن قاضي شهبة: تاريخ، ج3، ص236، 442.
(3) أحمد العنزي: المرجع السابق، ص202.
(4) ابن حجر: إنباءُ الغُمر، ج4، ص54.
(5) ابن شداد، عز الدين: المصدر السابق، ج1، ق1، ص181. ابن الشحنة: المصدر السابق، ص104-105.
(6) االمصدر نفسه، ج1، ق1، ص104. المصدر نفسه، ص62.
(7) القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص220، 222.

العسقلاني المتوفى 852هـ/1448م.(1) وأقام نائب حلب تغري بردي جامعاً له في حلب سنة 796هـ/1393م. لتدريس المذهبين الشافعي والحنفي. وبلغ عدد طلابه ستة عشر طالباً، ثمانية منهم شافعية، وثمانية حنفية.(2)

ومن مشاهير الجوامع أيضاً في حلب في هذه الفترة: جامع أق بغا الأطروشي نائب حلب ابتدأ بتأسيسه سنة 801هـ/1398م، وبنى له تربة داخل باب الجامع وَوَقَفَ عليها أوقافاً. وجامع يلبغا الناصري نائب حلب، بناه بدار العدل ملاصقاً لتربة السيدة لمّا تَوَحّشَ خاطره من الملك الظاهر برقوق. ومنها جامع منكلي بغا الشمسي نائب حلب.(3)

وتركزت الحركة العلمية في الخليل في المسجد الإبراهيمي، الذي كان يعمل فيه معظم علماء الخليل، وكانت فيه حلقات للدرس ومجالس للعلم، ومن مهام مشيخة الحرم الإبراهيمي الإشراف على شؤون الحرم ورعاية المهمات التي يقوم بها من إعداد الخطباء والدرس والموظفين داخل الحرم، وممن تولى الخطابة والتدريس فيه الشيخ غرس الدين خليل بن عبدالرحمن بن أحمد بن محمد الأنصاري الخليلي توفي (874هـ/1469م).(4)

ومن مساجد الشام الأخرى والتي قامت بدور علمي داخل المجتمع جامع حماه الذي حظي باهتمام وعناية المماليك، وأبرزمن درس فيه عفيف الدين إسحاق الحموي الذي انفرد بحلقة خاصة لتعليم القراءات السبع، وحلقة للشيخ شرف الدين أبي القاسم البارزي، والامام محمد بن أيوب بن بركات التاذفي.(5)

---

(1) عبد الجواد عثمان: المؤسسات الدينية وأثرها في تطور الدراسات القرآنية في القرن(8) هـ في بلاد الشام، مجلة كلية العلوم الإسلامية، جامعة الموصل، المجلد السابع، العدد الثالث عشر،2013م. ص6. زياد المدني: المرجع السابق، ص235.
سعد بن عوض الحارثي: تحقيق مخطوط" الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب" رسالة ماجستير، جامعة أم القرى،1432هـ. ص272.

(2) ابن الخطيب الناصرية: الدر المنتخب،ج1، ص343. ابن الشحنة: المصدر السابق، ص73
حسام الناطور: دولة المماليك في عهد برقوق، ص354. زياد المدني: المرجع السابق، ص235.

(3) ابن الشحنة: المصدر السابق، ص73. محمد كرد علي: المرجع السابق، ج6، ص49.

(4) نعمان عمرو: المرجع السابق، ص22.

(5) عبدالجواد عثمان: المرجع السابق، ص6.

وفي طرابلس عدة جوامع ومساجد، ومعظمها من أيام المماليك الجراكسة، كجامع أرغون شاه الذي تم بناؤه أيام السلطان قايتباي سنة 880هـ/1475م.(1) وفي بعلبك مسجد الحنابلة، ومن علمائه الفخر البعلبكي أبو محمد الحنبلي، وقدم للصلاة في مسجد الحنابلة وتخرج به جماعة من الفقهاء.(2)

3.المدارس

شكلت المدارس منبراً آخر من منابر العلم والثقافة التي شهدتها بلاد الشام، والتي كان لها الإسهام الفعال في رعاية الأجيال التي انتقلت من مرحلة التعليم الأولي- الكتاب- إلى مرحلة تعليمية أعلى أسهم فيها العلماء بتَنَمية الفكر العلمي والثقافي لدى هذه النخبة التي حملت فيما بعد شعلة العلم.(3) وكانت تؤسس المدارس لبعض الأئمة الكبار ممن تعمقوا وتفقهوا بالعلوم الدينية لكي يمارسوا دورهم التعليمي بأمان واحترام، وبالتالي تمكين الطلاب من الحصول على الثقافة الضرورية من أجل تطوير المجتمع ليس على الصعيد الديني فقط إنما أيضاً في مختلف العلوم الأخرى.(4) وانتشرت المدارس في المدن الكبيرة في بلاد الشام، وأقبل عليها الطلاب حيث أنفق السلاطين الأموال على التعليم والتدريس، وأوقفوا الأوقاف الكثيرة، والرواتب الشهيرة للعلماء وبعض الطلبة الفقراء.(5)

وصنفت مدارس الشام في الفترة المملوكية إلى عدة أنواع نجدها في كتاب الدارس في تاريخ المدارس على النحو التالي: 7 مدارس للقرآن الكريم، 15 مدرسة للحديث الشريف، 3 مدارس للقرآن الكريم والحديث الشريف معاً، ومدارس الفقه: 60 مدرسة للشافعية، 7 مدارس للحنفية ، 4 مدارس للمالكية ، 11مدرسة للحنبلية، 3 مدارس طبية،

(1) محمد كرد علي: المرجع السابق، ج6، ص53.

(2) ابن العماد: المصدر السابق، ج7، ص706، 707. محمد كرد علي: المرجع السابق، ج6، ص58.

(3) أحمد العنزي: المرجع السابق، ص218.

(4) انطوان ضومط: المرجع السابق، ص403-404.

(5) النعيمي: المصدر السابق، ج1، ص8، 9. عمار النهار: المرجع السابق، ص16. مفيد الزيدي: المرجع السابق، ص260.

ومدارس كثيرة للصوفية توزعت بين الخوانق، والزوايا، والرباطات، والترب.(1) نلاحظ مما سبق أن عدد مدارس الفقه ، خاصة المدارس الشافعية هي الأكثر بين المدارس الأخرى، ويمكن أن نعلل ذلك إلى أنتشار المذهب الشافعي بين الناس في الشام أكثر من غيره من المذاهب، وهذا ما يدفع المتحمسين لهذا المذهب إلى إقامة المدارس الفقهية على مذهبهم رغبة في نصرته ونشره.(2)

وكانت المدارس في دمشق تتألف من إيوان للمحاضرات، وبيوت للمدرسين والطلبة، ومرافق عامة.(3) ويكون صحن المدرسة مكشوفاً غير مسقوف تتوسطه نافورة محفورة من الرخام، تحيط به أروقة من جهاته الأربعة، أحدها يؤدي إلى الجامع الملاصق بها، وآخر إلى قبر من أسس المدرسة، أما الرواقان الآخران فيحاذيان الايوانات المعدة للتدريس، والتي تعلوهما غرف لمنامة الطلاب، وهذا النوع من المدارس شيد خصيصاً للتدريس.(4) وكانت أن بعض المدارس تضمّ منازل للطلبة، وكانت تقدم لهم الطعام والمساعدات المالية إذا كان ذلك في شرط الواقف. فإذا لم يكن في شرط الواقف تحديد معاليم معينة للمدرسين وموظفي المدرسة نظراً في حال الوقف، فإن كان ارتفاعه يمكن أن يساعد على مالٍ كافٍ لتوظيف ما اشترطه الواقف من عدد المدرسين وغيرهم، حددت نسب ما ينفق بحسب الارتفاع.(5) يذكر ابن طوق في أحداث سنة 886هـ/1481م أن أصحاب الثروات أحضروا للمدرسة الشامية البرانية ثلاثة أحمال مشمش، وسلة قراصيا، وفرق على الفقهاء بها.(6)

---

(1) النعيمي: المصدر السابق، ج1، ص501- 503، ج2، ص453- 456. ابن كنان: حدائق الياسمين، ص146- 156. مصطفى السباعي: المرجع السابق، ص217. مبارك الطراونه: الحياة الاجتماعية في بلاد الشام، ص171.

(2) أكرم العلبي: المرجع السابق، ص176.

(3) المرجع نفسه، ص171. حسن عبدالغني أبو غدة: دور الوقف في تعزيز التقدم المعرفي، المؤتمر الثالث للأوقاف، الجامعة الإسلامية، السعودية، 1430هـ/2009م. ص213.

(4) انطوان ضومط: المرجع السابق، ص404.

(5) إحسان عباس: المرجع السابق، ص167.حسن أبو غدة: المرجع السابق، ص213.

(6) ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص57.

وجرت العادة عند الفراغ من إنشاء مدرسة في عصر المماليك أن يحتفل بافتتاحها احتفالاً كبيراً يحضره السلطان إذا كانت المدرسة في مصر، ويحضرها الأمراء والفقهاء والقضاة والأعيان إذا كانت في الأقاليم ومنها الشام، فيمد سماط فاخر في صحن المدرسة به ألوان الأطعمة والحلوى والفواكه.ففي عام 795هـ/ 1393م، لما فرغ من بناء المدرسة الشامية البرانية أقيمت فيها الصلاة وحضر الفقهاء افتتاحها.(1)

ويقوم على هذه المدارس موظفون ذاوو اختصاصات علمية وإدارية ومن مناصبها:

منصب المدرس: ووظيفته أن يحسن إلقاء الدرس وتفهيمه للحاضرين.

منصب المعيد: عليه تفهيم بعض الطلبة ونفعهم، وعمل ما يقتضيه لفظ الإعادة، وإلا فهو والفقيه سواء. وينبغي للمعيد أن يقدم إشغال أهلها على غيرهم في الوقت المعتاد أو المشروط إن كان يتناول معلوم الإعادة، لأنه مُتعين عليه ما دام معيداً.

منصب المفيد: عليه يعتمد ما يحصل به في الدرس من فائدة، ومن بحث زائد على بحث الجماعة ونحو ذلك، وإلا ضاع لفظ الإفادة وخصوصيتها.

منصب المنتهي من الفقهاء: عليه من البحث والمناظرة فوق ما على دونه.

منصب فقهاء المدرسة (الطلاب): وعليهم التفهم على قدر إفهامهم، والمواظبة إلا بعذر شرعي، وقد غلب على الفقهاء في أواخر عصر الدولة المملوكية الإنشغال أثناء الدرس، وعدم الانتباه لما يقوله المدرس.(2)

---

(1) المقريزي: السلوك،ج6، ص509. ابن الحمصي: المصدر السابق، ج2، ص434. النعيمي: المصدر السابق،ج1، ص257-262. محمد كرد علي:المرجع السابق،ج6، ص79. سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص342.

(2) بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة الكناني المتوفى 733هـ/1332م : تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم. اعتنى به محمد بن مهدي العجمي،ط1، دار البشار الاسلامية، بيروت، 1433هـ/2012م. ص139. السبكي: المصدر السابق، ص105-109. ابن طولون: نقد الطالب لزعل المناصب، ص152-155.

منصب قاريء العشر: وينبغي أن يقدم قراءة العشر، فيكون قبل الدرس، وعقب فراغ الربعة إذا كان الدرس فيه ربعة تدور،كما هو الغالب، وأن يقرأ آية مناسبة للحال.

منصب المنشد: يذكر من الأشعار ماهو واضح اللفظ، ومدائح الرسول صلى الله عليه وسلم، وإن اقتصر على ذكر أبيات غزلية فقد أساء الأدب، إذ كان في مجامع العلم.

منصب كاتب الغيبة: عليه اعتماد الحق، وألا يكتب على كل من لم يحضر، ولكن يستفصح عن سبب تخلفه، فإن كان له عذر بينه، وان لم يقتنع بعذره يحرم جزءاً من راتبه.

منصب القراء الذين يقرؤون القرآن بالألحان. عليهم إعمال جهدهم في تأدية كلام الله تعالى كما أنزل، من غير مطمطة ولا عجرفة، بل بلفظ لين.(1)

منصب ضابط الأسماء عند المسمعين: يضبط أسماء الحاضرين، ويتأمل من سمع منهم ومن لم يسمع.(2)

منصب خازن الكتب: عليه الاحتفاظ بها، وترميم شعثها، وحبكها عند احتياجها للحبك. والضنة بها على من ليس من أهلها، وبذلها للمحتاج إليها.(3)

ومن الوظائف الأخرى المساعدة التي أرتبطت كذلك بالتعليم وهي ذات أهمية كبيرة: الناسخ والوراق والمجلد.

منصب الناسخ: من حقه ألا يكتب شيئاً من الكتب المضلة ككتب أهل البدع والأهواء، وكذلك لا يكتب التي لا ينفع الله بها، ومن النساخ من يكتب عن عجلة، أو يحذف من أثناء الكتاب شيئاً، رغبة في إنجازه، إذا كان قد استؤجر على نسخه جملة، وهذا خائن

---

(1) السبكي: المصدر السابق، ص109-111. ابن طولون: نقد الطالب لزغل المناصب، ص155-157.

(2) ابن طولون: نقد الطالب لزغل المناصب، ض158. أكرم العلبي: المرجع السابق، ص181.

(3) السبكي: المصدر السابق، ص111. حسن أبو غدة: المرجع السابق، ص225.

لله تعالى في تضييع العلم، وغالباً مُستكتب هذه الأشياء يعطي من الأجرة أكثر مما يعطيه مستكتب العلم.

منصب الوراق: من أجود الصنائع، لما فيها من الإعانة على كتابة المصحف وكتب العلم ووثائق الناس وعُهدهم، فمن شُكر صاحبها نعمة الله أن يرفق بطالب العلم وغيره، ويرجح جانب من يعلم أنه يشتري الورق لكتابة كتب العلم.

منصب المجلد: وعليه نحو ما على الوراق والناسخ.(1)

وقد كان العارفون بالأحوال يبينون نوع الوظيفة، ونوع الغش الذي يمكن أن يلجأ إليه صاحبها، وطرق مراقبته، ليقوم بوظيفته على الوجه الأكمل.(2) وتولى في بعض الإحيان هذه الوظائف من هو ليس بأهل لها، وقد تكون انتقلت إليه بالوراثة. فقد وصف أحدهم بأنه لم يكن يعرف شيئاً من العلوم سوى الفقه على طريقة المتقدمين، ولا يعرف شيئاً من كلام المتأخرين وتحريراتهم، ومات ولم يتخرج به أحد من طلبة العلم.(3) فقد درس شهاب الدين أحمد بن القاضي تاج الدين بن الزهري بالمدرسة العادلية الصغرى، سنة 825هـ/ 1422م، وحضر قاضي القضاة والفقهاء، وكان المذكور لما توفي والده لم يكن له اشتغال بالعلم إلا شيئاً يسيراً، وكان سيء السيرة، فلما مات والده حج وأظهر أنه قد حسنت طريقته.(4) ولكن الموافقة النهاية على التوريث أو التنازل لا تتم إلا إذا أمضاها قاضي القضاة، وغالباً ما كان يفعل، إلا أن تكون ثمة عداوة بينه وبين العالم.(5)

---

(1) ابن جماعة: المصدر السابق، ص129-131. السبكي: المصدر السابق، ص131، 132.

ابن طولون: نقد الطالب لزغل المناصب، ص178، ص179. حسن أبو غدة: المرجع السابق، ص225.

(2) أكرم العلبي: المرجع السابق، ص180.

(3) ابن الشحنة: المصدر السابق، ص115، 174. النعيمي: المصدر السابق، ج1، 300.

مبارك الطراونه: الحياة الاجتماعية في بلاد الشام، ص174.

(4) النعيمي: المصدر السابق، ج1، ص281.

(5) أكرم العلبي: المرجع السابق، ص183.

وأحياناً تحتاج إلى موافقة السلطة، فقد تولى الدرس بالمدرسة المقدمية صدر الدين الحنفي عوضاً عن والده بسبب نزوله عنها لولده المذكور بمرسوم نائب السلطنة، وحضر القضاة والفقهاء والأعيان خدمة ورعاية لوالده وهنأوه بذلك.(1)

أما الأحوال المادية للمدرسين فلم تكن سيئة بوجه عام، فقد جمع بعض المدرسين بين يديه عدة وظائف، فقد ذكر ابن طولون أن زين الدين الحسباني لما دخل دمشق من القاهرة وكان نائب الحنفي، بيده عدة وظائف كانت بيد بدر الدين ابن قاضي أذرعات، وهي السبكية وجامع جديد وتربة الزنجيلية وغير ذلك مع الجوهرية.(2) وكان بعض المدرسين لا يهتم إلا أن يتعلم ما يجادل فيه، ويكبر عمامته، ويسرح لحيته، ويتقلب على وظائف التدريس، ويأكل الأوقاف، أما ذوو الضمائر والدين من المدرسين، فقد كانوا يعيشون عيشة متواضعة جداً تقرب من الزهد.(3)

ونود أن نشير هنا إلى أن المدرس الذي يعين من قبل السلطنة في مدارس رسمية له مرتبات شهرية منتظمة من خزينة الدولة وقد تكون هذه الرواتب ذات مقادير كبيرة أحياناً، أما المدرسون الذين يعينون من قبل أصحاب الأوقاف بنص مكتوب، فقد كانوا يأخذون رواتبهم من إيرادات الوقف، وكانت هذه الرواتب مرتبطة بريع الوقف وشروط الواقف ومكانة المدرس وشهرته العلمية.(4) إلا أنه يجب أن نذكر أن عدداً لا يستهان به من هؤلاء المدرسين كانوا يتخلون عن مناصبهم ذات الدخل الكبير ويعتصمون في بيوتهم، حتى لا يخضعوا لنزوات الحكام. ذلك أنهم كانوا ينظرون إلى مهنتهم نظرة إجلال، وكانوا يرون في الحفاظ على علوم الدين واجباً. ويتضح ذلك من أسماء أولئك

---

(1) ابن الجرزي: المصدر السابق، ج2، ص108. النعيمي: المصدر السابق، ج1، ص459.

(2) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق1، ص22. أكرم العلبي: المرجع السابق، ص182. مصطفى السباعي: المرجع السابق، ص210.

(3) أكرم العلبي: المرجع السابق، ص183. أحمد غسان سبانو: دمشق في دوائر المعارف ، ص217.

(4) ابن الجرزي: المصدر السابق، ج2، ص108. مبارك الطراونه: الحياة الاجتماعية في بلاد الشام، ص174-175.

الذين قبلوا بالتدريس، لقد كانوا كبار العلماء في أيامهم.(1) ومن المدارس التي أوقف عليها: **العادلية الصغرى في دمشق**، فقد كانت داراً تعرف بابن موسك ثم أوقفت للتدريس، وأوقف عليها قرية كامد، وقرية برقوم من أعمال حلب والحصة من قرية بيت الدير من الأصغار والحمام المعروف بابن موسك، وشرط الواقف للمدرسة مدرساً ومعيداً وإماماً ومؤذناً وبواباً وقيماً وعشرين فقيهاً، ووقف الجهات المذكورة منها على مصالح المدرسة ومصارفها.(2)

أما **المدرسة الفارسية:**" وقفها الأمير سيف الدين فارس الدوادار التَنَمي في سنة 808هـ/1405م، في وقفه الجديد، واقف قرية صحنايا وغيرها على مدرسين وعشرة فقهاء وعشرة مقرية، ويقرئي خمسة عشر يتيماً، إذا حفظ أحدهم القرآن يخرج ويقرر غيره، وتفرقة خبز في كل جمعة زنة ربع قنطار، ومقرئين آخرين فيها أيضاً غير العشرة المذكورة يحضران عقب الظهر والعصر، ووقف على هذه المدرسة كذلك حوانيت إلى جانبها وجعلها وقفاً على إمام وغيره، ودرس في هذه المدرسة الشيخان شهاب الدين ابن حجي، وجمال الدين الطيماني سنة 811هـ/ 1409م، وقد شرط الواقف في الشهر لكل مدرس ثمانين درهماً، ولكل مقريء خمسة عشر درهماً، وشرط للحرمين جملة، وجعل الفاضل بعد ذلك لذريته، وأوقف على هذه المدرسة كذلك قرية فزارة من عمل الجولان، والعشر في قرية بالين من عمل القطاع، وربع سوق السلاح، وبيت ابن مزلق".(3)

---

(1) نقولا زيادة: المرجع السابق، ص163. مصطفى السباعي: المرجع السابق، ص210.

(2) النعيمي: المصدر السابق، ج1، ص278-279.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص324، 325. ابن كنان: المواكب الإسلامية، ج1، ص340.

عبدالقادر بن أحمد بن مصطفى بن عبدالرحيم بن بدران المتوفى 1346هـ/1927م: منادة الأطلال ومسامرة الخيال، تحقيق، زهير الشاويش، 1ج، ط2، المكتب الإسلامي، بيروت، 1985م. ص135-136.

بينما خصص للمدرس زين خطاب العجلوني في كل شهر مائة وخمسين درهماً في المدرسة العمرية.(1) وتختلف أوقات الدوام في هذه المدارس من مدرسة إلى أخرى، ولكن عادة ما تكون بين ثلاثة وخمسة أيام في الأسبوع، ويجب ألا تتعارض مع أوقات الصلاة، وأن يوم الجمعة هو أحق الأيام عند المسلم أن يمضي دون تدريس.(2) فقد ذكر ابن طولون في "القلائد الجوهرية" أثناء حديثة عن دروس المدرسة العمرية أن يوم السبت كان يدرس الشيخ تقي الدين الجراعي، ويوم الأحد والأربعاء القاضي برهان الدين المفلح، ويوم الاثنين والخميس القاضي علاء الدين المرداوي، ويوم الثلاثاء الشيخ يوسف المرداوي.(3) ومن الطبيعي تبعاً لما تقدم أن يختلف عدد الطلبة في مدرسة عن عددهم في أخرى، وأن تتفاوت مرتبات المدرسين تفاوتاً كبيراً، فقد حدد العديد من واقفي المدارس في بلاد الشام عدد طالبي العلم في المدارس التي كانوا يقفونها، بشكل يتناسب عددهم مع الدخل الذي تدره عليهم أوقافها.(4) وللطلاب الحرية في اختيار المواد التي يدرسونها، وكثيراً ما أعتمد هذا الاختيار على مكانة المدرس وشهرته العلمية، ويظل الطالب يحضر دروس أحد المدرسين أو الشيوخ حتى يأخذ منه كفايته فينتقل إلى آخر وهكذا.(5)

وينتقل الطالب أثناء مرحلة دراسته في عدة مراحل، أولها تلاوة القرآن وحفظه، ثم الحديث الشريف، ومن بعده علوم العقيدة. ومن نبغ منهم فيها انتقل إلى دراسة كتب الفقه والتفسير والنحو، ثم تأتي مرحلة أعلى من ذلك يدرس فيها الطالب أمهات الكتب في كل العلوم، ثم يختم تعليمه في التأليف ، لينتقل بعدها إلى التدريس والمناظرة.(6)

---

(1) ابن طولون: القلائد الجوهرية، ج1، ص261.

(2) إحسان عباس: المرجع السابق، ص167. معن المقابلة: المرجع السابق، ص56.

(3) ابن طولون: القلائد الجوهرية، ج1، ص259. ابن كنان: المواكب الإسلامية ، ج1، ص321.

(4) النعيمي: المصدر السابق، ج1، ص279. إحسان عباس: المرجع السابق، ص167. منتصر شطناوي: المرجع السابق، ص176.

(5) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص344. فريال بدوي: المرجع السابق، ص216.

(6) ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص248. أكرم العلبي، المرجع السابق، ص184.

وكان الطلاب المنتهون يبلغون تلك المرحلة من العلم والطلب في حوالي سن العشرين فقد قدم عماد الدين أبو الفداء إسماعيل، وهو نابلسي، حسباني الأصل. وعمره عشرون سنة، فقُرر فقيهاً بالمدرسة الشامية البرانية، ولم يزل في نمو وازدياد، حتى أذن له الشيخ فخر الدين بالإفتاء، فدرس وأفتى وقصد بالفتاوى.(1) وقرر ابن الحمصي في فقاهة المدرسة الركنية الجوانية سنة 868هـ/1464م، بعد أن عرض محفوظاته على الشيخ بدر الدين المغربي فأجازه.(2)

ولا تكتمل الصورة العلمية وتصبح واقعية إلا بالحصول على الإجازات العلمية، وكل حسب تعليمه. والهدف من الإجازة بأنواعها كان ضبط الرواية، وضمان نشر الحقائق العلمية سليمة غير مشوهة أو مزيفة. وكانت المادة العلمية غرضها الأساسي، إلا أنه في هذا العصر أصبح لها غرض جديد هو الترخيص" للمهنة العلمية" أوالوظيفة: كالفتيا، والتدريس، والقضاء، والتطبب.(3) والإجازة بالفُتيا والتدريس كما جرت العادة أنه إذا تأهل بعض أهل العلم للفُتيا والتدريس يجب أن يأذن له شيخه في أن يُفتى ويُدرس، ويكتب له بذلك في قطع عريض، إما في بلاد الشام أو نحوها تكون الكتابة بقلم الرقاع أسطراً متوالية .(4) فقد كتب العالم الشيخ إبراهيم بن أحمد الشافعي، إجازة حافلة لإبن الحمصي سنة 873هـ/ 1469م، بعد أن قرأ عليه صحيح البخاري، وشرح المنهاج للنووي، والأشنهية في الفرائض.(5)

وقد تنوعت الإجازات العلمية، فمنها ما عرف بالسماعات ومفردها سماع. حيث يقوم الشيخ بكتابة أسماء الذين سمعوا عليه الكتاب. وهي لا تجيز للطالب حق ممارسة

---

(1) النعيمي: المصدر السابق، ج1، ص121. ابن طوق: المصدر السابق، ج1، ص62. منتصر شطناوي: المرجع السابق، ص153.

(2) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج1، ص100- 101.

(3) حسام الحزوري: المرجع السابق، ص234.

(4) القلقشندي: المصدر السابق، ج14، ص322.

(5) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج1، ص130.

التدريس والإفتاء، بل إنها تعني حضور الطالب وسماعه الكتاب لا أكثر.(1) وهناك نوع آخر من الإجازات يسمى" الإجازة بعرض الكتب" فقد جرت العادة أن بعض الطلبة إذا حفظ كتاباً في الفقه، أو أصول الفقه، أو النحو، أو غير ذلك من الفنون، يعرضه على مشايخ العصر، فيقطع الشيخ المعروض عليه ذلك الكتاب، ويفتح منه أبواباً ومواضع، يستقرئه إياها من أي مكان اتفق، فإن مضى فيها من غير توقف ولا تلعثم، استدل بحفظه تلك المواضع على حفظه لجميع الكتاب، وكتب له بذلك كل من عرض عليه، في ورق مربع صغير. والنوع الثالث من الإجازات يسمى ب" العامة" ويكون مضمونها كما ورد عند القلقشندي عندما أجيز سنة 778هـ/1376م، وسنة يومئذ إحدى وعشرون سنة" وآذن وأجاز لفلان المسمى فيه، أدام الله تعالى معاليه، أن يدرس مذهب الإمام المجتهد المُطلق العالم الرباني، أبي عبدالله محمد بن إدريس الشافعي، وأن يقرأ ما شاء من الكتب المصنفة فيه، وأن يفيد ذلك لطالبيه، حيث حل وقام، كيف ما شاء متى شاء وأين شاء، وأن يُفتى من قصد استفتاءه خطّا ولفظا، على مذهب الشريف المشار إليه: لعلمه بديانته وأمانته، ومعرفته ودرايته، وأهليته لذلك وكفايته"(2)

وأما الإجازة بالمرويات على الإستدعاءت، فمن ذلك ما كتب به الشيخ صلاح الدين الصفدي على إستدعاء كتب به القاضي شهاب الدين الحنبلي خطيب بيت الآلهة، وكاتب الدست* بالشام، يطلب منه فيه الإجازة لنفسه.(3) وإذا كان الشيخ بعيداً عن محل إقامة الطالب، فإن هذا يرسل له طالباً منه الإجازة بالمراسلة.(4)

(1) عبد الجليل عبد المهدي: المرجع السابق، ص98. بوران لبنية: المرجع السابق، ص250.

(2) القلقشندي: المصدر السابق، ج14، ص325، ص227. أكرم العلبي: المرجع السابق،ص190، ص191.

*. مساعد كاتب يجلس مع كاتب السر في دار العدل أمام السلطان أو النائب ويوقع على القصص أي العرائض والإستدعاءات.
محمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص127.

(3) القلقشندي: المصدر السابق، ج14، ص332.

(4) أكرم العلبي: المرجع السابق، ص192.

فقد ذكر ابن الحمصي أن الشيخ المسند المعمر شمس الدين محمد بن مقبل المتوفى سنة 869هـ/1464م، كتب لي بالإجازة من حلب وأنا مقيم بالشام.(1)

ولم تقتصر المدارس في بلاد الشام في هذه الفترة على العلوم الشرعية فقط، وإنما وجدت مدارس للطب، كالمدرسة الدخوارية، التي أوقفها على الأطباء مدرسة لهم المهذب الدخوار عبد الرحيم بن علي حامد الدمشقي، شيخ الطب ورئيسهم في دمشق، وكانت داره بدرب العجل بالقرب من الصاغة العتيقة. وتعود المدرسة الدنيسرية الطبية، إلى صاحبها الرئيس الطبيب الحاذق، عماد الدين أبو عبدالله الربعي. أما المدرسة اللبودية النجمية، أوقفها نجم الدين بن يحي بن عبد الواحد بن اللبودي على الأطباء، وكان لديه فضيلة بمعرفة الطب في دمشق.(2)

نلاحظ مما سبق أن هذه المدارس يعود الفضل في تأسيسها إلى أطباء برعوا في هذا المجال فكان لهم الريادة في نهضة التعليم الطبي في بلاد الشام، بل إلى طلاب العلم الذين جاءوا من بعدهم، فكل طالب يريد أن يلتحق بمدارس الطب تجري له اختبارات قبل التحاقه بالمدرسة على يد شيخها وحكيمها، فإذا اجتاز الاختبار التحق بالمدرسة لتُلقى عليه الدروس وعلى طالب الطب دراسة بعض العلوم الأخرى، كالمنطق والهندسة والنجوم والحساب والألحان، وذلك لأن سائر هذه العلوم تفيده في تقصي الأمراض ومعرفة أسبابها وأعراضها وعللها، وبالتالي تساعده في علاجها.(3) فقد كان أبو المجد بن أبي الحكم من الحكماء المشهورين، كان طبيباً حاذقاً، وله يد طولى في الهندسة والنجوم ويعرف الموسيقى، ويلعب بالعود ويزمر، وله في سائر الآلات

---

(1) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج1، ص10، 102.

(2) النعيمي: المصدر السابق، ج2، ص100- 108. عبدالقادر بدران: المرجع السابق، ص252- 258.

(3) محمد عطية أبو هويشل:الأحوال الصحية والطبية في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي،(648- 923هـ/1250-1517م، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة، 2012م. ص78.

المطربة يدٌ عمالةٌ، وعمل أرغناً وبالغ في إتقانه.(1) وتأتي مدينة حلب في المرتبة الثانية بعد دمشق كمركز ثقافي علمي، ثم القدس الشريف ومدن صفد والرملة وطرابلس وبيروت وغيرها الكثير من مدن الشام.(2) وتوزعت مدارس حلب على المذاهب الأربعة: الشافعية 19 مدرسة، منها 11 بباطنها، 8 بظاهرها. الحنفية 20 مدرسة، منها 11 بباطنها، 9 بظاهرها. وبلغت المدارس المالكية والحنبلية 3 مدارس، بالإضافة إلى دور الحديث والزوايا والترب.(3) وجعل في هذه المدارس كما في مدارس دمشق مساكن للمرتبين بها من الفقهاء والقراء والصوفية، وأوقف على بعضها أوقافاً جليلة.(4)

ونذكر هنا شروط الواقف على المدرسة الحلاوية الشافعية في ظاهر حلب، وهي من أعظم المدارس صيتاً واكثرها طلبة. فمن شروطها أن يجعل في كل شهر رمضان من وقفها ثلاثة آلاف درهم للمدرس يصنع بها طعاماً للفقهاء، وفي ليلة النصف من شعبان في كل سنة حلوى معلومة، وفي الشتاء ثمن لباس لكل فقيه، وثمن ما يحتاج من دواء وفاكهة، وفي المواليد ايضاً الحلوى. ولم يزل المدرسون ينتقلون بها إلى أن وصلت إلى أبي الفضل محمد بن الشحنة المتوفى سنة 890هـ/1485م، بتوقيع شريف سنة 824هـ/1421م. بالإضافة إلى المدرسة الشادبختية التي انتقلت إليه أيضاً من والده بتوقيع شريف من سيف الدين قصروه نائب حلب، ثم تنازل عنها لولديه عندما استقر في مصر للقضاء. (5)

---

(1) النعيمي: المصدر السابق، ج2، ص108.

(2) ابن العديم: زبدة الحلب، ص331، ص332. ابن الخطيب الناصرية: المصدر السابق، ج1، ص370، ص455.
ندى زاهد صعيدي: العلماء في بلاد الشام في القرن العاشر الهجري على ضوء كتاب الغزي" الكواكب السائرة" رسالة ماجستير، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1974م. ص20.

(3) ابن شداد، عز الدين: المصدر السابق، ج1، ق1، ص241- 287. ابن الشحنة: المصدر السابق، ص109- 124.

(4) المصدر نفسه، ج1، ق1، ص244. المصدر نفسه، ص110، 112، 113.

(5) المصدر نفسه، ج1، ق1، ص264-272. المصدر نفسه، ص115، ص116.

أما المدرسة الأتابكية فقد أحرقت في زمن التتر 803هـ/1400م، ثم رممت بعد ذلك وكملت عمارتها واستقر فيها التدريس، وليس لها وقف إلا حصة بسفح كمنون ومتحصلها يسيرجداً لا يقوم بمعلوم القايم والإمام، وهي باسم ولديّ ابن الشحنة. ومن المدارس الشافعية الأخرى في حلب التي واصلت التدريس جيلاً بعد جيل إلى أن وصلت أبي الفضل محمد الشحنة وأولاده من بعده في العصر المملوكي الثاني، المدرسة الحدادية، والمدرسة الجردكية. و أنشئت المدرسية الحسامية على يد جد أبي الفضل محمد بن الشحنة، وقد درّس بها بعد فتنة التتر العلامة شهاب الدين بن البرهاني، ولم تزل بيده إلى أن تركها. وقال "لا استحل التدريس بها مع وجودك لأهليتك ولكونها مدرسة جدك" (1) وعندما بنى الأمير طقتمر الكلتاوي المدرسة الكلتاوية أوقف عليها اصطبلات وحوانيت، وشرط أن يكون مدرسها حنفياً والطلبة كذلك. ووقف الأمير يشبك اليوسفي نائب حلب على المدرسة اليشبكية سوقاً بناه بالقرب منها.وجعل له مدفناً دفن فيه سنة 824هـ/1421م. وشرط شهاب الدين سبط بني السفاح بعد بناء المدرسة السفاحية ووقفها على الشافعية أن لا يكون لحنفي فيها حظ الا في الصلاة. ووقفت المدرسة الدلغادرية التي بناها الأمير ناصر الدين بن دلغادر على الحنفية.(2) وبنى أحمد بن صالح بن أحمد ت 835هـ/1431م مدرسة في حلب، ورتب فيها خطيباً على مذهب الإمام الشافعي.(3) ومن مدارس حلب في هذا العصر أيضاً مدرسة الثغري ورمشية التي بناها الأمير ثغري ورمش نائب حلب. والمدرسة الالجانية والكينوشية والناصرية والشهابية، والمدرسة الكاملية، والصاحبية، ومدرسة اقجا مملوك يشبك اليوسفي.(4)

---

(1) ابن شداد، عزالدين: المصدر السابق ، ج1، ق1، ص 273--279. ابن الشحنة: المصدر السابق ، ص116- 118..

(2) ابن الشحنة: المصدر نفسه، ص233.، ص234.

(3) سعد الحارثي: المرجع السابق، ص162.

(4) ابن الشحنة: المصدر السابق، ص233-234.

واشتهرت حلب بحرفة نسخ الكتب على يد الخطاطين الماهرين، وكان لهم عند العلماء والوجهاء منزلة مقبولة، وكان أكثر طلاب العلوم الفقراء المجاورين للمدارس يستعينون على طلب العلم بالاسترزاق من نسخ الكتب والمصاحف.(1)

وشهد بيت المقدس في العصر المملوكي قفزة هائلة في بناء المدارس، فاهتم السلاطين والامراء باقامة المنشآت العلمية والدينية والخيرية في بيت المقدس لتوفير أسباب الحياة الطيبة لرواد وسكان القدس.(2) حيث بلغ عددها في الدولة المملوكية الأولى 25 مدرسة.(3) وفي الثانية 14 مدرسة هي:

المدرسة الطشتمرية: بناها الأمير سيف الدين طشتمر العلائي سنة 784هـ/1382م.

المدرسة الجهاركسية: وقفها الأمير جهاركس أمير خور الملك الظاهر برقوق، سنة 791 هـ/ 1388م.(4)

المدرسة الطولونية: أنشأها شهاب الدين أحمد بن الناصري محمد الطولوني في زمن الملك الظاهر برقوق، على يد مملوكه أقبغا 800هـ/ 1397م.(5) **المدرسة الصبيبية**: وقفها الأمير علاء الدين بن ناصر الدين محمد نائب قلعة نصيبين، وقفها عندما كان في نيابة القدس 809هـ/1406م.(6)

---

(1) الغزي، كامل: المصدر السابق، ج1، ص158، 169-170.

(2) يوسف غوانمه: نيابة بيت المقدس، ص152. منتصر شطناوي: المرجع السابق، ص79.

(3) عارف باشا العارف: تاريخ القدس، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1951م. ص88- 95. المرجع نفسه، ص78.

(4) مجير الدين الحنبلي: المصدر السابق، ج2، ص44، ص45. محمد كرد علي: المرجع السابق، ج6، ص121-122. عارف العارف: المفصل في تاريخ القدس، ط5، مطبعة المعارف، القدس، 1999م. ص251. وانظر: تاريخ القدس، ص93. يوسف غوانمه: نيابة بيت المقدس، ص174. أحمد سامح الخالدي: المعاهد المصرية في بيت المقدس، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2014م. ص9.أكرم العلبي: المرجع السابق، ص136، ص207.

(5) محمد كرد علي: المرجع السابق، ج6، ص120. عارف العارف: المفصل في تاريخ القدس، ص279. تاريخ القدس، ص95-96.

(6) مجير الدين الحنبلي: المصدر السابق، ج2، ص83.محمد كرد علي: المرجع السابق، ج6، ص119. عارف العارف: المفصل في تاريخ القدس. ص252. وانظر: تاريخ القدس، ص96. عبد الجليل عبد المهدي: المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي، ج2، ط1، مكتبة الأقصى، عمان، 1981م. ص109.

المدرسة الفنرية: أنشأها شهاب الدين الطولوني، وجعلها للملك الظاهر برقوق. واشتراها رجل من الروم اسمه محمد شاه ابن الفنرى، فوقفها ونسبت إليه سنة 815هـ/1412م.(1) **المدرسة الكاملية:** وقفها الحاج كامل من أهل طرابلس سنة 816هـ/ 1413م. في عهد الملك المؤيد شيخ المحمودي (815-844هـ/1412-1440م). **المدرسة الباسطية:** أنشأها شمس الدين محمد الهروي. ومات قبل إتمام عمارتها. فعمرها القاضي زين الدين عبد الباسط الدمشقي ناظر الجيوش سنة 834هـ/1430م. ومن شيوخ هذه المدرسة ومدرسيها شمس الدين المصري، وشرف الدين بن البيطار، وتقي الدين القلقشندي.**المدرسة الغادرية:** أنشأتها خديجة خاتون زوجة الأمير ناصر الدين محمد ابن القادر أيام السلطان الملك الأشرف برسباي سنة 836هـ/ 1432م. **المدرسة الحسنية:** وقفها الأمير حسام الدين أبي محمد الحسن الكشكيلي ناظر الحرمين ونائب السلطنة في القدس سنة 837هـ/1433م.**المدرسة العثمانية:** وقفتها امرأة من الروم تسمى اصفهان شاه خاتون بنت الأمير محمود العثماني سنة 840هـ/1437م. في عهد الأشرف برسباي، ومن شيوخها سراج الدين الرومي، وجمال الدين الرومي(2) **المدرسة الجوهرية:** وقفها الصفوي جوهر زمام الإدارة الشريفة سنة 844هـ/1440م. **المدرسة الأشرفية:** بناها الأمير حسن الظاهري باسم الملك الظاهر خشقدم سنة 875هـ/1475م، ولما توفي خشقدم نسبت إلى الملك الأشرف قاتيباي. **المدرسة المزهرية:** واقفها الزيتي أبوبكر بن مزهر الأنصاري الشافعي 885هـ/1480م. **المدرسة الزمينية:** أنشأها الخودجكى محمد بن الزمرد خان سنة 886هـ/1481م.(3)

---

(1) محمد كردعلي: المرجع السابق، ج6، ص120. عارف العارف: المفصل في تاريخ القدس، ص252، وانظر:تاريخ القدس، ص96.

(2) مجير الدين الحنبلي: المصدر السابق، ج2، ص36، 39، 40، 42، 43. محمد كرد علي: المرجع السابق، ج6، ص118، 121 . عارف العارف: المفصل في تاريخ القدس، ص252-254. تاريخ القدس، ص96-97. عبد الجليل عبد المهدي: المدارس في بيت المقدس ، ص113، 115، 116، 130،124، 131. .يوسف غوانمه: نيابة بيت المقدس، ض155، 160، 163، 165، 168.

(3) مجير الدين الحنبلي: المصدر السابق، ج2، ص35، 37، 80. محمد كرد علي: المرجع السابق، ج6، ص117-118. عارف العارف: المفصل في تاريخ القدس، ص254-256. وانظر: تاريخ القدس، ص97-98.

أما مكونات بناء المدرسة في بيت المقدس في ذلك العصر، فمن الواضح أنها لم تختلف كثيراً عن المدارس التي وجدت في كثير من المدن التي خضعت لحكم سلاطين المماليك من حيث كونها تشتمل على كل ما يحتاجه الطلبة من مرافق، حيث وجد بها مطبخ وبيت طهارة، ومكان للصلاة، وإيونات حيث يجلس الطلبة في حلقات التدريس لتلقى دروسهم المختلفة.(1)

ووجد في حماة مجموعة من المدارس كالمدرسة الخاتونية والطواشية والبارزية والعصرونية والعزية والنورية والحنفية والشيخة والمظفرية.(2) لذلك شهدت حماة نشاطاً علمياً واسع النطاق في جميع فروع الشريعة الإسلامية، وذلك نتاج الدور الذي لعبته المؤسسات التعليمية في نشر علوم الشريعة، والشغف الذي أولته الأسر الحموية لتدريس أبنائها القرآن الكريم وما يعقبه من تحصيل علمي في بقية العلوم. ونشير هنا إلى العالم فرج الدين بن محمد الزين بن الأمير ناصر الدين الحموي المتوفى 896هـ/1464م، ولد في حماة ونشأ بها فحفظ القرآن والبهجة الوردية والكافية وأخذ في الفقه ببلده عن الزين بن الخرزي وبحمص عن البرهان النقيراوي، تولى كتابة سر حماة، وقضاء الشافعية فيها، وألف كتاب سماه بلوغ الطالب، وعمل ذيلاً لتاريخ المؤيد صاحب حماة.(3) والعالم الحموي الشيخ علوان ابن الشيخ عطية، أجمع الناس على جلالته وتقدمه في العلم والعمل. وانتفع الناس به وبتآليفه الكثيرة، منها: الجوهر المحبوك ي نظم السلوك، ومصباح الهداية ومفتاح الولاية، وتقريب الفوائد وتسهيل المقاصد، وغيرها الكثير.(4) وأنشئت المدرسة الخاتونية في طرابلس من قبل أرغون

---

(1) علي السيد علي: المرجع السابق، ص165.

(2) الحميري: المصدر السابق ، ص199. محمد كرد علي: المرجع السابق، 6، ص125.جلال العطاري: المرجع السابق، ص21. أحمد الصابوني: المرجع السابق، ص55، 56.

(3) السخاوي: الضوء اللامع، ج6، ص169-170. إيمان بنت عبد الحكيم: المرجع السابق، ص337.

(4) أحمد الصابوني: المرجع السابق، ص103.

خاتون بالإشتراك مع زوجها والي طرابلس عز الدين أيدمر، وأوقفت عليها العقارات، ثم وضعت الشروط لصرف ريعها.(1)

وشهدت مدينة الخليل نشاطاً علمياً ملحوظاً في مدارسها ومساجدها خاصة المسجد الإبراهيمي، فمن مدارس الخليل المشهورة مدرسة السلطان حسن، وتحولت فيما بعد لبعض أهالي في القرن التاسع الهجري، وكذلك المدرسة القيمرية، والمدرسة الفخرية. ومن علماء الخليل: شمس الدين بن محمد الشهير بابن البرهان الخليلي(ت 852هـ/1448م)، سمع الحديث واشتغل بالعلم فقهاً ونحواً، وخليل بن أحمد القيمري الخليلي(ت 788هـ/ 1462م)، وشمس الدين عمر بن علي الجعبري الخليلي (ت893هـ/1487م)، حاصل على من الإجازات العلمية، ودّرس الحديث والنحو، وكان من مشاهير القراء في الخليل.(2)

وأُسست المدارس في شرق الأردن في الفترة المملوكية في كل من الكرك والبلقاء وحسبان وعمّان.(3) وبرز مجموعة كبيرة من العلماء فيها نذكر منهم: القاضي علاء الدين أبو الحسن بن الشيخ الكركي الشافعي، وُلِيَ كتابة السر بالكرك، فلما سُجِنَ الظاهر برقوق بالكرك خدمه المذكور هو وأخوه قاضي الكرك عماد الدين أبو الحسن، ولما خرج الظاهر وعاد إلى القاهرة ولاه كتابة السر في مصر عوضاً عن ابن فضل، وولاه كذلك المدرسة الظاهرية، والخانقاه الشيخونية.(ت 794هـ/1392م).(4) ومحمد بن موسى الكفيري العجلوني، أخذ عن ابن شهبة وغيره، أجاز له محمد بن أحمد المنبجي، ويوسف بن محمد الصيرفي، اشتهر بحفظ الفروع، وولِيَ بعض التداريس، وجمع شرحاً على البخاري في ست مجلدات، وصنف "النبيه في شرح التنبيه"، واختصر

(1) محمد كرد علي: المرجع السابق، 6، ص125-127.

(2) نعمان عمرو : المرجع السابق، ص21، ص22.

(3) محمد كرد علي: المرجع السابق، ج6، ص127. يوسف غوانمه: التاريخ الحضاري، ص164-165.

(4) ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، ج3، ص446-447. ابن تغري بردي:المنهل الصافي، ج2،ص54-55. يوسف غوانمه: التاريخ الحضاري، ص159-160.

"الروض" للسهيلي وسماه" زهر الروض" (ت831هـ/1427م).(1) وكذلك عبدالرحمن ابن عيسى بن سرار الأيدوني، سَمِعَ من محمد بن الرشيد عبدالرحمن المقدسي، وحدث وسَمِعَ منه الفضلاء.(ت 840هـ/ 1436م).(2) وعلي بن إبراهيم بن محمد بن عبد الرحيم الربّاوي سَمِعَ من أبي الحسن النابلسي، وَحّدثَ، وسَمِعَ منه الفضلاء، وولِيَ قضاء بيت المقدس (ت 841هـ/ 1437م).(3)

ونود أن نشير هنا إلى أن السلطة المملوكية الحاكمة سواء في مصر أو نوابها في الشام كثيراً ما تعدت وتجاوزت على المؤسسات العلمية إما بالمصادرة أو بجباية الأموال من الأوقاف المخصصة لها خاصة في وقت الأزمات والمحن والحروب، حتى انقطع معلوم الأيتام والضعفاء في رواتبهم مدة خمسة أشهر.(4)

4. خزائن الكتب (المكتبات).

أعتبرت خزائن الكتب (المكتبات) من أهم المؤسسات الدينية الثقافية، التي يفخر بها الإسلام، في نشر المعرفة والثقافة بين المسلمين وغيرهم، ووجد في أغلب المؤسسات الدينية في عهد المماليك من مساجد ومدارس خزائن للكتب، ولعبت المكتبات في بلاد الشام في العهد المملوكي دوراً مهماً في الأوضاع الدينية، والحياة العلمية، وكان لها أكبر الأثر في تطوير النواحي الدينية والعلمية في تلك الفترة، وزادت من شحذ الهمم العلمية والدينية بين كافة طبقات المجتمع.(5)

أما العوامل التي توافرت في هذا العصر وأدت إلى ازدهار المكتبات، وجل هذه العوامل ارتبط بعملية الوقف، كبذل السلاطين والأمراء، والعلماء حباً للعلم والمعرفة.

---

(1) ابن حجر: إنباءُ الغُمر بأنباءِ العُمر، ج3، ص413. السخاوي: الضوء اللامع، ج7، ص11-112.

(2) السخاوي: الضوء اللامع، ج4، ص117.

(3) المصدر نفسه، ج5، ص157-158.

(4) ابن إياس: المصدر السابق، ج3، ص280.

(5) منصور إحميد الصوفي: المرجع السابق، ص167.

وسعى طلبة العلم لاقتناء الكتب بنسخها أو استعارتها من المكتبات الموقوفة أو بشرائها. وظهر عامل جديد ومهم كان له الأثر الكبير في نمو المكتبة الإسلامية في ذلك العصر، وهو التوجه نحو الاعتناء بالكتب فنياً من حيث النسخ والتجليد والتذهيب والحفظ، وانتشار الأسواق المختصة بتجارتها.(1)

لقد شكلت المكتبات الموئل الأول لرواد العلم ولمن أراد الاستزادة من العلوم والاطلاع على كنوز السلف مما دُون من فكر علمي أو أدبي في الحضارة الإسلامية. وكان لحلب ودمشق والقدس الحظُّ الأوفر من ذلك، فلم تكد تخلو مدرسة من مدارسها من خزانة كتب، وكذلك طرابلس حيث معامل الورق الجيد.(2) ومن أهم المدارس التي حوت خزائن ذات شأن العمرية والعروبة والناصرية والعادلية والأشرفية والمدرسة اللبودية النجمية التي احتوت خزانتين للكتب في صدر إيوانها.(3) وأُلحقت المكتبات كذلك بالمساجد والمستشفيات، والخوانق والزوايا كي تقدم خدماتها للطلاب. ففي بيت المقدس كانت دار كتب المسجد الأقصى تضم الكثير من المصاحف والكتب والمخطوطات التي وقفت عليها.(4) وفي الجامع الأموي عدة خزائن كتب، إذ كان في كل زاوية من زوايا المسجد مشهد يضم عدة خزائن كتب.(5) وفي زاوية الجامع النوري في حماة مكتبة عامة ضمت نحو سبعة آلاف كتاب، واشتهرت مكتبة قاضي حماة ابن البازي، وقدر ثمنها في حينه بمائة ألف درهم. ووقف على خزانة الكتب في جامع الحيات في حماة سبعة آلاف مجلد.(6)

---

(1) الغزي، كامل: المصدر السابق، ج1، ص158، 169-170. مصطفى السباعي: المرجع السابق، ص248، ص250. عمار النهار: المرجع السابق، ص8.

(2) محمد كرد علي: المرجع السابق، ج6، ص186. أحمد العنزي: المرجع السابق، ص252.

(3) النعيمي: المصدر السابق، ج2، ص108. محمد كرد علي: المرجع السابق، ج6، ص190.

(4) ابن فضل الله العُمري: مسالك الأبصار، ج2، ص375. جلال العطاري: المرجع السابق، ص30. كامل جميل العسلي:معاهد العلم في بيت المقدس، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، 1981م. ص369، ص374.

(5) ابن فضل الله العُمري: مسالك الأبصار، ج1، ص196. حسن أبو غدة: المرجع السابق، ص219.

(6) أحمد الصابوني: المرجع السابق، ص52. أحمد غسان سبانو: نظام الحكم، ص232.

وقدمت هذه المكتبات خدمة جليلة لطلاب العلم سواء أكانوا من بلاد الشام أو من البلاد الإسلامية الأخرى، باعتبار أن العلم لا يمكن فصله عن المكتبات وطلاب العلم.(1) وحوت خزائن الكتب مجموعات ضخمة من المراجع في مختلف العلوم، ككتب التفسير والحديث والفقه واللغة والطب والأدبيات ودواوين الشعراء.(2) ويخبرنا ابن إياس عن أهمية المكتبات فيقول: إن القاضي نجم الدين بن حجي بن موسى الحسباني الدمشقي، وكان عالماً فاضلاً، عندما توفي سنة 888هـ/ 1483م، وجد عنده زيادة على ثلاثة آلاف مجلد من الكتب النفيسة.(3) وبلغت عدد المجلدات في دار الكتب الفخرية في القدس عشرة آلاف مجلد، وقد وقفها القاضي فخر الدين بن فضل الله.(4) وأحياناً يتم رهن كتب العلماء مقابل أمور مالية، وذلك لأهميتها لدى العالم. فعندما اعتقل العلامة زين الدين أبو حفص عمر القرشي الملحي، وكان يتولى مشيخة دار الحديث الأشرفية في دمشق، وولده شهاب الدين أحمد في زمن دولة برقوق بسبب محنة مادية أصابته، تم رهن كثيراً من كتبه على المبلغ الذي طلبه.(5)

ويشرف على هذه المكتبات موظف أطلق عليه خازن الكتب، ومهمته عند السبكي" الاحتفاظ بها، وترميم شعثها، وحبكها عند احتياجها للحبك، والضنّة بها على من ليس من أهلها، وبذلها للمحتاج إليها، وأن يقدم في العارية الفقراءُ الذين يصعب عليهم تحصيل الكتب على الأغنياء. وكثيراً ما يشترط الواقف ألا يخرج الكتاب إلا برهن يحرز قيمته، وهو شرط صحيح معتبر: فليس للخازن أن يعير إلا برهن.(6) فضلاً عن إرشاد القراء إلى ما يلزمهم من مراجع، لذلك كان يُختار لخزانة الكتب عادة فقيه أو

---

(1) عبد الجواد عثمان: المرجع السابق، ص8.

(2) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص345-346.

(3) ابن إياس: المصدر السابق،ج3، ص200-201. أحمد العنزي:المرجع السابق، ص252. أحمد غسان سبانو: نظام الحكم، ص216.

(4) علي السيد علي: المرجع السابق، ص170. منصور إحميد الصوفي: المرجع السابق، ص168.

(5) النعيمي: المصدر السابق، ج1، ص31. المرجع نفسه، ص168.

(6) السبكي: المصدر السابق، ص111. عبد الجواد عثمان: المرجع السابق، ص8.

عالم يراعى فيه سعة العلم والأمانة.(1) وينبغي لطالب العلم أن يعتني بتحصيل الكتب المحتاج إليها في العلوم النافعة ما أمكنه شراءً، فإن لم يوجد فاستنساخاً، فإن لم يتيسر فإعارة، فيستحب إعارة الكتب لمن لا ضرر عليه فيها.(2)

ولعلى صعوبة نسخ الكتب والحصول عليها في ذلك العصر، هي التي تطلبت تحريم إعارة الكتب خارجياً تحريماً باتاً إلا في حالات نادرة خاصة. ومعنى ذلك أن الاستفادة من الكتب اقتصرت على الاطلاع الداخلي وفق شروط خاصة.(3) ويمكن أن يحصل الطالب على بعض الكتب من دور الوراقين في السوق المسمى باسمهم أو سوق الكتبيين. كما يمكن الحصول عليها لدى دلالي الكتب. وكان هناك كتب محرمة مثل كتب أهل البدع والتنجيم، كما كان هناك عداء لكتب الفلاسفة، أمثال ابن سيناء والفارابي، وهذا يعني أن هذه المعارف كانت ممنوعة من دخول مكتبات المدارس والمساجد والخوانق والزوايا والربط والترب.(4)

5.الخوانق والزوايا والرُّبَط والتّرَب

لم تكن مراكز العلم في العصر المملوكي مقتصرة على المدارس، فقد كانت الخوانق والزوايا والرُّبَط والتُّرَب في هذه الحواضر مراكز علمية، ساهمت في دفع الحركة العلمية في الشام في هذا العصر، وتخرج فيها الكثير من علماء العصر ومشايخه.(5) و**الخانقاه**: كانت تُبنى في الغالب على شكل مساجد الصلاة، إلا أن فيها

---

(1) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص346.

(2) محمد خليل بن علي بن محمد المرادي المتوفى 1206هـ/1791م: عرف البشام فيمن ولي دمشق الشام ، تحقيق، محمد مطيع الحافظ، ورياض عبدالحميد مراد، ط2، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، 1408هـ/1988م. ص14.

(3) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص346-347.

(4) إحسان عباس: المرجع السابق، ص167.

(5) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص351. جلال العطاري: المرجع السابق، ص22.عبير سعيد عنايت: خانقاوات مصر حتى نهاية عصر المماليك البحرية (648-784هـ/1250-1382م)، مجلة الأستاذ، العدد 203، 2012م. ص1457.

غرفاً عديدة لمبيت الفقراء والصوفية وبيتاً كبيراً لصلاتهم مجتمعين، ولاتقام فيها صلاة **الجمعة**.(1)

أما **الزوايا*** فتختلف عن الخوانق بأن الذين يعيشون فيها يبتدعون أوراداً وأذكاراً ورقصاً ونشيداً.(2) والزاوية صغيرة الحجم لا تتسع إلا لعدد قليل من المتصوفة والزهاد، ومن وظائفها أنها استخدمت كمصلى صغير، أو مكان خلوة لأحد الزهاد والمتصوفة، حتى أن بعضها عرفت باسماء هؤلاء الشيوخ.(3)

أما **الربط***1 فتحولت وظيفته مع الزمن إلى بيت للصوفية، بينما كان معداً للمرابطة من الرجال للدفاع والجهاد في الثغور الإسلامية المختلفة. فأصبح المكان المناسب للأفعال الصالحة والعبادة. بالإضافة إلى العلم. وخصصت بعض الأربطة للعجائز والنساء الأرامل في العصر المملوكي الثاني في بلاد الشام.(4)

وغدت الخوانق والزوايا والربط مراكز علمية، تحتوي على مكتبات تضم كتباً تراثية متنوعة، وتلقى فيها دروس الفقه والحديث والتفسير والقراءات، ويتدارس في خلواتها غيرها من العلوم كالتصوف، والطب، والنحو، والصرف، وغيره، كل بحسب جهده وطاقته وإلمامه بأطراف هذه العلوم.(5) وكان يربى في هذه المؤسسات الناشئة من

---

(1) محمد أطلس: المرجع السابق، ص97.

* اسم اطلق قديماً على كل مسجد صغير فيه احد الرجال المعروفين بالتقوى والزهد ويقوم بوعظ وارشاد من يتردد على زاويته من الناس. ثم تطور معنى الزاوية في العصر المملوكي فاصبح يقصد به الخانقاه أو منزل الصوفية. فالزاوية مكان معد للعبادة. وقد تكون الزاوية مركزاً دينياً ثقافياً اجتماعياً اقتصاديا. يضم مسجد ومدرسة ومضافة وبيوتاً. هامش المواكب الاسلامية،ج1، ص377.

(2) ابن طولون: القلائد الجوهرية، ج1، ص283. أكرم العلبي: المرجع السابق، ص178. بوران لبنية: المرجع السابق، ص241.

(3) يوسف غوانمه: نيابة بيت المقدس، ص175.

*1. دار لنزول الصوفية يقيمون فيها عاكفين على العبادة وهم من الرجال وبعض النساء المتعبدات أحياناً ولهم غرف صغيرة للتعبد. محمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص81. محمد أطلس: المرجع السابق، ص98.

(4) ابن طولون:القلائد الجوهرية، ج1، ص283،359. بوران لبنية :المرجع السابق، ص241.محمد أطلس:المرجع السابق،ص101. حياة ناصر الحجي: صور من الحضارة العربية الإسلامية ، ص164. يوسف غوانمه: نيابة بيت المقدس، ص177.

(5) الدواداري: المصدر السابق، ج9، ص391. محمد كمال الدين: المرجع السابق، ص79. كامل العسلي: المرجع السابق، ص369.

الأطفال يتعلمون فيها كتاب الله تعالى والخط والكتابة. ولم يقتصر دورها على العبادة والعلم بل تجاوز ذلك إلى الجانب الاجتماعي والإنساني الخيري كالعناية بالفقراء، وتوفير السكن واللباس والطعام والشراب والعلاج لهم.(1) وجرت العادة أن يعين لكل خانقاه شيخ أو أكثر وعدد من الصوفية، واشترط في شيخ الخانقاه أن يكون من جماعة الصوفية ممن عرف بصحبة المشايخ، وألا يكون قد اتخذ من التصوف حرفة، وقد كونت كل خانقاه وحدة قائمة بنفسها، بداخلها عدد من الخلوات خصصت كل منها لأحد الصوفية.(2) ويعاون شيخ الخانقاه عدد من الموظفين، كالإمام، والناظر، ومدرسو المذاهب، والمعيد والكحال*،والطبائعي، وخازن الكتب، وكاتب الغيبة، والشاهد، والمؤذن، والمزملاتي*1، ومشرف المطبخ، والطباخ، وخادم الشيخ، والبواب، والفراش، وسواق الساقية والوقاد وغيرهم.(3)

ويعلل نقولا زيادة سبب اهتمام السلطة بمشايخ الخانقاهات والزوايا والربط، وعلى رأسهم شيخ الشيوخ ، بأنهم يستطيعون أن يخلقوا متاعب للسلطة لو أنهم أثاروا في الناس روح التذمر، لكنهم لم يفعلوا، لأنهم فضلوا أن يكونوا حلفاء للسلاطين.(4) وقد شجع سلاطين المماليك وبعض كبار التجار على بناء الخانقاهات والزوايا والربط، وراحوا يتسابقون في إنشاء تلك العمائر، مشجعين على بنائها، ومن الخوانق التي نسبت إلى السلاطين الجراكسة، البرقوقية، والناصرية، والأشرفية، والأينالية.(5)

---

(1) الدواداري: المصدر السابق، ج9، ص391. جلال العطاري: المرجع السابق، ص23.

(2) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص353.

*. الكحال: هو الطبيب أو الجراح. بوران طاهر فريد لبنية: الخانقاوات والزوايا الدمشقية زمن سلاطين المماليك ، 658-922هـ/1259 -1516م، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، 2004. ص113.

*1.المزملاتي: هو سواق الساقية التي بواسطتها تسحب المياه.المرجع نفسه، ص113.

(3) السبكي: المصدر السابق، ص111، 115،112، 124، 126. بوران لبنية: الخانقاوات والزوايا الدمشقية، ص55.

(4) نقولاء زيادة: المرجع السابق، ص162-163.

(5) محمد كمال الدين: المرجع السابق، ص79.

وقد تلاشت حالة الصوفية ومشايخها حتى صاروا من سقط المتاع لا ينسبون إلى علم ولا ديانة. ولقد كان بدمشق من هذه الخوانق أو الخانقات تسعة وعشرون خانقاهاً على ما في "الدارس في تاريخ المدارس" وهي: الخانقاة الأسدية، الاسكافية، الأندلسية المشهورة، الباسطية، الحسامية، الخاتونية، الدويرية، الروز نهارية، السميسياطية، الشومانية، الشهابية، الشبلية، الشنباشية، الشريفية، الطاحون، الطواويسية، العزية، القصر، القصاعية، الكججانية، المجاهدية، النجيبية، النحاسية، النجمية، الناصرية، النهرية، اليونسية، مجهولة.(1)

أما **خانقاه يونس الدوادار**، أنشأها الأمير الكبير الشرفي يونس داودار الظاهر برقوق في سنة 784هـ/1382م، وشرط في كتاب وقفها الأصلي أن يكون الشيخ بها والصوفية حنفية افاقية، وشرط فيهما أن يكون الامام بها حنفياً وعشرة من القراء. ووقف عليها الدكاكين خارج باب الفرج، ثم احترقت في أيام الملك المؤيد شيخ، فعمّرها وأدخلها في وقفه، وعوض الخانقاة بحمام العلاني خارج باب الفرج والفراديس.(2) وأنشأ زين الدين عبدالباسط بن خليل ناظر الجيوش الإسلامية **الخانقاه الباسطية** ، وكانت هذه الخانقاه داراً فلما نزل السلطان الملك الأشرف برسباي آمد في الشام سنة 836هـ/1433م، جدد للخانقاة الباسطية محراباً وأوقفها. ووجد في هذه الخانقاة مكتب لتعليم الأيتام يُقدم لهم الطعام واللباس والمأوى.(3)

وفي 824هـ/1421م، أسقط من **الخانقاه السميساطية** المتزوجين وأهل البلد وقرر فيها عزباناً، وكان قد تقرر فيها الفقهاء، وصارت مدرسة.(4) ولشيخ هذه الخانقاه السميساطية تميز خاص أن شيخها يجمع بالإضافة إلى عمله منصب " شيخ الشيوخ"

(1) ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، ج3، ص185.النعيمي: المصدر السابق، ج2، ص109-149، 167.
محمد كرد علي: المرجع السابق،ج6، ص131-141.

(2) ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، ج3، ص93. النعيمي: المصدر السابق، ج2، ص148.

(3) ابن طولون: القلائد الجوهرية، ج1، ص274-278. المصدر نفسه، ج2، ص111.

(4) ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، ج3،ص532. المصدر نفسه، ج2، ص125.

ويقرأ تقليده بالمشيخة بحضور الأعيان والقضاة من قبل النائب ، وأحياناً نائب السلطان، وفوض إلى شيخها مشيخة الشام على الصوفية بدمشق وبعلبك وحمص وحماة وحلب وغيرها. ومن صوفية هذه الخانقاه علي بن عبد القادر الشيخ الامام شرف الدين المراغي المتوفى(788هـ/1386م) كان فاضلاً في العلوم العقلية، ويعرف العربية، ويقرأ المنهاج في الأصول، وكان بارعاً في الطب وعلم النجوم، وكان معتزلياً.(1)

وقد بلغت الخانقاهات في هذا العصر أعلى درجات الارتقاء في التنظيم، وأساليب الدرس وانتخاب العلماء المشرفين على حلقات الدرس والوعظ والتفسير، حيث أن اختيار الشخصية المناسبة لوظيفة مشيخة الخانقاة من الأمور الدقيقة والتي تتطلب اهتماماً كبيراً، حيث لابد أن ينفرد بمواصفات دون غيره من الشخصيات.(2)

أما زوايا دمشق فكثرت بكثرة الطرق والمشايخ المعتقدين، حتى بلغت ستاً وعشرين زاوية. ومن هذه الزوايا:

الزاوية الداودية، بسفح قاسيون، أنشأها الشيخ الصالح العالم الرباني زين الدين عبدالرحمن ابن الشيخ أبي بكر بن داود القادري الصوفي، سنة 783هـ/1381م، وهي زاوية لا نظير لها بدمشق.(3) ولما تولاها ولده عبدالرحمن زادها ووسعها، وجعل لها الأوقاف والمرتبات، وجعل لها مداراً للماء وصهريجاً، ومسجداً، وخلاوي كثيرة للفقراء، وبيتاً للكتب، ومساكن للنساء، وقرر فيها إماماً ومؤذناً وقيماً وواعظاً. يقصدها الناس من كل جهة، ويجعل لهم ألوانا من الأطعمة.(4)

---

(1) النعيمي: المصدر السابق، ج2، ص120-124، ص126.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص147-148. أحمد العنزي: المرجع السابق، ص224.

(3) المصدر نفسه، ج2، ص153-174. محمد كرد علي: المرجع السابق، ج6، ص136، ص137.

(4) ابن طولون: القلائد الجوهرية، ج1، ص298-301.

الزاوية الوطية، برسم المغاربة على اختلاف أجناسهم، بشرط أن لا يكون النازل بها مبتدعاً ولا شريراً، وقفها الرئيس علاء الدين علي المشهور بابن وطية سنة 802هـ/1400م، ووقف عليها حوانيت وطباقاً حولها، وشرط على شيخها أن لا يكون بأبواب القضاة والحكام.(1) ومن زوايا دمشق كذلك: الزاوية **الرحمانية**، أنشاءها الشيخ عبدالرحمن الصالحي سنة 880هـ/1475م، والزاوية **الصمادية**، أنشأها أحمد وبكيرة ولدا الجاموس 915هـ/1510م. **وزاوية الحنابلة، والسلارية، والمنيبع**.(2) وبلغت **الرباطات** بدمشق أحدى وعشرين رباطاً. وكانت بعضها معدة للعجائز والنساء والأرامل، مثل: رباط دار الحديث القلانسية، ورباط المدرسة الاتابكية، ورباط الزيتونة، ورباط العزية.(3)

ولم تقتصر الخانقاوات والربط والزوايا فقط على دمشق، وإنما وجدت في كل نيابات الشام وقراه في زمن الدولة المملوكية الثانية. فقد ذكر ابن شداد في باطن **حلب** 18 خانقاه، و3 خوانق في ظاهرها، و7 خوانق مخصصة للنساء.(4) وذكرابن الشحنة أن بباطن حلب 14 خانقاه، و3 خوانق في ظاهرها، و3 خوانق للنساء.(5) منهم خانقاة الست، حيث جعلت بها قراء عميان ووقفت عليها البستان المعروف بالبقعة غربي حلب.(6) ومن خوانق حلب: خانقاه المال، وخانقاه ابن العديم، وخانقاه أبوعبدالله الحلبي، وخانقاه الصالح.(7) وبلغت رباطات حلب في الأعلاق 3 فقط. و5 زوايا بداخلها، و2

---

(1) النعيمي: المصدر السابق، ج2، ص159. محمد كرد علي: المرجع السابق، ج6، ص137.

(2) ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، ج3، ص132، 200، 256. ابن طولون: القلائد الجوهرية، ج1، ص307.

(3) ابن طولون: القلائد الجوهرية، ج1، ص359-360. النعيمي: المصدر السابق، ج2، ص150- 152.

(4) ابن شداد، عزالدين: المصدر السابق، ج1، ق1، ص233-237.

(5) ابن الشحنة: المصدر السابق، ص106-109.

(6) المصدر نفسه، ص106. مبارك الطراونه: الحياة الاجتماعية في بلاد الشام، ص200.

(7) ابن الخطيب الناصرية: المصدر السابق، ج1، ص115، 185، 614.السخاوي: الضوء اللامع، ج4،ص106. زياد المدني: المرجع السابق، ص273.

بظاهرها.(1) وعند ابن الشحنة 4 رباطات. و5 زوايا بداخلها و2 بظاهرها.(2) ومن زوايا حلب: زاوية قرية جبرين، وزاوية الأمير جلبان نائب حلب (794هـ/ 1391م)، وزاوية الأمير تغري ورمش نائب حلب (839هـ/1435م) و زاوية الأطعاني التي تتلمذ فيها مجموعة من الحلبيين.(3) ونشير هنا إلى أنه وجد منصب ديني في حلب كما في دمشق" مشيخة الشيوخ" ويتولها شيخ الخانقاه المعروفة بالقديم، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم، وربما كانت من الباب الشريف.(4)

أما خوانق وزوايا ورباطات القدس فكانت أكثر في عدد مريديها من حلب ودمشق وغيرها من نيابات الشام في العصر المملوكي الثاني، وقد يعود السبب لوجود المسجد الأقصى ذي المكانة الدينية عند المسلمين. بالإضافة إلى إهتمام خاص به لدى السلاطين في العصر المملوكي في هذه المؤسسات. وقد بلغت زوايا مدينة القدس 19 زاوية، وخانقاتان، و8 ربط.(5)

ومن خوانق القدس التي تأسست زمن الأيوبين وبقيت قائمة حتى العصر المملوكي الثاني **الخانقاه الصلاحية**، أنشأها صلاح الدين الأيوبي 588هـ/ 1192م، حيث حوّل كنيسة صندحنة إلى مدرسة للفقهاء الشافعية ووقف عليها وقوفاً جليلة، وحوّل دار البطرك رباطاً للفقراء.(6) وفي عام 797هـ/1395م، استقر الأمير سيف الدين يلبغا السالمي ناظراً على الخانقاة الصلاحية، فأخرج كتاب الوقف وعمل شرط الواقف وقطع منها السعداء أصحاب الأموال وزاد الفقراء المجردين كل نفر رغيفاً. وكان السلطان

(1) ابن شداد، عزالدين: المصدر السابق، ج1، ق1، ص237-238، ص286-287.

(2) ابن الشحنة: المصدر السابق، ص109، ص123، 124.

(3) ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، ج3،ص77. ابن الشحنة: المصدر السابق، ص235، زياد المدني: المرجع السابق، ص236.

(4) القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص220.

(5) مجير الدين الحنبلي: المصدر السابق، ج2، ص34-43، 89،79، 341، 350. يوسف غوانمه: نيابة بيت المقدس، ص175. محمد كرد علي: المرجع السابق، ج6، ص148-151.

(6) ابن واصل: المصدر السابق، ج2، ص230. محمد كرد علي: المرجع السابق، ج6، ص150. عارف العارف: المفصل في تاريخ القدس، ص179-180.

لما ولى نائبه الأمير سودون الفخري نظر الخانقاه الصلاحية كان عدة من فيها من الصوفية ثلاثمائة نفر إلى أن بلغت العدة قريب الخمسمائة نفر، فضعف الوقف، فقطعت عنهم الحلوى والصابون والكسوة.(1)

واشترط واقف الخانقاة الباسطية في القدس الشريف صرف مبلغ خمسة عشر درهماً شهرياً أو ما يقابلها من النقود لعشرة من أيتام المسلمين فضلاً عن تعليم القرآن الكريم.(2) وكان شيخ الخانقاة الصلاحية أحد الشخصيات الثلاث الكبار الذين يديرون شؤون نيابة القدس، فقد ذكر مجير الدين في كتابه الانس الجليل انه عندما يرد أمر السلطان، أو يحدث حادث في القدس، كان ينعقد فيها مجلس، وكان هذا المجلس في أغلب الأحيان يؤلف من نائب السلطان وناظر الحرمين وشيخ الصلاحية وقاضي القضاة والقضاة الأربعة، وفي بعض الاحيان ينضم إلى هؤلاء عدد من العلماء والفقهاء. وتوارث علماء وفقهاء الغوانمة مشيخة الخانقاه الصلاحية حتى أواخر القرن التاسع الهجري. (3)

أما زوايا القدس في هذا العصر هي: الزوية البسطامية أنشئت قبل 770هـ/1369م، وبقيت عاملة فيما بعد، والزاوية القرمية 788هـ/ 1386م، ثم أسست الزاوية الوفائية، والظاهرية، وزاوية الشيخ يعقوب العجمي في القرن التاسع الهجري.(4) وفي عام 797هـ/1395م، قام السلطان برقوق بزيارة الزاوية الأمنية بجوار المسجد الأقصى، والتقى بشيوخها، ومنهم أبو بكر بن علي الشيباني.(5) ومن

---

(1) ابن قاضي شهبة: المصدر السابق ، ج3، ص546-547.

(2) مبارك الطراونه: الحياة الاجتماعية في بلاد الشام، ص201، 202.

(3) مجير الدين الحنبلي: المصدر السابق، ج2، ص117، 302-304. عارف العارف: المفصل في تاريخ القدس، ص220. يوسف غوانمه: نيابة بيت المقدس، ص177. مبارك الطراونه: الحياة الاجتماعية في بلاد الشام، ص197.

(4) محمد كرد علي: المرجع السابق، ج6، ص150. يوسف غوانمه: نيابة بيت المقدس ، ص180. كامل العسلي: المرجع السابق، ص345، 357، 360، 368، 364.

(5) مجير الدين الحنبلي: المصدر السابق، ج2، ص164. ابن إياس: المصدر السابق، ج1، ق2، ص472. مبارك الطراونه: الحياة الاجتماعية في بلاد الشام ، ص195.

رباطات القدس التي اشتهرت في العصر المملوكي الثاني: رباط الكرد واقفه المقر السيفي كرد صاحب الديار المصرية سنة (693هـ/1291م)، ورباط علاء الدين البصيري(837هـ/1433م)، وقد أوقف هذا الرباط على الفقراء والمساكين الوافدين لزيارة القدس الشريف وقفاً دائماً يصرف لكل منهم رطلان من الخبز. والرباط الزماني (881هـ/ 1476م)، الذي أسسه شمس الدين محمد ابن الزمان . (1)

أما مدينة الخليل المجاورة للقدس فقد ذكر كرد علي نقلاً عن مجير الدين الحنبلي المتوفى (928هـ/1522م)، أن عدد زوايا مدينة الخليل في عهده بلغت 21 زاوية، 3 أربطة. ومن ربط فلسطين كذلك الخانقاه الصلاحي في قرية حطين، وخانقاه الرملة.(2) ووجد في مدينة حماة 3 خوانق، واحدة كانت مخصصة للنساء الفقيرات، وواحدة نسبت إلى الشيخ الخضر عبدالرحمن سديد الدين، وأخرى تنسب لابن المغيزل الحموي، وفيها7 زوايا، منها زاوية القيابي وقد أوقفها نجم الدين عبد الرحمن بن حسين اللخمي. والزاوية الكيلانية، وفيها رباط محمد الحريري، ورباط السبسي، ورباط الكيالي، ودار الأكرم. (3) ووجد في طرابلس زاويتين وخانقاه.(4)

بالإضافة للخوانق والزوايا والربط، وجدت **التُرب**- مكان دفن الموتى- التي أنشأها السلاطين والأمراء والأثرياء لتكون مقابر لهم، كانت كذلك مراكز علم يقرأ فيها كتاب الله ليلاً ونهاراً، بالإضافة إلى الدروس التي كانت تلقى بها، فقد ألحق ببعض الترب مدارس ورتب لها المدرسين.(5)

---

(1) مجير الدين الحنبلي: المصدر السابق، ج2، ص37، 43، 270. عارف العارف: المفصل في تاريخ القدس، ص208، 213.
كامل العسلي: المرجع السابق،ص315، 320، 322. مبارك الطراونه: الحياة الاجتماعية في بلاد الشام، ص199.

(2) محمد كرد علي: المصدر السابق، ج6، ص151-152.

(3) معن المقابلة: المرجع السابق، ص90. منتصر شطناوي: المرجع السابق، ص91، ص94
محمد كرد علي: المرجع السابق، ج6، ص152.

(4) معن المقابلة: المرجع السابق، ص90.

(5) ابن طولون: القلائد الجوهرية، ج1، ص308-345. النعيمي: المصدر السابق، ج2، ص175-231.

فقد ذكر لنا النعيمي أن تربة أبو بكر بن العيني أوقف عليها أوقافاً ورتب في إيوانها مدرساً وعشرة من الفقهاء، وشرط للمدرس والفقهاء أن يكونوا حنفية. وأوقف عز الدين أبو يعلي درساً بتربته بالصالحية وكتب وعين لذلك شيخ, وألحق بالتربة الأفريدونية داراً للقرآن، وبالتربة البدرية مكتباً للأيتام.(1)

ولا نستطيع في هذا العرض الموجز أن نتناول كل الخوانق والزوايا والربط والترب في بلاد الشام في العصر المملوكي الثاني نظراً لكثافة المعلومات وتنوعها تاركين المجال لطلبة العلم البحث في هذه المؤسسات، وقد تجاوزت في تعدادها المئآت في المصادر التاريخية. ولكننا نختم في هذا الباب أن هذه المؤسسات المتعددة قد أدت وظائف تعليمية في كافة العلوم، بالإضافة إلى دورها في مجال العبادات، والخدمات الاجتماعية التي تقدمها إلى لروادها.(2)

ثانياً: مؤرخو العصر المملوكي الثاني.

وجد التاريخ والمؤرخون عناية واهتماماً في عصر المماليك بشكل لانبالغ إذا قلنا أنه تفوق على غيره من العصور الإسلامية السابقة، وربما يعود ذلك إلى محبة المماليك كتابة تاريخهم، لأنهم شكلوا نخبة اجتماعية مترفة ملكت الثروة والجاه، وحققت في غالب الأوقات إنجازات تاريخية وحضارية لمصر والعالم الإسلامي، فأراد سلاطين المماليك تدوين هذه الإنجازات لتسجل ذكرهم أولاً وتكون سجلاً لمجدهم ثانياً.(3)

وتميزت هذه الفترة بظهور المؤرخين الكبار الذين دونوا تاريخ الدولة، فسجلوا أحداث الفترة التي عاصروها، وقدموا لذلك بعرض للتطورات التاريخية التي سبقتها، فظهرت الموسوعات التاريخية، وأسهم المركز الاجتماعي والعلمي لمؤرخي هذه الفترة في تيسير وصولهم إلى المعلومات من مصادرها، والتاكد من صحتها، كما تنقل الكثير

---

(1) النعيمي: المصدر السابق، ج2، ص175، 183، 190، 201.

(2) السخاوي: الضوء اللامع، ج4،ص109.

(3) مفيد الزيدي: المراجع السابق، ص268.

منهم بين النيابات المملوكية، فسجلوا أخبار هذه النيابات من خلال مشاهداتهم ومعايشتهم لأحداثها.(1) ومنهم:

1. **محمد بن عبدالرحمن بن علي الفرات(ت807هـ/1404م)**

هو واحد من أشهر مؤرخي عصر سلاطين المماليك، كان لهجاً بالتاريخ، فكتب تاريخاً كبيراً جداً سماه" تاريخ الدول والملوك" وهو كثير الفائدة، وكان المؤلف معاصراً للحوادث أو قريباً منها زمناً.(2)

2.عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (ت808هـ/1405م)

عاش ابن خلدون مدة طويلة ارتحل خلالها إلى الشام ومصر حيث ولي منصب قاضي القضاة المالكية. في مصر عدة مرات، وتصادف أيضاً وجوده في دمشق عندما حاصرها المغولي تيمور لنك. وتمكن من الخروج قاصداً تيمورلنك، متوسلاً إليه انقاذ المدينة. وبعدها عاد ابن خلدون إلى مصر وتوفي فيها سنة 808هـ/1405م. (3) وصفه ابن تغري بردي "بالإمام العالم البارع في فنون العلوم. ومن أشهر مؤلفاته في التاريخ: " التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً" وكتاب" العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر" وهو ما اعتمدنا عليه في توثيق ما أوردنا من معلومات عن ابن خلدون. (4)

3. أحمد بن علي أبو العباس القلقشندي(ت821هـ/1418م)

كان بارعاً في العربية وفقه الشافعية، عارفاً بالفرائض والأدب، وله نظُم ونثر وتصانيف، فمن أشهر تصانيفه" صبح الأعشى في صناعة الإنشا"(5) جمع فيه فاوعى،

---

(1) سعيد صالح موسى: المرجع السابق، ص1،3.

(2) السخاوي: الضوء اللامع، ج8، ص51. ابن العماد : المصدر السابق، ج9، ص107، 108..

(3) ابن خلدون: المصدر السابق، ج7، ص653، ص714، 730- ص737، ص741.

(4) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج13، ص112. الدليل الشافي، ج1، ص403-404.

(5) ابن حجر: إنباءُ الغُمر، ج3، ص178. المصدر نفسه، ج1، ص55.

ابن شاهين الظاهري، زين الدين: نيل الأمل، ج4، ص18.

وهو حافلٌ انتفع به أهل الفن.(1) فاستفاد البحث من هذا المصدرعظيم الإستفادة خاصة الفصل المتعلق في البلاد الشامية وما يتعلق بها من بلاد الجزيرة الفراتية، وفضل الشام، وخواصه وعجائبه، وحدوده وابتداء عمارته وتسميته شاماً، وذكر أنهاره وبحيراته، وجباله المشهورة، وذكر زروعه وفواكهه ومواشيه، وذكر أعماله وجهاته وأجناده، وما استقرت عليه من النباتات، وترتيب أحوالها، وذكرمعاملاتها ونقودها، وترتيب نياباتها وما بها من وظائف أرباب السيوف والأقلام وما اشتملت عليه من العربان.(2) وتكمن أهمية هذا المصدر كذلك كون صاحبه من موظفي الدولة المملوكية الثانية، فقد عمل كاتباً للسر في ديوان الإنشاء من سنة 791هـ/1388م إلى سنة 801هـ/1398م، في فترة عهد السلطان برقوق الثانية 792- 801هـ/1389-1398م.(3)

4. تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي الشافعي المقريزي(ت845هـ/1448م)

صاحب كتاب" السلوك لمعرفة دول الملوك" من أبرز المؤرخين الذين عاصروا دولة المماليك الثانية منذ قيامها، اتصل بالظاهر برقوق، ودخل دمشق مع ولده الناصر، وصحب يشبك الدوادار وقتاً، أقام ببلده عاكفاً على الاشتغال بالتاريخ، حتى اشتهر ذكره بذلك، وبُعد صيته، وصارت له فيه جملة من التصانيف، زادت على مائتي مجلد كبار وعدة شيوخه بلغت ستمائة نفس، وكان حسن المذاكرة بالتاريخ.(4) وصفه ابن شاهين الظاهري بالعالم الفاضل، المفنن، البارع في الحديث والتاريخ، مشاركاً في الفضائل وبعض العلوم القديمة، وله التصانيف المفيدة ، لا سيما في التاريخ، ووصفه ابن اياس بالعلامة مؤرخ العصر، ووحيد الدهر، حسن المذاكرة، صحيح النقل.(5) نظم كتاب السلوك على منهج مغاير لما شاع في المؤلفات السابقة له كتاريخ ابن الفرات أو

(1) السخاوي: وجيز الكلام، ج2، ص452. الضوء اللامع، ج2، ص8. ابن العماد: المصدر السابق، ج9، ص218، 219.

(2) أنظر مقدمة كتاب صبح الأعشى، ج1، ص7.

(3) أنظر مقدمة دولة المماليك في عهد برقوق، حسام الناطور،

(4) السخاوي: الضوء اللامع، ج2، ص21، ص23. التبر المسبوك، ج1، ص73

(5) ابن شاهين الظاهري، زين الدين: نيل الأمل، ج5، ص151. ابن إياس: المصدرالسابق، ج2، ص231، 232.

النويري، فقد جعل كتابه حولياً، ودوَّن حوادث كل عام في فصل مستقل، وختم الحوادث بذكر الوفيات.(1)

5. تقي الدين أبو بكر بن أحمد بن قاضي شهبة الأسدي الدمشقي(ت851هـ/1448)(2)

كان عالماً، فاضلاً، بارعاً في الفقه، انتهت إليه الرياسة فيه، مع معرفة بالتاريخ وغيره.(3) تصدى للإفتاء والتدريس سنين كثيرة، وانتفع به غالب طلبة دمشق، وصنف التصانيف المفيدة. منها " طبقات الشافعية" و" تاريخ ابن قاضي شهبة"(4)

6. أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني(852هـ/1448م) (5)

كان عالماً فاضلاً، بارعاً، كاملاً، محدثاً، غزير العلم.(6) شهد له القدماء بالحفظ والثقة والأمانة والمعرفة التامة والذهن الوقاد والذكاء المفرط وسعة العلم في فنون شتى، حبب إليه النظر بالتواريخ، وهو مثال عالم الدين المؤرخ، ومن كتبه "الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة" و" إنباء الغمر بأبناء العمر" وهو تاريخ حوليات. وقد تناول في الآخير تاريخ مصر والشام والدول التي جاورتها، وتراجم للرجال والنساء للفترة من سنة 773هـ/1371م حتى سنة 850هـ/1446م. (7)

7. محمود بن أحمد بن موسى بدر الدين العيني (855هـ/1451م)(8)

كان إماماً فقيهاً أصولياً، نحوياً، لغوياً، بارعاً في علوم كثيرة، وأفتى ودرس سنين، وصنف التصانيف المفيدة النافعة، وكتب التاريخ، وصنف فيه مصنفات كثيرة.(9) مثل:

---

(1) مقدمة محقق السلوك، ص4.

(2) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج1، ص41،40.

(3) ابن شاهين الظاهري، زين الدين: نيل الأمل، ج5، ص241، 242.

(4) ابن تغري بردي:النجوم الزاهرة،ج15، ص251. السخاوي:وجيز الكلام، ج2،ص661. ابن العماد:المصدر السابق،ج9، ص392.

(5) ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج1، ص64. النجوم الزاهرة، ج15، ص259.

(6) ابن شاهين الظاهري، زين الدين: نيل الأمل ، ج5، ص270، 271.

(7) السخاوي: الضوء اللامع، ج2، ص39. السيوطي: نظم العقيان في اعيان الاعيان، حرره فيليب حتي،1927م، المطبعة السورية ، الامريكية في نيويورك، المكتبة العلمية، بيروت. ص45، 48. ابن طولون: القلائد الجوهرية،ج2،ص454-457. علي السيد

(8) ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج2، ص722،721. السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق، محمد أبو الفضل ابراهيم،2ج، ط1، دار احياء الكتب العربية، 1387هـ/1967م. ج1، ص473، 474. نظم العقيان، ص174.

(9) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج15، ص287. ابن شاهين الظاهري: المصدر السابق، ج5، ص346.

" التاريخ الكبير" في (20 مجلد)، " مختصر التاريخ الكبير" (3مجلدات)،" مختصر عقد الجمان"(1) صحب السلطان برسباي وعظم عنده إلى الغاية، وصار ينادمه، ويقرأ له التواريخ من أيام السلف من الوقائع والأخبار، ويعلمه دينه، وكان يقرأ له التاريخ باللغة العربية ثم يفسره له باللغة التركية.(2)

8.جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (ت874هـ/ 1470م)

حضر على ابن حجر العسقلاني، وانتفع به، وأخذ عن أبي السعادات بن ظهيرة، ثم حبب إليه علم التاريخ، فلازم مؤرخي عصره، مثل العيني، والمقريزي، واجتهد في ذلك إلى أن انتهت إليه رئاسة هذا الشأن في عصره.(3) ويرى ابن شاهين الظاهري أن أبو المحاسن صنف عدة تواريخ، لكنها بعبارة عامية ركيكة جداً فيها خباط وأوهام كثيرة.(4) ومن مصنفاته كتاب" المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي" ومختصره " الذيل الشافي على المنهل الصافي" ومختصر سماه" مورد اللطافة في ذكر من ولي السلطنة والخلافة" و" النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" و" البشارة في تكملة الإشارة" و"حلية الصفات في الأسماء والصناعات"(5) وله "حوادث "الدهور في مدى الأيام والشهور" وهو ذيل لكتاب السلوك لأستاذه المقريزي. ونشير إلى أن والد أبي المحاسن تغري بردي تولى نيابة دمشق الشامية، والدفاع عن المدن ضد الغزو المغولي بقيادة تيمور لنك.(6)

---

(1) مفيد الزيدي: المرجع السابق، ص274.

(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج15، ص287،286. السخاوي: الضوء اللامع،ج10، ص131. وجيز الكلام، ج2، ص661.

(3) السخاوي: وجيز الكلام، ج2، ص817. ابن العماد: المصدر السابق، ج9، ص472،471.

(4) ابن شاهين الظاهري، زين الدين: نيل الأمل، ج6، ص416،415. الشوكاني: المصدر السابق، ج2، ص352.

(5) السخاوي: الضوء اللامع،ج10، ص307. ابن العماد: المصدر السابق، ج9، ص473.الشوكاني: المصدر السابق،ج2،ص351.

(6) السخاوي: وجيز الكلام، 817. ابن شاهين الظاهري، زين الدين: نيل الأمل،ج6، ص416.

مفيد الزيدي: المرجع السابق، ص281.

9. شمس الدين محمد بن محمد بن الشهاب الحلبي، المعروف بابن الشحنة (ت 890هـ/1485م)

كان عالماً فاضلاً بارعاً في مذهب أبي حنيفة، وكان ناظماً ناثراً، تولى عدة وظائف سنية، منها: قضاء حلب، وكتابة سرها ونظر جيشها، ثم ولي كتابة السر بمصر وقضاة الحنفية، ثم ولي مشيخة الخانقة الشيخونية.(1) ولما ولي تدريس الحديث بالمؤيدية أملى بها مجالس. وله تصانيف منها:"شرح الهداية" و" اختصار المنار واختصار النشر"و" شرح العقائد" و " طبقات الحنفية".و" الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب" ويتحدث عن مدينة حلب منذ فتحها إلى أواخر العصر المملوكي، ويرى البعض أن مؤلف " الدر المنتخب: ابن الخطيب الناصرية، وليس ابن الشحنة. (2)

10. الخطيب الجوهري علي بن داود الصيرفي (ت 900هـ/ 1494م).

من أعيان الحنفية، وأحد نواب الحكم، وكان يكتب التاريخ مجازفة لا عن قائل ولا راو، وله في تاريخه خباطات* كثيرة، وجمع من ذلك عدة كتب من تأليفه. وسبق السخاوي ابن اياس في هذا الحكم. فقال" ونصب الصيرفي نفسه لكتابة التاريخ فكان تاريخاً لكونه لا تمييز له عن كثير من العوام إلا بالهيئة مع سلوكه لما يستقبح"ونقل ابن الصيرفي في مؤلفه" نزهة النفوس والأبدان" عن مؤلفات شيوخه الذين قرأ عليهم ، فقد أخذ عن المقريزي في كتابه " السلوك لمعرفة دول الملوك" وعن البدر العيني في تاريخه " عقد الجمان " وعن ابن تغري بردي في " النجوم الزاهرة"(3)

11. الحافظ شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت 902هـ/1496م).

برع في الفقه، والعربية، والقراءات، والحديث، وشارك في الفرائض، والحساب، والتفسير، وأصول الفقه، والميقات وغيرها.(4) لزم ابن حجر أشد الملازمة، وحمل عنه

---

(1) ابن إياس: المصدر السابق، ج3، ص214. ابن العماد: المصدر السابق، ج9، ص524.

(2) السيوطي: نظر العقيان، ص171. الشوكاني: المصدر السابق، ج2، ص263.

معن المقابلة: المرجع السابق،ص13. عبدالله محمد الدرويش: مقدمة الدر المنتخب، ص13.

(3) السخاوي:الضوء اللامع، ج5، ص218. ابن إياس:المصدر السابق ، ج3، ص309، 310. سعيد صالح: المرجع السابق، ص1، 2.

(4) ابن العماد: المصدر السابق، ج10، ص23.

ما لم يشاركه فيه غيره، وأخذ عنه أكثر تصانيفه في الحديث والتاريخ والتراجم.(1) وألف كتباً منها " الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر" و"الضوء اللامع، في أخبار القرن التاسع" وذكر لنفسه فيه ترجمة على عادة المحدثين.(2) ومن كتبه " التبر المسبوك في السلوك" و " ذيل تاريخ دول الإسلام" أما أشهر كتبه فهو" الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ" و" التاريخ المحيط" ولا يعلم من سبقه إليه، و" تلخيص تاريخ اليمن" و" منتقى من تاريخ مكة" للفاسي.(3) ويرى ابن إياس والسيوطي أن تاريخ السخاوي في مؤلفه "الضوء اللامع" فيه أشياء كثيرة من المساوىء في حق الناس.نظراً لمبالغته في البعض وتحقيره لآخرين.(4)

وبالجملة فهو من الأئمة الأكابر حتى قال تلميذه الشيخ جارالله بن فهد فيما كتبه عقب ترجمة صاحب الترجمة لنفسه" حقيق بما ذكره لنفسه من الأوصاف الحسنة".(5)

12. مجير الدين عبد الرحمن بن محمد الحنبلي العليمي (ت928هـ/ 1521م)

عالم دين مؤرخ، صاحب كتاب "الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل" وهو من أوسع المصنفات التي تعالج الحديث عن القدس والخليل وبقية مدن فلسطين.(6) وكان الحنبلي معاصراً للسلطان الأشرف قايتباي، وكان على علاقة وطيدة مع علماء الدين

---

(1) السخاوي: الضوء اللامع، ج8، ص5. يسري عبد الغني عبدالله : معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1991م. ص88.

(2) نجم محمد بن محمد الدين الغزي المتوفى 1061هـ/1650م: الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة،3ج، ط1، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان،1418هـ/1997م. ج1، ص53.

(3) عبدالقادر بن شيخ بن عبدالله العيدروس الحسيني الحضرمي المتوفى 1038هـ/1628م: النور السافر عن أخبار القرن العاشر، تحقيق، أحمد حالو، ومحمود الأرناؤوط، وأكرم البوشي، ط1، دار صادر ، بيروت،2001م. ص43، 44.
مفيد الزيدي: المرجع السابق، ص285.

(4) ابن إياس: بدائع الزهور، ج3، ص361. مفيد الزيدي: المرجع السابق، ص286.

(5) الشوكاني: المصدر السابق، ج2، ص185.

(6) مجير الدين الحنبلي: المصدر السابق، ج1، ص2، 3.

في بيت المقدس، عين قاضياً لمدينة الرملة سنة 889هـ/ 1484م، ثم قاضياً للقدس سنة 891هـ/1516م.(1)

13. محمد بن أحمد بن إياس الحنفي (ت 930هـ/1524م)

سليل أسرة من الجراكسة تولت العديد من مراكز الرياسة، انصرف إلى الكتابة والتاليف في التاريخ، وأهم مؤلفاته" بدائع الزهور في وقائع الدهور" أسهب فيه في وصف الأحداث.(2) وعالج به تاريخ المماليك حتى زمن السلطان قايتباي. واشتهر بالدقة واستقصاء الحقائق والملاحظة والقسوة في الحكم على الناس.(3) واعتمد في جمع معلوماته على مصادر معاصرة منها: تاريخ ابن الفرات، والسلوك، والنجوم الزاهرة، والضوء اللامع.(4)

ومن مؤرخي هذا العصر أيضاً ابن الحمصي صاحب كتاب" حوادث الزمان"، وابن طولون صاحب كتاب" مفاكهة الخلان" و " وأعلام الورى" وغيرهما الكثير.

---

(1) علي السيد علي: المرجع السابق، ص146.

(2) يسري عبد الغني: المرجع السابق، ص47، 48.

(3) مقدمة محقق بدائع الزهور، ج1، ص8. مفيد الزيدي: المرجع السابق، ص287.

(4) زياد المدني: المرجع السابق، ص21.

الخاتمة

لقد حاولت هذه الدراسة أن توضح "أثر الدولة المملوكية الثانية (البرجية) في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في بلاد الشام خلال الفترة التاريخية (784 -923هـ/1382-1517م).

وقد استهل الدراسة تمهيد تم الإطالة فيه بعض الشيء من أجل زيادة الصورة وضوحاً عن حالة بلاد الشام السياسية في الفترات التي سبقت فترة دراستنا، بدءاً من انطلاق الحملات الصليبية للمنطقة، وحالة التدهور والانقسام في صفوف دولة السلاجقة، مروراً بقيام الدولة الزنكية ودورها في التصدي للصليبيين سواءاً في الشام أو مصر، ومن ثم قيام الدولة الأيوبية على يد صلاح الدين الأيوبي في كل من مصر والشام، ودورها في هزيمة الصليبيين في معركة حطين، وفتح بيت المقدس. وبعد وفاة صلاح الدين تمزقت دولته ودخلت بلاد الشام ومصر في دوامة المنازعات الداخلية.

وفي هذه الآونة كان المغول قد ظهروا على مسرح الأحداث في المشرق، في الوقت الذي تمكن فيه المماليك من انتزاع السلطة في مصر من الأيوبيين والتصدي للمغول في بلاد الشام فيما بعد، وهزيمتهم في معركة عين جالوت. وكان جل سلاطين الدولة المملوكية الأولى من العنصر التركي، وبوفاة الملك المنصور سنة 783هـ/1381م، انتهت الدولة المملوكية الأولى، لتبدأ الدولة المملوكية الثانية موضوع هذه الرسالة.

وقد تم البحث في الفصل الأول من هذ الرسالة عن العصر المملوكي الثاني بشيءٍ من التفصيل بدءاً بأصل المماليك الجراكسة وتربيتهم وتدريبهم، وازدياد نفوذهم في السلطة إلى قيام دولتهم علي يد السلطان برقوق. ثم ركزنا في بحثنا على علاقات الجراكسة الخارجية مع التتار والصليبيين والقبارصة، وأخيراً مع العثمانيين حيث كانت نهاية الدولة المملوكية الثانية في معركة مرج دابق في الشام، والريدانية في مصر.

وتم التطرق في فصل الحياة السياسية في بلاد الشام في العصر المملوكي الثاني ثلاثة نقاط رئيسية أولاً: جغرافية بلاد الشام، وموقعها، وحدودها. وثانيا: نظم الحكم والإدارة في بلاد الشام. فتناولنا فيه تقسيمات بلاد الشام النيابية وأهمية كل نيابة بالنسبة للسلطة. ثم انتقلنا لبيان وظائف أرباب السيوف بجميع مهامها السياسية والعسكرية، وختمنا ثالث تفرعات هذا الفصل بشيء من التفصيل أهم الثورات والحركات والتمردات على السلطة في مصر من حيث الأسباب والنتائج، وأثر هذه الثورات في إضعاف الدولة وتفككها مما سهل على الخصوم الطمع فيها واحتلالها.

وفي الفصل الثالث من البحث تم التركيز على جوانب كثيرة من أثر الدولة المملوكية الثانية في الحياة الاجتماعية في بلاد الشام, من جهة الفئات العرقية للمجتمع كالعرب والأكراد والتركمان والجراكسة، وأماكن مناطقهم، وفئاتهم المذهبية وطبقاتهم الاجتماعية من أعيان وتجار وعامة. وأبرزت في هذه الدراسة دور المرأة الديني والاجتماعي ومكانتها في مجتمع بلاد الشام.

وتم في هذا الفصل أيضاً توضيح مظاهر الحياة الاجتماعية من مواكب واحتفالات ومناسبات، وبيان أهمية هذه التقاليد في حياة المجتمع، ثم ناقشت تقسيم الحارات الشامية، وطبيعة العلاقات بين هذه الحارات مع بعضها البعض، ومع السلطة الحاكمة في النيابة، وأفردت جزء من هذا الفصل للحديث عن الحمامات الشامية، وبيان أهميتها في المجتمع، وأبرزت قواعد وتعليمات دخولها، وطرق العناية فيها. وختمت هذا الفصل بخير الأعمال بقافلة الحج الشامي، لما لها من أهمية ومكانة من أعلى رمز في السلطة الحاكمة وهو السلطان إلى نائب الولاية إلى أمير القافلة، حيث المراسم التي تتم فيها والإعلان عن انطلاقها، والاحتفال في وداعها وتتبع أخبارها حتى وصولها إلى الأماكن المقدسة والعودة. وقد أوردنا معلومات كثيرة عن تعرض بعض القوافل للقتل والسلب والنهب والأسر من قبل قطاع الطرق وبعض القبائل الواقعة على خط سير موكب الحاج.

وحمل الفصل الثالث من هذا البحث عنوان الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر المملوكي الثاني، ذو أهمية كبيرة لأنه الشريان المالي والغذائي للمجتمع وللسلطة، فقد وضحنا فيه نظام الإقطاع السائد أنذاك من إقطاع تمليك، وإقطاع استغلال، وإقطاع إرفاق فعرفنا كل إقطاع وطرق تطبيقه، ثم انتقلنا في بحثنا إلى القطاعات الرئيسية الأخرى في الحياة الاقتصادية بدءاً بالزراعة والري، وأنواع الحاصلات الزراعية في نيابات الشام، وطرق الري لها، ثم تتبعنا في البحث الأثر السياسي والطبيعي في الناتج الزراعي، ونقصد هنا الأحداث السياسية والعسكرية لما لها من أبعاد سلبية على هذا القطاع، وكذلك تناولنا البعد الطبيعي المؤثر من ثلوج وأمطار ورياح وأفآت زراعية.

وتم التركيز في هذا الفصل كذلك على الصناعات الشامية ، وقد تنوعت ما بين الصناعات الزراعية، كصناعة السكر، وصناعة زيت الزيتون وصناعة الصابون، وصناعة الخمور ومن اخبار القائمين عليها، وصناعة طحن الغلال، ثم بحثنا في صناعة الحصير وصناعة العطور، وتجفيف الفواكه، وختمنا الصناعات الزراعية بصناعة الخشب. أما ضناعة المنسوجات فقد تنوعت وتعددت في بلاد الشام، فقد صنع القماش الأطلسي والهرمزي والسابوري، والقماش الأبيض القطني، وثياب الحرير كالخز والديباج وغير ذلك الكثير. وتناولنا أيضاً في هذا الجزء الصناعات المعدنية، كصناعة السيوف، وصناعة الذهب والصياغة، وتركيب الماس والياقوت والأحجار الكريمة. وأبرزنا في بحثنا صناعة الزجاج والورق.

وختم هذا الفصل بالحديث عن النشاط التجاري السائد، والسلع التجارية المتداولة، والأسواق والحوانيت، والعملة.

وجاء الفصل الخامس من هذه الدراسة عن أثر الدولة المملوكية الثانية في الحياة الثقافية والعلمية في عدة جوانب، وتوقفنا عند بعض المحطات الثقافية المهمة في هذا

المجال، فقد تناولنا أولاً المؤسسات الثقافية والعلمية، وركزنا في دراستنا في هذا الباب على المؤسسة الأولى في التعليم وهي الكتاتيب أو الكتاب، وقد خصصت لتعليم القراءة والكتابة والقرآن وشيء من علوم العربية والرياضة، وكان الكتّاب يشبه المدرسة الابتدائية في عصرنا الحاضر، وكان من الاتساع بحيث يضم أعداداً كبيرة من الطلاب.وحلت المساجد كمؤسسة تعليمية ثانية، وحظيت باهتمام كبير من سلاطين المماليك لدورها الديني التعبدي فضلاً عن دورها التعليمي . وجاءت المدارس تتويجاً لما سبق من تعليم، وشكلت منبراً آخر من منابر العلم والثقافة التي شهدتها بلاد الشام، والتي كان لها الإسهام الفعال في رعاية الأجيال التي انتقلت من مرحلة التعليم الأولي-الكتاب- إلى مرحلة تعليمية أعلى أسهم فيها العلماء بتَنَمية الفكر العلمي والثقافي لدى هذه النخبة التي حملت فيما بعد شعلة العلم. واكتملت هذه الصورة الناصعة بوجود خزائن الكتب (المكتبات) في أغلب المؤسسات الدينية في عهد المماليك من مساجد ومدارس ، ولعبت المكتبات في بلاد الشام في العهد المملوكي دوراً هاماً في الأوضاع الدينية، والحياة العلمية، وكان لها أكبر الأثر في تطوير النواحي الدينية والعلمية في تلك الفترة، وزادت من شحذ الهمم العلمية والدينية بين كافة طبقات المجتمع.

وتم البحث كذلك في مؤسسات تعليمية أخرى مثل الخوانق والزوايا والربط والترب، فقد كانت هذه الحواضر مراكز علمية، ساهمت في دفع الحركة العلمية في الشام في هذا العصر، وتخرج فيها الكثير من علماء العصر ومشايخه.

وثاني موضوعات هذا الفصل خصص لمؤرخي هذه الفترة، حيث وجد التاريخ والمؤرخون عناية واهتماماً في عصر المماليك بشكل لانبالغ إذا قلنا إنه تفوق على غيره من العصور الإسلامية السابقة، وربما يعود ذلك إلى محبة المماليك كتابة تاريخهم، لأنهم شكلوا نخبة اجتماعية مترفة ملكت السلطة والثروة والجاه، وحققت في غالب الأوقات إنجازات تاريخية وحضارية للمنطقة، فأراد سلاطين المماليك تدوين هذه الإنجازات لتسجل ذكرهم أولاً وتكون سجلاً لمجدهم ثانياً.

النتائـــــج التي خلصت إليها الدراسة

خلصت هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتي يمكن إجمالها في التالي:

- إنّ الصراع السياسي والعسكري للوصول إلى الحكم في فترة هذه الدراسة، كان سمة عهد الدولة المملوكية الثانية.
- انشغال أكثر سلاطين هذه الفترة في الأمور الداخلية والشخصية لهم على حساب مصالح الدولة والمجتمع معاً. مما سمح للقوى الخارجية من إحتلال منطقة بلاد الشام وتدمير مراكزها الإدارية والحضارية كما حصل في كل من دمشق وحلب على يد المغول، وما حصل في الأراضي المقدسة على يد الصليبيين.
- تركيز السلطة السياسية والادارية في فترة الحكم المملوكي الثاني في يد فئة واحدة من الأمراء الجراكسة دون غيرهم.
- أكثر الثورات والحركات والتمردات التي قامت ضد السلطة الحاكمة، كانت من نواب وأمراء بلاد الشام الطامعين في السلطة والمناصب.
- ضعف الولاء السياسي للسلطة خاصة من قبل العنصر العربي لاعتبارات سياسية واقتصادية واجتماعية.
- انحياز السلاطين المماليك لأبناء جنسهم بشكل عنصري فقد أنعموا عليهم بالغالي والنفيس واعتبروهم الطبقة الأولى في المجتمع فكان ذلك سبباً في إبعاد العرب وأهل البلاد الأصليين عن مركز القرار السياسي والعسكري والإداري.
- تركز القيادات العربية في دولة المماليك الثانية في الجوانب العلمية والدينية فقط.
- استئثار طائفة المماليك الجراكسة بالنواحي الاقتصادية، حيث كثرت بأيديهم الأموال بما تحصل لهم من خراج الأرض.

- التمييز الاجتماعي الذي مارسه المماليك، لدرجة أن الأمراء منهم لم يحاولوا الزواج من أهل البلاد، بل اختاروا زوجاتهم وجواريهم من بنات جنسهم اللاتي جلبهن التجار.
- ساد منطقة بلاد الشام في هذه الفترة نشاط علمي وثقافي واضح للأعيان من خلال مؤسسات تمثلت في الكتاتيب والمساجد والمدارس والخوانق والربط.
- برز عدد لا بأس فيه من المؤرخيين في منطقة بلاد الشام في هذه الفترة، كان لمؤلفاتهم دور مهم في تدوبن الأحداث ونقلها إلى الأجيال التي جاءت بعد ذلك.
- نظراً لأن كثيراً من سلاطين المماليك الجراكسة كانوا لا يجيدون اللغة العربية، دفعهم هذا إلى الاستعانة ببعض العلماء العرب لتولي مناصب دينية مثل قاضي القضاة، ليكونوا حلقة وصل بينهم وبين السكان الأصليين من العرب، ولأن هذا المنصب ذو أهمية كبيرة في نفوس كثير من الناس.

التوصيات

- أن تقوم الجامعات والأقسام العلمية فيها ذات الاختصاص التاريخي والحضاري بفهرسة تاريخ هذه الحقبة الزمنية من حياة الأمة العربية والإسلامية في زمن العصر المملوكي الثاني في أبواب سياسية وقتصادية واجتماعية وثقافية وغيرها من مظاهر الحضارة.
- دعم جهود الباحثين والدارسين في تحقيق المخطوطات التاريخية، التي ما زالت محفوظة في مراكز المخطوطات العربية والإسلامية، لكي يستفيد منها طلبة العلم في أبحاثهم ودراساتهم لهذه الفترة الهامة من تاريخ منطقتنا.
- إبراز مظاهر الحضارة العربية الإسلامية في هذه الفترة التاريخية على شكل أبحاث ودراسات مطبوعة ومنشورة.
- دراسة الدور العربي في هذه الفترة التاريخية المهمة، وبيان الأسباب التي حالت دون مشاركتهم في مراكز صنع القرار سواء في القاهرة أو الشام.
- توضيح الأهمية السياسية والاستراتيجية والعسكرية في وحدة مصر والشام، لما لها من آثار إيجابية في صد الأخطار التي تهدد الأمة في أرضها ومقدساتها، والتاريخ أكبر شاهد على ذلك سواء في معركة عين جالوت أو معركة حطين.
- بيان الأطماع الاستعمارية في بلاد الشام سواء من جهة الشرق أو الغرب قديماً وحديثاً والتي تعود للدوافع والأسباب نفسها.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

ثانياً: المصادر المخطوطة.

1-ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد بن أبي زيد المتوفى (729هـ/1329م).

معالم القربة في أحكام الحسبة، مكتبة جامعة الملك سعود، قسم المخطوطات، رقم 5023.

2-الحموي، علي بن عطية علوان المتوفى (936هـ/1530م).

الفتح النبوي بشرح عقيدة الشيخ علوان الحموي، نسخة جامعة الملك سعود، رقم **348.**

3-ابن الخطيب الناصرية، علي بن محمد المتوفى (843هـ/ 1440م).

الدر المنتخب في تكملة حلب، نسخة مصورة في مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية ورقمها (1168).

4-المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي (845هـ/1441م).

شذور العقود في ذكر النقود، نشرة دار الكتب، نسخة جدة، رقم:2170. جامعة الملك سعود.

ثالثاً: المصادر الأولية.

1-ابن الأثير،عزالدين أبو الحسن علي بن محمد المتوفى(630هـ/1232م).

الكامل في التاريخ، 12ج، (ب ط)، نسخة تامة أعتنى بنصها أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الأردن، السعودية ، المؤتمن للتوزيع.

التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق، عبدالقادر أحمد طليمات، ملتزم الطبع والنشر دار الكتب الحديثة بالقاهرة ومكتبة المثنى ببغداد، 1382هـ/1963م.

2-ابن أجا، محمد بن محمود بن خليل الحلبي المتوفى(881هـ/ 1479م).

العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير يشبك بن مهدي الدوادار،

صنعه، محمد أحمد دهمان، ط1، دار الفكر النشر، دمشق، 1406هـ/1986م.

3-**الإدريسي**، أبي عبدالله محمد بن عبدالله بن إدريس الحسني المتوفى(559هـ/1164م)

نزهة المشتاق في إختراق الآفاق، مجموعة محققين،2ج،(ب ط)،مكتبة الثقافة

الدينية، بور سعيد، القاهرة، 1422هـ/2002م.

4-**الاصطخري**، أبي سحاق أبراهيم بن محمد الفارسي المتوفى(321هـ/933م).

مسالك الممالك، طبع في مدينة ليدن، مطبعة بريل، 1937م.

5-**ابن أعثم الكوفي**، أبي محمد أحمد المتوفى (314هـ/926م).

الفتوح، **تحقيق**،**8**ج، ج1، تحقيق،علي شيري،ط1، دار الأضواء، 1411هـ/1991م.

6-**الأنطاكي**، داود بن عمر الصرير المتوفى(1008هـ/1599م).

تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب،2ج،(ب ط)،المكتبة الثقافية، بيروت،(ب ت).

7-**ابن إياس**، أبي البركات الناصري محمد بن أحمد الحنفي المتوفى(930هـ/1525م).

بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق، محمد مصطفى، 5ج، ج1 وج2، ط1، فرانز

شتاينر،فيسبادن،1395هـ/ 1975م، (طبع دار إحياء الكتب العربية، القاهرة)،

ج3 وج4 وج5، الهيئة المصرية العامة، 1404هـ/1984م.

8-**البدري**، أبي البقاء عبدالله بن محمد المصري الدمشقي المتوفى(887هـ/1482م).

نزهة الأنام في محاسن الشام،المكتبة العربية، بغداد، المطبعة السلفية، مصر،1341م.

9-**ابن بطوطة**، شمس الدين أبي عبدالله محمد اللواتي المتوفى (779هـ/1377م).

رحلة ابن بطوطة المسماه (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، ج1،

تحقيق، عبدالهادي التازي، (ب ط)، أكاديمية المملكة المغربية،1417هـ/1997م.

نسخة ثانية، تحقيق، محمد عبد المنعم العريان،2ج، ط1 ، دار إحياء العلوم،

بيروت، 1407هـ/1987م.

10-البكري، أبي عبيد عبدالله بن عبدالزيز بن محمد البكري المتوفى (487هـ/1094م).

المسالك والممالك، تحقيق، جمال طلبة، 2ج، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003هـ/1424م.

11-البلاذري، أحمد بن جابر بن داود المتوفى (279هـ/882م).

فتوح البلدان، 1ج، (ب ط)، دار الهلال، بيروت، 1988م.

12-ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي المتوفى(874 هـ/1469م).

.النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدم له وعلق عليه، محمد حسين شمس الدين، 16ج، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1413هـ/ 1992م.

.المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، 13ج، تحقيق، محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984م.

.الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق، فهيم محمد شلتوت، 2ج،(ب ط)، مكتبة الخانجي، القاهرة، (ب ت).

.حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق، محمد كمال الدين عز الدين،2ج، ط1، عالم الكتب، 1410هـ/1990م.

13-ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني الأندلسي المتوفى(614هـ/1217م).

رحلة ابن جبير، (ب ط)، دار صادر، بيروت، (ب ت).

14-ابن الجزري، شمس الدين أبي عبدالله محمد بن ابراهيم المتوفى(738هـ/1337م).

تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه (المعروف بتاريخ ابن الجزري) ، تحقيق، عمر عبدالسلام تدمري، 3ج،ط1، المكتبة العصرية

،بيروت،1419هـ/1998م.

15-ابن جماعة، بدر الدين محمد بن إبراهيم الكناني المتوفى(733هـ/1332م.)

.تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، عتنى به محمد بن مهدي العجمي،ط1، دار البشار الاسلامية، بيروت، 1433هـ/2012م.

.تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، تحقيق، فؤاد عبدالمنعم أحمد،ط1، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، قطر،1405هـ/1985م.

16-ابن الجوزي، أبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد المتوفى (597هـ/1200م).

المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق، محمد عبد القادر عطا و مصطفى عبدالقادر عطا، مراجعة نعيم زرزور، 19ج ، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت ، 1412هـ/1992م.

17-ابن الحاج، أبوعبدالله محمد بن محمد العبدري الفاسي المتوفى(737هـ/1336م)

المدخل،4ج، (ب ط)، مكتبة دار التراث، القاهرة، (ب ت).

18-ابن حجر،شهاب الدين أحمد بن علي بن العسقلاني المتوفى (852هـ/1448م).

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، مصحح هذه الكتاب سالم الكرنكوى، 4ج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (ب ت).

إنباء الغُمر بأنباء العُمر، تحقيق، حسن حبشي، (ب ط)، مطابع الأهرام التجارية، 1972م، 1994م.

19-الحضرمي، عبدالقادر بن شيخ بن عبدالله العيدروس المتوفى(1038هـ/1628م).

النور السافر عن أخبار القرن العاشر، تحقيق، أحمد حالو، ومحمود الأرناؤوط، وأكرم البوشي، ط1، دار صادر ، بيروت،2001م.

20-ابن الحمصي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر المتوفى(934هـ/1527م).

<u>حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران</u>، تحقيق، عمر عبدالسلام تدمري، 3ج، المكتبة العصرية، بيروت. نسخة ثانية، تحقيق، عبدالعزيز فياض حرفوش، ط1، دار النفاس، بيروت، 1421هـ/2000م.

21-الحميري، محمد بن عبدالمنعم الصنهاجي المتوفى(900هـ/1494م).

<u>الروض المعطار في خبر الأقطار</u>، تحقيق، إحسان عباس، طبعة 1975، مكتبة لبنان.

22.**ابن خلدون**، عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (ت808هـ/1405م).

<u>تاريخ ابن خلدون</u> المسمى "العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر" ضبط المتن ووضع الحواشي،خليل شحادة، مراجعة، سهيل زكار، 8 أجزاء،(ب ط)، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 1431هـ/2001م.

23-ابن خلكان، أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر(681هـ/1282م).

<u>وفيات الأعيان وأنباءُ أبناءِ الزمان</u>، تحقيق إحسان عباس، 8ج، (ب ط)، دار صادر، بيروت، 1398هـ/1978م.

24-ابن دقماق، صارم إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي المتوفى (809هـ/1403م).

<u>نزهة الآنام في تاريخ الإسلام</u>، تحقيق، سمير طباره، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 1420هـ/1999م.

25-الدواداري، أبي بكر بن عبدالله بن أيبك المتوفى(743هـ/1322م).

<u>كنز الدرر وجامع الغرر</u>، 9 أجزاء،ج8، تحقيق، أُولرخ هارمان، القاهرة، 1391هـ/ 1971 م.ج9، تحقيق، هانس روبرت رويمر، مطبعة لجنة التأليف،القاهرة،1960م.

26-الذهبي، شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان (748 هـ/ 1374م).

<u>تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام</u>، تحقيق، بشار عواد معروف، 17ج، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1424هـ / 2003م.

دول الإسلام، تحقيق، حسن إسماعيل مروة، 2ج، ط1، دار صادر، بيروت،1999م.

العبر في خبر من غبر، تحقيق، أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، 4ج، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1405هـ/1985م.

27-ابن زنبل، الشيخ أحمد بن أبي الحسن علي الرمال المتوفى(960هـ/1553م).

آخرة المماليك أو واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني،تحقيق، عبدالمنعم عامر، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998م.

28-ابن سباط، حمزة بن أحمد بن عمر الغربي المتوفى(926هـ/1520م).

صدق الأخبار، تحقيق، عمر عبدالسلام تدمري،2ج، ط1، جروس برس، طرابلس، لبنان،1413هـ/1993م.

29-السبكي، تاج الدين عبدالوهاب السبكي المتوفى(771هـ/1370م)

مُعيد النعم ومُبيد النقم، تحقيق، محمد علي النجار وآخرون، ط1، دار الكتاب العربي، مصر، 1367هـ/1948م.

30-السخاوي، شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي المتوفى(902هـ/1496م).

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، 10ج،(ب ط)، دار الجيل، بيروت، (ب ت).

وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، تحقيق، بشار عواد معروف وآخروون،4ج، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1416هـ/1995م.

التبر المسبوك في ذيل السلوك، تحقيق نجوى مصطفى كامل و لبيبة إبراهيم مصطفى، 3ج، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 1423هـ/2002م.

31-السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر المتوفى(911هـ/1505م).-

تاريخ الخلفاء، ط1، دار ابن حزم، بيروت، 1424هـ/ 2003م.

نظم العقيان في اعيان الاعيان، حرره فيليب حتي، 1927م، المطبعة السورية

الامريكية في نيويورك، المكتبة العلمية، بيروت.

حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق، محمد أبو الفضل ابراهيم،2ج، ط1، دار احياء الكتب العربية، 1387هـ/1967م.

32-أبو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل المتوفى(665هـ/1266م).

كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، علق عليه إبراهيم شمس الدين، 5ج، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت،1422هـ/ 2002م.

تراجم رجال القرنين السادس والسابع" المعروف بالذيل على الروضتين"، عني بنشره، عزت العطار الحسيني، ط1، ط2، دار الجيل، بيروت، 1947م، 1974م.

33-ابن شاهين الظاهري، زين الدين عبدالباسط بن خليل المتوفى(920هـ/1514م).

نيل الأمل في ذيل الدول، تحقيق، عمر عبدالسلام تدمري، 9ج، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 1422هـ/2002م.

34-ابن شاهين الظاهري، غرس الدين خليل المتوفى (873هـ/1468م).

زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، صححه بولس راويس، طبع في مدينة باريس، 1894م.

35-ابن الشحنة، أبو الفضل محمد بن الشحنة المتوفى (890هـ/1483م).

الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تقديم، عبدالله محمد الدرويش، دار الكتاب العربي، سورية وعالم التراث، دمشق، 1404هـ/1984م.

36-ابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن تميم المتوفى (632هـ/1239م).

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين، تحقيق، جمال الدين الشيال، (ب ط)، مكتبة الخانجي، القاهرة، (ب ت).

37-ابن شداد، عزالدين محمد بن علي بن ابراهيم المتوفى(684هـ/1285م).

الأعلاق الخطيرة في أمراء الشام والجزيرة، تحقيق، يحي زكريا عبارة،(ب ط)، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1991م.

38-ابن شهبة، تقي الدين أبي بكر أحمد الأسدي الدمشقي المتوفى (851هـ/1448م).

تاريخ ابن شهبة، تحقيق، عدنان درويش،4ج، طباعة المعهد العربي للدراسات العربية، دمشق، 1994م.

39-الشوكاني، شيخ الإسلام محمد بن علي المتوفى(1250هـ/1834م).

البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، 2ج، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

40-شيخ الربوة، شمس الدين أبي عبدالله محمد أبي طالب المتوفى(727هـ/1327م).

نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، طبع في مدينة بطرس بورغ،1281هـ/1865م.

41-الشيزري، عبدالرحمن بن نصر المتوفى(590هـ/1094م).

نهاية الرتبة في طلب الحسبة، قام على نشره، السيد الباز العريني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1365هـ/1946م.

42-ابن الصيرفي، علي بن داود بن إبراهيم المتوفى (900هـ/1494م).

نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق، حسن حبشي،مطبعة دار الكتب، القاهرة، 1390هـ/ 1970م.

43-الطرسوسي، نجم الدين إبراهيم بن علي المتوفى(758هـ/1360م).

تحفة الترك فيما يجب أن يُعمل في المُلك، تحقيق ودراسة، رضوان السيد، 1ج، ط1، دار الطليعة للنشر، بيروت، 1413هـ/1992م.

44-ابن طوق، شهاب الدين أحمد المتوفى(915هـ/1509م).

التعليق، تحقيق، جعفر المهاجر،ج1، (ب ط)، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق،2000م.

45-ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الصالحي المتوفى(953هـ/1546م)

مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت

،1418هـ/1998م.

إعلام الورى بمن ولي نائبا من الأتراك بدمشق الكبرى، تحقيق، ط2، محمد أحمد

دهمان، دار الفكر، دمشق، 1404هـ/1984م.

القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، تحقيق، محمد أحمد دهمان، ط2، مطبوعات

مجمع اللغة العربية، دمشق، 1401هـ/1980م.

نقد الطالب لزغل المناصب، تحقيق، محمد أحمد دهمان، وخالد محمد دهمان، ط1،

دار الفكر المعاصر، بيروت، 1412هـ/1992م.

46-ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة المتوفى (660هـ/1261م).

زبدة الحلب من تاريخ حلب، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1417هـ/1996م.

بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق، سهيل زكار،11ج، (ب ظ)، دار الفكر، بيروت.

47-العليمي، مجير الدين الحنبلي المتوفى (927هـ/1521م).

الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، 2ج، ج1 (ب ط)، و (ب د).ج2، تحقيق، محمد
عودة الكعابنة، ط1، مكتبة دنديس، الاردن، 1999م، طبعة 2 لمكتبة المحتسب.

48-ابن العماد، شهاب الدين أبي الفلاح الدمشقي المتوفى(1089هـ/1638م)

.شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق، محمود الأرناؤوط، 10ج، ط1، دار ابن

كثير، دمشق، بيروت، 1413هـ/1993م.

49-العيني، بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى المتوفى(855هـ/1451م).

عقد الجمان، 4ج(أيوبي) تحقيق، محمد رزق محمود، 5ج(مملوكي) تحقيق، محمد

محمد أمين، ط2، مطبعة دار الكتب والوثائق، القاهرة، 1431هـ/2010م.

السيف المهند في سيرة الملك المؤيد" شيخ المحمودي"، تحقيق، محمد علوي شلتوت، ط2، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1998م.

50-الغزي، كامل بن حسين بن مصطفى بالي الحلبي المتوفى(1351هـ/1933م).

نهر الذهب في تاريخ حلب، ج1،ج3، طبع في المطبعة المارونية بحلب.

51-الغزي، نجم الدين محمد بن محمد المتوفى(1061هـ/1650م).

الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة،3ج، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،1418هـ/1997م.

52-أبو الفدا، المؤيد عماد الدين بن عمر بن شاهنشاه اسماعيل بن علي بن محمود بن محمد المتوفى (732هـ/1331م).

المختصر في أخبار البشر، 4ج، ط1، المطبعة الحسينية المصرية، (ب ت).

تقويم البلدان، طبعه رينود و البارون ماك كوكين، باريس، دار صادر، بيروت،1830م.

53-ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم المتوفى(807هـ/1405م).

تاريخ ابن الفرات، م9، ج1،عني بتحرير نصه ونشره، قسطنطين زريق، المطبعة الأميركانية، بيروت، 1936م. م9، ج2، حققه، قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين،المطبعة الأميركانية، بيروت، 1938م.

54-إبن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحي المتوفى (749هـ/1349م).

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق، كامل سلمان الجبوري،ج3، ممالك الشرق الإسلامي والترك ومصر والشام والحجاز، دار الكتب العلمية، بيروت،(ب ت).

التعريف بالمصطلح الشريف، مطبعة العاصمة، مصر، 1312هـ.

55-القزويني، زكريا بن محمد بن محمود المتوفى(682هـ/1283م).

آثار البلاد وأخبار العباد، (ب ط) دار صادر، بيروت، (ب ت).

56-ابن القلانسي، أبي يعلي حمزة المتوفى(550هـ/1155م).

ذيل تاريخ دمشق، مكتبة المتنبي، القاهرة.

57-القلقشندي، الشيخ أبي العباس أحمد بن علي بن أحمد المتوفى (821هـ/1418م).

صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، طبعة المطبعة الأميرية،القاهرة

1332هـ/1914م.

58-ابن كثير، عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الشافعي(701-774) هـ.

البداية والنهاية، 2ج، طبعة مظبوطة أعتنى بها حسان عبدالمنان، بيت الأفكار

الدولية، الأردن، السعودية، المؤتمن للتوزيع، 1425هـ/ 2004م.

59-ابن كنان، محمد بن عيسى الصالحي الدمشقي المتوفى(1153هـ/1740م).

حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين، تحقيق، عباس صباغ، ط1، دار

النفاس، بيروت، 1412هـ/1991م.

المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية، تحقيق، حكمت اسماعيل،2ج،

(ب ط)، وزارة الثقافة، دمشق، 1993/1992م.

60-ابن المبرد، يوسف بن بدر الدينأبي عبدالله الحسن المتوفى (909هـ/1503م).

ثمار المقاصد في ذكر المساجد، (ب ط)،(ب د)، بيروت، 1943م.

61-المرادي، ابن أم قاسم المتوفى(749هـ/1348م)،

توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، تحقيق، عبدالرحمن علي سليمان،

6ج، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة،1422هـ/2001م.

62-المرادي، محمد خليل بن علي بن محمد المتوفى(1206هـ/1791م).

عرف البشام فيمن ولي دمشق الشام، تحقيق، محمد مطيع الحافظ، ورياض عبدالحميد

مراد، ط2، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، 1408هـ/1988م.

63-المقدسي، شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أبي بكر المتوفى(390هـ/990م).

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط2، دار صادر، بيروت،طبع في مدينة ليدن، سنة 1909م.

64-المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبدالقادر المتوفى(845هـ/1441م).

السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق، محمد عبدالقادر عطا، 8ج، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ/1997م.

أغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق، كرم حلمي فرحات،ط1، عين للدراسات والبحوث، القاهرة،1427هـ/2007م.

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، تحقيق، محمد زينهم و مديحة الشرقاوي، 3ج، ط1، مكتبة مدبولي، 1998م.

65-المُناوي،عبدالرءوف بن تاج العارفين بن زين العابدين المتوفى(1031هـ/1621م).

النزهة الزهية فى أحكام الحمام الشرعية والطبية، تحقيق، عبدالحميد صالح حمدان، ط1،الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1408هـ/1987م.

66-ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المتوفى(711هـ/1311م).

لسان العرب، 15ج، (ب ط)، دار صادر، بيروت، 1968م.

67-النعيمي، عبدالقادر بن محمد الدمشقي المتوفى (978هـ/1570م).

الدارس في تاريخ المدارس،2ج، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت،1410هـ/1990م.

68-النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب المتوفى (733هـ/1332م).

نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق، علي بوملحم، ج8،(ب ط)، دار الكتب العلمية، بيروت،(ب ت).

69-ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم المتوفى (697هـ/1298م).
<u>مفرج الكروب في أخبار بني أيوب</u>، تحقيق، ج1، ج2،ج3 جمال الدين الشياك، ج4،ج5
حسنين محمد.
70-ابن الوردي، سراج الدين عمر بن البكري القرشي المتوفى (861هـ/1457م).
<u>خريدة العجائب وفريدة الغرائب</u>، تحقيق، أنور محمود زناتي، ط1، مكتبة الثقافة الدينية،
القاهرة، 1428هـ/ 2008م.
72-ابن الوكيل، يوسف الملواني المتوفى(1131هـ/1719م).
<u>تحفة الأحباب بمن ملك مصرمن الملوك والنواب</u>، تحقيق، محمد الششتاوي، ط1،
دار الآفاق العربية، القاهرة،1419هـ/1999م.
73-اليافعي، أبي محمد عبدالله بن أسعد بن علي بن سلمان المتوفى(768هـ/1370م).
<u>مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان</u>، 4ج، ط1، دار الكتب
العلمية، بيروت، لبنان، 1417هـ/1997م.
76-ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله المتوفى (626هـ/1228م).
<u>معجم البلدان</u>، 5ج، (ب ط) دار صادر، بيروت، 1986م.

ثالثا:المراجع العربية:

1-أباظة، فاروق عثمان
<u>أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحرالمتوسط أثناء القرن السادس عشر</u>، ط2، دار المعارف، القاهرة،(ب ت).
2-أطلس، محمد أسعد
<u>التربية والتعليم في الإسلام</u>،(ب ط)، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة،

2014م.

3-**الأهل**، عبدالعزيز سيد

أيام صلاح الدين،(ب ط)، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، 1964م.

4-**الباشا**، حسن

الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار،(ب ط)، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، 1989م.

5-**البخيت**، محمد عدنان

مملكة الكرك في العهد المملوكي،ط1، (ب د)، 1976م.

6-**ابن بدران**، عبدالقادر بن أحمد بن مصطفى بن عبدالرحيم المتوفى(1346هـ/1927م).

منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، تحقيق، زهير الشاويش، 1ج، ط2، المكتب الإسلامي، بيروت، 1985م.

7-**البستاني**، المعلم بطرس.

محيط المحيط، طبعة جديدة، مكتبة لبنان، بيروت، 1987م.

8-**البهنسي**، عفيف

الشام الحضارة، ط1، وزارة الثقافة، دمشق، 1986م.

9-**بيضون**، إبراهيم

تاريخ بلاد الشام(إشكالية الموقع والدور في العصور الإسلامية)، (ب ط)، دار المنتخب العربي، (ب ت).

10-**توا**، فادي الياس

المناخ والأسعار والأمراض في بلاد الشام في عهد المماليك،(ب ط)، (ب د)، بيروت، 1998م.

11-جرجس، فوزي

دراسات في تاريخ مصر السياسي منذ العصر المملوكي، (ب ط)، العربي للنشر، القاهرة،(ب ت)

12-الحجي، حياة ناصر

1.السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك، ط1، جامعة الكويت، 1997م.

2.صور من الحضارة العربية الإسلامية في سلطنة المماليك، ط1، دار القلم، الكويت، 1992م.

13-الحزوري، حسام الدين عباس

الحركة الفكرية ومراكزها في نيابة دمشق في عصر المماليك البحرية، (ب ط)، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، 2010م.

14-حسن، إبراهيم حسن

تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط14، دار الجيل،بيروت، 1996م.

15-الحميدي، عبدالعزيز بن عبدالله

التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، ط1، م8، دار الأندلس الخضراء، جدة، 1998م.

16-الحياري، مصطفى

الإمارة الطائية في بلاد الشام، ط1، وزارة الثقافة والشباب، عمان، 1977م.

17-الخالدي، أحمد سامح

المعاهد المصرية في بيت المقدس، (ب ط)، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2014م.

18-دراج، أحمد

<u>وثائق دير صهيون</u>، (ب ط)، منتدى سور الأزبكية،1968م.

19-دهمان، محمد أحمد

<u>ولاة دمشق في عهد المماليك</u>، ط2، دار الفكر، دمشق، 1981م.

<u>معجم اللفاظ التاريخية في العصر المملوكي</u>، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، 1999م.

20-الزركلي، خير الدين

<u>الأعلام</u>، ط5، دار العلم للملايين، بيروت، 1980م.

21-زيادة، نقولا

<u>دمشق في عصر المماليك</u>،(ب ط)، موسسة فرنكلين للطباعة والنشر، بيروت- نيويورك، 1966.

22-زيان، حامد زيان غانم

<u>الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية</u>، (ب ط)، دار الثقافة للنشر، القاهرة، 1983م.

23-الزيدي، مفيد

<u>موسوعة التاريخ الإسلامي (العصر المملوكي)</u>،(ب ط)، دار أسامه للنشر،عمان، 2009م.

24-سالم، السيد عبدالعزيز

<u>تاريخ مدينة صيدا</u>، (ب ط)، موسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 1986م.

25-السباعي، مصطفى

<u>من روائع حضارتنا</u>، ط1، دار الوراق، بيروت، 1999م.

26-سبانو، أحمد غسان

<u>دمشق في دوائر المعارف العربية والعلمية</u>،(ب ط)، دار الكتاب العربي،

سورية،(ب ت).

27-السرجاني، راغب

<u>قصة التتار من البداية إلى عين جالوت</u>، ط1، مؤسسة اقرأ للنشر، القاهرة، 2006م.

28-سليمان، أحمد عبدالكريم

<u>تيمور لنك ودولة المماليك الجراكسة</u>، ط1، دار النهضة العربية، 1985م.

29-سمكوغ، برزج أمين

<u>الشركس في فجر التاريخ</u>، ط1، دار علاء الدين للنشر، دمشق، 1995م.

30-السيد، حكيم أمين عبد

<u>قيام دولة المماليك الثانية</u>،(ب ط)، الدار القومية للطباعة، القاهرة، 1966م.

31-الشافعي، محمد

<u>الناصر صلاح الدين الاتحاد قبل الجهاد</u>،(ب ط)،دار الجمهورية للصحافة، 2010م.

32-شاكر، محمود

<u>التاريخ الإسلامي</u>(العهد المملوكي) ج7، ط5، المكتب الإسلامي، بيروت، 2000م.

33-أبو الشعر،هند غسان

<u>مجتمع دمشق أواخر أيام الدولة المملوكية</u>، ط1، الناشر، جامعة آل البيت،الأردن،

2012م.

34-الصابوني، أحمد إبراهيم

<u>تاريخ حماة</u>، (ب ط)،مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2014م.

35-الصلابي، علي محمد محمد.

.<u>السلطان سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت</u>، ط1، مؤسسة اقرأ للنشر،القاهرة،

1430هـ/2009م.

.الدولة الزنكية، ط1، دار المعرفة، بيروت، 2007م.

.المغول(التتار) بين الانتشار والانكسار، ط1، الأندلس الجديدة، مصر، 2009م.

36-الطراونه، مبارك محمد

الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة، ط1، دار جليس الزمان، عمان، 2010م.

37-طقوش، محمد سهيل

تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، ط3، دار النفاس، بيروت(ب ت).

تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ط1، دار النفاس، بيروت، 1997م

38-العارف، عارف باشا

.تاريخ القدس، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1951م.

.المفصل في تاريخ القدس، ط5، مطبعة المعارف، القدس، 1999م.

39-عاشور، سعيد عبد الفتاح

الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، طبعة جديدة، دار النهضة العربية، القاهرة ، 1996م.

.العصر المماليكي في مصر والشام، ط2، دار النهضة العربية، القاهرة، 1976م.

40-عاشور، فايد حماد محمد

الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي، ط1، دار الإعتصام للطباعة والنشر، القاهرة،(ب ت).

41-العبادي، أحمد مختار

في تاريخ الأيوبيين والمماليك، (ب ط)، دار النهضة العربية، بيروت، 1995م.

42-عباس، إحسان

تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك، (ب ط)، الجامعة الإردنية، عمان، 1998م.

43-عبدالله، يُسري عبدالغني

معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1991م.

44-عبدالمهدي، عبدالجليل حسن

الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي، ط1، مكتبة الأقصى، عمان، 1980م.

المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي، ج2، ط1، مكتبة الأقصى، عمان، 1981م.

45- العبودي، محمد بن ناصر

بلاد الشركس (الإديغى) ، ط1، مكتبة الملك فهد للنشر، 1420هـ/1999م.

46-عثمان، محمد عبد الستار

المدينة الإسلامية، (ب ط)، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1988م.

47-العريني، السيد الباز

.المماليك، ط1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1999م.

.الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ط1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت، 1989م.

48-العسلي، كامل جميل

معاهد العلم في بيت المقدس،(ب ط)، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان،1981م.

49-العسيري، أحمد معمور

موجز التاريخ الإسلامي، ط1، مكتبة الملك فهد، الدمام، 1996م.

50-العطاري، جلال يوسف

حركة التأليف العلمي في مصر والشام في العصر المملوكي الأول، ط1، دار الفكر، عمان، 2011م.

51-العلبي، أكرم حسن

دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، ط1، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، دمشق، 1982م.

52-علي، السيد علي

القدس في العصر المملوكي، ط1، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة،1986م.

53-علي، محمد كرد

خطط الشام، ط2، ط3، مكتبة النوري للنشر، دمشق، 1983م.

54-العنزي، أحمد شامخ الحميد

الحياة الفكرية في العصر المملوكي الثاني في مصر والشام والحجاز، (ب ط)،منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2010م.

55-عودات، أحمد عودات وآخرون

تاريخ المغول والمماليك من القرن السابع الهجري حتى القرن الثالث عشرالهجري، (ب ط)، دار الكندي، إربد، 1990م.

56-العيس، سالم سليمان.

المعجم المختصر للوقائع، ط1، دار النمير للنشر، 1998م.

57-الغامدي، مسفر بن سالم عريج

الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، ط1، دار المطبوعات الحديثه،

الطائف، 1986.

58-غوانمه، يوسف درويش

تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، (ب ط)، دار الحياة، عمان، 1982م.

التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، ط2، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، 1982م.

59-قاسم، عبده قاسم

الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري،(ب ط)، عين للدراسات والبحوث، (ب ت).

عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي، ط1، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، 1998م.

دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك،(ب ط)، دار المعارف، القاهرة، 1979م.

60-قساطلي، نعمان

الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، ط2، دار الرائد العربي، بيروت، 1982م.

61-كحيلة، عبادة بن عبدالرحمن رضا

العقد الثمين في تاريخ المسلمين، ط1،دار الكتاب الحديث، الكويت ، 1996م

62-ماجد، عبد المنعم

الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية التاريخ السياسي، ط2، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997م.

63-متولي، أحمد فؤاد متولي

الفتح العثماني للشام ومصر، ط1، الزهراء للاعلام، القاهرة، 1995م.

64-مجمع اللغة العربية (مجموعة مؤلفين).

المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، 2004م.

65-مصطفى، نادية محمود

العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوروبية الثانية، ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1996م.

66-المطوي، محمد العروسي

الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ط2، دار الغرب الإسلامي، 1982م.

67-المغلوث، سامي بن عبدالله بن أحمد

أطلس الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ط1، العبيكان للأبحاث، 2009م.

تاريخ جبل نابلس والبلقاء، مطبعة ابن زيدون، دمشق، 1938م.

68-مهدي، شفيق

مماليك مصر والشام نقودهم- نقوشهم – مسكوكاتهم – ألقابهم- سلاطينهم 648-922هـ/ 1250-1517م، ط1، الدار العربية للموسوعات، (ب م)،2007م.

69-مهران، محمد بيومي

بلاد الشام، (ب ط)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1990م.

70-النمر، إحسان.

تاريخ جبل نابلس والبلقاء، مطبعة ابن زيدون، دمشق، 1938م.

رابعاً:المراجع الأجنبية المترجمة:

1-آشتور، آ

التاريخ الأقتصادى والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة، عبدالهادي

عبلة، وأحمد غسان سبانو، دار قتيبة للطباعة والنشر، دمشق، 1985م.

2-بروكلمان، كارل

تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة، نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي، ط5، دار العلم للملايين، بيروت، 1968م.

3-بولياك، أ. ن

الأقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان،ط1، دار المكشوف، بيروت، 1948م.

4-حتي، فليب

تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، دار الثقافة بيروت، الجزء الأول، ترجمة جورج حداد، وعبدالكريم رافق، وأشرف عاى مراجعته جبرائيل جبور، الجزء الثاني، ترجمة كمال اليازجي، أشرف على مراجعته جبرائيل جبور، نيويورك،1951م.

5-ديماند، م . س.

الفنون الإسلامية، ترجمة أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم أحمد فكري، دار المعارف، مصر،الطبعة 1982م.

6-علوي، ناصر خسرو قبادياني المتوفى(481هـ/1088م).

سفر نامه، ط2، ترجمة، يحي الخشاب، تصدير،عبدالوهاب عزام، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1993م.

7-لابدوس، إيرا

مدن إسلامية في عهد المماليك، نقله إلى العربية، علي ماضي، (ب ط)، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1987م.

8-ماير، ل. أ.

الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي، مراجعة وتقديم، عبدالرحمن فهمي

محمد،(ب ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1972م.

9-موير، السير وليم

تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995م.

10-ابن يونه، بنيامين بن يونه التطيلي النباري الأندلسي المتوفى (569هـ/1173م).

رحلة بنيامين، ترجمها عن النص العبري وعلق على حواشيها وكتب ملاحقها،عزرا حداد، دراسة وتقديم، عبدالرحمن الشيخ، ط1، المجمع الثقافي، أبوظبي، 2002م.

خامساً-الرسائل الجامعية

أولاً. الماجستير

1-باحويرث، سماح بنت سعيد عبد القادر

الأثر السياسي والدور الإصلاحي للعلماء في عصر سلاطين المماليك (648-923/ 1250-1517م)، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، السعودية، 2010م.

2-البدارين، هند محمد عبدالله

الحسبة في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي (570-923هـ/1174-1517م)، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، الأردن، 2008م.

3-تركستاني، إيمان بنت عبدالحليم عبدالقادر

نيابة حماة في عصر سلاطين المماليك (698-922هـ/ 1299-1516م)، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، السعودية، 2004.

4-الجزار، هاني فخري عطية

النظام العسكري في دولة المماليك (648-923هـ/ 1250-1517م)، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة، 2007م.

5-الحارثي، سعد بن عوض.

تحقيق مخطوط" الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، 1432هـ.

6-حجازي، فايزه عبدالرحمن

أهل الذمة في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، رسالة ماجستير،جامعة اليرموك، الأردن، 1992م.

7. حشيش، رياض صالح علي

الحركة الصوفية في بلاد الشام خلال الحروب الصليبية(492- 690هـ/1098- 1291م)، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، عزة، 2005م.

8-الحمود، رنا سعد عوض

حرف وصناعات بلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن، 1996م.

9-خصاونه، حسين أحمد سعيد

طبقات المجتمع في بلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن، 1992م.

10-الزربا، فريال بدوي يوسف

الحياة الاجتماعية في دمشق في العهد المملوكي، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، 1980م.

11-الزعبي، فايزة محمود أحمد

مراسيم الزواج في مصر وبلاد الشام (من العصر الفاطمي حتى نهاية عصر دولة المماليك)،رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، 2003م.

12-سبانو، أحمد غسان

.مملكة حماة الأيوبية، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، 1984م.

13-الشريدة، آمنة شفيق كليب

الجيش في بلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن، 1993م.

14-الصاعدي، هيفه صالح صلاح

الأوبئة والأمراض في العصرين الأيوبي والمملوكي في مصر والشام، رسالة ماجستير، جامعة طيبة، السعودية، 2012م.

15-صعيدي، ندى زاهد

العلماء في بلاد الشام في القرن العاشر الهجري على ضوء كتاب الغزي" الكواكب السائرة"رسالة ماجستير، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1974م.

16-الصوفي، منصور إحميد سالم

الأوضاع الدينية للمسلمين في بلاد الشام في العهد المملوكي (648- 922هـ/1250-1517م)، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة، 2010م.

17-الطراونة، طه ثلجي

مملكة صفد في عهد المماليك، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية،1981م.

18-الطراونه، مبارك محمد

نيابة حمص في العهد المملوكي، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، الأردن، 1996م.

19-العملة، عبدالجبار أحمد محمد

نيابة دمشق الشام في عهد الأمير تنكز الحسامي الناصري(712-740هـ/1312-1340)، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2000م.

20-**أبو الفرج**، هيام صالح يحي

مجتمع دمشق ودوره السياسي في عصر الدولة المملوكية الثانية (784- 923هـ/1382-1517م)، رسالة ماجستير ، جامعة أم القرى، السعودية، 2000م.

21-القثامي، متعب حسين

مملكة حماة في العصر الأيوبي (574-698هـ/1178-1299م)، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، السعودية، 1993م.

22-لبنية، بوران طاهر فريد

المجتمع الدمشقي من خلال كتابات ابن طولون (ت 953هـ/ 1946م)، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن، 1997م.

23-المدني، زياد عبدالعزيز

مدينة حلب في العصر المملوكي الثاني من خلال كتاب" الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب" علاء الدين أبو الحسن أبن خطيب الناصرية الحلبي المتوفى 843هـ/1439م، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، 1983م.

24-مقابله، إيمان أحمد حسين

القرية في بلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن، 1998م.

25-مقابلة، معن علي أحمد

المؤسسات الاجتماعية والثقافية في بلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الاردن، 1992م.

26-مكاحلة، نهى محمد حسين

الزراعة في بلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك،

الأردن، 1992م.

27-الناطور، حسام محمد اسماعيل

<u>السلطنة ونيابة السلطنة في دولة المماليك الثانية</u>، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، 1991م.

28-أبو هويشل، محمد عطية

<u>الأحوال الصحية والطبية في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي (648-923هـ/ 1250-1517م)</u>، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة، 2012م.

ثانياً: <u>رسائل الدكتوراه</u>

1-خليل، سعيد صالح موسى

<u>التجارة الداخلية في دولة المماليك الثانية (784-922هـ/ 1382-1517م)</u>، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، 1992م

2.دخان، مروان أحمد

<u>نيابة حلب في العصر المملوكي الثاني الجانب السياسي(784-922هـ/1382-1516م)</u>
رسالة دكتوراه، جامعة دمشق، 2009م.

3-الذيابات، آمنة محمود عودة

<u>القبائل العربية في بلاد الشام في السياسة المملوكية (658-784هـ)</u>،رسالة دكتوراه، جامعة مؤته، الاردن، 2006م.

4-زعرور، إبراهيم

<u>الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي</u>، رسالة دكتوراه، جامعة دمشق، 1990م.

5-سبانو، أحمد غسان

.نظام الحكم والإدارة في بلاد الشام في العصر المملوكي (648-923هـ/1250-1517م)، رسالة دكتوراه، جامعة دمشق، 2010م.

6-شطناوي، منتصر محمود صيتان

التربية والتعليم في بلاد الشام في دولة المماليك البحرية (658-784هـ/1260-1382م)، رسالة دكتوراه، جامعة مؤته، الأردن، 2008م.

7-الشناق، محمد صبحي نهار

أعراب بلاد الشام في عهد المماليك (648-923هـ/1250-1517م)، رسالة دكتوراه، جامعة القديس يوسف، بيروت، 2000م.

8-علي، محمد كمال الدين عزالدين

"الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجراكسة" دراسة عن التاريخ والمؤرخون (784-922هـ/1382-1517م)، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس، مصر، 1989م.

9-لبنية، بوران طاهر فريد

الخانقاوات والزوايا الدمشقية زمن سلاطين المماليك (658-922هـ/1259-1516م)، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، 2004.

10-الناطور، حسام محمد اسماعيل

دولة المماليك في عهدالسلطان برقوق، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية،1998م.

سادساً-الأبحاث والمقالات الدورية .

1-أمين، عبدالسلام جمعة محمد

قادة المماليك الثلاث (الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والأشرف خليل 658-693هـ/1260-1293م)، وتجديد دعوة الجهاد ضد الصلبيين وطردهم من أرض

المسلمين، مجلة جامعة تكريت للعلوم، المجلد 20، العدد3، 2013م.

2-**بخيت،** فائز علي

<u>المماليك الجراكسة في مواجهة الحصار الإقتصادى الصليبى على مصر</u>، مجلة كلية العلوم الإسلامية، جامعة الموصل، المجلد 7، العدد 13، 2013م.

3-**حمارنة،** صالح

<u>زراعة قصب السكر وصناعته عند العرب المسلمين</u>، حولية دائرة الآثار العامة، العدد 22، عمان، 1977/1978م، ص12-ص19.

4-**بني حمد،** فيصل عبدالله

<u>أثر الكوارث الطبيعية على الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر المملوكي (648-922هـ/1250-1516م)</u> حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الرسالة(272) الحولية الثامنة والعشرون، 1429هـ/2008م.

5-**الخالدي،** خالد يونس

<u>الزلازل في بلاد الشام (من القرن الأول إلى القرن الثالث عشر الهجرى/ القرن السابع إلى القرن التاسع عشر الميلادى)</u> مجلة الجامعة الإسلامية، غزة، المجلد 13، العدد الأول، 2005م.

6-**الزهاوي،** عباس عبد الستار عبدالقادر

<u>التحالف الصليبي المغولي ضد العالم الإسلامي (651-722هـ/1253-1322م)</u>، مجلة التراث العلمي العربي، العدد الأول، 2014م.

7-**زيات،** حبيب

<u>الديرات النصرانية</u>، مجلة المشرق،ص291-418، السنة السادسة والثلاثون، 1938م.

8-**سعيد،** عبير عنايت

خانقاهات مصر حتى نهاية عصر المماليك البحرية (648-784هـ/1250-1382م)، مجلة الأستاذ، العدد 203، 2012م.

9-**سوفاجيه، جان**

دمشق الشام لمحة تاريخية منذ العصور القديمة حتى الوقت الحاضر، مجلة المشرق،(ب ع) المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1939م.

10-**شاكر، مصطفى**

دخول الترك الغز إلى بلاد الشام، المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، ط1، الجامعة الاردنية، الدار المتحدة للنشر والتوزيع، بيروت، 1974م، ص303-398.

11-**شعيب**، علي

قراءة في نهاية الدولة المملوكية من خلال كتاب" بدائع الزهور في وقائع الدهور" لابن إياس، المؤتمر الدولي السادس لتاريخ بلاد الشام، جامعة دمشق، الجامعة الأردنية، 2001م.

12-**صبري**، ميادة عبدالملك محمد

تخطيط عمارة المدينة الإسلامية مدينة دمشق القديمة" نموذج حضري لقمة التعايش والتعامل في المنظور الإسلامي" مجلة كلية التربية، واسط، العراق، العدد11.

13-**الضلاعين**، مروان عاطف

السلع التجارية في الأسواق المصرية في دولة المماليك البحرية(648-784هـ/1250-1382م)، المجلة الاردنية للتاريخ والآثار، المجلد 6، العدد2، 2012م.

14-**ضومط**، انطوان

دمشق- الشام على عهد الدولة المملوكية الثانية 784-922هـ/1382-1516م، المؤتمر الدولي السادس لتاريخ بلاد الشام، جامعة دمشق، الجامعة الأردنية، 2001م.

15-الطراونه، مبارك محمد

<u>الأوبئة (الطواعين) وآثارها الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة (784-922هـ/1382-1516م)</u>، المجلة الأردنية للتاريخ، المجلد 4، العدد3، 2010م.

16-عثمان، عبدالجواد سالم

<u>المؤسسات الدينية وأثرها في تطور الدراسات القرآنية في القرن(8) هـ في بلادالشام،</u> مجلة كلية العلوم الإسلامية، جامعة الموصل، المجلد السابع، العدد الثالث عشر،2013م.

17-علاوي، عمار مرضي

<u>حمص في العصر المملوكي دراسة في الأوضاع السياسية والاقتصادية</u>، مجلة كلية الآداب، الجامعة العراقية، العدد 99، (ب ت).

18-عمرو، نعمان

<u>مدينة الخليل في العهد المملوكي (648-922هـ/ 1250-1517م)</u>، ورقة عمل مقدمة إلى مؤتمر العمران في مدينة الخليل والتراث الحضاري، معهد العالم العربي، باريس، 2011م.

19-أبو غدة، حسن عبد الغني

<u>دور الوقف في تعزيز التقدم المعرفي، المؤتمر الثالث للأوقاف</u>، الجامعة الإسلامية، السعودية، 1430هـ/2009م.

20-قداوي، علاء محمود

<u>العلاقات التيمورية المملوكية بعد تيمور لنك (807-856هـ/1405-1452م)</u>، آداب الرافدين، العدد 50، 2008م.

21-المزوري، زاهدة محمد طه

العلاقات المملوكية المغولية في عهد سلطنة الناصر محمد المملوكي في ضوء
رواية بيبرس الدودار ضمن كتابه مختار الأخبار، آداب الرافدين، العدد 58، 2010م.

22-محمد، جاسم محمد جاسم
الأهمية السياسية والعسكرية لقيام دولة المماليك البحرية في مصر وبلاد الشام
(648-784هـ/1250-1382م)،مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، المجلد6،
العدد 1، السنة السادسة.

23-بن معمر، أحمد
المغاربة ومنصب قاضي القضاة المالكي في دمشق المملوكية، مجلة التراث، إتحاد
الكتاب العرب، 2008م.

24-النهار، عمار محمد
الأوقاف الإسلامية وأثرها على النهضة العلمية في عصر المماليك، جامعة دمشق

25-وهبي، صالح محمود
التطور الزراعي الصناعي في غوطة دمشق وأثره في الحياة الاقتصادية بين القرنين
العاشر والثامن عشر، مجلة دراسات تاريخية،جامعة دمشق، العددان
117-118، 2012م.

سابعاً:المراجع الأجنبية

1-Ashtore, Eliyahu:
A social and Economic History of the Near East in the Middle Ages.
London, 1976

2-Granavist, Hilma:
Marriage conditions in Palestinian village. Helsing foes: 1931.

3-Lepidus, Ira M:

Muslim Cities in the Later Middle Ages. Cambridge, 1967, 1984.

4-Mann, Jacob:

The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid caliphs,

(Oxford:1920

5-Muir, William:

The Mameluk or Slave Dynasty of Egypt, 1260-1517. London, Smith, Elder,& co,15 Waterloo place, 1896.

6- Pocock , Richard. LLD. F.R.S:

Description of the East and Some other Countries. London

7- ziadeh, Nicola:

Urban life in Syria under the early Mamluks. Beirut, 1953.

الملاحق

- خريطة لبلاد الشركس الإديغي.
- خريطة للتقسيمات الإدارية لبلاد الشام في العهد المملوكي.
- خريطة لمنازل الحج الشامي.
- قائمة بأسماء سلاطين المماليك الجراكسة" البرجية"

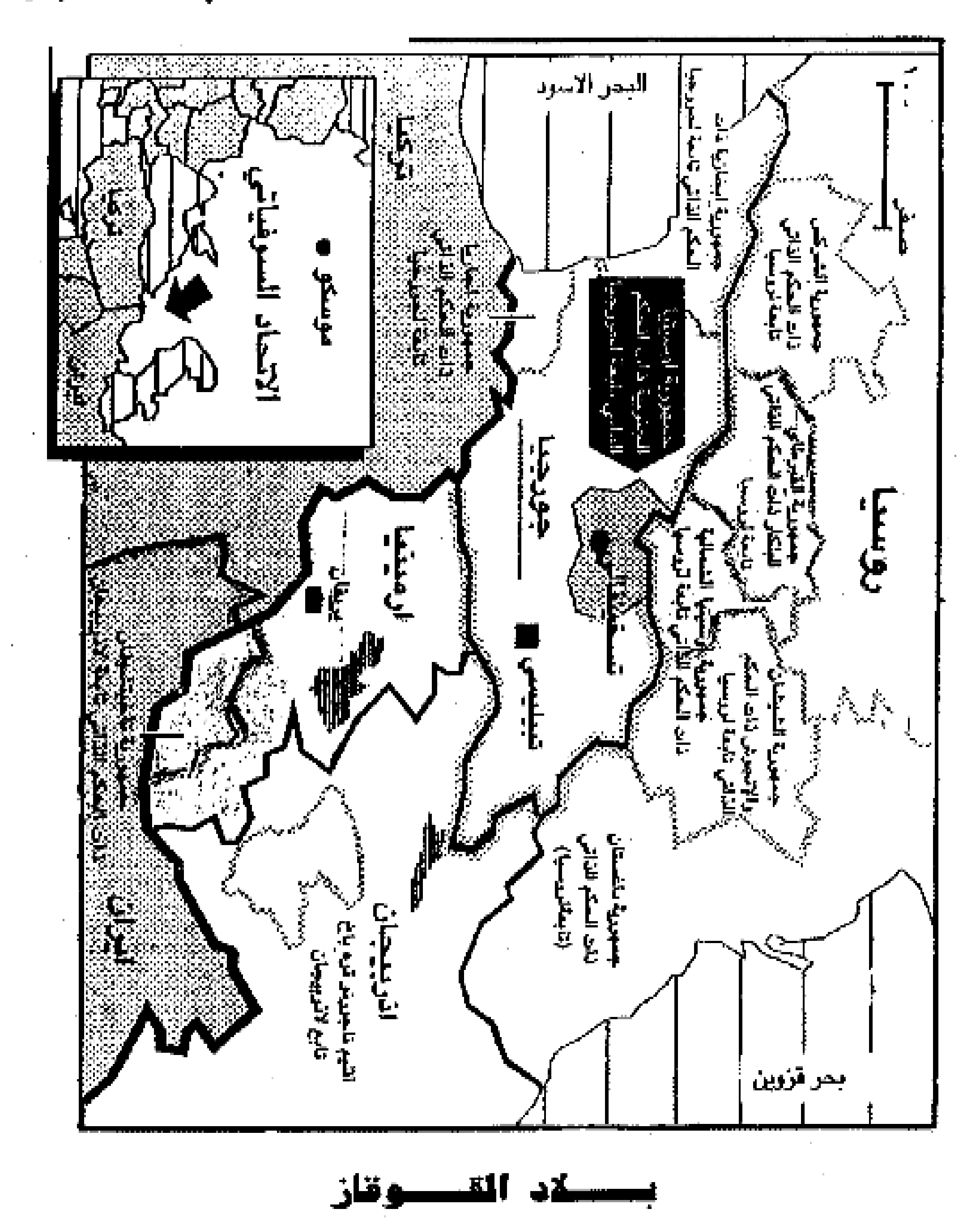

بـــلاد القـــوقاز

من كتاب " بلاد الشركس الإديغي" محمد بن ناصر العبودي، ص5

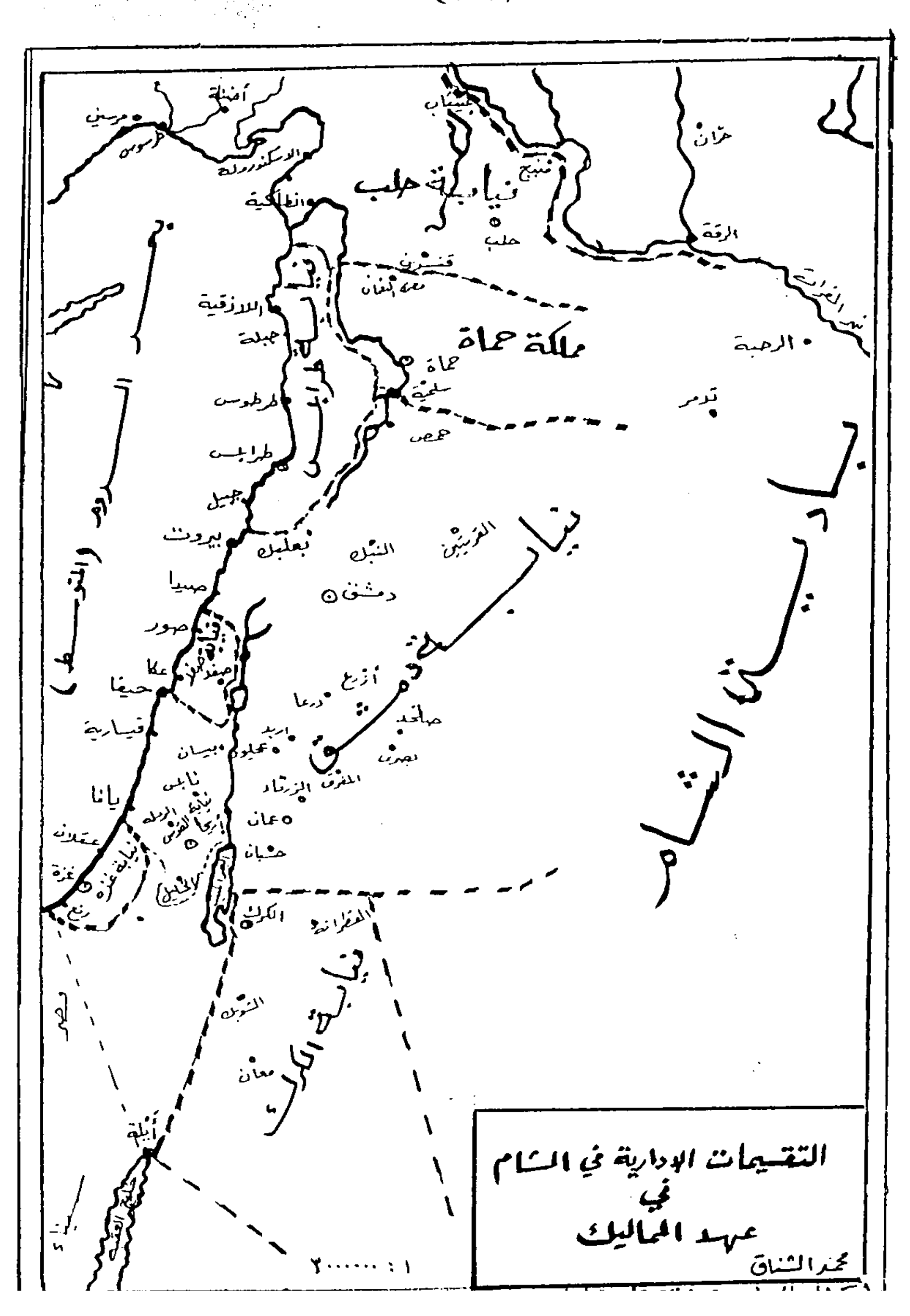

- من كتاب" المواكب الإسلامية" لإبن كنان الصالحي، ج2، ص480.

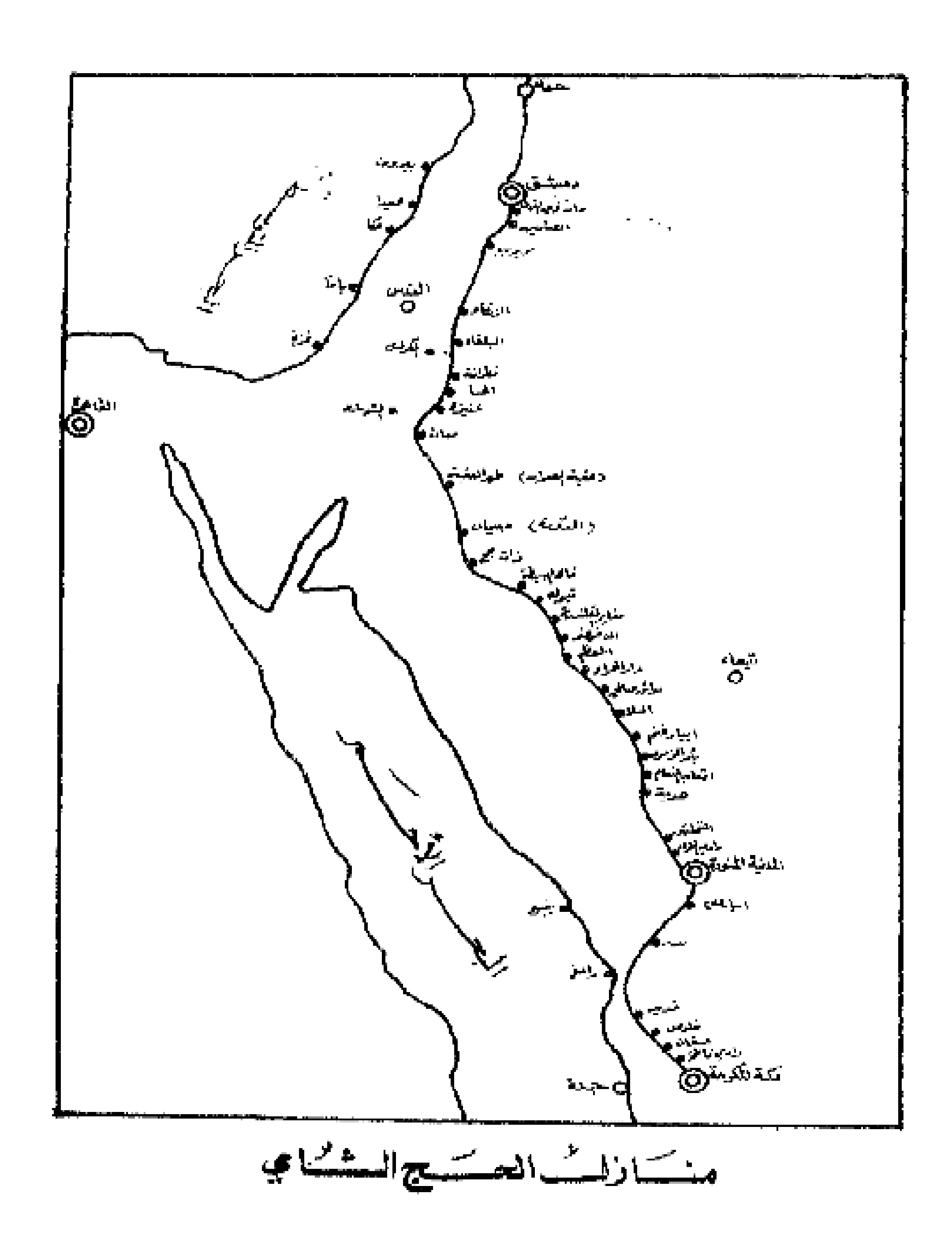

منازل الحج الشامي

- من رسالة " أعراب بلاد الشام في عهد المماليك" لمحمد صبحي الشناق، ص324.

- **سلاطين المماليك الجراكسة**

	السلطان	مدة الحكم	السنة الهجرية	كيفية انتهاء الحكم
.1	الظاهر برقوق	9سنوات	801-792	توفي
.2	الناصر فرج	7سنوات	808-801	خلع
.3	المنصور عبدالعزيز	3اشهر	808-808	خلع
.4	الناصر فرج	7سنوات	815-808	قتل
.5	المؤيد	9سنوات	815-815	توفي
.6	المظفر احمد	عدة اشهر	824-815	خلع
.7	الظاهر ططر	عدة اشهر	824-824	توفي
.8	الصالح محمد	عدة اشهر	825-824	خلع
.9	الاشرف برسباي	16 سنة	841-825	توفي
.10	العزيز يوسف	عدة اشهر	842-841	خلع
.11	الظاهر جقمق	15 سنة	857-842	توفي
.12	المنصور عثمان	شهر	857-857	خلع
.13	الاشرف إينال	7سنوات	865-857	توفي
.14	المؤيد احمد	اقل من سنة	865-865	خلع
.15	الظاهر خشقدم	7سنوات	872-865	توفي
.16	الظاهر بلباي	شهرين	872-872	خلع
.17	الظاهر تمربغا	شهرين	872-872	خلع
.18	خير بك	ليلة واحدة	872-872	خلع
.19	الاشرف قايتباي	29سنة	901-872	توفي
.20	الناصر محمد	سنة واحدة	902-901	خلع
.21	قانصوه	سنة واحدة	903-902	قتل
.22	الناصر محمد	سنة واحدة	904-903	قتل
.23	الظاهر قانصوه	سنة واحدة	905-904	خلع
.24	جانبلاط	سنة واحدة	906-905	قتل
.25	العادل طومان باي	عدة اشهر	906-906	قتل
.26	قانصوه الغوري	17 سنة	922-906	قتل
.27	طومان باي	اقل من سنة	923-922	قتل

- إعداد: عبدالله موسى النوافعه